رسالة المسترشدين
للحارث المحاسبي
أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري
ولد بالبصرة في حدود سنة ١٦٥ وتوفي ببغداد سنة ٢٤٣
رحمه الله تعالى
حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه
عبد الفتاح أبو غدة
ولد بحلب سنة ١٣٣٦ وتوفي بالرياض سنة ١٤١٧
ودفن بالبقيع الشريف رحمه الله تعالى
اعتنى بإخراجه وطباعته
سلمان بن عبد الفتاح أبو غدة
دار البشائر الإسلامية
مكتب المطبوعات الإسلامية

قال سيدنا عمر رضي الله عنه واعظاً:
كلَّ يومٍ يقالُ: مات فلانٌ وفلان،
ولا بُدَّ من يومٍ يقال فيه: مات عُمَر.

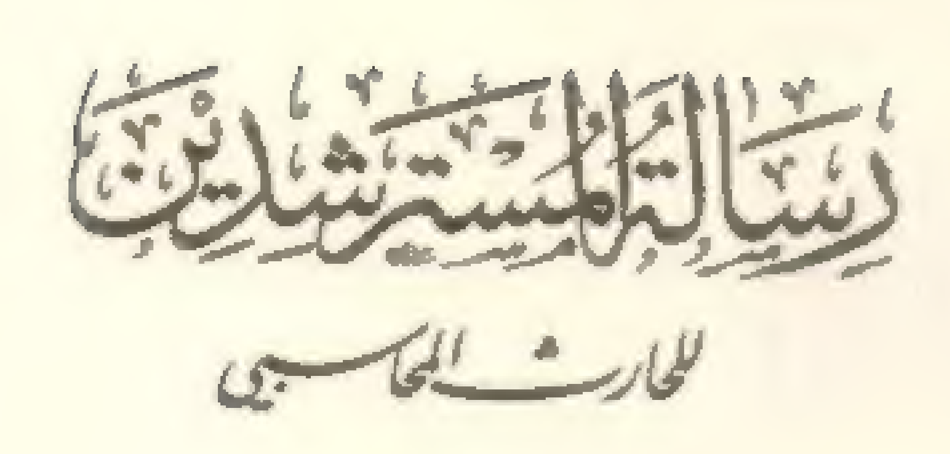

نموتُ ونَحيا كلَّ يومٍ وليلةٍ ... ولا بُدَّ مِن يومٍ نموتُ ولا نَحيا

* * *

وإنّا لَفي الدنيا كرَكْبِ سَفِينةٍ ... نُظَنُّ وُقوفاً والزمانُ بنا يَجري!

* * *

نروحُ ونغدُو كلَّ يومٍ وليلةٍ ... وعمّا قليلٍ لا نروحُ ولا نغدُو

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى في حلب ١٣٨٤ = ١٩٦٤

الطبعة الثانية في بيروت ١٣٩١ = ١٩٧١

الطبعة الثالثة في بيروت ١٣٩٤ = ١٩٧٤

الطبعة الرابعة حتى الطبعة السابعة في القاهرة

الطبعة الثامنة مزيدة من التحقيق والتعليق والمقابلة بالنسخ الخطية في بيروت ١٤١٦ = ١٩٩٥

الطبعة التاسعة في بيروت ١٤١٩ = ١٩٩٩

الطبعة العاشرة في القاهرة ١٤٢١ = ٢٠٠١

الطبعة الحادية عشرة في بيروت ١٤٢٦ = ٢٠٠٥

الطبعة الثانية عشرة في بيروت ١٤٣١ = ٢٠١٠

الطبعة الثالثة عشرة في بيروت ١٤٣٥ = ٢٠١٤

الطبعة الرابعة عشرة في بيروت ١٤٣٩ = ٢٠١٨

الطبعة الخامسة عشرة في بيروت ١٤٤٢ = ٢٠٢١

دار

البشائر الإسلامية

شركة دار البشائر الإسلامية

للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى

سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٥٩٥٥

هاتف: ٠٠٩٦١١/٧٠٢٨٥٧ فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣

email: info@dar-albashaer.com

website: www. dar-albashaer.com

ISBN 978-614-437-158-9

رِسَالَةُ المُسْتَرْشِدِين

للحارث المحاسبي

أَبِي عَبْدِ اللهِ الحَارِثِ بْنِ أَسَدٍ المُحَاسِبِيِّ البَصْرِيِّ

وُلِدَ بالبَصْرَةِ في حُدُودِ سَنَة ١٦٥ وتوفي ببغداد سنة ٢٤٣

رحمه الله تعالى

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه

عبد الفتاح أبو غدة

ولد بحلب سَنَة ١٣٣٦ وتُوفي بالرِّياض سَنَة ١٤١٧

وَدُفِنَ بالبقيع الشريف رحمه الله تعالى

اعتنى بإخراجه وطباعته

سلمان بن عبد الفتاح أبو غدة

مكتب المطبوعات الإسلامية

دار البشائر الإسلامية

ظهر الغلاف: موعظة رقيقة بخطِّ محقِّق الكتاب الشيخ عبد الفتّاح أبو غدّة، ممهورة بتوقيعه الرشيق رحمه الله وطيّب ثراه

تقدمة الطبعة الحادية عشرة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القدوس الوهّاب، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمد المبعوث بالحكمةِ والكتاب، الهادي للحقِّ والصواب، لمن كان من أولي النُّهى والألباب، أما بعد:

فإن هذا الكتاب مِنْ أحبِّ كتب الوالد رحمه الله إليه، وأغلاها لديه، وقد وضع فيه خلاصةَ عِلمه وحِلْمه، وزبدةَ تجربته ومعرفته في هذا الفنِّ والعلم، علم الأخلاق والسلوك والتربية والتصوف النقي.

ولو قلتُ: إنّ هذا الكتاب المبارك روح الوالد أو روحانيّته، لكنتُ صادقاً، فكم وكم كتب هذه التعليقات ببكائه وآهاته! ورواها وسقاها بدموعه وزَفَرَاته!

فقد كان رحمه الله يرنو من هذا الكتاب أن يكون مَعْلَماً ومناراً وسراجاً لمن أحبَّ الاستقامة من شُبّان وفتيات هذا العصر خاصة، وعموم المُسْتَهْدِين عامّة، وكان يرجو أن يكون حقيقةً دليلاً وهادياً للمُسْتَرْشدين! فاللَّهُمَّ تقبّل منه واغفر له وارحمه ونوِّر قبره ووسِّع له فيه، وعوِّض المسلمين عنه خيراً.

وكم وكم كان الوالد رحمه الله يستعبرُ عندما يستحضر دعاء المستفيدين من الكتاب! فيا أحبابه وطُلّابه أكثروا من الدعاء له والترحُّم عليه، وعلى العبد الفقير والخادم الصغير، فالله يجزي المتصدِّقين.

وصلَّ الله وسلَّم وبارك على سيِّد الأولين والآخرين، وإمام الغُرِّ المُحَجَّلين، وقرَّة عيون السائرين الصادقين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعنّا معهم بعفوك وجودك وكرمك ومَنِّك وإحسانك يا أرحم الراحمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

وكتبه

الفقير إليه تعالى

سلمان بن عبد الفتاح أبو غدة

جدة

١٠ رمضان ١٤٢٤

تقدمة الطبعة الثامنة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله واهِبِ النِّعم ومُسْبِغِها، وهادي الأُمَم ومُسْعِدِها، الذي تفضل على عباده المؤمنين بالهداية والرشاد، وأكرمهم برسالةِ نبيِّه سيدنا محمد خيرِ العِبَاد والعُبّاد، صلّى الله وسلّم عليه وعلى من أطاعَهُ واتَّبعه، من أصحابه الذين عزَّرُوه ونصروه واتَّبعُوا النورَ الذي أُنزِلَ مَعَه، وعلى التابعين لهم بإيمان وإحسان، وعلى من سار على نهجهم فكان لهم من الله تكريمٌ ورِضوان.

أما بعد فهذه كلماتٌ أقدِّمُ بها للطبعة الثامنة، من «رسالة المسترشدين»، تأليفِ الإمام العابد الزاهد الصالح الناصح الأمين أبي عبد الله الحارثِ بن أَسَد المُحاسِبِي، رحمه الله تعالى وجزاه عن الدين والمسلمين خيرَ الجزاء.

وقد لَقِيَتْ هذه الرسالة في طبعاتها السابقة، من القبول والاستحسان والانتشار الشيء الكثير، والحمدُ لله. وتُرجِمَتْ إلى اللغة التركية عن الطبعة الأولى، ترجمها الأخ الفاضل الأستاذ علي أَرْسَلان، وطُبعت بإصطنبول سنة ١٩٦٣. واتُّخِذَتْ في عَدَد من المعاهد العلمية في بعض البلدان العربية وغيرِ العربية كتابَ أخلاقٍ دراسي للشباب والبنات، فانتَفَع بها جَمٌّ غفير، والفضلُ لله سبحانه.

وكنتُ في الطبعات السابقة سوى الأولى، ألحقتُ بآخرها نحوَ عَشْر صَفَحات بعنوان (من أدب الإسلام)، ذكرتُ فيها جملةً من الآداب الإسلامية الهامَّةِ المتكررة، في حياتنا اليومية وغيرِ اليومية، ولمَّا اتسعَتْ وزادت صفحاتُ «رسالة المسترشدين» في هذه الطبعة، أفردتُ تلك الآدابَ عنها في رسالة مستقلة، وزدتُ فيها حتى بلغت نحو خمسين صفحة، وطُبِعَتْ في بيروت سنة ١٤١٢ بعنوان «من أدب الإسلام».

وكنتُ على عَزْمٍ أن أُضِيفَ إلى «رسالة المسترشدين»: القَصيدةَ الحِكَمِيَّةَ العصماء، المعروفةَ باسم «قصيدة عُنوان الحِكَم»، للشاعر الأديب الحكيم أبي الفتح البُسْتي رحمه الله تعالى، وهي في ٦٣ بيتاً، ومَطلَعُها:

زيادةُ المرءِ في دنياه نُقصانُ ... ورِبْحُهُ غيرَ مَحْضِ الخيرِ خُسرانُ

وقد كنتُ طبعتها مع ترجمةِ الشاعر المستفيضة في رسالة مستقلة سنة ١٤٠٤ في بيروت.

ولكنَّ كِبَرَ هذه الطبعة الثامنة منعني من أن أفعل ذلك، لئلا أُثقِلَ فيها، فجمعتُ «قصيدة عنوان الحِكَم» مع رسالة «من أدب الإسلام» في جزء واحد، وطبعةٍ مستقلة، طُبِعَت عامَ ١٤١٢.

ولمَّا نَشرتُ هذه الرسالة في طبعاتها السابقة: الأولى حتى السابعة، اعتمدتُ على نسختين خطيتين، وَصَفتُهما في التقدمة في تلك الطبعات. ثم يسَّر الله تعالى لي في هذه الطبعة الوقوفَ على ثلاث نُسَخ أخرى مخطوطة، استفدتُ منها تصويبَ ما كان خطأً، وتتميمَ ما كان ناقصاً، وتوضيحَ ما كان غامضاً مشتبِهاً، فخرجَتْ هذه الطبعة أسَدَّ وأقوَمَ صحةً وضبطاً، وأوفى وأتمَّ عبارةً ونصاً، وأكملَ وأقربَ إلى ما صدرَتْ به عن المؤلف إن شاء الله تعالى.

وكنت علَّقتُ عليها في تلك الطبعات ما زادها وضوحاً وفَهْماً وتلقِّياً، وما جَعَلها مشوِّقةً لقارئها والمسترشِد بها، ثم منحني الله تعالى بعضَ الفراغ، فزدتُ في تلك التعليقات تعليقاتٍ كثيرة، موجزةً حيناً وضافيةً حيناً آخر، ابتغاءَ مزيدِ النفع بها لُمطالِعِها والمستهدِي بها، فاتسعَتْ وزادَتْ زيادةً كبيرةً حسنة، أرجو من الله تعالى أن يتقبلها مني عملاً زاكياً، وينفع بها كلَّ من قرأها كما نفع بأصلها، ويكرمَني بصالح دعواتِ المستفيدين منها، إنه سميع مجيب.

وَصْفُ النُّسَخ المخطوطة الثلاث:

كنت اعتمدت في أصل نشر هذه الرسالة على نسختين خطيتين كما سبقت الإشارةُ إلى ذلك، ويسَّر الله لي في هذه الطبعة الوقوفَ على ثلاث نسخ أخرى مخطوطةٍ استعنتُ بها، وهي نسخة من الجزائر، ونسختان من مكتبات

تركيا، وهذه جُمَلٌ يسيرة في وصفِ كل واحدةٍ من المخطوطات الثلاث:

١ ـ **المخطوطة الجزائرية**: وقفتُ عليها في سنة ١٤٠٤، فقد دُعيتُ إلى الجزائر في هذه السنة، للمشاركة في (الملتقى السادس عشر للفكر الإسلامي) فقدَّم لي بعضُ الإخوة المحبين، الذين علموا مني أني نشرتُ «رسالة المسترشدين» للإمام المحاسبي رحمه الله تعالى، نسخةً مطبوعة نشرتها دارُ البعث في قُسَنْطِينَة ـ الجزائر سنة ١٤٠١.

وهذه الطبعة بعنوان «رسالة المسترشِد»[1]، وبتحقيق وتعليق الأستاذ الفاضل الدكتور شرَفي أحمد الرفاعي، جزاه الله خيراً، فسُرِرتُ بها كثيراً، وعلمتُ من مقدمته لها أنه لم يطلع على الطبعة التي خدمتها، ونُشِرَتْ في حلب ثم في بيروت غيرَ مرة، لحواجز المنع القائمة في الجزائر في وجه دخول الكتاب الإسلامي!.

ثم لما عدتُ إلى الرياض طلبتُ من أحد الإخوة الأفاضل إرسال صورة من الأصل الذي طُبِعَتْ عنه الرسالةُ هناك، فتفضل بذلك مشكوراً، فوجدتُ الأصلَ المخطوط المعتمدَ عليه في الطبع: عَليلاً سَليلاً، مقطعَ الأوصال، متهرىءَ الحواشي، لأنه كان ـ كما قيل لي ـ مدفوناً في الأرض مع كتب أخرى، أيامَ احتلال الفرنسيين للجزائر خوفاً عليها من أيدي المحتلين، فناله البلل والرطوبة، وأصبح شاحبَ الوجه، غائب الخط إلاَّ قليلاً.

ورأيتُ هذه النسخة كأن قارئاً قرأها حين كُتِبَتْ، فرأى ـ بحسب نظره ـ في بعض عباراتها غموضاً وصعوبة حيناً، ووَجازةً وضغطاً حيناً آخر، فغيَّر فيها وبدَّل، وزاد وأدخل، ظناً منه أن ذلك يُمكِّنُ قارئها من فهمها بسهولة ويُسر، ففَقَدتْ النُسخةُ الثقةَ التامة بها!.

---

(١) وهذا العنوان أحَدُ عناوين ثلاثة، ذُكِرَتْ في بعض الكتب المترجِمة للمحاسبي وبعض النسخ المخطوطة، وعُنونت مرةً ثانية فيها باسم «رسالة الإرشاد» وعنونت في أكثر الكتب والنسخ المخطوطة: «رسالة المسترشدين»، وهو العنوان الذي أثبتُّهُ عليها.

وهي مكتوبة بخط مغربي، في ٢٤ صَفْحَة، دون تاريخ لنَسْخِها، ودون اسم لكاتبها، ولم أعلم اسم مالكها ومصدرها، ولا شك أن الأستاذ الدكتور شرَفي عانَى في قراءتها وتصحيحها وتيسير نشرها صُعوباتٍ كثيرة، وصَبَر صبراً طويلاً، وبذل في إتمام بعض عباراتها الناقصة بالعبارات التي زادها بين قوسين جهداً كبيراً، ليُسهِّل فهمَها على القارىء المسترشِد، فأحسَنَ الله إليه كِفاءَ صبرِهِ.

٢ ـ النسخة التركية الأولى:

هذه النسخة ضمن مجموع برقم ٣٣١٩، من مكتبة شهيد علي، وهي في ٢١ صفحة من القطع الصغير، وكلُّ صفحة فيها ١٩ سطراً، وخطُّها فصيح صحيح، وهي أصحُّ النسخ الثلاث التي أتحدث عنها الآن، وأقدِّرُ أنها من خطوط القرن العاشر والله تعالى أعلم.

وجاء في آخرها بخط ناسخها العبارةُ التالية: (تمّ كتابُ رسالة المسترشِدين بحمد الله وعونه، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم. وذلك على يد العبد الفقير محمد بن سَلْمان الحلبي، تاريخ نهار الثلاثاء تاسعَ عشرَ شعبان المكرَّم، وثامنَ عشر أيار من سنة إحدى وثلاثين).

ولم يُزَد على هذا شيء، ولا أثَرَ للمحوِ أو الكشطِ على الصفحة، فالظاهر أن الكاتب أرَّخ تاريخاً تاماً في بعض الرسائل التي قبلها، واكتفَى هنا بهذا القدر، لأن الورقة التي تلي آخرَ صفحاتها، كُتِبَ عليها بأعلاها: (النصيحةُ لِلطالبين والفرقُ بين أهْلِ التَّحْقيقِ والمدَّعِين للمحاسبي رحمه الله تعالى). فهذه الرسالةُ: (رسالةُ المسترشدين) في ضمن المجموعِ الذي سبق ذكرُ رقمه.

٣ ـ النسخة التركية الثانية:

هذه النسخة مجهولة المستَقَر والمستودَع لي في مكتبات تركيا، لم أهتد إلى مكتبتها، لأن الأستاذ الذي طلبتُ منه تصويرَ ما يَستجيدُه لي، من نسخ «رسالة المسترشدين» في الخزائن التركية، صوَّرها لي دون أن يُثبِتَ اسم المكتبة التي تحويها. وهي في ٤٧ صفحة من القطع الصغير جداً، وصفحتُها تحوي

١٥ سطراً صغيراً، وكلها بخط واحد، وجاء في الورقة التي على وجهها العبارةُ التالية: (هذه رسالة المسترشدين لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين).

وبعد ذلك طَمْسٌ بالحبر، غيَّبَ الكلامَ المكتوبَ فلم يُقرأ، وبعده العبارةُ التالية: (فائدة بما شارك فيه الرضاعُ النكاحَ، نظمها الشيخ الشَّبْرَامُلُّسي:

إذا أرضعَتْ أنثى لطفلٍ بدَرِّها قد شارك الإرضاعُ في ذلك النَّسَبُ)

وبعدَ هذا البيتِ عدَّةُ أبيات، متغيِّبٌ كثيرٌ من كلماتها، بحيث لا ينتظم منها بيتٌ كامل.

هذا ما في وجه النسخة، وفي آخرها العبارةُ التالية: (تمَّتْ رسالةُ المسترشدين بحمد الله وعونِهِ وحُسنِ توفيقه، وصلَّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمامِ المرسلين وعلى آله وصحبه وسلم). انتهى. فليس فيها تاريخٌ ولا ذكرُ اسمٍ لكاتبها، وبجانب هذه العبارة بخط آخر ضعيفٍ ما يلي: (ملكها صاحبُ الذُّلاَّتي أحمد بن محمد المَدَراني سنة ١٢٧٩).

وأُثْبِتَ تحت ذلك الأرقامُ التالية باللغة الأجنبية (٢٤٥٢٢). ولعل هذه النسخة من مكتوباتِ القرن العاشر أو الحادي عشر والله تعالى أعلم.

هذا الذي أطلتُ به من وصف النُّسَخ الثلاث، إنما كتبته لاستكمال أمر التوثيق للأصول، وهو لا يَهُمُّ العبدَ المتعبِّدَ المسترشِدَ كثيراً، ولكنه يُروي رغبةَ بعض طلبة العلم، فكتبتُه لذلك.

وكنتُ قابلتُ طبعتي السابقةَ بهذه النُّسَخ الثلاث، وعزوتُ إلى كل نسخة ما جاء فيها من مغايرةٍ لها أو زيادة أو نقص، ورمزتُ إلى نسخة الجزائر بحرف (ج)، وإلى النسخة التركية الأولى بحرف (أ)، وإلى النسخة الثانية بحرف (ب).

ثم لمَّا فرغتُ من مقابلة النسخ رأيت كثرةً وزحمةً في التعليقات المرتبطة بمغايرات النُسَخ ونقصِها وزيادتِها، ورأيتُ أنها تقطعُ فِكرَ القارىء بشيء أجنبي عن الموضوع، والموضوعُ ليس مباحثَ علميةً أصوليةً أو فقهيةً مثلاً، فيختلفُ الحكمُ فيه بين حرفٍ وحرف، فيجبُ في مثل هذه إثباتُ المفارقات بين النسخ، لاحتمال تغيُّر الحكم بتغير الحرف أو الكلمة.

أما الموضوعُ الذي هو تزكية وتذكير، ووعظٌ وتبصير، وتخليةٌ وتحلية، فلا يَحتاج الكتابُ فيه إلى مثل هذا التدقيقِ الشديد في الحروف والكلمات. فلمَّا رأيتُ ذلك أعدتُ النظرَ مرةً ثانية، وأثبتُّ ما رَجَح لي صوابُه في تلك المغايرات، وطويتُ ما جزمتُ بخطئه إلاّ نادراً جداً، تمادياً من تشتيتِ فكر القارىء بحاشيةٍ تتضمَّنُ ـ مثلاً ـ ما يلي: وفي نسخة (ح) كذا، وفي نسخة (أ) كذا، وفي نسخة (ب) كذا، وسقطَ من نسخة الأصل كذا، فهذا مما يُبدِّدُ ذهن القارىء ويقطعُ عليه الخاطرةَ الصالحة أكثرَ مما يفيده بلا ريب.

هذا، وتوسَّعتُ في هذه الطبعة الثامنة في مباحث المقدمة. ببيان ذكر حقوق العلماء والصالحين على المتعلمين منهم والمستفيدين، وذكر فضل مجالسهم وسماعِ أخبارهم وحكاياتهم وقراءةِ سِيَرِهم، والأدبِ معهم أحياءً وأمواتاً، وذكرِ الأدبِ عند ذكر الله تعالى، وعند ذكرِ النبي ﷺ، وعند ذكر الصحابة والتابعين رضي الله عنهم. وبذكر فضل صحبتهم للنبي ﷺ، وأثرِها فيهم، وبيانِ أثر معرفة قائل الكلمة وصاحبها في نفس سامعها، وذكر أن طلبَ العلمِ النافلةِ أفضلُ الأعمال بعد الفرائض.

وبذكرِ فصلٍ طويل جداً من كلام الإمام الشاطبي في أن الصوفية الصادقين أهلُ اتباع لا ابتداع، وبذكر كلمةٍ للإمام الشافعي والشيخ ابن القيم في مدحهم أيضاً. وبإضافةِ شواهد ونصوص كثيرة، تشهد بفضل إمامة الإمام المحاسبي وعلو مقامه في الدين والاستقامة والعلم، وأنَّ الأئمة والحفاظ الكبار وصفوه بأنه من أئمةِ الحديثِ والأصولِ والفقهِ والكلام، وأنه من كبار أئمة الصوفية المقتدَى بهم.

كما توسَّعتُ أيضاً في بعض التعليقات على هذه الطبعة الثامنة، نظراً مني إلى حاجةِ كثيرٍ من قُرّاءِ هذه الرسالة، من المقيمين والمغتربين في دار الغربة، إلى بيان بعض المَوضوعات وإشباعِها، فزدتُ في الأخبار وفي الشواهد، حتى يتضحَ ويستقرَّ الموضوعُ في نفس قارئه، ويؤديَ الأثرَ المطلوب، كما أضفتُ بعضَ المباحث الفقهية التي يقع السؤال عنها لمعرفةِ حكمِها، كالجهر بالذكر بانفرادٍ أو جماعةٍ، وكصلاة التنفل بجماعة ليلاً أو نهاراً.

ووضعتُ عناوين جانبية صغيرة في حواشي الكتاب للمباحث الهامة، لتدل القارىء على مضمونها قبلَ الدخول في قراءتها، فتكون أوفى فهماً، وأيسرَ معرفةً إذا أراد الرجوعَ إليها، وهذا مما زاد في صفحات الكتاب، تبعاً لتقصير بسطوره لتتسع معها العناوين الجانبية. وكلُّ ذلك بتوفيقِ الله تعالى وإمدادِه سبحانه.

ورأيتُ في بعض تعليقاتي على مواضع من الرسالة، أنها جاءت علمية صِرفة، لا تتصل بالموعظة والتذكير، وقد تكون طويلة جداً، وتُبعِدُ القارىء عن موضوع الرسالة، فاستحسنتُ جعلَ تلك التعليقات بعد انتهاء الرسالة في ص ٢٤٩ ـ ٢٥٦، فمن شاء الوقوف عليها رجع إليها بآخر الرسالة.

وفي الختام أسألُ الله تعالى التوفيق والسداد، والقبولَ والإمداد، اللهم إني أعوذ بك أن أُحبَّ فيك وأنت لي مبغِض، وأن أُرشِد إليك وأنا عن رضاك بعيد، وأن أُحبِّبَ العبادَ إليك وأنا محروم من حبِّك لي

اللهم اجعلني من عبادك المتَّقين، ولا تُخزني يومَ يُبعثون، وأكرمني بعفوك ورضاك وحُسنِ الذكر عند عبادك الصالحين، وصَلِّ اللهم وسَلِّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمدُ لله رب العالمين.

وكتبه فقيرُ عفوِ ربه
عبد الفتاح أبو غدة

في الرياض يوم الأحد ١٥ من صفر سنة ١٤١٢

تقدمة الطبعة الثانية :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وليِّ كل حمدٍ وثناء، والصلاة والسلام على رسوله سيدنا محمد خاتمِ الرسل والأنبياء، وعلى آله وصحبه وأتباعه نجوم الاهتداء والاقتداء.

أما بعد: فهذه الطبعة الثانية من «رسالة المسترشدين» للإمام أبي عبد الله المحاسبي رحمه الله تعالى، بعد أن نَفِدت الطبعة الأولى، ولاقت الرضا والقبول والحمد لله على فضله وتوفيقه.

وجاءت هذه الطبعة أوفى تحقيقاً، وأكثرَ تعليقاً، فقد أكثرتُ فيها من الشواهد والوقائع والحكايات عن السلف، تأييداً لما تضمَّنَتْه «الرسالة» من الإرشاد والتوجيه، أو النهي والتحذير، ليكون ذلك أرجى قبولاً في النفوس، وأدفَعَ إلى العمل والامتثال، وأطيبَ على القلب والفكر، من الأمر أو النهي الصريح المباشر، وقد حسَّن القرآنُ الكريمُ هذه الطريقة وقرَّرها فقال: ﴿ولقد جاءهم من الأنباءِ ما فيه مُزْدَجَر﴾.

أثرُ أخبار الصالحين على القلوب:

قال الإمامُ الجُنَيْد رحمه الله تعالى: الحكاياتُ جندٌ من جنود الله تعالى، يُثَبِّتُ الله بها قلوبَ أوليائه، فقيل له: هل لهذا من شاهد؟ قال: شاهِدُه قولُه تعالى: ﴿وكُلاًّ نَقُصُّ عليك من أنباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ به فؤادَكَ﴾.

وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى: الحكاياتُ عن العلماء ومَحاسِنِهم أَحَبُّ إليَّ من كثير من الفقه، لأنها آدابُ القوم وأخلاقُهم. وشاهِدُه قولُهُ تعالى: ﴿أولئك الذين هَدَى اللّهُ فبِهُداهُم اقْتَدِهْ﴾، وقولُهُ سبحانه: ﴿لقد كان في قَصَصِهِم عِبرةٌ لأولي الألباب﴾.

وقال محمد بن يونس رحمه الله تعالى: ما رأيتُ أنفعَ للقلب من ذكرِ الصالحين.

وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: الحكاياتُ تُحَفُ الجنة. وقال آخر: استكثِروا من الحكايات فإنها دُرَر، وربما كانت فيها الدُّرَّةُ اليتيمة.

وقال سفيان بن عُيَيْنة رحمه الله تعالى: عند ذكر الصالحين تنزِلُ الرحمة(١).

---

(١) قال الإمام الحافظ ابن الصلاح رحمه الله تعالى، في كتابه «معرفة أنواع علم الحديث» ص ٢٠٩، في (النوع الثامن والعشرين): «رُوِّينا عن أبي عَمْرو إسماعيل بن نُجَيْد، أنه سأل أبا جعفر أحمد بن حمدان النيسابوري، وكانا عَبْدَيْن صالحين، فقال له: بأيِّ نِيَّةٍ أكتبُ الحديث؟ فقال: ألستم ترْوُوْن أنَّ عند ذكر الصالحين تنزلُ الرحمة؟ قال: نعم، قال: فرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم رأسُ الصالحين». انتهى.

ومثل هذا الكلام ونحوِه في «تدريب الراوي» للسيوطي ص ٣٤٤، في النوع ٢٨ أيضاً، وفي «مسائل الإمام أحمد» لأبي داود ص ٢٨٣.

وجُلُّ تلك الكلمات التي أوردتُها هنا، نقلها الحافظ ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ١٢٧، والقاضي عياض في «ترتيب المدارك» ١/ ٢٣، والحافظ السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ أهلَ التوريخ» ص ٢٠ وفي طبعة ثانية ص ٤١، والمؤرِّخ المقَّري في «أزهار الرياض» ١/ ٢١ ـ ٢٢. وقولُ ابن يونس ذكره ابن الجوزي في مقدمة كتابه «صفة الصفوة» ١/ ٤٥، وكلمة الجُنَيْد ذُكِرت في بعض الكتب السابقة الذكر وفي مقدمة كتاب «اللُّقَط في حكايات الصالحين» لابن الجوزي ـ مخطوط ـ وكذلك ذُكِر فيه كلمة مالك بن دينار.

استحباب المحدِّثين ذكر الحكايات في مجالسهم

وقد استحبَّ ساداتُنا المحدِّثون قديماً: إيراد الحكايات المُرَقِّقة، في خِلالِ مجالس الحديث الشريف أو في خواتيمها، ترويحاً للجُلَّاس، وتنشيطاً للأذهان، روى الإمام الحافظ المحدِّث أبو سعْد السمعاني في كتابه «أدب الإملاء والاستملاء» ص ٧٠ عن الحافظ الثَّبْت النبيل:

«سليمان بن حرب قال: كنا عند حمَّاد بن زيد فحدَّثَنا بأحاديث، ثم قال: لِنأخُذُوا في أبْزار الجنَّة، فحدَّثَنا بحكايات. وعن أبي حامد أحمدَ بن ماما الأصبهاني قال: سمعتُ البَرْقِيَّ يقول: الحكاياتُ جُنُود، تُصطادُ بها القُلُوب. وعن عبد الرحمن بن أخي الأصمعي قال: سمعتُ عمي يقول. قال لي الرشيد: استكثِروا من هذه الحكايات، فإنها نُثاراتُ الدُّرّ، وربما كانت فيها الدُّرَّةُ التي لا قيمة لها ـ أي لا تقدر بثمن لنفاستها وغلائها ـ!! انتهى.

=

حقُّ الصالحين على المنتفعين بهم:

ومن أجل هذا التزمتُ غالباً عَزْوَ الأقوال والوقائع إلى أهلها استنزالاً للرحمة بذكرهم، كما التزمتُ غالباً إنشاء الترحُّم والترضي عليهم، لكريمِ سَبْرِهم وطيِّبِ عِطرِهم، فقد قال الإمام أبو محمد التميمي الحنبلي رحمه الله تعالى: يَقبُحُ بكم أن تستفيدوا منا، ثم تذكرونا ولا تترحَّموا علينا[1].

= وقولُ حماد بن زيد: (لنأخذوا في أبزار الجنة...). الأبزارُ هنا جَمْعُ بِزْر ـ بكسر الباء أفصح من فتحها ـ، وهو ما يُطيَّبُ به الطعام من التوابل والأفاويه والطُّيوب. وقد كَنَى بأبزار الجنة هنا عن الحكايات اللطيفة، التي تُشَوِّقُ للخير، وتزيل السَّأم والملل من النفوس، لما فيها من فكاهة مُؤْنِسة، وطرائف مُحَبَّبة، وسيرةٍ صالحةٍ حافزة للصلاح والدين.

(١) من كتاب «الإلماع» للقاضي عياض، ص ٢٢٧، و«التعريف بالقاضي عياض» لابنه محمد ص ٨٢، و«إفادة النصيح» لابن رُشَيد ص ١١٣، ومقال (كتب برامج العلماء في الأندلس) للدكتور عبد العزيز الأهواني، في «مجلة معهد المخطوطات العربية» في المجلد الأول.

وأبو محمد التميمي هو الإمامُ المُعمَّر أبو محمد رِزقُ الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث، التميمي الحنبلي البغدادي، من كبار السادة الحنابلة. ولد سنة ٣٩٦، وتوفي سنة ٤٨٨ رحمه الله تعالى. كان أحد العلماء الفقهاء الصلحاء، والوُعَّاظ العقلاء الفصحاء، له ترجمة مطوَّلة في كتب طبقات السادة الحنابلة، منها «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب ١: ٧٧ ـ ٨٥ و«منهج الأحمد» للعُليمي ٢: ١٦٤ ـ ١٧٠

تأدُّبُ الطلبة مع شيوخهم حقٌّ ودَيْن:

ومن لطيف ما قاله الإمام أبو الخطَّاب محفوظُ بن أحمد الكَلْوَذاني البغدادي، شيخُ الحنابلة في عصره، المتوفى سنة ٥١٠ رحمه الله تعالى، مشيراً إلى أنَّ التعظيم للمشايخ عند ذكرهم حقٌّ ودَيْن، إذا فرَّط فيه مفرِّط استُوْفِيَ منه، وذلك في قوله:

أنا شيخٌ وللمشايخ بالآدا ... بِ عِلْمٌ يَخفى على الشُّبَّانِ
فإذا ما ذكرتَني فتأدَّبْ ... فهو قَرْضٌ يُرَدُّ بالميزانِ

ذكرهما له الحافظ ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة»، في ترجمة تلميذه (أحمد بن أبي الوفاء) ١: ٣٤٨.

تعظيمُ الله ورسوله عند ذكرهما:

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى، في مقدمة شرحه لكتاب «صحيح مسلم» ١: ٣٩. «يُستحبُّ لكاتب الحديث إذا مرَّ بذكر الله عزَّ وجلَّ أن يكتُبَ (عزَّ وجلَّ)، أو (تعالى)، أو (سبحانه وتعالى)، أو (تبارك وتعالى)، أو (جلَّ ذكرُه)، أو (تبارك اسمُه)، أو (جلَّتْ عظمتُه)، أو ما أشبه ذلك. =

. . . .

= وكذلك يكتب عند ذكر النبي صلى الله عليه وسلم (صلى الله عليه وسلم) بكمالها، لا رامزاً إليها ولا مقتصراً على أحدهما.

استحباب الترضي والترحم على الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء والأخيار:

وكذلك يقول في الصحابي (رضي الله عنه)، فإن كان صحابياً ابنَ صحابي قال (رضي الله عنهما)، وكذلك يترضى ويترحَّم على سائر العلماء والأخيار – أي يُستَحَبُّ ذلك أيضاً – ، ويَكتُبُ كلَّ هذا وإن لم يكن مكتوباً في الأصل الذي يَنقُل منه، فإن هذا ليس روايةً وإنما هو دعاء.

وينبغي أن يقرأ كلَّ ما ذكرناه وإن لم يكن مذكوراً في الأصل الذي يقرأ منه، ولا يسأمْ من تكرُّر ذلك، ومن أغفل هذا حُرِم خيراً عظيماً، وفوَّت فضلاً جسيماً» انتهى.

وقال الإمام النووي أيضاً، في كتابه «الأذكار» ص ١٠٠، في آخر (باب الصلاة على الأنبياء وآلهم تبعاً لهم):

«يُستَحبُّ التَّرضِّي والترحُّمُ على الصحابة والتابعين فمن بعدهم، من العلماء والعُبَّاد وسائر الأخيار، فيقال (رضي الله عنه)، أو (رحمه الله) ونحوُ ذلك.

وأما ما قاله بعضُ العلماء: إنَّ قوله (رضي الله عنه) مخصوصٌ بالصحابة، ويقال في غيرهم (رحمه الله)، فقط، فليس كما قال، ولا يُوافَقُ عليه، بل الصحيحُ الذي عليه الجمهورُ استحبابُه، ودلائلُه أكثرُ من أن تُحصر – قال عبد الفتاح: ومنها قولُهُ تعالى في (سورة البيِّنة) ﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات أولئك هُمْ خيرُ البريَّة. جزاؤُهُمْ عند ربِّهم جنَّاتُ عدنٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً. رضي اللهُ عنهم ورضُوا عنه، ذلك لمنْ خشي ربَّهُ﴾ ففي الآية ذكرُ عامَّة المؤمنين الصالحين من الصحابة وغيرهم، ثم التَّرضِّي عنهم من الله تعالى – .

فإن كان المذكورُ صحابياً ابنَ صحابي، قال: (قال ابنُ عُمَر رضي الله عنهما)، وكذا ابنُ عباس، وابنُ الزُّبير، وابنُ جعفر، وأسامةُ بن زيد، ونحوُهم، لتشمله وأباه جميعاً» انتهى.

قال عبد الفتاح: ثم إنَّ ذكر العلماء المعتبرين والعُبَّاد الصالحين، بوصف التعظيم والإجلال، هو من صُلْب العمل بالعلم، ومن متطلَّبات العلم أيضاً، وليس هو من التطويل أو الفضول في شيء، كما يحسبُه بعضُ العصريين تقليداً منهم للمستشرقين، فتراهم يقتطعون أسماء الأئمة المؤلفين اقتطاعاً، ويختزلونها اختزالاً، كأنها أرقامُ حسابية.

وهذا الاختزال – في غير موضع الحاجة الملحة إلى الاختصار – خلافُ مسلك السلف من العلماء، وخلافُ ما تدعو إليه الفطرةُ من الأدب مع الكبراء والعلماء والصالحين الأبرار، فيذكرُهم بأسمائهم مع التبجيل يُنمِّي حُبَّهم في النفوس، ويُربِّي إجلالَهم في =

قال العلامة المحدث الحافظ الشيخ عَيْدَرُوس بن عُمَر الحَبْشِيّ العلوي الحَضْرَمي، المولود سنة ١٢٣٧، والمتوفى سنة ١٣١٤ رحمه الله تعالى، في كتابه النفيس «عقود اللآل في أسانيد الرجال» ص ٢٩، وهو يتحدث عن فضل تحصيل العلم وتلقيه عن الشيوخ العلماء، ما يلي:

= القلوب، ويُعرَفُ بأقدارهم، ويُحيي اتّباعهم والانتفاعُ بهم في الأعمال والسلوك، فرضي الله عنهم وجَزاهم عنا خيرَ الجزاء.

قال العالم الربّاني والمفكر الإسلامي فضيلة الشيخ أبي الحسن النَّدْوي حفظه الله تعالى، في فاتحة كتابه اللطيف المُحاب: «الإمامُ الذي لم يُوفَ حقَّه من الإنصاف والاعتراف»: أحمد بن عِرفان الشهيد، ص ٦ ـ ٧:

«وقد تَواضعتْ الطبائعُ السليمة، والأذواقُ الصحيحة، على معرفة الفضل لأهله، والاعتراف بالجميل، وشكرِ من أسدى إحساناً أو دَفَع عن بلادٍ أو أُمّة، وقُتِلَ دُون عرضها وكرامتها، أو دينها وعقيدتها. وقد أطبقتْ الأممُ التي اعتدلَتْ بِفطرتها، وصلح مِزاجُها، على تخليد ذكرِ هؤلاء الأبطال، اعترافاً بالجميل، وتشجيعاً لأبناء الأمة على تقليدهم، حتى كان (الجُنديُّ المجهولُ) موضعَ عناية الأمم العربية واهتمامها.

أما المؤمنون وأتباعُ الرُّسُل ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم ـ فحظُّهم من الاعتراف بالجميل، والشكرِ على الإحسانِ والنعمة: أوفَرُ من كل أُمّةٍ وطائفة.

وقد وصفَ الله المؤمنين بالعِرفان للجميل، والدُّعاء لمن سبق، والإقرارِ بالتقدُّم والفضل، فقال: ﴿والذين جاؤا من بعدِهم يقولـون رَبَّنا اغفِر لنا ولإخواننا الذين سبَقُونا بالإيمان، ولا تجْعَلْ في قلوبـنا غِلاًّ للذين آمَنُوا، رَبَّنا إنك رؤُوفٌ رحيم﴾.

ووَصفَ اللّهُ الكفّار وأهل النار بالكُنُودِ والجُحُودِ ونُكران الجميل، ولعْنِ اللاحِقِ السابِقَ! وكُرْهِه له، والتبرِّي منه، فقال عن أهل جَهنّم: ﴿كلَّما دَخلَتْ أُمّةٌ لعَنَتْ أُخْتَها!﴾.

وامتازتْ الأمّةُ الإسلاميةُ من بين الأُمم برَحَابةِ الصدر، والاعترافِ بالفضل، وإقامةِ الموازينِ القِسطِ بين الناس، وتخليدِ مآثِر السلف، وكثرةِ الدعاءِ لهم، والترحُّمِ عليهم، تَشهَدُ بذلك كتُبُ التراجم والسِّيَر». انتهى.

ومعذرةً من إطالة هذه التعليقة، فقد أردتُ بها ـ وفي أولِ الكتابِ ـ لَفْتَ نظرِ الذين يُقلِّدون المستشرقين ومن حَذا حَذْوهم، في ذكر كبار العلماء والأئمةِ الصُّلحاء، دون تعظيم أو تبجيل أو ترحُّم، كأنهم يذكُرون أولاداً صغاراً من لِداتِهم! أو أعمالاً بُلْهاً، لم تُنِر الدنيا بعقولهم وعلومِهم وصلاحِهم وتعبُّدِهم، والله وليُّ التوفيق.

«قال بعضُ مشايخنا: وَمَنْ مَنَّ اللّهُ عليه بشيء من ذلك ـ أي الأخذِ عن الشيوخ والتلقي والتعلُّم منهم ـ، فعليه الشكر بذكر مشايخه ونشرِ فضائلهم، وإشاعة فوائدهم، والدعاءِ لهم، والترضي عنهم، فإن ذلك من أهم المهمات، فالشيخُ يُنيلُ الطالبَ ما يُورثه سعادةَ الأبد، فوقَ ما أنالَهُ والدُه، فتكونُ حُرمتُهُ كحرمة الوالد بل أعظم، فحقُّه متأكد، ونفعُهُ في الآخرة مُتأبِّد، وبِرُّهُ أولى وأتم، وحقوقه أشدُّ وأعظم، فينبغي الاحترامُ والتعظيمُ له ولكل ما يُنسَبُ إليه، وأن يَتخلق معه بالآداب التي ذكرها العلماء». انتهى.

وقال الإمام مكي بن أبي طالب القَيْرواني ثم الأندلسي رحمه الله تعالى، في مقدمة كتابه: «الكشف عن وجوه القراءات السبع»: بادرتُ إلى تأليفه، حرصاً مني على بقاءِ أجرِهِ وجزيلِ ثوابه، وأسألُ اللّهَ أن يَنفعَ به مؤلِّفه والمقتبِسَ العلمَ منه، فحقٌّ على كل ذي مُروءة ودِيانة، أفاد من كتابي هذا فائدةً أو اقتَبَس منه عِلماً: أن يَترحَّم على مؤلِّفه الذي أتعَبَ فكرَهُ وبدَنَهُ في تأليفِهِ وجمعِهِ، وأن يَستغفِرَ له.

فما علمتُ أنَّ لِشُغلي وتَعَبي بتأليف هذا الكتاب وأشباهِهِ: فائدةٌ أعظمَ من أن يَترحَّم عليَّ من أجلِه مُتَرحِّم، أو يَستغفِرَ لي عند قراءته مُستغفِر، أو يَذكرَني بالخير ذاكر، فرَحِمَ اللّهُ من بادَرَ إلى ما رَغَّبتُهُ فيه، من ذكري بالخير، والترحُّمِ عليّ، والاستغفارِ لي» انتهى كلامه رحمه الله تعالى[1]، والعبد الضعيفُ عبدُ الفتاح: يقولُ بمثلِ ما قال، واللّهُ يَجزي المتصدِّقين والمُحْسِنين.

أَدَبُ أكابر العلماء عند ذكر الصالحين:

وقد كان كِبارُ الأئمة من السلف، إذا ذُكِر الصالحون في مجلسهم تأدَّبوا في هيئة جلوسهم، رعايةً لمقام الصالحين ولو كانوا غائبين. فلا أقلَّ من أن نترحَّمَ عليهم ـ نحن الخلَفَ ـ إن فاتنا التأدُّبُ عند ذكرهم.

قال الإمام ابن مفلح الحنبلي رحمه الله تعالى في كتابه «الفروع» ١: ١٩٥ والحافظ الذهبي رحمه الله تعالى في «تذكرة الحفاظ» ١: ٢١٣ والحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في «تهذيب التهذيب» ١: ١٣٠ «قال أبو زُرعة

(١) ومكيٌّ بن أبي طالب توفي سنة ٤٣٧.

الرازي: كنتُ عند أحمد بن حنبل ـ وذُكِرَ عنده إبراهيمُ بن طَهْمان ـ أحَدُ العلماءِ الصلحاء، المتوفى سنة ١٦٣، الذي قيل فيه عند موته: لم يُخَلِّف بعدَه مثلَه ـ، وكان أحمد متكئاً من عِلَّة، فاستَوَى جالساً وقال ـ: لا ينبغي أن يُذكَر الصالحون فنتَّكىء، وفي روايةٍ: فيُتَّكأ. وذكَرَ أبو الوفاء بن عقيل رحمه الله تعالى في «الفنون» أنه كان مستنداً، فأزال ظهرَه وقال: لا ينبغي أن يَجري ذكرُ الصالحين ونحن مستندون».

فضلُ مجالسةِ الصالحين أو ذكرِهم:

ومجالسةُ الصالحين، أو سماعُ حديثِهم، أو سماعُ الحديث عنهم، أو قراءةُ مناقبهم وفضائلهم، مما تَطمئِنُّ به القلوب، وتَنشرِحُ به الصدور، وتَصلُحُ به الأخلاق والأعمال.

وقال الحافظ القرشي رحمه الله تعالى في فاتحة كتابه «الجواهر المُضِيَّة» ١: ٣ «قال جماعةٌ من السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾: هو ذِكرُ أصحاب رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم. وإنما حَصَل لهم هذا الشرفُ من وجوه، أعظمُها: رُؤيةُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. الثاني: ما اكتسبوه من العلم. الثالث: حُسنُ الاتباع لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، إلى غير ذلك من الوجوه[1]».

تعريف الصحابي وشرف الصحبة للنبي وأثرها العظيم

(١) قال الإمام ابن حزم الظاهري رحمه الله تعالى في كتابه «الإحكم في أصول الأحكام» ٥: ٨٩، وهو يتحدَّث عن فضل الصحابة وتعريف الصحابي: «فأمَّا الصحابةُ رضي الله عنهم، فهم كلُّ من جالَسَ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ولو ساعةً، وسمع منه ولو كلمةً فما فوقها، أو شاهدَ منه عليه السلام أمراً يَعِيْه، ولم يكن من المنافقين الذين اتصل نِفاقُهم واشتَهَر حتى ماتوا على ذلك.

وكلُّهم عَدْلٌ إمامٌ فاضلٌ رِضاً، فرضٌ علينا توقيرُهم وتعظيمُهم، وأن نستغفر لهم ونُحبَّهم، وتمرةٌ يتصدَّقُ بها أحدُهم أفضلُ من صدقةِ أحدنا بما يَملِك، وجلسةٌ من الواحدِ منهم مع النبي صلَّى الله عليه وسلَّم أفضلُ من عبادةِ أحدِنا دهرَهُ كلَّه. ولو عُمِّر أحدُنا الدهرَ كلَّهُ في طاعاتٍ متصلة، ما وازَى عَمَلَ امرىءٍ صحبَ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم ساعة واحدةً فما فوقها، قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: دَعُوا لي أصحابي، فلو كان لأحدِكم مِثلُ أُحُدٍ ذهباً فأنفقه في سبيل الله، ما بلغ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصِيفَه». انتهى. بزيادة =

ولَمَّا كان كذلك، فالتابعون مشاركون لهم في ذلك، فكان ذِكرُهم تَطمَئِنُّ به القلوب، وكذلك من بَعْدَهم ممن تَبِعَهُم بإحسان إلى يوم الدين». انتهى.

وقد جُبِلَتْ القلوب على حُبِّ تقليد الصالحين والسيرِ على منوالهم، وعلى الرغبةِ في التأسي بهم والاقتداء بأفعالهم وأقوالهم، فلذا تراني أوردتُ في تعليقاتي من أقوال ووقائع العلماء والصالحين، والعابدين والمجاهدين، والزهاد

= قوله (ولو عُمِّر أحدنا... مما فوقها) من كتابه «الفصل» ٤: ٢٠١. وانتبه إلى كلام الإمام ابن حزم النفيس هذا ــ وهو ظاهري لا صوفي ــ في تعظيم الصحابة.

وإنما حكم العلماء بأن مجالسة ساعةٍ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو مشاهدة لحظة، أو سماع كلمةٍ مما فوقها منه عليه الصلاة والسلام، تَكسِبُ صاحبها اسم (الصحابي)، لشرف منزلة النبي صلّى الله عليه وسلّم، ولأن لرؤية نور النبوة قُوَّةَ سريانٍ في قلب المؤمن، فتظهرُ آثارُها على جوارح الرائي في الطاعةِ والاستقامة مدى الحياة، ببركته صلّى الله عليه وسلّم.

ويشهدُ لذلك ما رواه الصحابي الجليل عبد الله بن بُسْر عنه صلّى الله عليه وسلّم «طُوبى لمن رآني وآمنَ بي، وطُوبى لمن رأى من رآني، ولمن رأى مَنْ رأى مَنْ رآني وآمن بي، طُوبى لهم وحُسْنُ مآب»، رواه الطبراني بإسناد حسن والحاكم كما في «الجامع الصغير» للسيوطي بشرح «التيسير» للمُنَاوي ٢: ١١٩.

وقال الإمام تقي الدين السُّبْكي في «الإبهاج في شرح المنهاج» ١: ٩ من كتب أصول الفقه: «والصحابيُّ كلُّ من رأى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم مُسْلِماً، وذلك لشرف الصحبة، وعظم رؤية النبي صلّى الله عليه وسلّم، وذلك أن رؤية الصالحين لها أثرٌ عظيم، فكيف رؤيةُ سيِّد الصالحين؟! فإذا رآه مسلم ولو لحظة انطبع قلبُهُ على الاستقامة، لأنه بإسلامه متهيىءٌ للقبول، فإذا قابل ذلك النور العظيم، أشرق عليه وظهر أثره في قلبه وعلى جوارحه».

قال عبد الفتاح: بل إذا رأى أحدُنا في هذه الأزمان المتأخرة عالماً صالحاً تقياً، صارت رؤيتُه له ــ ولو لحظة أو دقائق معدودة ــ غذاءً يتغذَّى به يتمضَّغُ بطعمه طول حياته، ويدفعه إلى الخير والطاعة كلما ذكره، فكيف برؤية سيد الخلق والأنبياء والمرسلين صلّى الله عليه وسلّم فداه أبي وأمي. وإنما أطلتُ بعضَ الشيء في بيان فضل (الصُّحبة الشريفة)، لأن هذا الموضوع ــ بتكدر العقول والقلوب بالأفكار الضالة ــ صار ضامراً في أذهان بعض الناس اليوم، فاقتضى مني الإطالة.

والصابرين: ما يدفع بالمؤمن الموصول بإيمانه إلى أن يتأسَّى بهم، ويتشبَّه بسيرتهم، ويعمل بعملهم، وأن يزداد قوةً وشكيمةً في دينه وجهاده وصبره وبلائه، وأن يكون خيرَ خلف لخير سلف، وكما قيل:

وتَشبَّهوا إن لم تكونوا مِثلَهم ... إنَّ التشبُّه بالكرام فَلاحُ

يُحَبُّ البقاءُ في الدنيا لثلاث:

ومجالسةُ الصالحين، أو سماعُ أخبارهم، أو قراءةُ وقائعهم وسِيَرِهم: من أهمّ مقاصد الحياة عند العقلاء الصُّلَحاء، فما تُحَبَّبُ الدنيا للعاقل إلاَّ لتكميلِ صفاته، وتكثير حسناته، وتزوُّدِه منها لآخرته، وفي هذا يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لولا ثلاثٌ في الدنيا لما أحببتُ البقاء فيها: ١ ـ لولا أن أحمِلَ أو أُجهِّزَ جيشاً في سبيل الله. ٢ ـ ولولا مُكابدةُ الليل. يعني قيامَ الليل والعبادةَ فيه لتحصيل ما فيه من جزيل الثواب. ٣ ـ ولولا مجالسة أقوام يَنتقون أطايبَ الكلام كما يُنتَقى أطايِبُ التمر. انتهى[1].

---

(١) قال الشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى، في كتابه «مفتاح دار السعادة» ص ١٢٩ ـ ١٣٠. «الوجهُ الثامنُ بعدَ المئة ـ أي في بيان مزايا العلم وشَرفِهِ وفضله ـ أنَّ كثيراً من الأئمة صرَّحوا بأنَّ أفضل الأعمال بعد الفرائض طلَبُ العلم. وهو الذي ذكر أصحابُ الشافعي عنه أنه مذهبُه. وكذلك قال سفيان الثوري وحكاه الحنفية عن أبي حنيفة. وكذلك هو مذهَبُ مالك كما حكاه ابنُ القاسم عنه.

وأما الإمامُ أحمد فحُكِي عنه ثلاثُ روايات: إحداهن أن أفضل الأعمال بعد الفرائض: طلَبُ العلم ـ وذكرَ له ابنُ القيم دليلاً ـ، والرواية الثانية: أنَّ أفضل الأعمال بعد الفرائض: صلاةُ التطوع ـ وذكرَ له ابنُ القيم دليلاً ـ، والرواية الثالثة. أنَّهُ الجهاد. ـ وذكَرَ له ابنُ القيم دليلاً ـ.

اجتماع الجهاد والعلم والعبادة للصحابة وتفرّقها في غيرهم:

ثم قال ابنُ القيم: «وقال شيخنا ـ يعني الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى ـ: وهذه الأمورُ الثلاثةُ التي فضَّل كلُّ واحد من الأئمة بعضَها وهي: الصلاةُ، والعلمُ، والجهادُ، هي التي قال فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لولا ثلاثٌ في الدنيا لما أحْبَبتُ البقاء فيها: لولا أن أحمِلَ أو أُجهِّزَ جيشاً في سبيل الله. ولولا مُكابَدَةُ هذا الليل. ولولا مُجالَسةُ أقوامٍ يَنْتَقُون أطايِبَ الكلامِ كما يُنتَقى أطايِبُ التَّمْر، لما أحْبَبتُ البقاء.

فالأوَّل: الجهادُ. والثاني: قيامُ الليل. والثالث: مذاكرةُ العلم فاجتمعتْ في الصحابة بكمالها، وتفرَّقَتْ فيمن بعدهم». انتهى ملخصاً.

=

تأثير الكلمة في النفس يزداد بمعرفة قائلها.

وتراني أضمتُ كلَّ كلمة إلى مصدرها وقائلها، ولو كانت قصيرةً او صغيرة. ذلك لأنَّ الكلمة إذا عُرِفَ مصدرُها، وأُضِيفَتْ إلى قائلها، تبدّى معناها على كمالِه وتمامه، وعَظُمَ وَقْعُها وقَبُولُها في النفوس، نظراً لتشبُّتِ ناقلِها، وصِدقِ قائلِها، أو شهرةِ إخلاصه، أو دِينِه، أو علمه، أو تقواه، أو زهدِه ووَرَعِه. فتكون معرفةُ قائلِها من تمام أدائِها لمعناها، أو من تمام المعنى المراد بها.

وقد قال شيخُ أصحاب البيان أبو عَمْرو الجاحظ، في فاتحة كتابه «البخلاء» ص ٦، وهو يتحدَّثُ عن فَضْلِ إضافةِ الكلام إلى قائله، وعن أثَرِ بَتْرِه وقَطْعِه عن صاحبه: «وهذا أحاديث، لا يَتوفَّرُ أبداً حُسنُها إلاّ بأن يُعرف أهلُها، وحتى تتَّصِلَ بمُسْتَحِقِّيها ومَعَادِنِها اللائقين بها، وفي قَطْعِ ما بينها وبين عناصرها ومَبَانِيها سُقوطُ نِصفِ المُلْحَة، وذَهابُ شطْرِ النادرة.

ولو أنك ولَّدتَ كلاماً في الزهدِ وموعظةِ الناس، ثم قلتَ: هذا من كلام بَكْر بن عبد الله المُزني، وعامر بن عَبْد قَيْس العنبري، ومؤرِّق العِجْلي، ويزيد الرَّقاشي ـ وهؤلاء معروفون بالصلاح والزهد ـ، لتضاعفَ حُسنُه، ولأحدَثَ له ذلك النَّسَبُ نضارةً ورِفعةً لم تكن له. ولو قلتَ ـ أي في الكلمة الواعظة المزهِّدَة ـ: قالها أبو كَعْبٍ الصُّوفي ـ أحَدُ المُصحكين أصحابِ الهَزْل والفُكاهة ـ، أو أبو نُواسٍ الشاعر، أو حُسَين الخَليعُ، لما كان لها إلاّ مالَها في نفسِها، وبالحَرَى ـ أي بالأحرى والأجدر ـ أن تَغْمَطَ في مِقدارِها وتُبْخَسَ من حَقِّها». انتهى.

فإضافةُ الكلمةِ إلى قائلها تَرفعُها أو تَخفِضُها، وتُوسِعُ في مَداها أو تُقلِّصُه، وهذا أمرٌ مغروسٌ في الطبائع والنفوس.

= واقترحُ على من يطالع هذا الكتاب (رسالة المسترشدين)، أن يقرأ كتاب: «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل» الذي جمعه وألَّفه العبد الضعيف، فإنه يُعرِّفُ المسلمَ المستبصر بفضل العلماء وفضل صبرهم على تحصيل العلم، ويُحرِّكُ فيه حُبَّهم والتقديرَ لهم، ويُحبِّبُ له التعلقَ بالعلم وأهله، وفي ذلك خير كثير. وليقرأ من الطبعة الثالثة، فإنها أوسعُ طبعاته وأجمعُها وأنفعُها إن شاء الله تعالى.

حرصي على اختيار الأخبار الهادفة:

وقد حرصتُ أن تتضمن تلك الوقائعُ والشواهدُ والأخبار، كثيراً من الأمور الهادفة التي يحتاج إليها شبابُنا وبناتُنا في البيت والمجتمع، من التوجيهات الغالية، والأفكار الهادية، والأخلاق الواعية، لتكون لهم عوناً في حَضَرهم، وزاداً معهم في سَفَرهم، فما أحوج الطالبَ الشابَّ الأعزل الغريب، المُحارَبَ بالمغريات من كل جانب، مع دفع تيار المجتمع الذي يعيش فيه إلى الانسياق والانخراط في كل شيء!

ما أحوجَهُ أن تُغذَّى فيه العقيدة المؤمنة، ويُذْكَى فيه الخُلُق المسلم، ويُنشَّطُ فيه العملُ الصالح في الجوِّ الفاسد، ويُذكَّرَ بسيرة السلف الأبرار، ليَحفظ نفسَه بتقدير الله تعالى مما يُحيط به. فما أشدَّ حاجةَ الشابِّ المؤمن في غربته، إلى مثل هذا الزاد الروحي السليم، ليتغذَّى به كلَّ يوم غُدوةً أو عَشِيّاً، فيبقى محافظاً على شخصيته المؤمنة من أن تُذيبها بَهْرَجَةُ الحضارة العاتية الخلّابة، ويَسلَمَ من التردِّي في مَساوىء أخلاق أهلها، التي تبدو زينتُها، وتَخفى محنتُها، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

واللهَ الكريمَ أسأل أن ينفع بها، ويَكتبَ لها القبول، ويجعلَها في كفّة الحسنات عنده: ﴿يومَ لا يُخزِي اللهُ النبيَّ والذين آمنوا معه، نُورُهم يَسعى بين أيديهم وبأيمانهم، يقولون: ربَّنا أتمِمْ لنا نُورَنا، واغفِرْ لنا، إنك على كل شيء قدير﴾. ﴿يومَ تَرى المؤمنين والمؤمنات يَسعى نُورُهم بين أيديهم وبأيمانهم، بُشراكم اليومَ جنّاتٌ تَجري من تحتِها الأنهار خالدين فيها، ذلك هو الفوزُ العظيم﴾. والحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

وكتبه

عبد الفتاح أبو غدة

غفر الله له

في بيروت ١٩ من جمادى الأولى سنة ١٣٩١

تقريظ الكتاب للطبعة الأولى من إمام من أئمة العصر العلامة المحقق الكبير المُعَمَّر سماحة شيخنا مفتي الديار المصرية السابق الشيخ حسنين محمد مخلوف، المتوفى في أواخر سنة ١٤١٠ رحمه الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أخي وصديقي الأستاذ العلامة المحقق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة أدام الله توفيقه[1].

وبعد فقد وصل كتابكم المبارك، يَحمل أسمى المعاني الكريمة الصادقة، فجزاكم الله خيراً ولا حَرَمني من هذه المودَّة السابغة

أما «رسالة المسترشدين» فكلَّما قرأتُها أجدُ فيها لذةً واستمتاعاً، وكلَّما قرأتُ تعليقكم عليها أجدُه من الضرورة بمكان، لكمال النفع بـ «الرسالة»، فللَّهِ الحمد على ما وفَّق وأتاح.

ومع هذا كلمةٌ جرى بها القلم، أضعُها بين يدي «الرسالة» لتطَّلعُوا عليها، فإن شئتم نشرها فلكم ذلك..

نصُّ الكلمة المشار إليها:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فإني أحمد الله تعالى إليكم، إذ وفَّقكم لنشر «رسالة المسترشدين» للإمام أبي عبد الله الحارث بن أسد

---

(١) قال عبد الفتاح: هذا من تواضع شيخنا وسُمُوِّ أخلاقِه العاليةِ الرفيعة، فإني منه بمنزلة الوليد من الجدِّ المجيد، وإنما هو الخُلُق السَّنِيُّ السَّنِيُّ الذي كان يتحلى به رَحمتُ الله عليه ورضوانُه العظيم.

المحاسبي، بتحقيقكم القيِّم الذي ألممتم فيه بما ينبىء عن غزير علمكم ودقيق بحثكم، وازدانتْ به «الرسالة» رُواءً وجمالاً، وازدادَتْ به نفعاً وكمالاً، فجزاكم الله خير الجزاء عن العلم وأهله، وعن هذا الإمام الجليل الذي وصفه حجة الإسلام الغزالي بأنه حَبْرُ الأمّة في علم المعاملة، وله السبقُ على جميع الباحثين عن عيوب النفوس، وآفات الأعمال، وأغوار العبادات.

١ ـ التصوف النقي المشروع:

كان الإمام المحاسبي من الرعيل الأول من الصوفية الصادقين، وكان إماماً في الحديث والفقه والكلام، وله في علومها عِدَّةُ كتبٍ ومصنَّفات، وأكثرُها في التصوف وتهذيب النفس والزهد وآداب السلوك.

والتصوفُ الإسلامي تربيةٌ عِلميةٌ وعَمَلية للنفوس، وعلاجٌ لأمراض القلوب، وغَرْسٌ للفضائل، واقتلاعٌ للرذائل، وقمعٌ للشهوات، وتدريبٌ على الصبر والرضا والطاعات.

وهو مجاهدة للنفوس ومكابدة لنزعاتها، ومحاسبة دقيقة لها على أعمالها وتُروكها، وحفظٌ للقلوب عن طوارق الغَفَلات وهواجس الخطرات، وانقطاعٌ عما يعوق السالك في سَيْره إلى الله، وزهادةٌ في كل ما يُلهي عن ذكر الله ويَعلقُ بالقلوب سواه.

وهو معرفة لله ويقين، وتوحيد لله وتمجيد، وتوجُّه إلى الله وإقبال عليه وإعراض عما سواه، وعكوف على عبادته وطاعته، ووقوف عند حدوده، وتعبُّدٌ بشريعته، وتعرُّضٌ لنفحاته وهِباتِه التي يَخصُّ بها أولياءه وأحبابه فضلاً منه وكرماً.

وجملةُ القول فيه قبْلَ تدوينه كفنٌّ إسلاميٌّ وبعْدَه: أنه عِلمٌ وحكمة، وتبصرةٌ وهداية، وتربية وتهذيب، وعلاج ووقاية، وتقوى واستقامة، وصبر وجهاد، وفرارٌ من فتنة الدنيا وزينتِها وابتعاد.

وقد أشار إلى طَرَفٍ من ذلك أبو محمد الجَرِيري بقوله في وصفه: إنه الدخولُ في كل خُلُق سَنِيّ، والخروجُ من كل خُلُق دَنِيّ. وقولِهِ: التصوفُ

مراقبةُ الأحوال ولزومُ الأدب.

والأدبُ ـ كما أشار إليه القُشَيري في «الرسالة» ـ : جِماعُ خصال الخير. وحاصلُها: التفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عزّ وجلّ من حقوق.

وعن أبي نصر السرَّاج: الناسُ في الأدب على ثلاث طبقات:

أما أهلُ الدنيا فأكثرُ آدابهم الفصاحة والبلاغة، وحفظُ العلوم والمنظوم.

وأما أهلُ الدين فأكثرُ آدابهم في رياضة النفوس، وتأديبِ الجوارح، وحفظِ الحدود، وترك الشهوات.

وأما أهلُ الخصوصية (يعني الصوفية) فأكثرُ آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاةِ الأسرار، والوفاءِ بالعهود (التي بين العبد وربّه)، وحفظِ الوقت، وقلّةِ الالتفات إلى الخواطر، وحُسنِ الأدب في مواقف الطلب وأوقاتِ الحضور ومقاماتِ القُرْب. انتهى.

فالتصوفُ كما ترى: لُبُّ الشريعة ورُوحُها، وثمرتُها وحكمتُها. وقد قال سيد الطائفة الجُنَيد: عِلمُنا هذا مقيّدٌ بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يُقتَدَى به في هذا الأمر، والطُّرُقُ كلها مسدودة على الخلق إلاّ على من اقتفى أثرَ الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

وقد اختَصَّ هذا النوعُ من العلم الشرعي في عصر التدوين ـ كما أشار إليه ابن خلدون في «مقدمته» ـ باسم (التصوف أو عِلْم الحقيقية)، كما اختَصَّ النوعُ الآخَرُ منه الخاصُّ بالأحكام الفرعية في العبادات والمعاملات باسم (الفِقْه أو عِلْم الشريعة).

وقال بعض الصوفية في بيان ترابط هذين العِلمين وتعاونهما في تكوين شخصية المسلم الكامل ظاهراً وباطناً، حِسّاً ومعنى، مادّةً ورُوحاً: «حقيقةٌ بلا شريعة باطلة، وشريعة بلا حقيقة عاطلة». فهما للمسلم كجناحي الطائر، لا يَستقلُّ بأحدهما دون الآخر.

ذلك هو التصوّفُ النقيُّ من الشوائب، الذي لم يخالطه زيغٌ ولا شطط، ولا جهل ولا ابتداع. وهو تصوُّفُ العلماء والنُّسَّاكِ العارفين بالله، القائمين على حدوده، المتمسكين بشريعته، أمثالِ أبي سعيد الحسن البصري، المتوفى سنة ١١٠، وأبي إسحاق إبراهيم بن أدهم البلخي، المتوفى سنة ١١٦، وأبي سليمان داود بن نُصَير الطائي، المتوفى سنة ١٦٥، وأبي علي الفُضَيل بن عِيَاض الخراساني، المتوفى بمكة سنة ١٨٧، وأبي محفوط معروف بن فيروز الكَرْخي، المتوفى ببغداد سنة ٢٠١.

وأمثالِ أبي نصر بِشْر بن الحارث الحافي المَرْوَزي، ثم البغدادي، المتوفى سنة ٢٢٧، وأبي عبد الله الحارث بن أسَد المحاسبي البصري، صاحب هذه الرسالة «رسالة المسترشدين»، المتوفى سنة ٢٤٣، وأبي الفيض ذي النون المصري، المتوفى سنة ٢٤٥، وأبي الحسن سَرِيّ بن المُغَلِّس السَّقطي، المتوفى سنة ٢٥٧، وأبي زكريا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ، المتوفى بنيسابور سنة ٢٥٨، وأبي سعيد أحمد بن عيسى الخرّاز البغدادي، المتوفى سنة ٢٧٧، وأبي محمد سهل بن عبد الله التُّسْتَري، المتوفى سنة ٢٨٣، وأبي القاسم الجُنيد البغدادي شيخ الطائفة المقدَّم، المتوفى سنة ٢٩٧.

وأمثالِ أبي محمد رُوَيم بن أحمد البغدادي، المتوفى سنة ٣٠٣، وأبي العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء، المتوفى سنة ٣٠٩، وأبي محمد أحمد بن محمد الجريري، المتوفى سنة ٣١١، وأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القُشيري صاحب «الرسالة» المشهورة، المتوفى سنة ٤٦٥، وحجةِ الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، صاحب «الإحياء»، المتوفى سنة ٥٠٥.

وأمثالِ أبي محمد عبد القادر الجِيلاني، المتوفى سنة ٥٦١، وأبي حفص عمر بن محمد السُّهْرَوَرْدي، صاحب «عوارف المعارف»، المتوفى سنة ٦٣٢، والإمام أبي الحسن الشاذلي علي بن عبد الله، المتوفى سنة ٦٥٦، وأبي العباس أحمد بن عمر المُرْسي، المتوفى بالإسكندرية سنة ٦٨٦،

وأبي الفضل أحمد بن محمد بن عطاء الله الإسكندري، المتوفى سنة ٧٠٩، والإمام ابن القيِّم، المتوفى سنة ٧٥١.

وأمثال السيد عبد الله بن علوي الحدَّاد الحضرمي، المتوفى بحضرموت سنة ١١٣٢، وشمس الدين الإمام محمد بن سالم الحفْني، المتوفى بمصر سنة ١١٨١، وأبي البركات أحمد الدَّرْدير العَدَوي المالكي، المتوفى بمصر سنة ١٢٠١، وغيرهم ممن لا يُحصيهم العدّ، من المتقدمين والمتأخرين من أعلام أئمة التصوف العارفين، في مختلِف العصور رضي الله عنهم أجمعين[1].

ولهؤلاء الأئمة وأضرابهم كلام جيد رصين، وحِكَم شافية، ومؤلفاتٌ قيِّمة في الأصول والفروع، والأعمال النفسية وأحوال القلوب وخطراتها، وأخطارِها وعلاجها، وفي الآداب والأذواق والمواجيد، والأحوالِ النفسية والمجاهدات، على تشدُّدٍ من بعضهم في السلوك وتفاوتٍ حسبَ تفاوتِ أقدارهم في العلم والذوق والعِرفان.

انتقِدُوا أخطاءَ الكبار ولا تهدموهم

(١) قال عبد الفتاح ـ فتح الله عليه، وغفر له ولوالديه ـ . وهؤلاء الأئمةُ الأعلامُ الكبار، والصلحةُ الفضلاءُ الأخيار، لم يكونوا من أهل العصمة في كل ما يصدر عنهم، فإنهم ممن قال الله تعالى فيهم ﴿وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً﴾، وممن جاء عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيهم أيضاً «كُلُّ بني آدمَ خطّاء، وخير الخطّائين التوابون».

فقد يصدرُ عن الواحدِ الكبيرِ منهم الخطأُ في بعض الأمور، اجتهاداً منه، أو تأثراً عما نشا عليه في محيطه، أو توارثُهُ عن مشايخ عصرِه وبلدِه، أو لغير ذلك من الأسباب، فلا يُقَرُّ على الخطأ لكبر مقامه، ويُنتقد صدورُه منه، بكل أدب واحترام، إذ لم يكن ذلك الكبير نبياً معصوماً، ولا مُعادياً للشرع كائداً مفسداً في الدين.

ووقوعُ الخطأ من الكبار العظام، غيرِ الأنبياءِ الكرام، لم ينجُ منه أحد، فيُنقَدُ الخطأُ أيًّا كان مصدره، بأدب الإسلام وخُلُقِ المسلم، ولا يُهدَمُ الكبيرُ الذي صدر منه ذلك الخطأ، فما سَلِمَ أحد منه إلاَّ الأنبياءُ المعصومون بعصمةِ الله تعالى لهم.

أما هَدْمُ الكبار لوقوع بعضِ أخطاءٍ بدَتْ منهم، فهو علامةُ الخَسارِ والدمار، ومُجانبةٌ لحكم الله العزيز الغفار، الذي يقول في كتابه الكريم. ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يَرَهُ ومن يعمل مثقالَ ذرة شراً يَرَه﴾. فالقاعدةُ في هذا الشأنِ أن يقال: انتقِدوا أخطاء الكبار بأدب ولا تَهدِمُوهم.

وجميعُهم إنما يَصدُرون في ذلك عن كتاب الله وهَدْي النبوة، وما رُوي عن العارفين من أئمة الإسلام من أقوال وأعمال وأحوال.

هذا هو التصوف الصادق الذي ملأ سَمْعَ الدنيا وأعيُنَها قبلَ عصرِ التدوين وبعْدَه، وهؤلاء وأمثالُهم هم الصوفية حقاً، الصادقون قولاً وفعلاً، ومنهم المحاسبيُّ رضي الله عنه.

٢ ـ التصوُّفُ المنتَحَل المبتَدَع:

وهناك تصوف زائف انتحله قديماً فِئامٌ من الناس، أُشرِبُوا تعاليمَ الباطنية الحُلُوليَّة، وتدثَّروا بدثار الصوفية، اجتذاباً للعامَّة، وتغريراً وخِداعاً وتلبيساً، ودَسُّوا في التصوف إلحادَهم ومقالاتِهم الشنيعةَ في الدين إضلالاً للمسلمين، هؤلاء ليسوا من الصوفية ولا التصوف في شيء، ويُنكرهم كلَّ الإنكار أولئك الأعلامُ الذين ذكرناهم وأضرابُهم، ويحسبونهم أدعياء في نَسَبهِ مُزَوَّرين، وزنادقةً مُلحِدين.

وقد كشَفَ خُباهم، وفنَّدَ مزاعمَهم، وأبطلَ تصوفهم كثيرٌ من الأئمة، ومنهم شيخ الإسلام ابنُ تيمية والإمامُ ابن القيِّم رضي الله عنهما.

٣ ـ التصوُّف المحرَّف المُزَوَّر:

وهناك آخرون انتسبوا إلى الصوفية زُوراً، واتخذوها سِمَةً وحِرْفة، وتوارثوا فيما بينهم بِدَعاً وشعاراتٍ زائفة، وتقاليد منكرة يَبرأ منها التصوُّف وأعلامُه من أولي العلم واليقين.

وهؤلاء كذلك أدعياءُ في التصوف، دُخلاء في الصوفية، مبتدِعون آثمون.

وإحقاقاً للحق، وإنصافاً للصادقين: يجب أن لا يُحمَّلوا أوزارَ أولئك الأدعياء المبطلين، وأن لا يُطلَق القول في ذمِّ التصوف والصوفية، بل يُعطى كلُّ فريق حقَّه من المدح أو الذم، ومن الترغيب أو التحذير، دون تعصُّب أو تحيُّف[1].

(١) ولا يلزمُ من تَسَمِّي طائفةٍ ـ بهذا الاسم: الصُّوفيَّة ـ عاصِيين له من أهله، ثم =

وإنما أفَضْنا في هذا البيان ليتعرَّف القارىء أن الإمام المحاسبي صاحبَ «الرسالة» وأمثالَهُ من الصوفية: إنما هم من أولئك الصوفية الصادقين في نهجهم وأقوالِهم وعلومِهم[١].

وفي «رسالة المحاسبي»: دليل على ما ذكرنا، وفيها: تربية للنفوس، وتهذيب للطباع، وعلم صحيح لمن يطالعونها بدقَّة وعناية، مع تعليقات الأستاذ المحقِّق، الذي له الفضلُ في نَشْرِ هذا التراث العظيم وشَرْحِه، نفَعَ الله بهما، وأجزَل مثوبتَهما آمين.

كتبه
حسنين محمد مخلوف
مفتي الديار المصرية السابق وعضو جماعة كبار العلماء
في القاهرة في ٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٩

= ارتكابهم ما نُقل عنهم مما يُنافي حال المُتَّقين به حقيقةً: أن يُؤاخَذ الصالحُ بالطالح، ﴿ولا تزِرُ وازِرةٌ وِزْر أُخرى﴾. قاله الإمامُ ابنُ المُنيِّر الإسكندري رحمه الله تعالى في تعليقه على «الكشاف» للزمخشري ١:٢٦١.

(١) ومصداقاً لما قاله شيخنا مفتي الديار المصرية هنا، سأنقُلُ فصْلاً موجزاً من كلام الإمام الشاطبي، في بيان أنَّ الصوفية الصادقين أهلُ اتِّباع لا ابتداع، وأنهم أحرى بالمدح والتقدير، وأنهم أبعدُ الناس عن البدع وأهلِها، وأرعى الناسِ للحفاظ على اتِّباع الشريعة وآدابها.

شهادةُ الإمام الشاطبي للصوفيّةِ الصادقين
بأنهم أهلُ اتّباع لا ابتداع
وبيانُه أنَّ الكلامَ في دقائق التصوُّف
ليس ببدعةٍ بإطلاق.

عَقَد الإمام الشاطبي الفقيهُ الأصوليُّ في كتابه النافع العظيم: «الاعتصام»، فصلاً مطولاً في نحو عشر صفحات، ساق فيه الأدلة على تبرئة الصوفية المعتبرين، مما يرميهم به بعضُ الجهال بأنهم اصحابُ بِدَع وضلالات، وبيَّنَ بأجلى بيانٍ أنَّ طريقتهم ومذهبهم قائم على اتّباعِ السنة واجتنابِ ما خالَفَها. وانا أسوقُ هنا جُمَلاً مما قاله، إنصافاً للحقيقةِ وأهلِها، والله وليُّ الهُدَى والسَّدَاد.

قال رحمه الله تعالى في الفصل الرابع من (الباب الثاني) ١: ٨٩ ــ ٩٩، ثم في الفصل السابع من (الباب الثالث) ١: ٢٠٧:

«فصلٌ: الوجهُ الرابع: ما جاء في ذمِّ البِدَع وأهلِها عن الصُّوفيةِ المشهورين عند الناس

وإنما خَصَصْنا هذا الموضعَ بالذكر، وإن كان فيما تقدم من النقل ــ من الكتاب والسنة، وكلامِ السلف الصالح في ذمِّ البِدَع وأهلِها ــ كفايةٌ، لأن كثيراً من الجهال يعتقدون في الصوفية أنهم متساهلون في الاتّباع، وأن اختراع العبادات، والتزامَ ما لم يأتِ في الشرع التزامُه: مما يقولون به ويعملون عليه.

وحاشاهم من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به، فأوَّلُ شيءٍ بَنَوْا عليه طريقتَهم: اتِّباعُ السنة، واجتنابُ ما خالَفَها، حتى زَعَم مُذَكِّرُهم وحافظُ مآخذِهم، وعمودُ نِحلتِهم: أبو القاسم القُشَيري أنهم إنما اختَصُّوا باسم التصوف، انفراداً به عن أهل البدع.

فذكر أن المسلمين بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لم يتسمَّ أفاضلُهم في عصرهم باسم علمٍ سوى الصُّحْبة، إذ لا فضيلة فوقها، ثم سُمّي من يليهم: التابعين، ورأوا هذا الاسم أشرفَ الأسماء. ثم قيل لمن بعدهم: أتباعُ التابعين. ثم اختلف الناسُ وتباينتْ المراتب، فقيل لخواصِّ الناس ممن له شِدّةُ عنايةٍ في الدين: الزُّهّادُ والعُبّاد.

قال: ثم ظهرتْ البدع، وادّعى كلُّ فريقٍ أنَّ فيهم زُهّاداً وعُبّاداً، فانفرد خواصُّ أهل السُّنّة المراعون أنفسهم مع الله، الحافظون قلوبهم عن الغفلة، باسم التصوُّف.

هذا معنى كلامه، فقد عدَّ هذا اللقب مخصوصاً باتّباع السُّنّة ومباينة البدعة. وفي ذلك ما يدل على خلاف ما يعتقده الجهالُ ومن لا عبرة به من المدّعين للعلم.

وفي غرضي إن فسح الله في المدّة، وأعانني بفضله، ويسّر لي الأسباب، أن ألخّص في طريقة القوم أنموذجاً يُستدلُّ به على صحتها وجريانها على الطريقة المُثلى، وأنه إنما داخلتْها المفاسد، وتطرّقتْ إليها البدع، من جهة قومٍ تأخّرت أزمانُهم عن عهد ذلك السلف الصالح، وادّعوْا الدخول فيها من غير سلوك شرعي، ولا فهم لمقاصد أهلها! وتقوّلوا عليهم ما لم يقولوا به! حتى صارت في هذا الزمان الأخير، كأنها شريعةٌ أخرى، غيرُ ما أتى بها محمد صلّى الله عليه وسلّم.

وأعظمُ من ذلك أنهم يتساهلون في اتّباع السُّنّة، ويرون اختراع العبادات طريقاً للتعبُّد صحيحاً! وطريقةُ القوم بريئةٌ من هذا الخُبّاط بحمد الله تعالى.

فقد قال الفُضيل بن عياض: من جلس مع صاحب بدعةٍ لم يُعْطَ الحكمة. وقال ذو النُّون المصري: إنما دخل الفسادُ على الخلق من ستة أشياء. ... والخامسُ: اتّبعوا أهواءهم، ونبذوا سُنّة نبيهم صلّى الله عليه وسلّم. والسادسُ: جعلوا زلّات السلف حُجّةً لأنفسهم، ودفنوا أكثر

مناقبهم. وقال يحيى بن مُعاذ الرازي: اختلافُ الناس كلُّه يرجعُ إلى ثلاثةِ أصول، فلكل واحد منها ضد، فمن سقط عنه وقع في ضده: التوحيدُ، وضدُّه الشرْك. والسُّنَّةُ، وضدُّها البِدْعة. والطاعةُ، وضدُّها المعصية.

وقال أبو علي الحسن بن علي الجُوزْجاني: من علامات السعادة على العبد: تيسيرُ الطاعة عليه، وموافقةُ السُّنَّة في أفعاله، وصُحبتُه لأهل الصلاح، وحُسنُ أخلاقه مع الإخوان، وبذلُ معروفه للخلق، واهتمامُه للمسلمين، ومراعاتُه لأوقاته.

وسُئل: كيف الطريق إلى الله؟ فقال: الطُّرقُ إلى الله كثيرة، وأوضحُ الطرق وأبعدُها عن الشُبَه: اتِّباعُ السنة قولاً وفعلاً وعزْماً وعقْداً ونيّةً. فقيل له: كيف الطريقُ إلى السُّنَّة؟ فقال: مُجانبةُ البدع، واتّباعُ ما أجمع عليه الصَّدْرُ الأول من علماء الإسلام، ولزومُ طريقة الاقتداء.

وقال أبو الحسن الورَّاق: الصِّدْقُ استقامةُ الطريق في الدين، واتّباعُ السُّنَّة في الشرع. وعلامةُ محبة الله: متابعةُ حبيبه صلّى الله عليه وسلّم. وقال أبو بكر بن سعدان وهو من أصحاب الجُنيد: الاعتصامُ بالله هو الامتناعُ من الغفلةِ والمعاصي والبِدَعِ والضلالات.

وقال أبو عُمر الزُّجاجي وهو من أصحاب الجُنيد وسفيان الثوريّ وغيرهما: كان الناسُ في الجاهلية يتّبعُون ما تستحسنه عقولُهم وطبائعُهم، فجاء النبي صلَّى الله عليه وسلّم فردَّهم إلى الشريعة والاتّباع. فالعقلُ الصحيحُ: الذي يَستحسن ما يستحسنه الشرع، ويَستقبح ما يستقبحه.

وقال أبو يزيد البِسْطامي: عملتُ في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدتُ شيئاً أشدّ من العلم ومتابعته، ولولا اختلافُ العلماء لشقيتُ، واختلافُ العلماء رحمةٌ إلاّ في تجريد التوحيد. ومتابعةُ العلم هي متابعةُ السُّنَّة لا غيرها.

ورُوي عنه أنه قال: قُمْ بنا ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفْسه بالولاية ــ وكان رجلاً مقصوداً مشهوراً بالزُّهْد ــ. قال الراوي: فمضينا، فلما خرج من بيته ودخل المسجد، رمى بُصاقه تجاه القبلة. فانصرف أبو يزيد

ولم يُسلِّم عليه، وقال: هذا غيرُ مأمونٍ على أدبٍ من آداب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فكيف يكون مأموناً على ما يَدَّعيه؟[1]. وقال: لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات، حتى يرتقي في الهواء، فلا تغترُّوا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمرِ والنهي وحِفظِ الحدود وآدابِ الشريعة.

وقال سهْل التُسْتَري: أصولُنا سبعةُ أشياء: التمسُّكُ بكتاب الله، والاقتداءُ بسنة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأكلُ الحلال... وسُئِل عن الفُتُوَّة فقال: اتِّباعُ السُّنَّة. وقال أبو سُليمان الدَّارَانِي: ربما تقع في قلبي النُّكْتةُ من نُكت القوم أياماً، فلا أقبلُها إلاَّ بشاهِدين عَدْلَين: الكتابِ والسنة. وقال أحمد بن أبي الحُوارى: من عمِل عملاً بلا اتباع سُنَّة، فباطِلٌ عَمَلُه.

وقال أبو القاسم الجُنيد: الطُّرُقُ كلُّها مسدودةٌ على الخلق، إلاَّ على من اقتفى أثر الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم. وقال: من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث، لا يُقتدى به في هذا الأمر، لأنَّ علمنا هذا ــ وفي لفظٍ: لأنَّ مذهبنا هذا ــ مقيَّدٌ بالكتابِ والسنة.

وقال أبو عثمان الحِيْرِي: من أمَّر السُّنَّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، قال الله تعالى: ﴿وإن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾.

---

(١) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «البُزاق في المسجد خطيئة، وكفارتها دفنُها». رواه البخاري في «صحيحه» في (أبواب استقبال القبلة وما يتْبَعُها من آداب المساجد) ١:٤٢٨، ومسلم في «صحيحه» أيضاً، في (كتاب المساجد ومواضع الصلاة) ٥:٤١. وفي رواية ثانية عند مسلم: «التَّفْلُ في المسجد خطيئة...».

ورَوَى البخاري أيضاً عن أبي هريرة عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يَبْصُق أمامه، فإنما يُناجي الله ما دام في مُصلاه، ولا عن يمينه، فإنَّ عن يمينه مَلَكاً، وليَبْصُق عن يساره أو تحت قدمِهِ فيَدْفِنُها». ورَوَى أيضاً عن أنس أنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم «رأى نُخامةً في القبلة، فحكَّها بيده» ورُوِيَ منه كراهتُهُ لذلك وشِدَّتُه عليه».

وقال أبو الحُسَين النُّوري: من رأيتَه يدَّعي مع الله حالةً تُخرِجُه عن حَدِّ العلم الشرعي، فلا تَقْرَبَنَّ منه. وقال أبو القاسم النصرآبادي: أصلُ التصوف مُلازمةُ الكتاب والسنة، وتركُ البدع والأهواء، وتعظيمُ حُرُمات المشايخ، ورُؤيةُ أعذار الخلْق، والمداومةُ على الأوراد، وتركُ ارتكاب الرُّخص والتأويلات.

وكلامُهم في هذا الباب يطول، وقد نقلنا عن جملةٍ ممن اشتهر منهم يُنيفُ عددُهم على الأربعين شيخاً، جميعُهم يُشير أو يُصرِّحُ بأن الابتداع ضلال، والسُّلوك عليه تيه، واستعماله رَمْيٌ في عماية، وأنه مُنافٍ لطلب النَّجاة، وصاحبُه غيرُ محفوظ، وموكولٌ إلى نفسه، ومطرودٌ عن نيل الحكمة، وأنَّ الصوفية الذين نُسبت إليهم الطريقةُ مجمعون على تعظيم الشريعة، مقيمون على متابعة السنة، غيرُ مُخلِّين بشيء من آدابها، أبعدُ الناس عن البدع وأهلها

ولذلك لا نجد منهم من يُنسبُ إلى فرقةٍ من الفرق الضالَّة، ولا من يميل إلى خلاف السُّنَّة، وأكثرُ من ذُكر منهم: علماء، وفقهاء، ومحدِّثون، وممن يُؤخذ عنه الدينُ أصولاً وفروعاً، ومن لم يكن كذلك فلا بُدَّ له من أن يكون فقيهاً في دِينه بمقدار كفايته.

وهم كانوا أهل الحقائق والمَواجد والأذواق والأحوال والأسرار التوحيدية، فهم الحُجَّةُ لنا على كل من ينتسب إلى طريقهم، ولا يجري على منهاجهم، بل يأتي ببدعٍ ومُحدثات، وأهواءٍ مُتَّبعات، وينسُبُها إليهم، تأويلاً عليهم، من قولٍ محتمل، أو فعلٍ من قضايا الأحوال، أو استمساكاً بمصلحةٍ شَهِدَ الشرعُ بإلغائها، أو ما أشبَهَ ذلك.

فكثيراً ما ترى المتأخرين ممن يتشبَّه بهم، يرتكبُ من الأعمال ما أجمع الناسُ على فساده شرعاً، ويحتجُّ بحكاياتٍ هي قضايا أحوال، إن صحَّت لم يكن فيها حجة، لوجوه عدَّة، ويَترُكُ من كلامهم وأحوالهم ما هو واضح في الحق الصريح، والاتِّباع الصحيح، شأن من اتَّبع من الأدلة الشرعية ما تشابه منها!

وأما الكلامُ في دقائق التصوف، فليس بدعة بإطلاق، ولا هو مما صحَّ بالدليل بإطلاق، بل الأمرُ ينقسم.

ولفظُ التصوف لا بُدَّ من شرحه أولاً، حتى يقع الحكمُ على أمرٍ مفهوم، لأنه أمرٌ مُجْمل عند هؤلاء المتأخرين، فلنرجع إلى ما قال فيه المتقدمون.

وحاصلُ ما يرجعُ فيه لفظُ التصوُّف عندهم معنيان، أحدُهما التخلُّقُ بكل خُلُق سنيّ، والتجرُّدُ عن كل خُلُق دنيّ، والآخَرُ أنه الفناءُ عن نفسه، والبقاءُ لِرَبِّه.

وهما في التحقيق يعودان إلى معنى واحد، إلَّا أنَّ أحدهما يصلُح التعبيرُ به عن البداية، والآخر يصلُحُ التعبيرُ به عن النهاية وكلاهما اتِّصاف، إلَّا أن الأول لا يلزمه الحال، والثاني يلزمه الحال وقد يُعبَّر فيهما بلفظٍ آخر، فيكون الأوَّلُ عملاً تكليفياً، والثاني نتيجته، ويكون الأول اتِّصاف الظاهر، والثاني اتِّصافَ الباطن، ومجموعُهما هو التصوُّف.

وإذا ثبت هذا، فالتصوُّفُ بالمعنى الأول لا بدعة في الكلام فيه لأنه إنما يرجع إلى تفقُّهٍ ينبني عليه العملُ، وتفصيلُ آفاته وعوارضه، وأَوْجُه تلافي الفساد الواقع فيه بالإصلاح، وهو فقهٌ صحيح، وأصولُه في الكتاب والسنة ظاهرة، فلا يقال في مثله بدعة، إلا إذا أُطلق على فروع الفقه التي لم يُلْفَ مثلُها في السلف الصالح أنها بدعة، كفروع أبواب السَّلَم، والإجارات والجراح، ومسائل السَّهْو، والرجوع عن الشهادات، وبُيوع الآجال، وما أشبهَ ذلك.

وليس من شأن العلماء إطلاقُ لفظ البدعة على الفروع المستنبطة، التي لم تكن فيما سلف، وإنْ دقَّتْ مسائلُها، فكذلك لا يُطلَقُ على دقائق فروع الأخلاق الظاهرة والباطنة أنها بدعة، لأن الجميع يرجعُ إلى أصول شرعية».

انتهى.

ثم فصَّل الشاطبيُّ الكلام وقسَّمه إلى أضرُبٍ أربعة، على تعريف (التصوُّف) بالمعنى الثاني، وبيَّن ما يدخُلُ منه في البدعة وما لا يدخل، ولولا

طُولُه لنقلته، فليراجعه من شاء.

وهذا الكلامُ الذي نقلتُه هنا عن الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى: صريحٌ في مدح التصوُّف الحقّ والصوفيَّة الحقيقيين. وبعد هذا البيان من هذا الإمام الجليل الفقيه الأصولي المحقق البصير، لا يليقُ بالعاقل العالم ذمُّ التصوُّف أو الصوفية بالإطلاق. وإنما يُذمُّ من كل عملٍ أو جماعةٍ ما خالف الكتاب والسُّنَّة وهَدْيَ السلف الصالح، رضوان الله عليهم أجمعين.

وقد سبق الإمامَ الشاطبيَّ إلى مدح الصوفية الصادقين غيرُ واحد من الأئمة الكبار والمتنوعين. قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى، في كتابه «مدارج السالكين» ٣: ١٢٩ ـ وهو كتابُ كلُّه تصوُّف وسلوك ـ: «قال الشافعي رضي الله عنه: صحبتُ الصوفية، فما انتفعتُ منهم إلّا بكلمتين: سمعتُهم يقولون: الوقتُ سيف، فإن قطعتَهُ وإلّا قطعك. ونفسُك إن لم تشغلها بالحق شَغَلتك بالباطل.

قلتُ ـ القائلُ الإمامُ ابنُ القيم ـ: يا لهما من كلمتين ما أنفعهما وأجمعهما، وأدلَّهما على عُلُوِّ همة قائلهما ويقظته، ويكفي في هذا ثناءُ الشافعي على طائفةٍ هذا قَدْرُ كلماتِهم».

تقدمة الطبعة الأولى:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وليّ كل خيرٍ وهداية، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الداعي إلى أفضل طريقٍ وغاية، ورضي الله عن أصحابه مصابيح الهدى والدين، وتابعيهم السالكين نهجهم القويم بإحسان.

أما بعد: فمن أشدّ ما يحتاج إليه الناسُ في هذا العصر: العنايةُ بالروح، والفهمُ للدين، والعملُ به، وقد تهيّأ هذا للسّلف الصالح على الوجه الأوفى، فطاب مجتمعُهم، وصلح سلوكُهم، وكثر خيرُهم، وقلّ شرُّهم، وكسبوا لأنفسهم في دنياهم وأخراهم خيراً.

وقد ترك أولئك السّلفُ الصالحون آثار خيرٍ وعلمٍ تُرشد التائهين، وتردُّهم إلى الجادّة إذا ضلّوا الطريق، فألّفوا الكتب والرسائل في فضائل الأعمال وتزكيتها، وفي إصلاح النفس وتنقيتها، ترغيباً وترهيباً، حتى قيل فيهم لكثرة ما قاموا به من تأليف وتصنيف، وتحذير وتعريف: «كم ترك الأوّلُ للآخِر».

ومن أطيب ما ترك الأوّلُ للآخِر آثارُ الإمام الشيخ أبي عبد الله الحارث بن أسد المُحاسبي الزاهد، الواعظ الفقيه، المحدث المتكلم، الناصح الأمين، الداعي إلى الله بقلبه وقالبه، ولسانه وقلمه.

ولقد أوتي أبو عبد الله إخلاصاً ناصعاً، وقلباً مُشرقاً، وبياناً ناطقاً، مع التقوى والخوف من الله تعالى. وهاتان الكلمتان خرْسان في النطق والسمع، ولكنهما كانتا في قلب أبي عبد الله أوسع من الدنيا وأيقظ من الحياة، وقد فرغ قلبُ أبي عبد الله من الدنيا فراغ من أيقن أن ليس بينه وبين القبر إلا ساعة، فلذلك قام يُذكِّرُ الناس بلسانه وبيانه، كأنه يرى الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، حتى كان كما قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: «لو وجدتُ أعوان

لفرْقتهم ينادون في سائر الدنيا كلِّها: يا أيها الناس النارَ! النار!».

وقد سلك أبو عبد الله ـ أجزل الله مثوبته ـ في بعض كتبه مسلك الإطناب والإسهاب حتى لم يدع زيادةً لمستزيد، وسلك في بعضها مسلك الجزالة والإيجاز، مكتفياً بقصير الكلام عن طويله، وبقليله عن كثيره، اعتماداً منه على توجُّهِ نفْس المسترشِد المستوصف، المستهدي المتنبِّه

فألَّف هذه الرسالة التي سمّاها «رسالة المسترشدين»، وأودعها عالي النُّصح، وأطيب الإرشاد، وأوفى الموعظة، وأجلى التنبيه والإيقاظ، وأخلص القول والبيان والتوجيه، في جُمَلٍ مكنوزةٍ بالعلم والمعاني، تُفهم سريعاً، وتُقرأ سريعاً، ولكن لا يستفيدُ منها قارئها تمام الفائدة إلّا إذا قرأها في أناةٍ وتدبُّرٍ تام، جملةً جملة، كالذي يكرِّرُ الشيء ويتأنّى به ليحفظه ويستظهره ويتدبّره

هذه الرسالة كانت «مخطوطة» عندي، تيسَّر لي اقتناؤها من سنواتٍ عديدة، فلما قرأتُها من قريب رأيتُها حاويةً جامعة، وافيةً بإرشاد السالك للخير والباحث عنه. فألزمتُ نفسي نشرها، وإخراجها للناس، إشاعةً للنفع بها والاستفادة من إخلاص مؤلِّفها وصلاحه، وبالغ ورعه وعلمه، وصدق تذكيره بالله تعالى، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

والمخطوطةُ التي عندي منها واضحةُ الخطّ، بيِّنةُ الكلمات، يندُرُ فيها الغلطُ جداً، وعليها أثرُ المقابلة والتصحيح في غير موطن، تبلغ صفحاتها ٣٣ صفحة من القطع الصغير، ولا تاريخ لكتابتها، وقد كُنتُ في زمنٍ ماضٍ، أقدّر أنها كُتبت بعد الألف من الهجرة، ولم يُذكر فيها اسمُ كاتبها، إلّا أنه جاء في الصفحة الثالثة منها بخطٍ منقوطٍ برأس القلم نُقطاً صغيرة متتابعة، تألَّف منها الجملةُ التالية: «كتبها أحمد ابن الحاج إسماعيل».

وعلمتُ أنَّ في «معهد المخطوطات العربية» بالقاهرة نسخةً مخطوطة من هذه الرسالة، مصوَّرة عن نسخةٍ في مكتبة البلدية في الإسكندرية ورقمها فيها: (٣٠٢٤/١٣ ج)، فصوَّرتُها، فإذا هي نسخةٌ مغربية الخط، تقع في ١٤ صفحة من القطع الصغير الناعم الكلمات المتراصّة، مضبوطةً بالشكل في

كثير من كلماتها، غير أنها نسختي لا تاريخ عليها لكتابتها، ولا ذكر لاسم كاتبها أيضاً، وقد جاء في «فهرس المخطوطات المصوَّرة» لمعهد إحياء المخطوطات العربية ١ / ١٦٤ أنها «كتبت في القرن الثاني عشر».

فقابلتُ بها نسختي بمعونة ابن أخي الشابّ الناهض المحدِّث النابه الأستاذ الشيخ عبد الستار أبو غدة، أدام الله عليه توفيقه، وزاده في العلم بسطة وقوة. واستفدتُ منها كثيراً في استكمال بعض الجُمَل وتصويبها، وأشرتُ في بعض المواطن إلى المخالفات الواقعة بين النسختين في الحاشية، وهذه النسخة عند الإشارة إليها أسمّيها: النسخة المغربية. كما أسمّي نسختي: الأصل. وإذا اتفقتا قلتُ: في الأصلين.

واستكمالاً للإفادة منها علّقتُ عليها ما يزيدها بياناً ونفعاً، ووضوحاً وفهماً، وعزوتُ الآيات الكريمة إلى سُوَرها ومواقعها منها، وخرَّجتُ الأحاديث الشريفة، وترجمتُ للمؤلِّف ترجمةً مستوفاة، تُعرِّفُ بمكانة الإمام المحاسبي الذي غُمط حقَّه من التعريف عند طَبْع كتابيه: «التوهم» و«الرعاية»، وقدَّمتُها بالإهداء إلى رُوح ابن أخي الشابّ التقي عبد الهادي أبو غدة الذي أدركه أجلُه في ريعان شبابه وما تمَّ له عشرون ربيعاً.

اللهم عوِّضْهُ من شبابه في الجنة، واختم لنا وله بالحسنى وزيادة، وتقبَّلْ عملي هذا، واجعله خالصاً لوجهك، محفوظاً عندك، أنتفعُ به يوم القدوم عليك، ﴿يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلَّا من أتى الله بقلبٍ سليم﴾.

وكتبه

حلب ١ من جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ — عبد الفتاح أبو غدة

تـرجمة المـؤلف

نسبه وتاريخ ولادته ووفاته:

هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المُحاسبي، البصري المولد، البغدادي المنزل والوفاة، الإمام العارف الناطق بالحكمة، عديمُ النظير في زمانه ورعاً وعلماً ومعاملةً وحالاً، أحدُ الزهاد المتكلّمين في العبادة والزهد والمواعظ. وعُرف بالمُحاسبي لكثرة مُحاسبته لنفسه، ولم يُعرف تاريخُ ولادته، وكانت وفاته ببغداد سنة ٢٤٣ رحمه الله تعالى. وولد في حدود سنة ١٦٥ كما استخرجتُه من الوقوف على وَفَيات بعض شيوخه.

وقد جمع له ترجمةً في جزء مستقل المؤرِّخُ المحدِّثُ الأديب ابنُ بَشْكُوال (خلف بن عبد الملك) الأندلسي القرطبي، المولود سنة ٤٩٤، والمتوفى سنة ٥٧٨، كما ذكر ذلك الحافظُ السَّخاوي في آخر كتابه: «الجواهر والدُّرر في ترجمة شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر»، في فصلٍ عقده لمن أُفردتْ سيرتُهُ في كتاب، كما في القسم المطبوع منه في بغداد في ضمن كتاب «الإعلان بالتوبيخ» للسخاوي ص ٣٧٢.

روايته الحديث ومن روى عنه:

روى الحديث عن يزيد بن هارون وطبقته، وأخذ عن الإمام الشافعي، كما ذكره أبو منصور عبد القاهر التميمي البغدادي في «أصول الدين» ص ٣٠٨[1]. وروى عنه أبو العباس بن مسروق، وأحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي، والشيخ الإمام الجُنيد، وله معه حكايات مشهورة،

---

(١) ونازع الحافظُ ابنُ الصلاح في أن يكون المحاسبيُّ أخذ عن الإمام الشافعي وتتلمذ له، كما نقله عنه التاج السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» ٢: ٢٧٥، ووافقه السبكيُّ عليه وأقرَّه، وزاد: «بل الصواب أن يكون المحاسبي ممن عاصر الشافعيَّ واختار مذهبه» انتهى. فهو من أتباع الإمام الشافعي رضي الله عنه، وليس ممن أخذ عن الشافعي ولقيه. وهو الصواب عندي كما قام الدليلُ عليه، مما لا يحتملُ المقامُ ذكره هنا وبسْطه

وإسماعيل بن إسحاق السرَّاج، وأبو علي الحسين بن خَيْران، وأحمد بن القاسم بن نصر، وأحمد بن عبد الله بن ميمون وغيرُهم.

تنسُّكُـهُ وعلـومـه وإمـامتـه وكثـرة تصانيفه:

كان رحمه الله تعالى ناسكاً عابداً، وصوفياً زاهداً، وفقيهاً وأصولياً ومتكلِّماً، وواعظاً مُبكياً، ومحدِّثاً راوياً، أُوتي فصاحةَ لسان، وبراعةَ بيان، ونصاعة جنان، حتى إذا حدَّثك عن الشيء ترغيباً أو ترهيباً جعلك كأنك تراه رأي العين، وتُحسُّ به إحساس المباشِر له، ولا ينفصمُ عنك حديثُهُ إلَّا وقد أقنعك بالحُجَّة، وألبسك اليقين بما يقول، وما يقول أبو عبد الله إلَّا خيراً ونُصحاً.

تشهدُهُ فيما يكتبُ مستوفياً الخطرات والخلجات، وقائماً بالنِّذارة قيام صدقٍ ويقينٍ ومشاهدة. وكثيراً ما أبكاك فيما ناجاك. يتبدَّى لك إشفاقُه عليك من النار وأهوالها، فيما يُوليك من نُصْحٍ ويُخْلِصُك من موعظة. وتراه يُطيل إليك النَّفَس في الإقناع بما يدعوك إلى فعله أو تركه، إطالة الأب الرحيم الخائفِ الوجلِ على ولده من شديدِ العذاب[1].

ولقد كان أبو عبد الله ـ رحمه الله تعالى ـ يستنفد كلَّ وقته في الخير، إما

---

(١) تجد مصداق هذا في كتابيه: «الرعاية» و«التوهم»، فعليك بقراءتهما ليَلين قلبُك، وتَدْمَعَ عينُك، وتُدرِكَ من أحوال نفسِك وآخرتك ما لم تكن تعلم.

ولعلَّ الذي أوحى إلى الحارث المحاسبي تأليف كتاب «التوهم»، هو الشيخ إبراهيمُ بن أدهم، أحدُ أكابر العُبَّاد والزهاد، المتوفى سنة ١٦٢ رحمه الله تعالى، فقد جاء عنه كلامٌ يُشبهُهُ كثيراً مما قام عليه كتابُ «التوهم»، من عَرْض أهوال يوم القيامة على الخاطر والقلب والخيال والفؤاد. حكى الحافظ ابن كثير في ترجمته في «البداية» ١٠: ١٣٥ و ١٤٠، عن عبد الله بن المبارك صاحب إبراهيم بن أدهم ما يلي:

قال عبدُ الله بن المبارك: كان إبراهيم رجلاً فاضلاً، له سرائرُ ومعاملاتٌ بينه وبين الله تعالى، وما رأيتُه يُظهرُ تسبيحاً ولا شيئاً من عمله.

وكان إبراهيم يقول: دارُنا أمامَنا، وحياتُنا بعد وفاتنا، فإمَّا إلى الجنة، وإمَّا إلى النار! مثِّلْ لبصرك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك، وانظُرْ كيف تكون حينئذٍ، ومثِّلْ هولَ المضجع ومُساءلة مُنكرٍ ونكير، وانظُرْ كيف تكون؟ ومثِّلْ له القيامة وأهوالَها وأفزاعها، والعَرْضَ والحساب، وانظُرْ كيف تكون؟ ثم صَرَخ صرخةً وخرَّ مَغْشيّاً عليه».

تذكيراً، وإما تأليفاً، وإما عبادةً بين يدي الله عزَّ وجلَّ، حتى لا يفوت نفسٌ من أنفاسه إلاَّ وقد أدَّى وظيفته من الخير والطاعة التي يرجو ثوابها عند الله تعالى.

ولذلك كثُرَتْ تصانيفُه وكتبه، نقل الشيخ تاج الدين ابن السُّبْكي في ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى» ٢: ٣٧ عن بعضهم «إنها تبلغ مئتي مصنَّف». وأغلبُها في الزهد والسلوك والتصوف، وكثيرٌ منها في أصول الدين والردِّ على المعتزلة والرافضة والقدرية وغيرهم من المخالفين، وبعضُها في الفقه والأحكام. وكتُبُه ـ على كثرتها ـ كثيرة الفوائد جمَّةُ المنافع، وخاصَّةً كتبه في علوم التصوف وتزكية النفس والروح تُعدُّ أصولاً لكلِّ من صنَّف فيها بعده حتى الإمام أبي حامدٍ الغزالي رضي الله عنه.

ثناءُ الأئمة الكبار عليه:

قال شيخنا الإمام محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى: لقد كان أثرُ الإمام المحاسبي على الإمام الغزالي كبيراً، لقد تبطَّن الغزاليُّ كتاب «الرعاية» في كتابه «الإحياء» أي في كشف أمراضِ النفس وعِلَلها وبيانِ طبِّها وعِلاجِها.

وقال العلامة المُناوي في ترجمة المحاسبي في «الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية» ١: ٢١٨: «قال أبو منصور عبد القاهر التميمي البغدادي: هو إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام. وقال غيره: له المصنَّفات الدفعة الجمَّة بحيث تبلغ نحو مئتي مؤلَّف، وناهيك بكتابه «الرعاية»، وكتُبُهُ في هذه العلوم أصولٌ لمن صنَّف فيها. قال في «الإحياء»: المحاسبيُّ حَبْرُ الأمَّة في علم المعاملة، وله السَّبْقُ على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات، وكلامُهُ جديرٌ بأن يُحكى على وجهه»[1].

(١) نقل كلام الإمام الغزالي وثناءه على المحاسبي: الشيخُ ابنُ عبَّاد النِّفْري في «شرح الحكم» لابن عطاء الله الإسكندري، ص ٣٢ عند قوله: «أصْلُ كل معصيةٍ وغفلةٍ وشهوةٍ: الرضا عن النفس». =

وقال الإمام الشاطبي الفقيه الأصولي النقَّد، في أواخر الباب الرابع من كتابه «الاعتصام» ١: ٢٨٤: «والحارث المحاسبيُّ من كبار الصوفية المقتَدَى بهم».

وقال الحافظ ابن حجر في «نكته على كتاب ابن الصلاح» ٢: ٥٨٤، في (النوع الحادي عشر: المُعْضل): «والحارث المحاسبيُّ من أئمة الحديث والكلام». انتهى.

ثم احتجَّ بكلامه، ونقَله بحروفه من كتابه «فهْم السُّنن»، للردِّ والاستدراك على كلامٍ للحافظ الخطيب البغدادي في كتابه «الكفاية».

وهو مذكور في عداد أئمة أصول الفقه، فينسبون إليه بعض الآراء الأصولية في كتب الأصول، كما تراه في «الكوكب المنير في شرح مختصر التحرير» لتقي الدين الفُتُوحي الحنبلي، ٢: ٢٧٣ في مبحث (الإجماع)، وكما تراه في كتاب «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم ١: ١١٩، و«إرشاد الفحول إلى علم الأصول» للشوكاني ص ٤٦ و١: ٢٠٧ من الطبعة المحققة عن نسخة المؤلِّف، في مبحث السنة: «القسم الثاني: الآحاد وهو خبرٌ لا يُفيد بنفسِه العلمَ...».

طريقة تأليفه لكتبه في أحوال النفس:

هذا، وكان له في تدوين علمه وإنشاء تآليفه طريقةٌ غريبة، حكاها الحافظ أبو نُعيم في ترجمته في «الحلية» ١٠: ٧٤ فقال: «قال الجُنيد: كان الحارث المحاسبي يجيء إلى منزلنا ويقول: اخرُجْ معنا نُصْحر ـ أي إلى الصحراء ـ فأقول له: تُخرجني من عُزْلتي وأمْني على نفسي إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات؟!. فيقول: اخرُجْ معي ولا خوف عليك، فأخرج معه فكأنَّ الطريق فارغ من كل شيء؟ لا نرى شيئاً نكرهه، فإذا حصلتُ في المكان الذي يجلسُ فيه قال لي: سَلْني، فأقول له: ما عندي سؤال أسألك، فيقول لي: سَلْني عما يقع في نفسك، فتنثال عليَّ السؤالات فأسأله عنها،

= وعنه صُحّحتْ ما وقع في «الكواكب الدرية» من تحريف (خيْر الأمّة) إلى (حَبْر الأُمَّة)!

فيجيبني عنها للوقت، ثم يمضي إلى منزله فيَعْمَلُها كتباً».

وإذا أردت أن تعرف طرفاً من مقام الإمام المحاسبي في الفقه والعلم، فاقرأ الفصل الطويل الذي نقله المفسر القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ١٦ : ٣٣٩، في تفسير قوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿ولا يغتبْ بعضكم بعضاً﴾. فهو فصل ماتع ممتع يدل على علوّ كعب المحاسبي رحمه الله تعالى في الفقه والفهم والعلم.

انتقادُ بعض المحدثين لتآليف المحاسبي

نهض الشيخ المحاسبي في تدوين أحوال النفس وتركيبتها وبيان عيوبها في وقتٍ مبكّر: في ختام القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للهجرة، وكان في هذا العهد يزخر بالاشتغال بالحديث روايةً وحفظاً وكتابةً وارتحالاً في طلبه وتحصيله. وكان لأولئك المحدثين والرواة نظرةٌ ناقدة حادَّة، لكلّ من تحوَّل عن طريقتهم، وسلك مسلكاً آخر في العلم، فقيهاً كان أو مذكّراً أو متكلّماً.

وفي مثل هذا المقام ترى الحافظ الذهبيَّ في «ميزان الاعتدال» ٤ : ٣٠٤، حين نقل كلام الإمام أحمد في معاصره (هشام بن عمّار الدمشقي)، وشدَّة حكمِه عليه، أعقبه بقوله: «وما زال العلماءُ الأقرانُ يتكلّمُ بعضُهم في بعض بحسب اجتهادهم، وكلُّ أحدٍ يؤخذُ من قوله ويُترَكُ إلاّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم».

ولهذا لقي الشيخُ أبو عبد الله المحاسبي انتقاداً شديداً من بعض أقرانه ومعاصريه من الرواة والمحدثين، الذين يَرَوْن العلم كلَّ العلم رواية الحديث سنداً ومتناً لا بحثاً وفقهاً، ويرون إعمالَ الرأي في فهم الأثر خروجاً عليه، فإذا بلغهم عن عالمٍ أنه تكلَّم في مسألة بحثاً مجتهداً، أو متكلّمٍ قال في صفة من صفات الله قولاً، أو مذكّرٍ تحدَّث عن حال النفس كاشفاً منقِّباً. ثارتْ لذلك حفيظتُهم، ونقموا عليه ما صنع، وقالوا فيه من الجرح ما يرونه ملاقياً للجارح الذي اتَّصف به في نظرهم وبحسب اجتهادهم[1]، ....

(١) جاء في «مناقب الشافعي» للبيهقي ٢ : ٤٦، و«معجم الأدباء» لياقوت في ترجمة الإمام الشافعي رضي الله عنه ١٧ : ٢٩٩ «قال مُصْعب بن عبد الله الزُّبيري: قرأ عليَّ —

محمدُ بن إدريس الشافعيُّ أشعارَ هُذيل حفظاً، ثم قال لي: لا تُخبر بهذا أهلَ الحديث، فإنهم لا يحتملون هذا!».

قلتُ: بل إنهم لم يَحتملوا أقلَّ من هذا بكثير! لم يَحتملوا تصنيفَ الحديث على الأبواب، ولا تدوين كلام العلماء في الكتب، ـ يعني: الذين شهدوا لهم بالسُّنَّة والفقه والصلاح ـ، وإليك شواهدَ ذلك:

١ ـ جاء في «الحلية» لأبي نعيم ٨: ١٦٥، في ترجمة الإمام الجليل القُدوة عالم خراسان (أبي عبد الرحمن عبد الله بن المبارك)، المتوفى سنة ١٨١ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال محمد بن أبي الحواري: سمعتُ أبا أسامة ـ هو حمّادُ بن أسامة الكوفي الحافظ الإمامُ الحُجَّة ـ يقول: مررتُ بعبد الله بن المبارك بطرسوس وهو يُحدِّث، فقلتُ: يا أبا عبد الرحمن، إني لأُنكرُ هذه الأبواب والتصنيف الذي وضعتموه! ما هكذا أدركنا المَشْيَخَة!». انتهى.

فإذا كان هذا شأن أحد كبار المحدثين الحفاظ، مع شيخ المحدثين الفقهاء الزهاد، والمجاهدين العُبّاد: عبد الله بن المبارك، وكلُّ الذي صنعه هو أنه جمع الأحاديث تحت عناوين (الأبواب والتصنيف عليها)! فلا شكَّ أنّ شأنهم مع الإمام المحاسبي أشدُّ وأشدّ! وشأنهم مع الإمام أبي حنيفة الذي دوَّن الفقه أدهى وأمرّ!

٢ ـ وجاء في «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر ١: ١١٨، في ترجمة الإمام الفقيه المحدِّث المجتهد (أبي ثور إبراهيم بن خالد البغدادي)، المتوفى سنة ٢٤٠ رحمه الله تعالى ما يلي:

«قال أبو بكرٍ الأعْيَن: سألتُ عنه أحمد، فقال: أعرِفُه بالسُّنَّةِ منذ خمسين سنة، وهو عندي في مِسْلاخ الثوري ـ أي في هديه وسمته ـ. وقال أحمد بن حنبل وسُئل عن مسألة فقال: سَلِ الفقهاء، سَلْ أبا ثور. وقال عبد الله بن أحمد: انصرفتُ من جنازة أبي ثور، فقال لي أبي: أين كنت؟ فقلتُ: صلَّيتُ على أبي ثور، فقال: رحمه الله، إنه كان فقيهاً، ولم يَبلغني إلاّ خير، إلاّ أنه لا يُعجبني الكلامُ الذي يُصيِّرونه في كتبهم». انتهى

فإذا كان هذا قول الإمام أحمد في صاحبه أبي ثور، الفقيه المحدِّث المشهود له منه بأنه يعرفُه بالسُّنَّة منذ خمسين سنة، وبأنه فقيه، وفي مقام سفيان الثوري، فلا غَرْوَ في قوله في المحاسبي رحمهما الله تعالى.

٣ ـ وقد أنكر الإمامُ أحمدُ رحمه الله تعالى النظرَ في كتب سفيان الثوري ومالك والشافعي وأبي عُبيد القاسم بن سلاّم وإسحاق بن راهويه، لاشتمالها على شيء من آرائهم واجتهاداتهم الفقهية.

. . . .

= نَقَل الحافظ ابن الجوزي في كتابه «مناقب الإمام أحمد» في الباب ٢٨ و٢٩، ص ٢٤٩ ــ ٢٥١، قولَ الإمام أحمد لعثمان بن سعيد: «لا تنظر في كتب أبي عُبيد، ولا فيما وَضَع إسحاق، ولا سفيان، ولا الشافعي، ولا مالك، وعليك بالأصل.

وسأله سلمةُ بن شبيب فقال: يا أبا عبد الله، إنَّ أصحاب الحديث يكتبون كتب الشافعي؟ قال: لا أرى لهم ذلك. ولمَّا سُئل عن كُتُب أبي ثور قال: كتابٌ ابتُدع فهو بدعة، ولم يُعجبه وضعُ الكتب، وقال: عليكم بالحديث. وكان الإمام أحمد يكره أن يُكتب شيء من كلامه أو من رأيه أو فتواه». انتهى.

فإذا كان الإمامُ أحمد قد أنكر على هؤلاء الأئمة تقدُّمَهم لتأليفهم الكتب، وذكر آرائهم الاجتهادية فيها، فكيف لا يُنكِرُ هو أو مثلُه تصنيف الكتب المشتملة على الخواطر والخَلَجات والمقاصدِ والنيَّات؟

ولكنَّ الإمام أحمد رحمه الله تعالى لم يُوافَق على نهيه عن تصنيف الكتب، كما لم يُوافَق على نهيه عن كتابة كلامه، بل دُوِّنت الكتب، ودُوِّنت فتاواه ومسائلُه ومنصوصاتُه، كما ألمع إلى ذلك شيخ ابن القيم في أوائل «إعلام الموقعين» ١: ٢٨

قال التاج السبكي في «قاعدة في الجرح والتعديل» ص ٥٤ من الطبعة الخامسة نقلاً عن الإمام ابن دقيق العيد: «ومما ينبغي تفقده عند الجرح: الخلافُ الواقع بين كثير من الصوفية وأصحاب الحديث. فقد أوجب كلام بعضهم في بعض، كما تكلَّم بعضُهم في حق الحارث المحاسبي وغيره». انتهى. أي وكلامُ من تكلَّم فيه مردود، لأنه باعث المنافرة الواقعة بين المحدثين والصوفية.

وقد استمرَّتْ هذه النَّفرةُ إلى القرون المتأخرة ــ بل لا حرج عليك أن تقول: إلى يومنا هذا! ــ، وقد جاء في كتاب «تبيين كذب المفتري» للحافظ ابن عساكر ص ١٩١، في ترجمة أبي عبد الله بن خفيف (محمد بن خفيف) الشيرازي الصُّوفي، الفقيه الشافعي، المتوفى سنة ٣٧١ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال أبو عبد الله محمد بن عبد الله الشيرازي: نظر أبو عبد الله بن خفيف يوماً إلى ابن مكتوم وجماعةٍ من أصحابه يكتبون شيئاً ــ أي من العلم ــ، فقال: ما هذا؟ فقالوا: نكتب كذا وكذا، فقال: اشتغلوا بتعلُّم شيء، ولا يغرُّنَّكم كلامُ الصوفية، فإني كنت أخبِّئ محبرتي في جيب مُرقَّعتي، والكاغد ــ أي الورق ــ في حُجْزة سراويلي، وكنت أذهبُ خفيةً إلى أهل العلم، فإذا علموا بي خاصموني وقالوا: لا تُفلح! ثم احتاجوا إليَّ بعد ذلك».

وجاء في «تذكرة الحفاظ» للحافظ الذهبي ٤: ١٢١٦، في ترجمة (أبي القاسم =

وفي كتب الجرح والتعديل وقائعُ غيرُ قليلة من هذا النمط[١].

قال الحافظ الذهبي في ترجمة المحاسبي في «ميزان الاعتدال» ١: ١٩٩ ــ ٢٠٠ «والمحاسبيُّ العارفُ صاحبُ التواليف: صدوقٌ في نفسه، وقد نقموا عليه بعضَ تصوُّفه وتصانيفِه». انتهى.

فلا غرابة أن نجد الحافظ أبا زُرعةَ الرازيَّ رحمه الله تعالى ينتقدُ الشيخ المحاسبيَّ وكتبَهُ وطريقتَهُ أشدَّ انتقاد، تمشياً منه مع بيئته الحديثيَّة التي يحياها وتموجُ من حوله موجاً، روى الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» ٨: ٢١٥ بسنده إلى سعيد بن عمرو البرْذَعي قال: «شهدتُ أبا زُرْعة ــ وقد سُئِل عن الحارث المحاسبي وكتبه ــ فقال للسائل: إياكَ وهذه الكتب! هذه كتبُ بدعٍ وضلالات!! عليك بالأثر، فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب.

قيل له: في هذه الكتب عبرة، قال: من لم يكن له في كتاب الله عبرةٌ، فليس له في هذه الكتب عبرة. بلغكم أنَّ مالك بن أنس، وسفيان الثوريَّ، والأوزاعي، والأئمة المتقدِّمين: صنَّفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء؟! هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم ــ أي أهل الحديث ــ ، يأتونا مرةً بالحارث المحاسبي، ومرةً بعبد الرحيم الدَّيْبُلي، ومرةً بحاتمٍ الأصم، ومرةً بشقيق! ثم قال: ما أسرع الناسَ إلى البدع؟!». انتهى.

تقسيمُ الإمام الشافعي البدعة إلى محمودة ومذمومة:

وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ١٣: ٢١٢، في كتاب

= هبة الله بن عبد الوارث الشيرازي ثم المروزي)، الحافظ المفيد الجوَّال الصُّوفي، المتوفى سنة ٤٨٥ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال محمَّد بن محمَّد القشاني: كنتُ إذا مضيتُ إلى أبي القاسم هبة الله بالرِّباط ــ لقراءة الحديث عليه ــ ، أخرجني إلى الصحراء وقال: اقرأ هنا، فالصوفيةُ يتبرَّمون ممن يشتغل بالعلمِ والحديث! يقولون: يُشَوِّشُون علينا أوقاتَنا!».

(١) انظر شواهد ذلك وأمثلته في رسالتي «مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل»، أو تعليقي على «قواعد في علوم الحديث» للشيخ التهانوي ص ٣٦١ ــ ٣٨٠.

الاعتصام، في (باب الاقتداء بسُنن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم)، عند رواية البخاري لقول عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه:

«إنَّ أحسن الحديث كتابُ الله، وأحسن الهدْي هدْيُ محمَّد صلى الله عليه وسلَّم، وشرَّ الأمور مُحْدثاتُها، وإنَّ ما تُوعدون لآتٍ وما أنتم بمُعْجزين»، ما يلي:

«قال الشافعي: البدعةُ بدعتان، محمودة، ومذمومة، فما وافق السُّنَّة فهو محمود، وما خالَفها فهو مذموم. أخرجه أبو نعيم بمعناه، من طريق إبراهيم بن الجُنَيد عن الشافعي.

وجاء عن الشافعي أيضاً ما أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» ١/ ٤٦٩، قال: المُحْدثاتُ ضربان، ما أُحدثَ يُخالفُ كتاباً أو سُنَّةً أو أثراً أو إجماعاً، فهذه بدعةُ الضَّلال. وما أُحدثَ من الخير لا يُخالفُ شيئاً من ذلك، فهذه مُحْدَثةٌ غيرُ مذمومة. انتهى.

فمما حَدَثَ ١ ـ تدوينُ الحديث، ٢ ـ ثم تفسيرُ القرآن، ٣ ـ ثم تدوينُ المسائل الفقهية المولَّدة عن الرأي المحض، ٤ ـ ثم تدوينُ ما يتعلَّقُ بأعمال القلوب.

فأما الأول فأنكره عمر وأبو موسى الأشعري وطائفة، ورخَّص فيه الأكثرون.

وأما الثاني فأنكره جماعةٌ من التابعين كالشعبي.

وأما الثالث فأنكره الإمامُ أحمد وطائفةٌ يسيرة.

وكذا اشتدَّ إنكارُ أحمد للذي بعده».

توجيهٌ آخرُ في نهي الإمامين أبي زرعة وأحمد عن مسلك المحاسبي:

ويُعلِّلُ الحافظ ابن رجب الحنبلي نَهْيَ أبي زرعة وأحمد وغيرهما عن مسلك الحارث المحاسبي تعليلاً آخر غير الذي أسلفتُهُ، فيقول رحمه الله تعالى في كتابه: «جامع العلوم والحكم» ص ٢٢٣ عند حديث «استفتِ قلبك وإن أفتاك المفتون»: «وإنما ذمَّ أحمدُ وغيرُه المتكلِّمين على الوساوس والخطرات من الصوفية، حيث كان كلامُهم في ذلك لا يَستندُ إلى دليل شرعي، بل إلى مجرَّد

رأيٍ وذوق، كما كان يُنكِرُ الكلامَ في مسائل الحلال والحرام بمجرَّد الرأي من غير دليل شرعي». انتهى.

ويُسنِدُ ابنُ الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» في الباب ٢١، ص ١٧٩، إلى «إسحاق بن حَيَّة الأعمش، قال: سمعتُ أحمد بن حنبل، سُئِلَ عن الوساوس والخطرات، فقال: ما تكلَّم فيها الصحابة ولا التابعون». ثم يقول ابنُ الجوزي في الباب ٢٣، في ص ١٨٥: «وقد كان الإمام أحمد، لشدة تمسكه بالسنة، ونهيه عن البدعة، يتكلَّمُ في جماعةٍ من الأخيار إذا صَدر منهم ما يخالفُ السنة، وكلامُه في ذلك محمول على النصيحة للدين». انتهى.

ويحصرُ الشيخُ ابنُ تيمية نَهْيَ الإمام أحمد وتحذيره من المحاسبي، بسبب اختيار المحاسبي لبعض المذاهب الكلاميَّة، التي أحدثها ابنُ كُلَّاب البصري ـ أي وليس نهيُه عن المحاسبي لأنه تكلَّم في شأن السلوك والأخلاق وتهذيب النفوس، فهذا شيء يحرِصُ عليه العلماءُ العاملون، ويدْعُون إليه بحالِهم ومَقالِهم وأفعالِهم وكتبِهم ـ.

جاء في «مجموع الفتاوى» للشيخ ابن تيمية ١٢: ٣٦٦ ـ ٣٦٨، قولُه رحمه الله تعالى: «وكان قد نبغ في أواخر عصر أبي عبد الله ـ أحمد بن حنبل ـ أبو محمد عبدُ الله بنُ سعيد بن كُلَّاب البصري، الذي صنَّف مصنَّفاتٍ ردَّ فيها على الجهمية والمعتزلة وغيرهم، وهو من متكلِّمة الصِّفاتيَّة، وطريقتُه يميل فيها إلى مذهب أهل الحديث والسُّنَّة، لكن فيها نوعٌ من البدعة، لكونه أثبت قيام الصفاتِ بذات الله تعالى، ولم يُثبت قيام الأمور الاختيارية بذاته. وكان ممن اتَّبعه الحارثُ المحاسبيُّ وأبو العباس القلانسي وغيرُهم.

والإمامُ أحمد بن حنبل وغيرُه من أئمة السُّنَّة، كانوا يُحذِّرُون عن الأصل الذي أحدثه ابنُ كُلَّاب، ويُحذِّرون عن أصحابه، وهذا هو سَببُ تحذير الإمام أحمد عن الحارث المحاسبي ونحوِه من الكُلَّابية». انتهى.

وقال ابنُ الجوزي في «تلبيس إبليس» ص ١٦٧: «قال السُّلَمي:

وتكلَّم الحارثُ المحاسبيُّ في شيء من الكلام والصفات، فهجره أحمد بن حنبل». انتهى.

ثناء الإمام ابن تيمية وغيره على المحاسبي:

وقد ذَكَرَ الشيخُ ابنُ تيمية رحمه الله تعالى: (الحارثَ المحاسبيَّ) بالخير والثناء في رسالته «التدمرية» ص ٢٠٤، وذكره أيضاً بذلك في كتابه «الفتوى الحَموِيَّة الكبرى» ص ٢٦٦، ووَصَفه بقوله: «قال الإمام أبو عبد الله الحارثُ بنُ أسد بن إسماعيل المحاسبي، في كتابه «فهْم القرآن» » ثم نَقل الشيخُ ابنُ تيمية منه أكثرَ من أربع صفحات على التسليم والاستحسان

وهذا شيخُ الجُنيد السَّريُّ السَّقَطيُّ يُثني على الشيخ المحاسبي في أدبه وعلمه وسلوكه، ويأمُرُ الجُنيد بأخذها عنه، وينهى عن أخذ ما قاله المحاسبيُّ في (الكلام) وردِّه على (المتكلمين)، قال الإمام الغزالي في «الإحياء» ١: ٣٧ ــ ٣٨ «وقال الجُنيد رحمه الله تعالى: قال لي السَّريُّ شيخي يوماً: إذا قُمتَ من عندي فمن تُجالِس؟ قلتُ: المُحاسبيَّ، فقال: نعم، خُذْ من علمه وأدبه، ودَعْ عنك تشقيقَه الكلامَ وردَّه على المتكلمين».

توجيهٌ آخر لإنكار الإمام أحمد على المحاسبي

وقال الحافظ ابن رجب في «المدهش»: ومن البدع التي أنكرها أحمد في القرآن: قولُ من قال: إن الله تكلم بغير صوت، فأنكر هذا القول وبدَّع قائله. وقد قيل: إن الحارث المحاسبي إنما هجره أحمد لأجل ذلك. انتهى. قال أبو العباس ابن تيمية: وهذا سببُ تحذير أحمد من الحارث المحاسبي، فذكروا أن الحارث المحاسبي تاب من ذلك، واشتهر علماً وفضلاً، وحقائق وزهداً». انتهى من «شرح الكوكب المنير»، للفُتُوحي، ٢: ١٠٧. فإن صح هذا (القيل) عن المحاسبي، فوجهه كراهية الإمام أحمد التعرض لنفي ما لم يَرِد الشرع بنفيه.

انتقادُ الإمام أحمد للمحاسبي بسبب دخوله في مسائل من علم الكلام:

قال عبد الفتاح: وهذا يفيد أن انتقاد الإمام أحمد المحاسبيَّ، إنما كان بسبب دخوله في مسائل من (علم الكلام) فحسب، ويشهد لذلك ويعزِّزه:

١ ــ ما قاله الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى في «تاريخ بغداد» ٨: ٢١٤: «وكان أحمد بن حنبل يكره للحارث نظرهُ في (الكلام) وتصانيفَه الكتبَ فيه، ويَصُدُّ الناسَ عنه».

قال عبد الفتاح: كانت مسألةُ (الكلام) تفرِضُ نفسها في ذلك العصر على كل عالم كبير، وكان المحاسبيُّ من كبار علماء عصره، فتعرَّضَ لها استجابةً لما يفرضه الواقع، ولم يكن هو من أئمة (الكلام)، ولا من أصحاب الفلسفة الكلامية، فكان ماذا إذا دَفع شُبَهَ المعتزلة ونقضها؟

٢ ــ وما قاله الإمام الغزالي في «الإحياء» ١: ٩٥، في الفصل الثاني من (كتاب قواعد العقائد)، وهو ينقل ما جاء عن الأئمة السابقين في ذمِّ علم الكلام: «وقال أحمد بن حنبل: لا يُفلحُ صاحبُ الكلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلَّا وفي قلبه دغل، وبالغ في ذمِّه، حتى هجر الحارث المحاسبيَّ مع زهدِهِ وورعه بسبب تصنيفِه كتاباً في الردِّ على المبتدعة، وقال له: ويحك، ألست تحكي بدعتهم أولاً ثم تَرُدُّ عليهم؟ ألست تحملُ الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكرِ في تلك الشبهات؟ فيدْعُوهم ذلك إلى الرأي والبحث».

٣ ــ وما قاله الشيخ تاج الدين ابن السبكي رحمه الله تعالى في «طبقات الشافعية» ٢: ٣٩ من طبعة الحسينية و٢: ٢٧٨ من طبعة البابي الحلبي المحققة: «اعلم أن الإمام أحمد رضي الله عنه كان شديد النكير على من يتكلم في علم الكلام، خوفاً أن يجُرَّ ذلك إلى ما لا ينبغي، ولا شك أن السكوت عنه ما لم تدْعُ إليه الحاجةُ أولى، والكلامُ فيه عند فقْد الحاجة بدعة[1]، وكان الحارث المحاسبي قد تكلَّم في شيء من مسائل الكلام. قال أبو القاسم النصراباذي: بلغني أن أحمد بن حنبل هجره بهذا السبب». انتهى

قال عبد الفتاح: وهذا قد يقع بين العلماء في كلِّ عصرٍ ومصر، اجتهاداً

---

(١) قال المناوي في «فيض القدير» ٤: ٤٣١: «قال ابنُ عربي: علمُ الكلام مع شرفه لا يحتاجُ إليه أكثرُ الناس، بل رجلٌ واحدٌ يكفي منه في البلد، بخلاف العلماء بفروع الدين، فإن الناس يحتاجون إلى الكثرة من علماء الشريعة، ولو مات الإنسان وهو لا يعلم اصطلاح القائلين بعلم النظر كالجوهر والعرض والجسم والجُسماني والرُّوح والرُّوحاني، لم يسأله الله عن ذلك، وإنما يُسألُ الناسُ عما وجب عليهم من التكليف بالفروع ونحوها».

منهم في تصحيح ما يراه أحدُهم خطأ من صاحبه، وله بذلك أجر أو أجران أما ما رواه الخطيب وغيره من أنَّ الحارث المحاسبي تكلم في شيء من علم الكلام فهجره الإمام أحمد بسببه، فاختفى الحارث ـ لتعصُّب العامَّة للإمام أحمد ـ في دارٍ ببغداد ومات فيها، ولم يُصلِّ عليه إلَّا أربعةُ نفرٍ. فمستبعَدٌ ثبوتُه وصحتُه، وقد أشار إلى ذلك الحافظُ الذهبي في «الميزان» ١: ١٩٩ فقال: «هذه حكايةٌ منقطعة».

نصيحة التاج السبكي بلزوم الأدب مع الأئمة الماضين:

على أنَّ التاج ابن السبكي قد قال كلمةً من أطيب الكلمات وأعدلها حين تعرَّض لما قيل فيما جرى بين الإمام المحاسبي والإمام أحمد، حتى لقد جعلَها الإمامُ عبد الحي اللكنوي قاعدةً من قواعد الجرح والتعديل، وختم بها كتابه: «الرفع والتكميل في الجرح والتعديل» ص ٤٢٥ من الطبعة الثالثة.

وتلك الكلمةُ قولُه رحمه الله تعالى في كتابه «طبقات الشافعية» ٢: ٣٩ من طبعة الحسينية، و٢: ٢٧٨ من طبعة البابي الحلبي المحققة، في ترجمة (المحاسبي) بعد أن ذكر التنافر بين أحمد والمحاسبي: «ينبغي لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع الأئمة الماضين، وأن لا تنظُر إلى كلام بعضهم في بعض، إلَّا إذا أتى ببرهانٍ واضحٍ، ثم إنْ قدرتَ على التأويل وتحسين الظنِّ فدُونك، وإلَّا فاضربْ صفحاً عمّا جرى بينهم، فإنك لم تُخلق لهذا، فاشتغلْ بما يعنيك ودعْ ما لا يعنيك. ولا يزال طالبُ العلم عندي نبيلاً حتى يخوض فيما جرى بين السلف الماضين، ويقضي لبعضهم على بعض.

فإياك ثم إياك أن تصغي إلى ما اتُّفق بين أبي حنيفة وسفيان الثوري، أو بين مالك وابن أبي ذئب، أو بين أحمد بن صالح والنَّسائي، أو بين أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي، وهلمَّ جرّاً إلى زمان الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ تقي الدين ابن الصلاح[1]، فإنك إن اشتغلت بذلك خشيتُ عليك الهلاك، فالقومُ أئمةٌ أعلام، ولأقوالهم محاملُ ربما لم يُفهم

---

(١) انظر شرح ذلك وبيانَه فيما علَّقتُه على «قاعدة في الجرح والتعديل» للسبكي ص ٥٣ ـ ٥٨ من الطبعة الثالثة، أو ص ٦٠ ـ ٦٤ من الطبعة الخامسة.

بعضُها، فليس لنا إلاّ الترضي عنهم والسكوتُ عما جرى بينهم، كما يُفعَلُ فيما جَرَى بين الصحابة رضي الله عنهم». انتهى.

حكايةُ حضور الإمام أحمد مجلس المحاسبي وثناؤه عليه:

وروى الخطيب ٢١٤:٨ بإسنادٍ صحيح، وابنُ الجوزي من طريقه في «مناقب الإمام أحمد» ص ١٨٥، في (الباب الثالث والعشرين في ذكر إعراضه عن أهل البدع ونهيه عن كلامهم وقدحه فيهم)، بسنده إلى إسماعيل بن إسحاق السرَّاج قال: «قال لي أحمد بن حنبل يوماً: يبلغني أن الحارث ـ يعني المحاسبي ـ يُكثِرُ الكون عندك، فلو أحضرته منزلك، وأجلستني من حيث لا يراني فأسمعَ كلامه؟ فقلتُ: السمعُ والطاعة لك يا أبا عبد الله، وسرَّني هذا الابتداءُ من أبي عبد الله، فقصدتُ الحارث وسألته أن يحضُرنا تلك الليلة، فقلتُ: وتسألُ أصحابك أن يحضروا معك، فقال: يا إسماعيل فيهم كثرة، فلا تزدهم على الكُسْب ـ عُصارة الدهن ـ والتمر، وأكثِرْ منهما ما استطعت، ففعلتُ ما أمرَني به.

وانصرفتُ إلى أبي عبد الله فأخبرته، فحضر بعد المغرب، وصعِد غرفة في الدار، فاجتهد في وِرْدِه إلى أن فرغ، وحضر الحارثُ وأصحابُه فأكلوا، ثم قاموا لصلاة العتمة ـ العشاء ـ ولم يصلوا بعدها، وقعدوا بين يدي الحارث وهم سكوتٌ لا ينطق واحد منهم إلى قريبٍ من نصف الليل، فابتدأ واحدٌ منهم وسأل الحارث عن مسألة، فأخذ في الكلام، وأصحابُه يستمعون كأنَّ على رؤوسهم الطير، فمنهم من يبكي، ومنهم من يزعق، وهو في كلامه.

فصعدتُ الغرفة لأتعرَّف حال أبي عبد الله ـ أحمد بن حنبل ـ فوجدتُه قد بكى حتى غُشي عليه، فانصرفتُ إليهم ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا، فقاموا وتفرقوا، فصعدت إلى أبي عبد الله وهو متغيِّرُ الحال، فقلتُ: كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله؟ فقال: ما أعلمُ أني رأيتُ مثلَ هؤلاء القوم، ولا سمعتُ في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل، وعلى ما وصفتَ من أحوالهم فإني لا أرى لك صحبتَهم، ثم قام وخرج». انتهى[1]

(١) وقال ابنُ الجوزي في كتابه «صيد الخاطر» ص ١٠٠، في الفصل ٦٠ «وقد =

قال الشيخ تاج الدين ابن السبكي في «طبقات الشافعية» ٢: ٤٠ والحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» ٢: ١٣٦: «إنما نهاه أحمد عن صحبتهم لعلمه بقصوره عن مقامهم، فإنهم في مقامٍ ضيق لا يسلكه كل أحد، ويُخاف على من يسلكه أن لا يوفيه حقه». كذا قالا، وقد تابعَ ثانيهما الأوَّلَ! وهذا التعليلُ لنهي أحمد عن صُحبتهم ضعيف عندي، وسأبيِّنُ التعليلَ الصحيحَ قريباً.

ونقل الإمام ابن مفلح الحنبلي في كتابه «الفروع» ٣: ١٣٠٥ الجملة الأخيرة من هذا الخبر: (ما أعلمُ أني رأيتُ مثلهم ...) ثم أتبعها ابنُ مفلح بقوله: «وقد نهى أحمد عن كتابةِ كلام منصور بن عمار، والاستماع للقاصِّ به، قال أبو الحُسَين: لئلا يلهو أي يُشغَل به عن الكتاب والسنة».

ويقول الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» في ترجمة الإمام أحمد ١٠: ٣٣٠ بعد أن ذكر هذه الحكاية: «قال البيهقي ــ في «مناقب أحمد» له ــ: يُحتمل أن أحمد كره له صحبتهم لأن الحارث بن أسد وإن كان زاهداً فإنه كان عنده شيء من علم الكلام، وكان أحمد يكره ذلك. أو كره صحبتهم من أجل أنه لا يطيق سلوك طريقتهم وما هم عليه من الزهد والورع.

قلت ــ القائلُ ابنُ كثير ــ: بل إنما كره ذلك لأن في كلامهم من التقشف وشدةِ السلوك التي لم يَرِد بها الشرع، والتدقيقِ والمحاسبة الدقيقة البليغة: ما لم يأت بها أمر. ولهذا لمّا وقف أبو زرعة الرازي على كتاب الحارث

= حضر أحمدُ بن حنبل، فسمع كلام الحارث المحاسبي فبكى، ثم قال: لا يعجبني الحضور، وإنما بكى لأن الحال أوجبت البكاء».

وروى ابن الجوزي أيضاً هذه الحكاية في «كتاب القُصّاص والمذكرين» ص ١٢٠ ــ ١٢١، ثم قال عقبها: «قلت: كان الإمام أحمد لاتباعه الآثار يكره كل مُحْدَث وإن كان صواباً. وكان الحارث يتكلم في المعاملات بأشياء لم تنقل عن السلف، وكان ربما خاض في شيء من الكلام في الأصول. ورأى أحمد أن التشاغل بذلك يَشغل عن المنقولات فكرهه». كما سيأتي ذكره قريباً مرة ثانية.

المسمى بـ «الرعاية» قال: هذا بدعة. ثم قال للرجل الذي جاء بالكتاب: عليك بما كان عليه مالك والثوري والأوزاعي والليث، ودَعْ عنك هذا فإنه بدعة» انتهى.

قال عبد الفتاح: والذي أراه أنَّ الإمام أحمد رحمه الله تعالى إنما نهاه عن صحبتهم ــ مع أنه رآهم على خير ــ لأنه يرى سلُوك طريقته التي هو عليها وأصحابُهُ أمثَلَ خيراً وأوفى هداية وحقّاً.

ويشهدُ هذا الذي رأيتُه في توجيه موقف الإمام أحمد من المحاسبي وأصحابه ما قاله الإمام أبو محمد التميمي الحنبلي، في «مقدِّمةٌ في عقيدة الإمام أحمد بن حنبل وفي أصول مذهبه ومشربه»، المطبوعة في أواخر الجزء الثاني من «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى، ٢: ٢٧٩، وذلك قوله:

«وكان الإمام أحمد رحمه الله يمنع الكلام في الخطرات والوساوس والإشارات، ويقول: الكتابُ والسنةُ هو المأمورُ به. وقد سُئل مرَّة عن المُريد؟ فقال: هو أن يكون مع الله كما يريد، وأن يترك كلَّ ما يريد لما يريد. وهذا ضربٌ من ذلك، ولكنه ليس بأصل يكون الكلامُ مقصوراً عليه دون غيره.

وكان يُعظِّمُ الصوفية ويُكرمهم. وقال ــ وقد سُئل عنهم ــ وقيل له يجلسون في المساجد؟ فقال: العلمُ أجلَسهم». انتهى.

وقد حكى تلك الواقعة الشيخُ ابن الجوزي في «كتاب القُصّاص والمذكِّرين» ص ١٣٠ ــ ١٣١، ثم أعقبها بقوله: «قلتُ: كان الإمام أحمد لاتِّباعِهِ الأثر يكرهُ كلَّ مُحْدثٍ وإن كان صواباً. وكان الحارثُ يتكلَّمُ في المعاملات بأشياء لم تُنقل عن السلف، وكان ربما خاض في شيء من الكلام في الأصول. ورأى أحمدُ أنَّ التشاغُل بذلك يشغلُ عن المنقولات، فكرهه». انتهى. وهو قريبٌ مما قلتُه ورأيتُه، فالحمد لله على هدايته وتوفيقه.

وقد تقدم في ص ٤٦ نقلاً عن «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي، أن الإمام أحمد نهى عن النظر في كتب الأئمة الأجلَّة: أبي ثور، وأبي عُبيد،

وإسحاق بن راهويه، وسفيان الثوري، ومالك، والشافعي، وقال: عليكم بالأثر

فإذا عرفنا أنه رحمه الله تعالى كان لا يَرى النظر في الفقه المدوَّن لهؤلاء الأئمة الأكابر في كتبهم، خشيه أن يَشغَل عن الأثر: الكتاب والسنة، فمن باب أولى أن لا يَرى النظر فيما يُدوِّن من الخواطر وخلجات النفوس. . . ، وقد تقدمت الإشارةُ إلى هذا فيما نُقل عن الإمام أحمد، ونقلتُه عن الإمام ابن الجوزي ص ٤٦.

هذا على فَرْض صحة هذه الحكاية ووقوعها، إذ قد جاء فيها ما يُدغدِغُ النفس شكاً في حدُوثها، وهذا قال الحافظُ الذهبي رحمهُ الله عليه في «الميزان» بعد أن أوردها «وهذه حكاية صحيحة السَّند، منكرةٌ، لا تقعُ على قلبي، أستبْعِدُ وقوعَ هذا مِن مثلِ أحمد».

وقد تبيّن لك من كلام الذين أسمعتُ كلامَهم، وهم الأئمة ابن تيمية وابن رجب والخطيب البغدادي والتاج السبكي وابن كثير: أن نقد الإمام أحمد للمحاسبي إنما كان ـ على الصحيح ـ من أجل تكلُّمه في مسائل من (علم الكلام) فقط، وأما مسلكُه العباديُّ فلا شيء فيه، بل قد أثنى عنه فيه الشيخ ابن تيمية وغيره من الأئمة رحمهم الله تعالى.

وعلى كل حالٍ صحّت الحكايةُ أو لم تصحَّ فإنها تُصوِّرُ الروح التي تسُودُ نفوس أئمة ذلك العصر عن من سلك مسْلك المحاسبي رحمه الله تعالى وإيانا.

نعمْ هناك أمرٌ آخرُ انْتُقد على أبي عبد الله المحاسبي رحمه الله تعالى، مكّن به ناقديه من نفسه، وهو إيرادُه الأحاديثَ الضعيفة وبعض الموضوعة في كتبه وتصانيفه، واعتمادُهُ عليها وجعلُها (أصولاً) يبْني على ما تضمَّنته المعاني والأحكام.

وهذا الشيخ الإمام أبو بكر بن العربي مع إجلاله له، واعتزازه به، وثنائه عليه أطيب الثناء ما وسعه إلاَّ أن ينْقُد منه هذه الناحية حيث قال في

كتابه: «عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي» ٥:٢٠١ عند شرح حديث «الحلال بيّن، والحرامُ بيّن...»:

«وأجَلُّ من تكلَّم فيه عِلْمًا وكبيرًا: الحارثُ بن أسد. فمن الأصول التي زَعم: قولُ عطية السّعدي عن النبي صلّى الله عليه وسلّم: «لا يَبْلُغُ العبدُ أن يكون من المتقين حتى يترُكَ ما لا بأس به مخافة ما به بأس»[1]، ونحوُ هذا من الأخبار، وأطال القول في ذلك، وأفاد فيها أعاد، وجدَّد فيها (أورد)، لولا تعلُّقُهُ بأحاديث ضعاف وبناؤه الأصول عليها. فإن وقفَ عليها علماءُ الحديث سخروا من ذلك وهزئوا به، مع أنه لقي أحبار الدنيا في الحديث كابن أبي شيبة وغيره.

والذي عندي في ذلك ـ والله أعلم ـ ما رويناه عن أحمد بن حنبل: يستجيز لينَ الحديث في أمر الورع. ورضي الله عن البخاري الذي لم ير أن يتعلّق القلبُ ولم يرتبط الدينُ إلّا بالصحيح[2]، وبه نقول[3]. ولو ملْنا إلى مذهب أحمد فلا يكون التعلُّق بلينِ الحديث إلّا في المواعظ التي تُرَقِّقُ القلوب، فأمّا في الأصول فلا سبيل إلى ذلك». انتهى ملخصاً مصحَّحاً ما وقع فيه من تحريفات.

---

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» ٥:٢٧٨ وقال: «حديث حسن غريب، لا نعرفه إلّا من هذا الوجه».

(٢) قلت: هذا صحيح في أبواب الأحكام والحلال والحرام، أما فضائلُ الأعمال ونحوُها فمذهبُ جمهور السلف ومنهم الإمام البخاري جوازُ العمل فيها بالحديث الضعيف ـ بشروط معينة ـ، كما مشى عليه في كتابه العظيم «الأدب المفرد»، وقد شرحتُ هذا وأوضحتُه بالشواهد الناطقة من كتابه المذكور، فيما علّقتُهُ مطوّلاً على «ظفر الأماني في شرح مختصر السيد الشريف الجرجاني» للعلامة عبد الحي اللكنوي رحمه الله تعالى، في ص ١٨٢ ـ ١٨٦.

(٣) قلت: العمَلُ بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال ونحوِها هو مذهبُ جمهور السلف بل فيهم الإمامُ أحمد وشيوخُهُ، كما بيّنهُ العلامة عبد الحي اللكنوي في «الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة» ص ٣٦ ـ ٥٩، و«ظفر الأماني في شرح مختصر السيد الجُرْجاني» ص ١٨١ ـ ١٩٢، وفيما علّقتُهُ عليهما.

وهذا المأخذُ قائمٌ على أبي عبد الله في كتبه لا يُمكنُ التفصيّ منه، فإن هذه الرسالة «رسالة المسترشدين» على صغرها: جاء فيها طائفةٌ من الحديث الضعيف، وبعضُ الحديث الموضوع كما ستقف عليه في تخريجها.

وقد سرَى تساهُلُهُ هذا إلى الشيخ أبي طالب المكي في «قوت القلوب»، وإلى الإمام أبي حامد الغزالي في «الإحياء»، وإلى سواهما ممن ألَّف في التصوف وأحوال النفس. وقد أشار إلى هذا الحافظُ ابن الجوزي في «كتاب القُصّاص والمذكِّرين» ص ١٠٢، فقال فيه: «وممن صنَّف في الوعظ والتذكير: الحارثُ المحاسبي، وأبو طالب المكي، وأبو حامد الغزالي، فإنهم أدرجوا في كتبهم أحاديث باطلة، ولا يعلمون أنها كذب». انتهى.

وأما ما يورده من (الإسرائيليات) فلعلَّهُ مما لم نُؤمر بتصديقه ولا بتكذيبه، وتجوزُ حكايتُه للعبرة والاتّعاظ به.

تصوُّف المحاسبي تصوفٌ سليم:

هذا، وللشيخ أبي عبد الله المحاسبي رحمه الله تعالى نهْجٌ حسنٌ طيِّب، وهو أن تصوُّفه الذي دوَّنه في كتبه راعى فيه ما جاء في الكتاب والسُّنَّة وأقوال الصحابة وأعلامهم بحسب علمه وفهمه، وما نجدُ في كتبه ــ فيما وقفتُ عليه ــ شطحاتٍ أو شيئاً من التصوُّف الفلسفي، إنما يقومُ تصوُّفُهُ رحمه الله تعالى على الدعوة إلى تصحيح العلم والعمل، ومراقبة الله تعالى، وتزكية النفس وتطهيرها من الأدران، وتقريبها من رضوان الله عزَّوجلَّ، وبتعبير آخر: لم أرَ المحاسبيَّ يكتب أو يتحدَّث إلاّ فيما تحته عمل[1] وهذا منهجٌ شرعيٌّ شريف، يُشكر عليه ويُثابُ به إن شاء الله تعالى

ثناء بعض الأئمة على المحاسبي وكتبه

وقد أثنى عليه في تبصيره وتذكيره وسلوكه وورعه وعلمهِ غيرُ واحد من

---

(١) قال الإمام مالك رضي الله عنه: «الكلامُ في الدين ــ يقصد علم الكلام وما إليه ــ كلُّه أكرهُه، ولم يزل أهلُ بلدنا يكرهون القدر ــ أي الكلام في القدر ــ ورأي جهْم وكلَّ ما أشبهه، ولا أُحبُّ الكلام إلاّ فيما تحته عمل. فأما الكلام في الله فأحبُّ إليَّ السكوتُ عن هذه الأشياء، لأن أهل بلدنا ينهون عن الكلام إلاّ فيما تحته عمل». نقله القاضي عياض في «ترتيب المدارك» ٣: ١٧١ من طبعة المغرب.

الأئمة الأعلام، ومنهم عينُ أعيان المالكية في عصره الإمام أبو محمد عبد الحق الصِّقلِّي، المتوفى سنة ٤٦٦ رحمه الله تعالى، جاء في «المعيار المُعْرِب والجامع المُغْرِب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب» للإمام أبي العباس الوَنْشَرِيشي رحمه الله تعالى ١١ : ٢٢٩، ما نصُّه:

«وسئل الشيخ أبو محمد عبد الحق الصِّقِلِّي عما يقرأ الإنسان من الكتب؟ فأجاب:

أما من يُرجَى للإمامة وأن يكون عوناً للناس في مسائلهم ونوازلهم، فيكون أعظمُ أمرِه قراءةَ الفروع والتفقه في المسائل لكثرة الحاجة إليها، ولا بد له مع ذلك من شيء من الحديث كالموطأ والبخاري ونحوه من الصحيح إذ كان فيه محملاً ــ كذا ــ لذلك.

وأما من لا يُرْجى للإمامة فيقنع من المسائل باليسير، ويكون أكثرُ أمره النظر في الحديث الصحيح، الذي يشتمل على الفقه والأدب والرقائق والفضائل ونحوه من الأبواب التي ينتفع بها في نفسه. فينبغي للإنسان أن ينزل نفسه على حسب ما ذكرته.

وأما كتبُ المحاسبي ونحوُها فهي من أحقِّ ما نظر فيه إنسان كان ممن يرجى للإمامة أو لم يكن، لأن فيها بيان آفات الأعمال ووجوه التحقيق في الصدق والإخلاص، مع ما تشتمل عليه كتبه من الحديث والآداب وغيرها من الفوائد، كلُّ من حذَّر منها فهو جاهل غالط بقدرها ومعرفتها».

فصاحةُ المحاسبي وبلاغةُ بيانه:

أما بيانُ أبي عبد الله المحاسبي فهو من الطِّراز الأول فصاحةً وسلاسة، وحسنَ أداء وحُسن استيفاء، له قلمٌ سيّال وبيانٌ أخّاذ، ولغةٌ ناضرة في الذِّروة من الفصاحة والإشراق، وله في كتابه هذا وفي كتابيه «التوهم» و«الرعاية» جُمَلٌ وقطعٌ من الكلام ما يُشبَعُ من ترْدادها وسماعها، لما حوتْ من دقّة التصوير وجزالة اللفظ، وأخْذ القلب بمعناها والسَّمع بمبناها.

ولا غرابة في ذلك فقد كان أبو عبد الله في العصر الذهبي، عاصر الجاحظ وطبقته من فصحاء العربية وأدبائها، كما عاصرَ معروفاً الكرخي

والسَّريُّ السَّقَطيّ وبشرٌ الحافي من زُهاد الأمّة وصُلحائها، فلا بِدْعَ أن يكون صاحب قلمٍ وبَيان، ورُوحٍ وجنَان، إن أطال لم يقُل فضْلاً، وإن أوجَزَ أصابَ ولم يُقَصِّرْ، رحمة الله عليه.

طَرَفٌ من أحواله وأقواله:

من أحواله:

١ ـ حكى ابن ظفر المغربي في كتابه «أنباء نجباء الأبناء» ص ١٤٨ أن الحارث المحاسبي ـ وهو صبي ـ مرَّ بصبيان يلعبون على باب رجل تمّار، فوقف الحارث ينظر إلى لعبهم، وخرج صاحب الدار ومعه تمرات، فقال للحارث: كُلْ هذه التمرات، قال الحارث: ما خبرُك فيه؟ قال: إني بعت الساعة تمرا من رجل فسقطتْ من تمْره، فقال: أتعرفه؟ قال: نعم، فالتفت الحارث إلى الصبيان الذين يلعبون وقال: أهذا الشيخ مسلم؟ قالوا: نعم، فمرَّ وتركه.

فتبعه التمّار حتى قبض عليه، فقال: والله ما تفلتُ من يدي حتى تقول لي ما في نفسك مني، فقال: يا شيخ إن كنت مسلماً فاطلُبْ صاحب التمرات حتى تتخلَّص من تباعته، كما تطلُبُ الماء إذا كنت عطشان شديد العطش، يا شيخ تُطعم أولاد المسلمين السُّحت ـ أي الحرام ـ وأنت مسلم؟! فقال الشيخ: واللهِ لا اتَّجرتُ للدنيا أبداً.

٢ ـ قال القُشيري في «الرسالة» ص ١٥ وابنُ خلِّكان في «الوفيات» ١/١٢٦ وابن حجر في «تهذيب التهذيب» ٢/١٣٥ وغيرُهم: قال الجُنيد: مات أبو الحارث المحاسبي يوم مات، وإن الحارث لمحتاج إلى دانق فضّة ـ الدانقُ سُدُسُ الدرهم ـ، وخلَّف أبوه سبعين ألف درهم، فلم يأخذ منها شيئاً، ولا حبَّةً واحدة، لأن أباه كان يقول بالقدر، فرأى من الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئاً.

٣ ـ حكى كلٌ من الحافظ أبي نعيم والخطيب البغدادي والشيخ

القشيري والتاج ابن السبكي وغيرُهم أن الشيخ الجُنَيد وهو تلميذُ الحارث المحاسبي قال: «كان الحارثُ كثيرَ الضُّر ــ سيِّىء الحال شديد الفقر ــ واجتازَ بي يوماً وأنا جالسٌ على بابنا، فرأيتُ على وجهه زيادةَ الضُّرِّ من الجوع! فقلتُ له: يا عمّ لو دخلت إلينا نِلت من شيء عندنا؟ قال: أوَ تفعل؟ قلت: نعم وتَسرُّني بذلك وتَبَرُّني.

فدخلتُ بين يديه ودخل معي، وعَمدتُ إلى بيت عمي سريعاً ــ وكان أوسع من بيتنا، لا يخلو من أطعمة فاخرة، لا يكون مثلُها في بيتنا ــ فجئت بأنواعٍ كثيرة من الطعام، فوضعتُه بين يديه، فمدَّ يدهُ وأخذ لقمة فرفعها إلى فيه، فرأيتُه يلوكها ولا يزدردُها ــ أي لا يستطيعُ بَلْعها ــ فوثب وخرج وما كلّمني!

فلما كان من الغد لقيتُه فقلتُ: يا عمّ سررتني ثم نغّصت عليّ! قال: يا بُنيّ أمّا الفاقةُ فكانت شديدة، وقد اجتهدتُ في أن أنال من الطعام الذي قدّمته إليّ، ولكن بيني وبين الله علامة: إذا لم يكن الطعام مَرْضيّاً ــ بأن كان فيه شبهة ــ ارتفع إلى أنفي منه زفرةٌ فلم تقبله نفسي، فقد رميتُ تلك اللقمة في دهليزكم وخرجْتُ!».

زاد القشيري: «ثم قلتُ له: تدخل اليوم؟ فقال: نعم، فقدّمتُ إليه كسراً يابسة كانت لنا، فأكل وقال: «إذا قدّمت إلى فقيرٍ شيئاً فقدِّم إليه مثل هذا».

٤ ــ حكى الشَّعراني في «الطبقات الكبرى» ١: ٦٤ والمُناوي في «الكواكب الدُّريّة» ١: ٢١٩ عن الحارث المحاسبي نفسه قال: «عملتُ كتاباً في (المعرفة)، وأُعجبتُ به، فبينا أنا ذات يوم أنظر فيه مستحسناً له، إذ دخل عليّ شابٌ عليه ثيابٌ رثّة، وسلّم عليّ وقال: يا أبا عبد الله هل المعرفةُ حقٌ للحقّ على الخلْق؟ أو حقٌ للخلْق على الحقّ؟ فقلتُ له: حقٌ للحق على الخلق، فقال: هو أولى أن يكشفها لمستحقها! قلتُ: بل حق للخلق على الحق، قال: هو أعدل من أن يظلمهم! ثم سلّم عليَّ وخرج. قال الحارث:

فأخذتُ الكتاب وغسلتُه، وقلتُ: لا أتكلمُ في (المعرفة) بعدها أبداً»(١).

٥ ــ ذكر أبو نصر السرَّاج الطوسي في كتابه «اللُّمع» ص ٤٩٥: دخل أبو حمزة الصوفي دار الحارث المحاسبي، وكان للحارث دار حسنة وثياب نظاف، وفي داره شاةٌ مُرْغِبة ــ أي تُصوِّتُ بشدَّة ــ، فصاحت الشاة مُرغِبة، فشهق أبو حمزة شهقةً وقال: لبَّيك يا سيدي! فغضب الحارثُ وعمَد إلى سكِّين، فقال: إن لم تَتُبْ من هذا الذي أنت فيه أذبحتك

٦ ــ حكى الأستاذ أبو القاسم القُشيري رحمه الله تعالى في ترجمة المحاسبي في «الرسالة» ص ١٥: «قال الأستاذ أبو عبد الله بن خفيف: اقتدوا بخمسةٍ من شيوخنا، والباقون سَلِّموا إليهم أحوالهم: الحارث بن أسد المحاسبي، والجُنيد بن محمد، وأبو محمد رُويم، وأبو العباس بن عطاء، وعَمْرو بن عثمان المكي، لأنهم جَمَعوا بين العلم والحقائق».

٧ ــ روى الخطيب في «تاريخ بغداد» ٨:٢١٥ وابن السبكي في «طبقات الشافعية» ٢: ٣٨ «عن الحسين بن إسماعيل المحاملي القاضي، قال: قال أبو بكر بن هارون المحتَّر: سمعتُ جعفر بن أخي أبي ثور يقول: حضرتُ وفاة الحارث المحاسبي، فقال: إن رأيتُ ما أُحبُّ تبسَّمتُ إليكم، وإن رأيتُ غيرَ ذلك تبيَّنتم في وجهي. قال: فتبسَّمَ ثم مات».

رحمه الله تعالى وأكرم مُقامه لديه، فقد مضى إلى ربِّه وهو يتبسَّمُ كالغائب يقدمُ على أهله، وكالمملوك المطيع يرجعُ إلى مالكه، أعلى الله درجته في علِّيِّين ودُفن في جبَّانة دار السلام في بغداد، كما ذكره أبو الحسن الهروي السائح في

---

(١) والظاهر أن هذا الكتاب قد نُسِخَتْ منه نسخ قبل أن يُتلف الشيخُ نُسختَه منه، فقد عدَّه المترجمون له في جملة مؤلفاته. وجاء في ترجمة بعض شيوخ محيي الدين بن العربي أنه قرأه، كما ذكر ذلك الشيخ ابن عربي في كتابه «روح القدس في محاسبة النفس» المطبوع بدمشق سنة ١٣٨٤ ص ٧٢. ويُعرف كتابُ المحاسبي هذا بـ (كتاب المعرفة) وبـ (كتاب شرح المعرفة) وطُبع بدار القلم سنة ١٤١٣ بتحقيق الأستاذ صالح أحمد الشامي ببيروت

كتابه: «الإشارات إلى معرفة الزيارات» ص ٧٤، ولا يزال قبره معروفاً، وبقربه مسجد يُعرَف بمسجد المحاسبي.

من أقواله:

١ ـ لكل شيء جوهر، وجوهرُ الإنسانُ عقلُه، وجوهرُ العقل: التوفيق. وفي لفظ آخر: وجوهَرُ العقل: الصبر.

٢ ـ خيارُ هذه الأمّة الذين لا تَشْغَلُهم آخرتُهم عن دنياهم، ولا دنياهم عن آخرتهم.

٣ ـ حُسْنُ الخُلُق: احتمالُ الأذى، وقِلّةُ الغضب، وبسْطُ الوجه، وطِيبُ الكلام.

٤ ـ من لم يشكر الله تعالى على النعمة، فقد استَدعى زوالَها.

٥ ـ كلُّ زاهدٍ زُهْده على قدر معرفته، ومعرفتُهُ على قدر عقله، وعقلُه على قدر قوة إيمانه.

٦ ـ الظالم نادم وإن مدحه الناس، والمظلوم سالم وإن ذمّه الناس، والقانع غني وإن جاع، والحريص فقير وإن مَلَك.

٧ ـ من صحّح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زيَّن الله ظاهرهُ بالمجاهدة واتّباع السُّنّة.

٨ ـ لا يصْلُح عبدٌ إلاَّ أصلح الله بصلاحه سواه، ولا يَفْسُدُ عبدٌ إلاَّ أفسد الله بفساده غيرَه.

٩ ـ صفة العبودية أن لا ترى لنفسك مُلْكاً، وتعلم أنك لا تملك لنفسك ضراً ولا نفعاً.

١٠ ـ الإخلاصُ إخراجُ الخلْق من معاملة الله تعالى، والنَّفْسُ أوَّلُ الخلْق

١١ ـ من اجتهد في باطنه ورَّثه اللّهُ حسن معاملة ظاهره، ومن حسّن

معاملته في ظاهره مع جهد باطنه ورثه الله الهداية إليه. لقوله تعالى: ﴿والذين جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وإنَّ الله لَمَعَ المحسنين﴾.

مـؤلفـاتـه:

للإمام المحاسبي مؤلفات كثيرة كما سبقت الإشارة إليها في ص ٤٢، والذي عُرف اسمُه أو وجودُه منها حتى الآن ما يلي:

١ ــ الرعاية لحقوق الله عز وجل. طبع في أوروبا ثم بمصر دون تاريخ.

٢ ــ التوهم. طبع بمصر سنة ١٣٥٧، ثم بحلب سنة ١٣٨٣.

٣ ــ رسالة المسترشدين. وهي التي بين يديك تطبع للمرة الثالثة. وقد ترجمها عن طبعتي الأولى إلى اللغة التركية الأستاذ علي أرسلان الواعظ العام في دائرة الإفتاء في إصطانبول، وطُبعت هناك في سنة ١٩٦٨.

٤ ــ رسالة الوصايا.

٥ ــ آداب النفوس.

٦ ــ شرح المعرفة.

٧ ــ بدء من أناب إلى الله تعالى.

٨ ــ المسائل في الزهد وغيره.

٩ ــ المسائل في أعمال القلوب والجوارح.

١٠ ــ المكاسب والورع والشبهة وبيان مُباحها ومحظورها، واختلاف الناس في طلبها، والرد على الغالطين فيها.

١١ ــ ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه.

وهذه الثمانية طبعت بالقاهرة حديثاً سنة ١٩٦٩م أو قبلها بقليل.

١٢ ــ البعث والنشور.

١٣ ــ كتاب في الدماء.

١٤ ــ كتاب في التفكر والاعتبار.

١٥ ــ رسالة المراقبة.

١٦ ــ التنبيه على أعمال القلوب في الدلالة على وحدانية الله.

١٧ ــ كتاب العظمة.

١٨ ــ القصد والرجوع إلى الله تعالى.

١٩ ــ كتاب النصائح.

٢٠ ــ مختصر كتاب فهم الصلاة.

٢١ ــ كتاب الرضا. ذكره المحاسبي في «المسائل في أعمال القلوب» ص ١٤٧.

٢٢ ــ فهم القرآن. نقل منه الشيخ ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» له ٥٥٧.٥، وفي كتابه «الفتوى الحموية الكبرى» ص ٢٦٦ حتى ص ٢٧٠

٢٣ ــ فهم السُّنن. نقل منه الحافظُ ابن حجر في «النكت على كتاب مقدمة ابن الصلاح»، في بحث (المعضل) ٢ ٥٨٤، والحافظُ السيوطي في «الإتقان» ١٦٨:١ في النوع الثامن عشر.

وغيرُها مما لم أُرِد استقصاءَهُ هنا.

رحمه الله تعالى الإمام المحاسبي وغفر له وأكرمه برضوانه الكريم

* * *

رسالة المسترشدين

للحارث المحاسبي

أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري
ولد بالبصرة في حدود سنة ١٦٥ وتوفي ببغداد سنة ٢٤٣
رحمه الله تعالى

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه
عبد الفتاح أبو غدة
ولد بحلب سنة ١٣٣٦ وتوفي بالرياض سنة ١٤١٧
ودفن بالبقيع الشريف رحمه الله تعالى

اعتنى بإخراجه وطباعته
سلمان بن عبد الفتاح أبو غدة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو عبد الله الحارثُ بنُ أسد المُحاسِبيُّ رحمةُ الله عليه:

الحمدُ لله الأوَّلِ القديم[١]، الواحدِ الجليل، الذي ليس له شَبيهٌ ولا نظير، أَحمَدُه حمداً يُوافي نِعمه ويبلُغ مَدى نعْمائه[٢].

وأشهدُ: أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، شهادة عالمٍ بربُوبيَّته، عارفٍ بوحْدانيته. وأشهد: أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، اصطفاهُ لوحْيه وختم به أنْبياءَهُ، وجعلهُ حُجَّةً على جميعِ خلْقه، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هلك عن بيِّنةٍ، ويَحْيى منْ حَيَّ عن بَيِّنةٍ وإن الله لَسميعٌ عليم﴾[٣].

أما بعدُ، فاعلمْ أنَّ الله عزَّ وجلَّ اجتبى من عباده: المؤمنين ذوي الألباب، العاملين به وبأمره، فوصفَهُم بالوفاءِ والأخلاق الفاضلة والخوف والخشية، فقال عزَّ وعلا: ﴿إنَّما يتذكَّرُ أُولوا الألباب. الذين يُوفون بعهد الله ولا يَنْقُضُون الميثاق. والذين يصلون ما أمر اللَّهُ به أن يُوصَل ويَخْشَون ربَّهم ويخافون سُوءَ الحساب﴾[٤].

فمن شرح اللَّهُ صدْره للإيمان، ووصلَ التصديقُ إلى قلبه، ورغب في الوسيلة إليه: لزِم منهاج ذوي الألباب برعاية حُدود الشريعة من

---

(١) هذ تعليقة حول لفظ (القديم) في وصف الله تعالى، انظرها في آخر الكتاب ص ٢٤٩، تحت عنوان (تنبيهات لتعليقات).

(٢) هذ تعليقه حول جملة (. حمداً يُوفي نعمهُ ويبْلغُ مَدى نعْمائه)، انظرها بآخر الكتاب ص ٢٤٩، تحت عنوان (تنبيهات لتعليقات).

(٣) من سورة الأنفال: الآية ٤٢.

(٤) من سورة الرعد: الآيات ١٩ و ٢٠ و ٢١.

كتابِ الله تعالى، وسُنَّةِ نبيِّهِ عليه الصلاة والسلام، وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة.

وهذا هو الصراطُ المستقيم الذي دعا إليه عبادهُ فقال جلَّ وعزَّ: ﴿وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه، ولا تتَّبعوا السُّبُل فتفرَّق بكم عن سَبيلِهِ ذلكم وصَّاكم به لعلَّكم تَتَّقون﴾[1].

وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «عليكم بِسُنَّتي وسُنَّة الخُلفاءِ الرَّاشِدين مِن بعدي، عَضُّوا عليها بالنواجذ»[2]

واعلم أنَّ فريضة كتابِ الله: العمَلُ بِمُحْكَمه من الأمر والنهي،

---

(١) من سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٢) هو جزء من حديث العِرْباض بن سارية السُّلَمي رضي الله عنه، رواه الإمام أحمد ٤: ١٢٦ و١٢٧، وأبو داود ٤: ٢٠١، والترمذي ١٠: ١٤٣ وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه ١: ١٥، وهو الحديث الثامن والعشرون من «الأربعين النووية».

وهذا نصُّ الحديث بتمامه تنويراً للمقام، من رواية الإمام أحمد وتلميذه الإمام أبي داود عنه:

قال العرباضُ بن سارية رضي الله عنه: صلَّى بنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الصبح ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظةً بليغةً، ذرفتْ منها العيون، ووجلتْ منها القلوب. فقال قائل: يا رسول الله كأنَّ هذه موعظةُ مودِّع، فماذا تعهدُ إلينا؟

فقال: «أُوصيكم بتقوى الله والسمعِ والطاعة وإنْ عبداً حبشيّاً ـ أي وإن كان الأميرُ عليكم عبداً حبشياً ـ فإنه من يعشْ منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، فتمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحْدَثات الأمور، فإنَّ كل مُحْدَثةٍ بدعة، وكلُّ بدعة ضلالة»

والنواجذُ آخرُ الأضراس. والمعنى: عَضُّوا عليها بجميع الفم، والأمرُ بالعضِّ على السُّنَّة بالنواجذ كنايةٌ عن شدَّة التمسُّك بها والجِدِّ في لزومها، كفعل من أمسك الشيء بنواجذه وعَضَّ عليه لئلا يُنْزَع منه.

والخوفِ من وعيده والرجاءِ لوعدِه، والإيمانِ بمُتَشابهِه، والاعتبارِ بقَصَصِهِ وأَمْثالِهِ. فإذا أتيتَ بذلِكَ فَقَدْ خَرجْتَ مِنْ ظُلُمَاتِ الجهلِ إلى نُورِ العِلْمِ، ومِنْ عذابِ الشَّكِ إلى رَوْحِ اليقينِ(١)، قال اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُه: ﴿اللَّهُ وليُّ الذين آمنُوا، يُخرِجُهم مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ﴾(٢).

---

(١) الرَّوح بفتح الراء: الراحة.

(٢) من سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

صلاح النفس لا يتوقف على شيخ وبيعة

وهذا الكلام من الإمام أبي عبد الله المحاسبي رحمه الله تعالى يُفيدُ أنَّ أمر الاهتداء إلى الله تعالى وصلاح النفس وتزكيتها لا يتوقَّفُ على التزام (شيخ وبيعة) وإنما يتوقَّفُ على التزام العِلْم والعمل الذي أمر الله به، وبصحبة الكتاب والسنّة وسلوكُ سلف الأمّة.

فأيّ إنسانٍ مسترشد عمِل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالحين على منهج العلم فقد سَلَك طريق الهُدى، وتوجّه إلى الله تعالى راشداً مهديّاً، إذ القرآنُ والسنّةُ في ذاتهما هاديانِ إلى الله تعالى، ومزكّيان للرُّوح والنَّفس أيّما تزكية. وقد جاءت بذلك الآيات والأحاديث الكثيرة.

فمن الآيات قولُهُ تعالى: ﴿إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويُبشِّرُ المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجراً كبيراً﴾، وقولُه تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله﴾، وقولُهُ تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأمّيّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويُزكّيهم﴾. وتزكيةُ الرسول للناس قائمة مستمرة إلى الأبد بأقواله وأفعاله وتقريراته. وأقوالُه وأفعالُه وتقريراتُه صلّى الله عليه وسلّم هي الهادية المعلّمة من قبل ومن بعد، ولا تزال بحمد الله مُدوَّنة محفوظة.

ومن الأحاديث الشريفة قولُ الرسول صلّى الله عليه وسلّم الذي ذكره المؤلف: «عليكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين من بعدي عضّوا عليها بالنواجذ»، وقولُه صلّى الله عليه وسلّم: «تركتُ فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسُنّتي»، وقولُه صلّى الله عليه وسلّم: «فمن رَغِبَ عن سُنّتي فليس منّي».

فقولُ بعضهم: «يخطئ من يظن أنه يستطيع بنفسه أن يعالج أمراضه القلبية بمجرد قراءة القرآن الكريم، والاطلاع على أحاديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا لم يستطع أصحاب رسول الله أن يُطبّبوا أنفسهم بمجرّد قراءة القرآن. »   =

. . . .

— امتثالٌ بَحْتٌ على الله ورسوله، وتعطيلٌ وإلغاء لكلام الله وكلام رسوله. نعوذُ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر ومن الزلل بعد الهُدَى.

سؤال الشاطبي لابن عبّاد النِّفْزي عن شيخ التربية وشيخ العلم

وقد كتب الإمام الفقيه الأصولي المحدِّث النظّار أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الغرناطي، صاحبُ كتاب «الموافقات» و«الاعتصام» وغيرهما من الكتب النفيسة الشهيرة، المتوفى سنة ٧٩٠، من غرناطة قاعدة الأندلس، إلى شيخ الصوفية في عصره أبي عبد الله محمد بن عبّاد النِّفْزي خطيب جامع القرويين في مدينة فاس، المتوفى سنة ٧٩٢ رحمهما الله تعالى.

كتب إليه يسأله عن مسألة وقعتْ في غرناطة، واختلفتْ فيها أنظارُ العلماء، وكثُر فيها القيل والقال، وهي: هل على السالك إلى الله تعالى أن يتخذ ـ لزاماً ـ شيخ طريقةٍ وتربيةٍ يسلك على يديه؟ أم يسوغ له أن يكون سلوكه إلى الله تعالى من طريق العلم والتلقي من أهل العلم دون أن يكون له شيخُ طريقة؟

فكتب إليه الشيخ ابن عبّاد رحمه الله تعالى كتابة العالم المنصف المخلص، فقال له ما خلاصته. كما في كتابه «الرسائل الصغرى» ص ١٠٦ وما بعدها وص ١٢٥ وما بعدها «الشيخُ المرجوعُ إليه في السلوك ينقسم إلى قسمين: شيخُ تعليم وتربية، وشيخُ تعليم بلا تربية.

فشيخُ التربية ليس بضروري لكل سالك، وإنما يحتاج إليه من فيه بلادةُ ذهن واستعصاءُ نفس. وأما من كان وافر العقل منقاد النفس، فليس بلازم في حقه، وتقيُّدُه به من باب الأولى. وأما شيخُ التعليم فهو لازم لكل سالك.

أما كونُ شيخ التربية لازماً لمن ذكرناه من السالكين فظاهر، لأن حُجُب أنفسهم كثيفة جداً، ولا يستقل برفعها وإماطتها إلا الشيخ المربي، وهم بمنزلة من به علل مُزْمِنة، وأدواء مُعضِلة من مرض الأبدان، فإنهم لا محالة يحتاجون إلى طبيب ماهر يعالج عللهم بالأدوية القاهرة.

وأما عدمُ لزوم الشيخ المربي لمن كان وافر العقل منقاد النفس، فلأن وفور عقله وانقياد نفسه يُغنيانه عنه، فيستقيم له من العمل بما يلقيه إليه شيخُ التعليم ما لا يستقيم لغيره وهو واصلٌ بإذن الله تعالى. ولا يُخافُ عليه ضررٌ يقع له في طريق السلوك إذا قصدَه من وجهه، وأتاه من بابه.

واعتمادُ شيخ التربية هو طريق الأئمة المتأخرين من الصوفية، واعتمادُ شيخ =

وإنَّما يُمَيِّزُ ذلك ويَرْغَبُ فيه أَهلُ العَقْلِ والفَهْمِ عَنِ اللّهِ، الذينَ عَمِلُوا في إحْكَامِ الظَاهِرِ، وَتَنَزَّهُوا عَنِ الشُّبُهَاتِ، قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «الحلالُ بَيِّنٌ، والحرامُ بَيِّنٌ[(١)]».

= التعليم هو طريق الأوائل منهم. ويظهر هذا من كتب كثيرٍ من مصنِّفيهم، كالحارث المحاسبي، وأبي طالب المكي، وغيرهما، من قِبَل أنهم لم ينصوا على شيخ التربية في كتبهم على الوجه الذي ذكره أئمة المتأخرين، مع أنهم ذكروا أصول علوم القوم وفروعهم، وسوابقه ولواحقَها، لا سيما الشيخ أبو طالب، فعدمُ ذكرهم له دليلٌ على عدم شرطيَّته ولزومهِ في طريق السلوك.

وهذه هي الطريقة السابلة ــ أي المسلوكة ــ التي انتهجها أكثرُ السالكين، وهي أشبه بحال السَّلف الأقدمين، إذ لم يُنقل عنهم أنهم اتخذوا شيوخ التربية، وتقيّدوا بهم، والتزموا معهم ما يلتزمه التلامذة مع الشيوخ المربين، وإنما كان حالُهم اقتباس العلوم، واستصلاح الأحوال بطريق الصحبة والمؤخاة بعضهم لبعض. ويحصل لهم بسبب التلاقي والتزاور مزيدٌ عظيم يجدون أثره في بواطنهم وظواهرهم، ولذلك جالوا في البلاد، وقصدوا إلى لقاء الأولياء والعلماء والعُبّاد.

وأما كتبُ أهلِ التصوف فهي راجعة إلى شيخ التعليم، لأن الاستفادة منها لا تصح إلَّا باعتقاد الناظر فيها أن مؤلِّفها من أهل العلم والمعرفة، وممن يصح الاقتداء به.

ولا يحصل هذا الاعتقاد إلَّا من قِبَلِ شيخ معتمد عليه عنده أو من طريق يثق به، فإن كان ما يستفيده منها بيِّناً موافقاً لظاهر الشرع موافقةً بيِّنةً اكتفى بذلك، وإلَّا فلا بد له من مراجعة شيخ ــ أي من شيوخ التعليم ــ يبينه له، فالشيخ لا بد منه». انتهى. فأفاد كلامُه انتفاءَ لزوم شيخ التربية والبيعةِ له، وإثباتَ لزوم شيخ التعليم.

وجود المال الحلال مع انتشار المال الحرام:

(١) قال الإمام الغزالي: «يظنُّ الجاهل أنَّ الحلال مفقود، وأن السبيل للوصول إليه مسدود، حتى لم يبق من الطيِّب إلَّا الماء الفُرات، والحشيشُ النابتُ في الموات، وما عداه فقد أخبثتْه الأيدي العادية، وأفسدتْه المعاملة الفاسدة!

وليس كذلك، بل قال المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم: «الحلالُ بيِّنٌ، والحرامُ بيِّنٌ، وبينهما أمور مشتبهات». ولا تزال هذه الثلاثة مقترنات، كيفما تقلّبت الحالات، وإنما الذي فُقِد: العلمُ بالحلال، وبكيفية الوصول إليه!» انتهى من «الإحياء» =

وَبَيْنَ ذلكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، تَرْكُهَا خيرٌ مِنْ أَخْذِهَا(١).

= للغزالي ٥: ٢٠ و «فيض القدير» للمناوي ٣: ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

قلت: نعم ما تزال هذه الثلاثة موجودة، ولكن يقل الحرام أو يكثر، وفي زماننا قد كثر الحرام لضعف الدين، وقلة الفقه فيه، ولانتشار الربا وغيره من المعاملات المحرمة في غالب معاملات الناس، فالله المستعان.

انتشار المال الحرام لا يلزم منه ترك الشراء والأكل

ومع هذا فقد قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في «الإحياء» ٥: ٤٦: «ومن علم أن مالَ الدُّنْيا خالطه حرامٌ قطعاً، لا يلزمُه تركُ الشراء والأكل، فإن ذلك حرج، وما في الدنيا من حرج، ويُعْلَمُ هذا بأنه لما سُرِق في زمن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم مجنٌّ ـ أي تُرْسٌ ـ وغلَّ واحدٌ ـ أي خان واحد ـ من الغنيمة عباءةً، لم يمتنع أحدٌ من شراء المِجانِّ والعباء في الدنيا، وكذلك كلُّ ما سُرِق.

وبالجملة إنما تنفكُّ الدنيا عن الحرام إذا عُصِمَ الخلقُ كلُّهم عن المعاصي، وهو مُحال. وإذا لم يُشترط هذا في الدنيا، لم يُشترط أيضاً في بلد، إلاَّ إذا وقع بين جماعة محصورين، بل اجتنابُ هذا من ورع الموسوسين، إذ لم يُنقل ذلك عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ولا عن أحد من الصحابة، ولا يُتصوَّرُ الوفاءُ به في مِلَّة من المِلل، ولا في عصرٍ من الأعصار». وانظر «رسالة الحلال والحرام» لابن تيمية.

(١) هو بعضُ حديث رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه والدارمي وغيرُهم، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه. واللفظ المذكور عند الترمذي. وجملة «تركُها خيرٌ من أخذها» ظاهرُ سياق المؤلف أنها من تمام الحديث، ولكني لم أقف عليها في شيء من طرق الحديث ورواياته على كثرة ما تتبعتُه، فلهذا جعلتُها خارج الهلالين، والله أعلم.

وتمامُ رواية الترمذي: «... وبينَ ذلك أمورٌ مُشْتبهات، لا يدري كثيرٌ من الناس أمِن الحلال هي أم من الحرام، فمن تركها استبراءً لدينه وعِرْضه فقد سلِم، ومَنْ واقع شيئاً منها يُوشكُ أن يُواقعَ الحرام، كما أنه من يرعى حول الحمى يُوشكُ أن يُواقعه، ألا وإنَّ لكل مَلِكٍ حِمى، ألا وإنَّ حِمى الله مَحارِمُه». أي معاصيه. زاد البخاري ومسلم في روايتهما: «ألا وإن في الجسد مُضغةً إذا صلحتْ صلح الجسدُ كله، وإذا فسدتْ فسد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ».

الاستكثار من المباح مدْرَجة للمكروه وهو مدْرَجة للحرام

قال العلامة زين الدين ابنُ المُنَيِّر في شرحه على «صحيح البخاري» عند رواية =

. . . .

= البخاري: «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام». إذْ سمعه القدوة الزاهد الشيخ أبا القاسم بن منصور القبّاري الإسكندراني كان يقول: المباحُ: عَقَبَةٌ بين العَبْد وبين المكروه، فمن استكثر من المباح تطرّق إلى المكروه! والمكروه عَقَبة بين العَبْد وبين الحرام، فمن استكثَرَ من المكروه تطرَّقَ إلى الحرام!

قال الحافظ ابن حجر بعد نقله في «فتح الباري» ١١٨:١: «وهو منزعٌ حسن، ويؤيِّده رواية ابن حبّان من طريق ذَكر مسلم إسنادها ولم يسُق لفظها، فيها من الزيادة: «اجعلوا بينكم وبين الحرام سُترةً من الحلال، من فعلَ ذلك استبرأ لعرضه ودينه، ومن أرْتع فيه كان كالمُرتع إلى جَنْب الحمى يوشك أن يقع فيه».

ثم قال الحافظُ ابن حجر: «ومعنى الحديث: أنَّ الحلال حيث يُخشى أن يؤول فعلُه مطلقاً إلى مكروه أو محرَّم ينبغي اجتنابه، كالإكثار مثلاً من الطيبات فإنه يُحوج إلى كثرة الاكتساب الموقع في أخذ ما لا يستحق، أو يُفضي إلى بطر النفس، وأقلُّ ما فيه الاشتغالُ عن مواقف العبودية، وهذا معلوم بالعادة مشاهد بالعيان. ويختلفُ ذلك باختلاف الناس:

فالعالِمُ الفطِنُ، لا يخفى عليه تمييزُ الحُكم، فلا يقع له ذلك إلاّ في الاستكثار من المباح أو المكروه كما تقرَّر قبل.

ومَنْ دُونه: تقع له الشبهة في جميع ما ذُكر بحسب اختلاف الأحوال.

ولا يخفى أن المستكثر من المكروه تصيرُ فيه جُرأة على ارتكاب المنهيّ عنه في الجملة، أو يحمله اعتيادُهُ ارتكابَ المنهيِّ عنه غير المحرَّم على ارتكاب المنهيّ عنه المحرَّم إذا كان من جنسه، أو يكونُ ذلك لشُبهة وهو أنّ من تعاطى ما يُنهى عنه يصيرُ مُظلم القلب لفقدان نُور الورع، فيقع في الحرام ولو لم يختر الوقوع فيه».

نماذج من ورع المتقدمين وقال العلامة القسطلاني في «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» عند هذا الحديث ١: ١٩١: «فلله عليك ما لم تعلم حلّه يقيناً: اتركه، كتركه صلى الله عليه وسلّم تمرةً خشية أن تكون من تمر الصدقة، وأعلى الورع تَرْكُ الحلال مخافة الحرام، كترك إبراهيم بن أدهم أجرتهُ لشكه في وفاء عمله، وطوى عن جوع شديد.

وقالتْ أختُ بِشْرٍ الحافي لأحمد بن حنبل: إنا نغزلُ على سطوحنا فيمُرُّ بنا مشاعلُ الظاهرية ــ حرس «الحريم الطّاهري» ببغداد ــ ويقع الشعاعُ علينا أفيجوز لنا الغزْلُ في شُعاعها؟ فقال: منْ أنت عافاك الله؟ قالت: أختُ بشر الحافي، فبكى وقال: من بيتكم يخْرُج الورعُ الصادق، لا تغزلي في شُعاعها. =

فافحَصْ عن النيَّة[1]، واعرِف الإرادة، فإنَّ المُجازَاة: بالنيَّة[2]،

= وأقامت السيدة بديعة الإيجية من أهل عصرنا هذا ـ القرن العاشر ـ بمكة أكثر من ثلاثين سنة لم تأكل من اللحوم والثمار وغيرها المجلوبة من (بجيلة) لمّا قيل: إنهم لا يُورِّثون البنات. وامتنع أبوها نور الدين من تناول ثمر المدينة لمّا ذُكر أنهم لا يزكون. ومن ترخَّص ندم، والأورعُ أسرعُ على الصراط يوم القيامة» انتهى.

وحكى الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» ٥: ١٥ في ترجمة الحافظ ابن عُقْدة أنَّ «والده محمد بن سعيد المُلقَّب بعُقْدة، وكان ورعاً ناسكاً. سقطتْ منه دنانيرُ على باب دار أبي ذرّ الخزَّار، فجاء بنخَّال ليخلصها، قال عُقدة: فوجدتُها، ثم فكرتُ فقلت: ليس في الدنيا غيرُ دنانيرك؟! فقلتُ للنخال: هي في ذمتك، ومضيتُ وتركتُه».

وحصل مثلُ هذا للإمام أبي إسحاق الشيرازي شيخ الشافعية في عصره صاحب «المهذَّب في المذهب»، وكان على خشونة شديدة من الفقر والإملاق، وفي غاية من الورع والصلاح. دخل المسجد يوماً ليأكل فيه شيئاً فنسي ديناراً! فذكره في الطريق فرجع، فلما وجده تركه ولم يمسَّه، وقال: ربما وقع من غيري ولا يكون ديناري. ذكره النووي في «تهذيب الأسماء» ٢: ١٧٣.

وانظر باب الورع في «الرسالة القشيرية» تقف على العجائب المشرقة المدهشة. وللإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه «كتاب الورع»، وهو كتاب نفيس فيه الأبيات النيات من ورع السلف، يُخيَّلُ لقارئه أن الإمام أحمد دخل الجنة ثم جعل يتحدَّثُ عن أخلاقِ أهلها. فعليك بمطالعته فإنك منتفع به ولا ريب.

(١) النيَّةُ: قصدُ القلب للشيء وعزمُه على فعله أو تركه. قال الشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى في «إعلام الموقعين» ٤: ١٩٩: «هي رأسُ الأمر وعمودُه، وأساسُه وأصلُه الذي يُبنى عليه، فإنها رُوح العمل، وقائده وسائقه، والعمل تابع لها يُبنى عليها، يصح بصحتها، ويفسد بفسادها، وبها يُستجلب التوفيق، وبعدمها يحصل الخذلان، وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والآخرة».

فضل النيَّة الحسنة وإثم النية السيئة:

(٢) قلت: وهذا من أكبر نعم الله تعالى على العبد المسلم، فإنه ـ إذْ يُجازَى بنيَّته ـ يستطيعُ أن يُكثِرَ من نيات الخير الذي يُرضي الله تعالى، ويدَّخر بذلك ثواباً حسناً على عملٍ صالحٍ لم يعمله، ولكن نواه وكان يعتزمُ تنفيذه لو تمكَّن منه. ولهذا قال أبو صفوان ـ أحدُ السلف ـ: «ما ضَعُفَ بدنٌ قطُّ عن نية». كما في «الحلية» =

قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لِكُلِّ امرئٍ ما نَوَى»(١).

والزم تقوى الله، فإنَّ «المُسْلِمَ مَنْ سَلِمَ المسلمون مِنْ لسانه ويده، والمُؤْمِنَ مَنْ أمِنَ النَّاسُ بوائقه»(٢). قال أبو بكر الصِّدِّيقُ رضي الله عنه:

= لأبي نعيم ٧: ٥٤. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلتُ لأبي يوماً: أوصني يا أبَهْ، فقال: يا بُنيّ انوِ الخير، فإنك لا تزالُ بخيرٍ ما نويت الخير. نقله ابنُ الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» ص ٢٠٠.

وقال إبراهيم النخعي: لم يكن عبد الرحمن بن يزيد النخعي ــ هو أحد التابعين ــ يعمل شيئاً إلاّ بنية، حتى إنه كان يشربُ الماء بنية. رواه الإمام أحمد في كتاب «العِلَل ومعرفة الرجال» ١: ٧٣.

وكذلك النيّةُ السيّئة تُخسِّسُ ناويها به، ويُعاقبُ على هَمِّه بتنفيذها ولو لم يفعل ما عزم عليه من سوء، إذا كان قد تركها لغير الله تعالى: نحو عجزٍ أو حياءٍ أو رهبةٍ من الناس أو فقدانِهِ الوسيلة إليها.

فأخلِصْ لله تعالى النيّة، وأحسن الطويّة، وتلَقَّ ثوابَ ربِّ البريّة.

(١) رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ولفظُ (إنما) سقطَ من الأصول في الجملة الثانية، كما سقط من الجملتين في النسخة المغربية.

استحضار السلف النية قبل العمل:

وللسلف في تخليص النيّة وتخليصها من الشوائب أقوالٌ كثيرة، قال يوسف بن أسباط: تخليصُ النيّة من فسادها أشدُّ على العاملين من طول الاجتهاد. وقال سفيان الثوري: ما عالجتُ شيئاً أشدَّ عليّ من نيتي! لأنها تتقلبُ عليَّ! وقيل لنافع بن جبير: ألا تشهدُ الجنازة؟ قال: كما أنت حتى أنوي، ففكّر هُنَيهةً ثم قال: امض. نقله الحافظ ابنُ رجب في «جامع العلوم والحكم» ص ٩ عن «كتاب الإخلاص والنيّة» لابن أبي الدنيا.

(٢) البوائق جمعُ بائقة، وهي الشرُّ والأذى والمصيبة. والكلام المذكور: حديث شريف رواه أبو هريرة عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، ولفظُ الحديث عند الإمام أحمد والنسائي والترمذي والحاكم في «المستدرك» وابن حبّان في «صحيحه»: «المسلمُ: من سلم المسلمون من لسانه ويَدِه، والمؤمنُ: من أمِنَه الناسُ على دمائهم =

اتَّقِ اللَّهَ بطاعته، وأطِعِ الله بتقواه، وكُفَّ يَدَكَ عنْ دمَاء المُسْلمين، وبطنَكَ عنْ أمْوالِهِمْ، ولِسَانَكَ عنْ أعرَاضِهِم.

وحَاسِبْ نفسَك في كلِّ خَطْرَة[1].

= وأموالهم»، كما في «الجامع الصغير». وقال شارحه المناوي في «فيض القدير» ٦: ٢٧٠ «جاء في رواية الحاكم زيادةٌ وهي: والمجاهدُ من جاهد نفسَهُ في طاعةِ الله، والمهاجرُ: من هَجَر الخطايا والذنوب».

هذا، وجاء لفظُ الحديث في أكثر النسخ: «من سَلِمَ الناسُ...»، وفي إحداها: «من سلم المسلمون...»، فأثبتُّها موافقةً للفظ الحديث. ولا فرق بينهما من حيث المعنى والمراد، بدليل تمام الحديث نفسه: «والمؤمنُ من أمِنَهُ الناسُ...»، ولم يقل: من أمِنَه المسلمون على دمائهم وأموالهم.

تقسيم الخواطر وذكرُ أسمائها:

(١) قال الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله تعالى في كتابه «قوت القلوب» ١: ١٢٦ «ذكرُ تقسيم الخواطر وتفصيلُ أسمائها: فأما تسمية جملة الخواطر،

ـ فما وقع في القلب من عمل الخير فهو: إلهام.

ـ وما وقع من عمل الشر فهو: وسواس.

ـ وما وقع في القلب من المخاوف فهو: إحْسَاس.

ـ وما كان من تقدير الخير وتأميله فهو: نية.

ـ وما كان من تدبير الأمور المباحات وترجيحها والطمع فيها فهو: أمنية وأمل.

ـ وما كان من تذكرة الآخرة والوعد والوعيد فهو: تذكر وتفكير.

ـ وما كان من معاينة الغيب بعين اليقين فهو: مشاهدة.

ـ وما كان من تحدث النفس بمعاشها وتعريف أحوالها فهو: هَمّ.

ـ وما كان من خواطر العادات ونوازع الشهوات فهو: هَمٌ. ويُسمَّى جميع ذلك خواطر». انتهى.

كلام رائع في الخاطر لابن القيم:

وللشيخ الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كلامٌ في الخطرة والفكرة وما إليهما في غاية الدقة والنفاسة، ما أصدَقَهُ وما أحقَّهُ؟! فعليك بتدبره وتفهمه وحفظه لنفاسته، وأنا ناقلُه لك ــ على طوله ــ راجياً منك أن تتدبَّره ففيه الخيرُ لك في دينك ودُنياك. قال رحمه الله تعالى في كتابه «الفوائد» ص ٣١ و ١٧٣ ــ ١٧٤ من الطبعة المطبوعة بمصر سنة ١٣٤٤:

. . . .

معالجة الخواطر السيئة

«دافِع الخطرة، فإن لم تفعل صارَتْ شَهْوَة، فحارِبْها، فإن لم تفعل صارتْ عزيمةً وهمّة، فإن لم تدافِعْها صارَت فعلاً، فإن لم تتداركه بضدِّه صار عادةً! فيصْعُبُ عليك الانتقالُ عنها!!

واعلم أن مبدأ كل علمٍ اختياري هو الخواطرُ والأفكار، فإنها تُوجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل وكثرةُ تكراره تُعطي العادة. فصلاحُ هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادُها بفسادها.

فصلاحُ الخواطر بأن تكون مراقبةً لوليِّها وإلهها، صاعدةً إليه، دائرة على مرْضاته، ومحابّه، فإنه سبحانه به كلُّ صلاح، ومِنْ عنده كلُّ هُدى، ومن توفيقه كل رشد، ومن توليه لعبده كلُّ حفظ. ومِنْ تولِّي العبد وإعراضه عنه كلُّ ضلالٍ وشقاء!

واعلم أنَّ الخطرات والوساوس تؤدِّي متعلَّقها إلى الفكْر، فيأخذه الفكْر فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها التذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤدِّيها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصيرُ عادةً. فردُّها من مبادئها أسهلُ من قطعها بعد قُوَّتها وتمامها.

ومعلوم أنَّ الإنسان لم يُعطَ إماتة الخواطر، ولا القوّة على قطعها، فإنها تهْجُمُ عليه هُجوم النفس، إلَّا أنَّ قوّة الإيمان والعقلِ تُعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومُساكنتِهِ له، وعلى دَفْعِ أقبحِها وكراهتِهِ له ونفْرَتِه منه.

وقد خلق الله سبحانه النَّفسَ شبيهةً بالرَّحى الدائرة التي لا تسْكُنُ ولا بُدَّ لها من شيء تطحنُه، فإنْ وُضع فيها حَبٌّ طحنتْه، وإن وضع فيها ترابٌ أو حصىً طحنتْه!

أثر طاعة النفس الأمارة

فالأفكارُ والخواطرُ التي تجولُ في النَّفس هي بمنزلة الحَبِّ الذي يُوضعُ في الرَّحى، ولا تبْقى تلك الرَّحى مُعطَّلةً قط، بل لا بُدَّ لها من شيء يُوضعُ فيها، فمن الناس مَنْ تطْحنُ رحاهُ حبًّا يخْرُجُ دقيقاً ينفعُ به نفسَهُ وغيره، وأكثرُهم يطْحنُ رمْلاً وحصىً وتبْناً ونحو ذلك! فإذا جاء وقْتُ العجْن والخبْز تبيَّن له حقيقةُ طحينه!!»
انتهى.

قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله تعالى: «ومن أطاع النفس الأمَّارة بالسُّوء، =

وراقِبِ اللَّهَ في كل نفسٍ. قال عُمَرُ رضي الله عنه: حَاسِبُوا أنفُسَكم قبل أن تُحاسَبُوا، وزِنُوهَا قبل أنْ تُوزَنُوا[١]، وتزيَّنُوا لِلعَرْضِ الأكْبرِ[٢] يَوْمَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَة[٣].

= فإنها تهبطُ به إلى دركة الفُحش والفجور، وربما تهوي به إلى استحلال المعاصي وهو من الكفر! كمن يُنَمِّلُ النظر بشهوة إلى بعض الحسان، فينتقل من النظر إلى المُغازلة، ومن المغازلة إلى المُهازلة ـ أي المُمازحة ـ، ومن المهازلة إلى المُلاعبة والمُداعبة، ومنها إلى المفاعلة! قال الشاعر العربي:

فلمَّا رَأَتْني رَأْرَأَتْ ثم أَقبَلَتْ ... تُهازِلُني والهَزْلُ داعِيةُ العُهْرِ

رَأْرأتْ: حرَّكتْ حدقة عينيها وحدَّدتْ النظر. والعُهْرُ: الزنى. انتهى من «تفسير المنار» ٩: ٥٤٧، وفي طبعة ٩: ٤٥٧، في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿إنَّ الذين اتَّقَوْا إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكَّروا...﴾.

(١) فإنه أهونُ عليكم في الحساب غداً، أن تُحاسِبُوا أنفسكم اليوم. هكذا جاءت رواية هذا الخبر في «كتاب القُصَّاص والمذكِّرين» لابن الجوزي ص ٤٣ وجاءت العبارة في نسخة (ج) «وزنوها قبل أن تُوزَن عليكم».

(٢) أي استعدُّوا وتهيئوا.

(٣) علَّق الترمذيُّ في «سننه» ٩: ٢٨٢ في أبواب صفة القيامة كلمة عمر هذه بلفظ: «حاسِبُوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وتزيَّنوا للعَرْض الأكبر، وإنما يخِفُّ الحسابُ يوم القيامة على مَنْ حاسب نفسه في الدنيا». ثم قال الترمذي: «ويُروى عن ميمون بن مِهْران قال: لا يكون العبدُ تقيًّا حتى يُحاسِبَ نفسَهُ كما يُحاسِبُ شريكَهُ من أين مَطعَمُهُ وملبَسُهُ؟».

وصفُ الحسن البصري للمؤمن:

وقال الإمام الحسن البصري رضي الله عنه: ـ كما في «الحلية» لأبي نعيم ٢: ١٥٧ و«البداية والنهاية» لابن كثير ٩: ٢٧٢ ـ «إنَّ المؤمن قوَّام على نفسه، يُحاسب نفسه لله عزَّ وجلَّ، وإنما خفَّ الحسابُ يوم القيامة على قومٍ حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقَّ الحسابُ يوم القيامة على قومٍ أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة.

إن المؤمن يفجأه الشيء يعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك ـ يعني لا يتناوله لشكٍّ منه في حِلِّه ـ هيهات حِيلَ بيني وبينك. ويَفرُطُ منه الشيء ـ أي يقع منه ما لا يُحِبُّ وقوعه ـ فيرجع إلى =

وخَفِ اللَّهَ في دِينِكَ، وَٱرْجُهُ في جَميعِ أُمورِكَ(١)، واصبِرْ عَلى ما أَصابَكَ(٢)، قال عليّ رضي اللَّهُ عنه: لا تَخَفْ إلَّا ذَنْبَكَ، ....

= نفسه فيقول: ما أردتُ إلى هذا! ما لي ولهذا؟! والله ما لي عذر بها! ووالله لا أعود هذا أبداً إن شاء الله. إن المؤمن أسيرٌ في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عزَّ وجلَّ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه، في جوارحه كلها».

محاسبة الشيوخ لأنفسهم قبل النوم:

وقال المناوي في «فيض القدير» ٥:٦٧: «قال الشيخ ابنُ عربي: كان أشياخنا يُحاسبون أنفُسهم على ما يتكلَّمون به وما يفعلونه، ويُقيِّدونه في دفتر، فإذا كان بعد العشاء حاسبُوا نفوسهم، وأحضروا دفترهم، ونظروا فيما صدر منهم من قول وعمل، وقابلوا كُلًّا بما يستحقه، إن استحقَّ استغفاراً استغفروا، أو التوبة تابوا، أو شكراً شكروا، ثم ينامون، فزِدْنا عليهم في هذا الباب الخواطر، فكنا نُقَيِّدُ ما نُحدِّثُ به نفوسَنا ونَهُمُّ به، ونُحاسِبُها عليه».

قرب الله من الداعين إياه بسِرِّهم:

(١) فإنه سبحانه هو الذي تخاطِبُهُ هَمْساً وقتَ تُريد، وتطلبُ منه مُناجاةَ كلِّ ما تشاء، وتُسِرُّ إليه بما لا يطَّلِعُ عليه غيرُه، ويُجيبك بحكمته ولُطْفِه بما يشاء، ووقتَ ما يشاء، وهو الحكيم العليم السميع البصير القدير على كل شيء، الذي تعرَّض لك بقوله ـ تفضلاً وكرماً دون توقيت أو واسطة أو تعيين زمنٍ أو مكان ـ ﴿ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لكم﴾، فبابُه مفتوح دون حاجب أو بوّاب، وهو الذي يرجى في جميع الأمور، ولو رجوتَهُ في قتلك أجابك أيضاً، لا إله إلَّا هو، فلا تَرْجُ سواه.

أشدُّ ما يكون الكرب أقربُ ما يكون الفرج

(٢) ولا تظنَّ أنَّ الكَرْبَ لا ينتهي ظلُّه، فلكل شيءٍ أجل، واعلم أنَّ الفرج يأتي من قلب الشدة والضيق، وشواهدُهُ كثيرة، ومنها قولُه تعالى ﴿وبَشِّرِ الصابرين﴾ لم يقُل (وسلِّ الصابرين)، وإنما قال: ﴿وبشِّرِ الصابرين﴾ ليفيد أنَّ الصابرَ يَستقبلُ بشارةً من فرج أو أجر أو نصر أو يُسر...

قصة كَرْب الأمَةِ السوداء وانفراجِه:

ومن الشواهد على ذلك ما رواه البخاري في «صحيحه»: «عن عائشة رضي الله عنها أنَّ وليدةً ـ أي أمةً رقيقة ـ كانت سوداء، لحيٍّ من العرب فأعْتقوها، فكانتْ معهم، قالت: فخرجتْ صبيةٌ لهم عليها وِشاحٌ أحمرُ من سُيُورٍ ـ مُرَصَّعٌ باللؤلؤ ـ فوضعتْهُ، فمرّت به حُدَيَّاةٌ وهو مُلْقًى، فحسِبَتْهُ لحماً فخطفَتْهُ.

قالت: فالتمسوهُ فلم يجدوهُ، فاتَّهموني به، فطفِقوا يُفَتِّشونَ حتَّى فتَّشوا قُبُلي. =

ولا تَرْجُ إلاَّ رَبَّكَ(١)، وَلاَ يَسْتَحِ الذي لا يَعْلَم أَنْ يَسْأَل حَتَّى يَعْلَم، ولا يَسْتَحِ مَنْ يُسْأَلُ عَمّا لا يَعْلَم أَن يَقُول: لا أعلَم(٢).

= قالت: واللهِ إنّي لقائمةٌ معهم وأنا في كَرْبي، إذ مَرَّتِ الحُدَيَّاةُ فأَلقَتْهُ، فوقَع بينهم، فقلتُ: هذا الذي اتَّهَمْتموني به زعمتم، وأنا منهُ بريئةٌ وهَا هُوَ ذا.

فجاءتْ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأَسْلَمَتْ، قالت عائشةُ: فكان لها خِباءٌ في المسجد ـ أي خيمةٌ ـ، أو حِفْشٌ ـ أي كُوخٌ ـ، فكانت تأتيني فتتحدَّثُ عندي، قالت: فلا تَجلِسُ عندي مجلساً إلاَّ قالت:

ويومُ الوِشاحِ مِن تعاجِيبِ ربِّنا ... ألا إنَّه مِن بَلدةِ الكفرِ أَنْجَاني

قالت عائشةُ: فقلت لها: ما شأنُكِ لا تَقْعُدين معي مقعداً إلاَّ قُلتِ هذا؟ قالت فحدَّثتني بهذا الحديث».

رواه البخاري في كتاب الصلاة (باب نوم المرأة في المسجد) ١: ٥٣٣، وفي كتاب مناقب الأنصار (باب أيام الجاهلية) ٧: ١٤٨. وروايةُ آخر البيت في الموضع الأول: نَجّاني. و(التعاجيب): الأعاجيب.

لا أدَعُ باباً مفتوحاً وأقصِدُ باباً مغلقاً:

(١) وما أعظم هذا التوجيه، وما أفضل العمل به، جاء في ترجمة الفقيه المحدث الزاهد العابد الصالح أحمد بن أبي غالب بن الطُّلاَيَة البغدادي، المتوفى سنة ٥٤٨ رحمه الله تعالى، وكان يقصده الناس للدعاء لهم لكثرة صلاحه: «جاء إليه رجل، فقال: سل لي فلاناً في كذا، فقال له: يا أخي، قُمْ معي نُصلِّ ركعتين، ونسأل الله تعالى، فأنا لا أترك باباً مفتوحاً، وأقصدُ باباً مغلقاً». من «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي ص ٦٤٠، و«ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب ١: ٢٢٤. فلا تدع الباب المفتوح إذا قصدت الباب المُغلق، فصلِّ لله ركعتين وادْعُهُ، فإنه قريبٌ مجيب وحكيمٌ عليم.

الأمير المحتاج إلى الله:

وذكر ابن الجوزي في كتاب «المُنْتَقى في حكايات الصالحين» في الحكاية ٥٠٧، قال عبد الرحمن بن إبراهيم الفهري: أتى رجل بعض الأمراء في حاجة، فوجده ساجداً يدعو ربه عزَّ وجلَّ، فقال: هذا محتاج إلى غيره فكيف أحتاج أنا إليه؟ لم لا أرفع حاجتي إلى من لا تَختَلِجُ ـ أي تختلط وتتأخَّرُ ـ الحوائجُ عنده، قال: فسمعه الأمير، فلما رفع رأسه قال: عليَّ بالرجل، فأُتي به، فقال: أعطوه عشرة آلاف، وقال: إنما أعطاك هذا من كُنْتُ أدعوه وأنا ساجد ومن رجعت إليه».

(٢) قال عبدُ الله بن عُمر رضي الله عنه: العلمُ ثلاثة: كتابٌ ناطق، وسُنَّةٌ =

. . . .

= قائمة، ولا أدري. رواه عنه الدارقطني في «غرائب مالك» والخطيب البغدادي في «أسماء من روى عن مالك». وروى أبو داود في أول كتاب «الفرائض» ٣: ١٦٤ وابن ماجه في مقدمة «سننه» في الباب الثامن ص ٢١ نحوه بسندٍ ضعيف من حديث عبد الله بن عمْرٍو مرفوعاً إلى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، مع اختلاف في اللفظ قال الحافظ ابن حجر: «والموقوفُ حسنُ الإسناد». نقله المُناويُّ في «فيض القدير بشرح الجامع الصغير» للسيوطي ٤: ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

قولُ العالم لا أدري رفعةٌ له

ثم قال المناوي رحمه الله تعالى في شرحه: «أُخِذ من هذا الحديث أنَّ على العالم إذا سُئل عما لا يعلمه، أن يقول: لا أدري، أو: لا أتحقَّقُه، أو: لا أعلم، أو: اللهُ أعلم. وقولُ المسؤول: لا أعلمُ، لا يضعُ من قدْره كما يظنه بعضُ الجهلة، لأن العالِمَ المتمكن لا يضرُّه جهلُه ببعض المسائل، بل يرفعُه قولُه: لا أدري، لأنه دليلٌ على عظم محلِّه، وقُوَّة دينه، وتقوى ربِّه، وطهارة قلبه، وكمال معرفته، وحُسن نيَّته.

وإنما يأنفُ من ذلك من ضعُفتْ ديانتُه، وقلَّتْ معرفتُه، لأنه يخاف من سُقوطه من أعين الحاضرين، ولا يخاف من سُقوطه من نظر ربِّ العالمين، وهذا جهالةٌ ورِقَّةُ دين»، ومن ثَمَّ نُقل: (لا أدري) و(لا أعلم) عن الأئمة الأربعة والخلفاء الأربعة، بل عن المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم وجبريل عليه السلام، كما جاء ذلك في حديث «خيرُ البقاع المساجد». انتهى. ثم أورد المناوي أقوال الصحابة وغيرهم في هذا الموضوع.

وقال الإمام أبو الحسن الماورديُّ في كتابه النافع العظيم «أدب الدنيا والدين» ص ٨٢: «وإذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم من سبيل، فلا عار أن تجهل بعضه، وإذا لم يكن في جهل بعضه عار، فلا تستحِ أن تقول: لا أعلم، فيما لا تعلم». انتهى من «شرح الإحياء» للزَّبيدي ١: ٣٩٤.

لا أدري نصفُ العلم

وقال الإمام الغزالي في «الإحياء» ١: ٦٩، عقب ذكره قول الشعبي: (لا أدري نصفُ العلم). «ومن سكت حيث لا يدري، لله تعالى، فليس بأقلَّ أجراً ممن نطق، لأن الاعتراف بالجهل أشدُّ على النفس». وقال أبو طالب المكيُّ في «قوت القلوب»: ولأنَّ خشْىَ من سكت من أجل الله تورُّعاً، كخشْىِ من نطق لأجله بالعلم تبرُّعاً». انتهى.

إن قلـت لا أدري علموك حتى تدري

وروى ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ٢: ٥٥ عن بعض أهل =

واعْلَمْ أنَّ الصَّبْرَ من الإيمانِ بمنْزِلَةِ الرأسِ من الجَسدِ(١)، فإذا قُطِعَ الرأْسُ ذهبَ الجسَدُ كُلُّه. فإذا سَمِعْتَ كَلِمَةً تُغْضِبُكَ في عِرْضك فاعفُ واصْفَحْ، فإنَّ ذلِكَ مِنْ عزم الأُمور. قال عُمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه: مَن خافَ اللّهَ لم يَشْفِ غيظَهُ، ومَنْ اتَّقاهُ لم يَصْنَعْ ما يُريد(٢)، ولولا يَومُ القيامة لَكانَ غيرَ ما تَرَوْنَ.

وَراعِ هَمَّكَ، واشتَغِلْ بإصْلاحِ نفْسِك عن عيْبِ غيرِك(٣)، فإنه

= العلم قال: «تعلَّمْ: لا أدري، ولا تتعلَّمْ أدري، فإنك إن قلت لا أدري، علَّموك حتى تدري، وإن قلت: أدري سألوك حتى لا تدري!». وذكره ابن القيم في «إعلام الموقعين» ٤: ٢١٨. وروى أبو خيثمة النسائي في «كتاب العلم» له ص ١٢٠ «عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: إنَّ من العلم أن يقول الذي لا يعلم: اللّهُ أعلم». انتهى. وسأل إبراهيمُ النخعيُّ عامراً الشعبيَّ ــ الإمام الذي كان عالم زمانه في التابعين ــ عن مسألة، فقال: لا أدري. فقال النخعيُّ: هذا واللّهِ العالِمُ، سُئل عما لا يدري، فقال: لا أدري».

(١) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث أنس عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم بلفظ: «الصبرُ من...»، وهو حديث ضعيف.

ورواه البيهقي في شعب الإيمان من كلام سيدنا علي موقوفاً عليه، كما في «الجامع الصغير» بشرح المناوي ٤: ٢٣٤. وفيه من تتمة قول سيدنا علي: «فإذا قُطع الرأس مات الجسد».

(٢) ومن الكلام المأثور: التقيُّ مُلجمٌ لا يتكلَّمُ بكل ما يريد. من كتاب «الجامع» للإمام ابن أبي زيد القيرواني ص ١٦٩. وفي نسخة (خ): ومن أطاع لم يصنع إلاّ ما يريده منه.

القاضي إياس والمغتابُ لأخيه المسلم:

(٣) قال سفيان بن حسين الواسطي: ذكرتُ رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية المُزني قاضي البصرة، ــ وهو تابعي يُضرَب المثلُ بذكائه ــ فنظر في وجهي وقال: أغزوت الروم؟ قلت: لا! قال: السِّند والهندَ والتُّرك؟ قلت: لا! قال: أفسلم منك الروم والسند والهند والترك، ولم يسلم منك أخوك المسلم؟! قال سفيان: فلم أعُدْ بعدها ــ يعني إلى غيْبة أحد من الناس أو غيبته ــ». نقله الحافظ =

كان يُقال: كفى بالمرءِ عيباً أن يَستبينَ له من الناس ما يَخْفَى عليه مِنْ نفْسِهِ[١]، أو يَمقُتَ النَّاسَ فيما يأتي مِثْلَهُ، أو يُؤذِيَ جليسَهُ، أو يقولَ في النَّاسِ ما لا يَعْنِيهِ.

واسْتعمِلْ لله عقلَكَ بتَرْكِ التَّدبيرِ[٢]، واستعِنْ باللهِ على صَرْفِ المقاديرِ. قال عليّ رضي اللهُ عنه: يا ابنَ آدم! لا تفْرَحْ بالغِنى، ولا تَقْنَطْ بالفقْرِ، ولا تَحْزنْ بالبَلاءِ[٣]، ولا تفْرَحْ بالرَّخاءِ، فإنَّ الذَّهَبَ يُجَرَّبُ بالنَّارِ[٤]، ....

= ابن كثير في «البداية والنهاية» في ترجمة (إياس) ٩: ٣٣٦.

الإمام ابن وهب يعالج ترك الغيبة بإخراج المال

وجاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض رحمه الله تعالى ٣: ٢٤٠، في ترجمة (الإمام ابن وهب) عبد الله بن وهب القرشي المصري، الإمام المحدِّث الفقيه العابد الزاهد، صاحب الإمام مالك والليث والثوري وغيرهم، المتوفى بمصر سنة ١٩٧ رحمه الله تعالى، جاء فيه «قال ابنُ وهب: جعلتُ على نفسي كلما اغتبتُ إنساناً صيام يوم، فهان عليَّ، فجعلتُ عليها كلما اغتبتُ إنساناً صدقة درهم، فثقُل عليَّ وتركتُ الغيبة».

(١) معنى يَستبين له أي يَظْهَر.

(٢) أي لا تعتمد على تدبير عقلك كل الاعتماد، فللعقل حدودٌ ينتهي نظرُ العقل عندها، وإنما عليك التسليمُ لله في تدبيره مع الأخذ بالأسباب التي أمرك بها، ثم تفوِّضُ الأمر إليه سبحانه في عاقبة ما يُقدِّره لك من عطاء أو حرمان، فإنه أرحمُ بك من نفسك، وأعلمُ بما ينفعُك ويضرُّك. وقد تكرَّر قولُهُ سبحانه في كتابه الكريم في خمسِ آياتٍ كريمات: ﴿والله يعلَمُ وأنتم لا تعلمون﴾.

(٣) قال سيدنا عمر رضي الله عنه: ما أبالي على أيِّ حالٍ أصبحتُ، أعلى ما أُحبُّ أم على ما أكره؟ ذلك لأني لا أدري الخير فيما أُحبُّ أو فيما أكره. رواه الإمام أحمد في كتاب «العِلَل ومعرفة الرجال» ١: ١٤٩.

الابتلاء بالمسارّ وبالمضارّ والأول أشد:

(٤) أي يُختَبَرُ بالنار ليظهر غِشُّهُ أو نَقاؤُه. قال العلامة الفيروزابادي صاحب «القاموس» في كتابه «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» ٢: ٢٧٤ «اختبارُ الله تعالى لعباده تارةً بالمسارِّ ليشكروا، وتارةً بالمضارِّ ليصبروا، فصارت المحنةُ =

وإنَّ العبدَ الصالحَ يُجَرَّبُ بالبلاءِ[1]، وإنَّكَ لا تَنالُ ما تُرِيد إلَّا بتَرْكِ ما تشْتهي، ولَن تَبْلُغَ ما تُؤَمِّلُ إلَّا بالصَّبْرِ على ما تَكْرَهُ، وابذُلْ جُهدَكَ لرِعَايَةِ ما افْتُرِضَ عليك.

= والمحنةُ جميعاً بلاءٌ، فالمحنة مقتضيةٌ للصبر، والمنحة مقتضيةٌ للشكر، والقيامُ بحقوق الصبر أيسرُ من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحةُ أعظم البلاءين، وهذا قال عمر رضي الله عنه: بُلينا بالضرَّاء فصبرنا، وبُلينا بالسرَّاء فلم نصبر. وقال علي رضي الله عنه: من وُسِّع عليه في دُنياه فلم يعلم أنه قد مُكِر به فهو مخدوع عن عقله. وقال تعالى: ﴿ونبلوكم بالشرِّ والخير فتنةً وإلينا تُرْجَعُون﴾». انتهى.

ثمانية أحوال تجري على الناس كلهم:

واعلم أنه لا تدومُ حالٌ واحدةٌ على المرء في هذه الحياة، فهو متحوِّلٌ من حالٍ إلى حال، ولا بدَّ أن تمرَّ به الأحوالُ الثمانيةُ التي عناها القائل رحمه الله تعالى بقوله:

ثمانيةٌ تَجرِي على الناس كلِّهم ... ولا بُدَّ للإنسانِ يَلْقى الثمانِيَةْ

سُرورٌ وحُزنٌ، واجتماعٌ وفُرقَةٌ ... وعُسْرٌ ويُسْرٌ، ثم سُقْمٌ وعافِيَةْ

وقد قال أهل البصيرة: دوامُ الحال، من المُحال.

(١) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «إن الله ليُجرِّبُ أحدكم بالبلاء وهو أعلم به، كما يُجرِّبُ أحدُكم ذهبه بالنار، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز ـ أي الذهب الخالص الصافي ـ، فذلك الذي نجّاه الله تعالى من السيئات، ومنهم من يخرج كالذهب دون ذلك، فذلك الذي يشكُّ بعض الشك، ومنهم من يخرج كالذهب الأسود، فذلك الذي قد افتُتِن». رواه الحاكم في «المستدرك» ٤: ٣١٤ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وأقره الذهبي على صحته فقال: صحيح.

هدايا المخلوق للجنة وللنار

قال الشيخ ابن القيِّم رحمه الله تعالى في «الفوائد» ص ٣٢: «من خلقه الله للجنة لم تَزل هداياها تأتيه من المكاره، ومن خلقه الله للنار لم تزل هداياها تأتيه من الشهوات». انتهى.

النِّعَمُ أضياف والبلايا أضياف:

«قال الإمام أبو الوفاء بن عقيل، في كتاب «الفنون»: «النِّعمُ أضياف، وقِراها الشكر، والبلايا أضياف، وقِراها الصبر، فاجتهِدْ أن تَرحلَ الأضيافُ شاكرةً حُسن القِرَى، شاهِدةً بما تَسمعُ وتَرَى».

الشدائدُ نِعَم وفضلُ آثارها:

وقال الشيخ تقيُّ الدين ابنُ تيمية: من تمام نعمةِ الله على عِبادِه المؤمنين، أن يُنزِل بهم من الشدَّة والضرِّ ما يُلجِئُهم إلى توحيده، فيَدْعُونَه مخلصين له الدين، =

وارْضَ بما أرادَكَ اللَّهُ لَهُ، قال ابنُ مسعود رضي اللَّهُ عنه: ارْضَ بما قَسَمَ اللَّهُ لك تكُنْ مِنْ أغنَى النَّاسِ، واجتَنِبْ ما حرَّمَ اللَّهُ عليك تكن مِن أوْرعِ النَّاسِ(١).

ـ ويَرجُونَه ولا يَرجُون أحداً سِواه، فتتعلَّقُ قلوبُهم به لا بغيره.

فيحصُلُ لهم من التوكل عليه، والإنابة إليه، وحلاوة الإيمان، وذوق طَعْمه، والبراءة من الشِّرْك: ما هو أعظمُ نعمةً عليهم من زوال المرض والخوف، أو الجَدْب أو الضُّرّ. وما يحصُلُ لأهل التوحيد المخلصين لله الدين: فأعظمُ من أن يُعبَّر عنه مقال. ولكل مؤمنٍ من ذلك نصيبٌ بقَدْرِ إيمانه.

المُصيبةُ كِيرُ العبدِ لاختبارهِ ونفعُها له: وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني: يا بُنَيَّ، مصيبةٌ ما جاءتْ لتُهلكك، وإنما جاءت لتمتحن صبْرك وإيمانك. فالمصيبةُ كِيرُ العبد ـ الكِيرُ هو التَّنُّورُ عند الحَدّاد يُزيلُ به عن الحديد ما علق به من صدأ ـ فإمّا أن يخرُج ذهباً، أو خبثاً، كما قيل:

سَبَكْناهُ ونَحسَبُهُ لُجَيْناً فأبدَى الكِيرُ عن خَبَثِ الحديدِ

ـ انتهى المقصود ـ. واعلمْ أنه لولا المصائبُ، لبطِرَ العبدُ وبغى وطغى، فيحميه الله تعالى بها من ذلك، ويُطهِّرُه مما فيه، فسبحان من يرحمُ ببلائه، ويبتلي بنَعْمائِه، كما قيل:

قد يُنعِمُ اللَّهُ بالبَلْوَى وإنْ عَظُمَتْ ويَبتلي اللَّهُ بعضَ القوم بالنِّعَمِ!

رضا العقل بالمقادير أوفى العبادات: قال أبو الوفاء بن عقيل: واعلم أنَّ رضا العقل بأفعال الخالق سبحانه وتعالى: أوْفَى العبادات وأشدُّها وأصعبُها، وقد نبَّه اللَّهُ سبحانه على العجز عن مُلاحظة العواقب، فقال تعالى: ﴿وعسى أنْ تكرهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تُحِبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم، واللَّهُ يعْلمُ وأنتم لا تَعْلَمُـونَ﴾. انتهى ملتقطاً من «الآداب الشرعية» لابن مفلح الحنبلي رحمه الله تعالى ٢: ١٩٣ و ٢٠٠ و ٢٠٤.

من ترك الحرام لله نوّله إياه بالحلال: (١) فقد جعل الله سبحانه في الحلال غنىً عن الحرام في كل شيء، وكم من ممتنع عن الحرام خشية الله، نوّلَهُ الله إياه حلالاً بشِرْعة الله، ولم يكن الزمنُ بين تركه حراماً وبين نيله حلالاً إلّا لمحةً، يوماً أو بعض يوم، وما أصدق قول الشيخ ابن عطاء الله الإسكندري رحمه الله تعالى: حظُّ رُبَّما لا يُعامِلُه العبدُ نقداً فيجازيه نسيئةً. وإليك هذا الخبر العُجاب، لتشهد فيه تعويض ربِّ الأرباب، سبحانه جاء في «مطالع البُدُور في منازل السُّرُور» للأديب علاء الدين علي بن عبد الله =

. . . .

= الغُزُولي الدمشقي، المتوفى سنة ٨١٥ رحمه الله تعالى ١/ ٢٠٧ من (الباب العشرين) ما يلي:

قال الأميرُ بدر الدين يوسفُ المِهْمَنْدار بنُ الأمير سيف الدين أبي المعالي ابن رماح المعروف بمِهْمَنْدار العرب: حكى لي الأميرُ شجاع الدين محمدُ الشرزي مُتولِّي القاهرة في الأيام الكاملية سنة ثلاثين وست مئة، قال:

حكاية من الأعاجيب في ترك الحرام ونيله حلالاً:

بينما أنا عند رجل ببعض بلاد الصعيد، فضيَّفنا وأكرمنا، وكان الرجل أسمر شديد السُّمرة وهو شيخ كبير، وحضر له أولادٌ حسان فيهم صفاءُ لون، فقلنا يا فلان هؤلاء أولادُك بيضٌ وأنت شديدُ السمرة؟ فقال هؤلاء أُمُّهم فرنجيَّة، أخذتُها في أيام الملك الناصر صلاح الدين وأنا شابٌّ بقُوَّة حصَّني، فقلنا: وكيف أخذتها؟ فقال: لها حديثٌ عجيب، فقلتُ: أتحفنا به.

فقال: زرعتُ كتَّاناً في هذه البلدة وقلعتُه ونفضتُه فتصرف عنه خمسُ مئة دينار، فلم يُجب أكثر من ذلك، فأُشير عليَّ بحمله إلى الشام، فحملتُه فلم يُجب أكثر من ذلك! فقيل لي: بعْهُ صبْراً ـ أي دَيْناً إلى أجل ـ لعله يرجعُ لك حقُّ الطريق، فبعتُ بعضه صبْراً إلى ستة أشهر، والبعضُ تركته عندي، واكتريتُ حانوتاً أبيعُ فيه على مَهَلٍ إلى حين انقضاءِ الستة أشهر.

فبينما أنا أبيع وقد مرَّتْ بي امرأة فرنجيَّة زوجُ بعض الخيَّالة، ونساءُ الفرنج يمشون في الأسواق بلا نقاب، فأتت تشتري مني كتَّاناً، فرأيتُ من جمالها ما بَهرني، فبعتُها وسامحتُها، ثم انصرفتْ وعادت إليَّ بعد أيام فبعتُها وسامحتُها أكثر من الكرة الأولى، فتكرَّرتْ إلى عندي وعلمتْ أني أحبها، فقلت للعجوز التي معها: إني قد تعلَّقتُ بحبها، فكيف تتحيَّلين لي؟ فقالت لها ذلك، فقالت: تروحُ أرواحنا الثلاثة أنا وأنت وهو، فقلت لها: إذا ذهبتْ رُوحي باجتماعي بها ما هو كثير، وحكتْ لي كلاماً كثيراً جرى بينهما.

ووقع الحالُ على أن أدفع لها خمسين ديناراً صُوْرِيَّة ـ نسبة لموضع ضربها، وهي وافيةُ الوزن ـ، وتجيء إليَّ، قال: فوزنتُ خمسين دينار صُوْرِيَّة وسلمتها للعجوز، فقالت: هيِّىءْ لنا موضعَك ونحن الليلة عندك.

قال فمضيتُ وجهزتُ ما قدرتُ عليه من مأكول ومشروب وشَمْعٍ وحلْوى، وكانت داري مطلَّة على البحر، وكان الصيف ففرشْتُ لي على سطح الدار، وجاءت —

. . . .

= الفرنجية فأكلنا وشربنا، وجَنَّ الليلُ فنمنا تحت السماء والقمرُ يضيء علينا، والنجومُ تنظر في البحر.

فقلتُ في نفسي: أما تستحي من الله وأنت غريب، وتحت السماء، وعلى بحر وتعصي الله مع نصرانية، فتستوجبُ عذابَ النار وعذاب الدنيا. اللهم إني أُشهدُك أني قد عففتُ عن هذه النصرانية في هذه الليلة حياءً منك وخوفاً من عقابك، ثم نمت إلى الصبح.

فقامت في السَّحر وهي غضبى ومضتْ، ومضيتُ إلى حانوتي فجلستُ فيه، وإذا هي قد عبرتْ عليَّ هي والعجوزُ وهي مغضبة، وكأنها القمر، فهلكتُ وقلتُ في نفسي: من هو أنت حتى تترك هذه الجارية؟! أنت الجُنَيْد أو السَّريُّ السَّقَطي! ثم لحقتُ العجوز وقلت: ارجعي. فقالت: وحقِّ المسيح ما ترجعُ إليك إلا بمئة دينار. فقلتُ: نعم، ومضيتُ إلى حانوتي وزنتُها، وجاءت إليَّ ثاني دفعة، فلحقتني تلك الفِكرةُ الأولى، وعَفَفْتُ عنها وتركتها لله تعالى.

ثم مضتْ ومضيتُ إلى موضعي، ثم عبرتْ عليَّ وكلمتني وكانت مستعربةً، وقالت: وحقِّ المسيح ما بقيت تفرح بي عندك إلا بخمس مئة دينار أو تموت كمداً، فارتعتُ لذلك، وعزمتُ أن أعزمَ ثمن الكتان جميعهُ وأفدي نفسي.

فبينا أنا كذلك والمنادي ينادي: معاشر المسلمين إنَّ الهُدْنة التي بيننا وبينكم قد انقضتْ، وقد أمهلْنا مَنْ هنا من المسلمين إلى جمعة، لينقضوا أمورهم وينصرفوا إلى بلادهم، فانقطعتْ عني، وأخذتُ أنا في تحصيل ثمن الكتان الذي لي والمصالحة على ما بقيَ منه.

وأخذتُ معي بضاعةً حسنة، وخرجتُ من عكّا وأنا في قلبي من الفرنجية ما فيه، فوصلتُ إلى دمشق وبعتُ البضاعة التي لي بأوفى ثمن لانقطاع وصولها بسبب فرغ الهُدْنة، ومنَّ اللهُ سبحانه وتعالى عليَّ بكسب جيد، وأخذتُ أتجر في الجواري عسى أن يذهب ما بنفسي من الفرنجية، ولازمت التجارة فيهن.

فمضى عليَّ ثلاثُ سنين، وجرى للسلطان الملك الناصر ما جرى في وقعة حطّين، وأخذهُ جميع الملوك، وفتحهُ بلاد الساحل بإذن الله تعالى، فطُلبَ مني جاريةٌ للملك الناصر، وكان عندي جاريةٌ حسنة، فاشتُريتْ له بمئة دينار فأوصلوا لي تسعين ديناراً، وبقيتْ عشرةُ دنانير فلم يجدوها في الخزينة ذلك اليوم، لأنه أنفق الأموال جميعها. =

· · · · · · ·

فشاوروه على ذلك، فقال: امضوا به إلى الخزانة التي فيها السَّبي من نساء الفرنج، فخيّروه في واحدةٍ منهن يأخُذُها بالعشرة دنانير التي له. فأتيتُ الخزانة فنظرت إليها فعرفتُ الحرمة الفرنجية غريمتي، فقلتُ: أعطوني هاتيك، فأخذتُها ومضيت إلى خيمتي، وقلتُ لها: أتعرفيني؟ قالت: لا، فقلتُ: أنا صاحبُك التاجر في المكان الذي جرى لك معك ما جرى، وأخذت مني الذهب، وقلت: ما بقيْت تنظريني إلا بخمس مئة دينار وقد أخذتُك ملكاً بعشرة دنانير، فقالت: مُدَّ يدك، أنا أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، فأسلمتْ وحسُن إسلامُها.

فقلتُ: والله لا وصلتُ إليها إلا بأمر القاضي، فرُحتُ إلى ابن شدّاد وحكيتُ له ما جرى، فعجب وعقد لي عليها، وباتت تلك الليلة فحملت، ثم رحل العسكر فأتينا إلى دمشق، فما كان إلا شهور قلائل وأتى رسولُ الملك يطلبُ الأسرى والسُّبايا باتفاق وقع بين الملوك، فرُدّ من كان أسيراً من الرجال والنساء، ولم يبق إلا امرأة الفارِس التي عندي.

فسألوا عنها وألحّوا في السؤال والكشف، فوُشي بها أنها عندي، فطُلبتْ مني، وحضرتُ وأنا في شدةٍ وقد تغيّر لوني، فقالت: ما بدا لك؟ وما لدي أصابك؟ قلتُ: جاء رسولُ الملك يأخذ الأسرى جميعهم وطلبوني، فقالت: لا بأس عليك أحضرني إليهم وأنا أعرفُ الذي أقول لهم.

قال: فأخذتُها وأحضرتُها قُدّام السلطان الملك الناصر والرسولُ جالسٌ عن يمينه، فقلتُ: هذه المرأة التي عندي، فقال لها الملكُ والرسولُ: تروحين إلى بلادك أم إلى زوجك؟ فقد فُكّ أسرُك أنت وغيرُك، فقالت للسلطان: أنا قد أسلمتُ وحبلتُ، وها بطني كما ترونه، وما بقيتْ الفرنجُ تنتفعُ بي، فقال لها الرسولُ يُخيّرُها: أيّما أحبُّ إليك هذا المسلم أم زوجُك الفارس فلان؟ فقالت له كما قالت للسلطان، فقال الرسول لمن معه من الفرنج: اسمعوا كلامَها.

ثم قال لي الرسول: خُذْ امرأتك وامضِ، فولّيتُ بها، وقد أرسل إليَّ عاجلاً وقال: إنّ أمّها أرسلتْ لها معي وديعةً، وقالت: إن ابنتي أسيرة، وهي عُرْيانة شعثة، وأشتهي أن تُرسل لها هذا الحمدان ـ يعني الصندوق ـ، وتسلّمه لها. قال: فتسلّمتُ الحمدان ومضينا إلى الدار، ففتحتُه فوجدتُ قُماشها بعينه، وقد صَرَّتْه لها أمُّها، ووجدتُ الصُّرَّتين الذهب الخمسين ديناراً والمئة دينار كما هما، بربْطتي

وأدِّ ما افترضَ اللّهُ عليك تكنْ مِن أعبدِ النّاسِ(١).

= لم يتغيّر، وهؤلاء الأولادُ منه، وهي تعيش، وهي التي عملت هذا الطعام».

قال عبد الفتاح: وهكذا يتحقق من هذه الواقعة وأمثالها: أن من عفّ عن الحرام تديُّناً، رزقه الله إيّاه حلالاً. خلَّ ربّما أن يعامله العبد نقداً فيجازيه نسيئةً.

(١) قال الشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى في «إعلام الموقّعين» ٢ ١٥٧ ـ ١٥٨ «لله سبحانه على كل أحدٍ عُبوديةٌ بحسب مرتبته، سوى العبودية العامّة التي سوّى بين عباده فيها:

العبودية على الناس بحسب مراتبهم:

فعلى العالم من عُبودية نشر السُّنّة والعلم الذي بعث الله به رسولَه صلّى الله عليه وسلّم ما ليس على الجاهل. وعليه عُبوديةُ الصبر على ذلك ما ليس على غيره

وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحقّ وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به والصبر على ذلك والجهادِ عليه ما ليس على المفتي.

وعلى الغنيّ من عبودية أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير

وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز فيهما.

وتكلّم يحيى بن مُعاذ الرازي يوماً في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقالت له امرأةٌ: هذا واجب قد وُضع عنا ـ تعني معشر النساء ـ فقال: هبي أنه قد وُضع عنكُنّ سلاحُ اليد واللسان، فلم يُوضع عنكُنّ سلاحُ القلب، فقالت: صَدقتَ جزاك الله خيراً.

وقد غرَّ إبليسُ كثيراً من الخلق بأنْ حسّن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع، وعطّلوا هذه العُبوديّات فلم يُحدِّثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء ـ أي العلماء الصادقين ـ من أقلّ الناس ديناً! فإنّ الدين هو القيامُ لله بما أمر به. فتاركُ حقوق الله التي تجب عليه أسوأُ حالاً عند اللّهِ ورسولِهِ من مرتكبِ المعاصي.

ومن له خبرةٌ بما بَعَثَ الله به رسولَه صلّى الله عليه وسلّم وبما كان عليه هو وأصحابُه رأى أن أكثر من يُشارُ إليهم بالدِّين ـ أي من أولئك المتزهدين المنقطعين ـ هم أقلُّ الناس نصرةً لدين الله، والله المستعان.

وأيُّ دين وأيُّ خير فيمن يرى محارم الله تُنتهك، وحُدوده تُضاع، ودينه يُترك، وسُنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم يُرغبُ عنها، وهو باردُ القلب ساكتُ اللسان =

. . . .

= شيطانٌ أخرس؟!

وهل بليَّةُ الدين إلَّا من هؤلاء الذين إذا سَلِمَتْ لهم مآكِلُهم ورياسَتُهم فلا مبالاة لهم بما جرَى على الدين! وخيارُهم المتحزِّنُ المتباكي! ولو نُوزِعَ في بعض ما فيه غضاضةٌ عليه في جاهه أو ماله بذلَ وتبذَّل، وجهد واجتهد، واستعمل مراتبَ الإنكار الثلاثة بحسب وسعه! وهؤلاء ــ مع سقوطهم من عين الله، ومقْت الله لهم ــ قد بُلُوا في الدنيا بأعظم بليةٍ تكونُ وهم لا يشعرون، وهي موتُ القلوب! فإنَّ القلب كلما كانت حياتُه أتمَّ كان غضبُه لله ولرسوله أقوى، وانتصارُه للدين أكمل.

سكوت العابد أو الزاهد عن المنكر يُعجِّل عقوبته

وقد ذكر الإمام أحمد وغيرُه أثراً أنَّ الله سبحانه أوحى إلى ملَكٍ من الملائكة أن اخسِفْ بقرية كذا وكذا، فقال: يا رب كيف وفيهم فلانٌ العابد؟ فقال: به فابدأ، فإنه لم يتمعَّر وجهُه ــ أي لم يتغيَّر ــ فيَّ يوماً قط. وذكر أبو عُمر ابن عبد البر في كتاب «التمهيد» أن الله سبحانه أوحى إلى نبيٍّ من أنبيائه أنْ قُلْ لفلانٍ الزاهد: أمَّا زُهدُك في الدنيا فقد تعجَّلتَ به الراحة لنفسك، وأما انقطاعُك إليَّ فقد اكتسبتَ به العزَّ، ولكن ماذا عملتَ فيما لي عليك؟ فقال: يا رب وأيُّ شيء لك عليَّ؟ قال: هل واليتَ فيَّ وليّاً أو عاديتَ فيَّ عدُوّاً؟». انتهى بتصرف يسير.

هذا الأثرُ رواه أبو نعيم في «الحلية» ١٠: ٣١٦، والخطيبُ البغدادي في «تاريخ بغداد» ٣: ٢٠٢، عن ابن مسعود مرفوعاً، في ترجمة (محمد بن أبي الورد الزاهد) وفي سنده ضعف كما بيَّنه المناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير» ٣: ٧٠ ــ ٧١.

بيان معنى: (فذلك أضعف الإيمان):

قال الإمام القرافي شيخ المالكية في عصره رحمه الله تعالى، في كتابه «الفروق» ٤: ٢٥٦ عند (الفرق: ٢٧٠): «سؤال:

قد نجدُ أعظم الناس إيماناً يعجزُ عن إنكار المنكر باليد أو باللسان، وعجزُهُ عن ذلك ــ وإن كان أعظم الناس إيماناً ــ لا يُنافي تعظيمه لله تعالى، وقوة إيمانه، إذ لا يلزمُ من العجز عن القُرْبة نقصُ الإيمان، فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكراً فليُغيِّرْه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعَفُ الإيمان»؟

وجوابُه: المرادُ بالإيمان هنا الإيمانُ الفعليُّ ــ لا القلبي ولا الاعتقادي ــ ... =

ولا تَشْكُ مَنْ هُوَ أَرْحَمُ بِكَ إلى مَنْ لا يَرْحَمُكَ. واستَعِنْ باللَّهِ تكنْ مِن أهلِ خاصَّتِه. قالَ عُبادَة بن الصامت رضيَ اللَّهُ عنهُ في وَصِيَّتِه لابنِه: يا بُنَيَّ أَظْهِرِ اليَأْسَ مِمَّا في أَيدِي النَّاس فإنَّهُ الغِنى، وإياكَ والطَّمَعَ وطَلَبَ الحَاجَاتِ إلى النَّاس فإِنَّهُ الفَقْرُ[1].

= الواردُ في قوله تعالى: ﴿وما كان اللهُ لِيُضيعَ إيمانَكم﴾ أي صلاتكم لبيت المقدس، والصلاةُ فعل. وقال عليه الصلاة والسلام: «الإيمانُ سبعٌ وسبعون شُعبة». ورُوي: بضعٌ وسبعون شعبة، أعلاها شهادةُ أن لا إله إلَّا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق».

وهذه المرتبة ـ التي في هذا الحديث الشريف ـ إنما تصحُّ في (الأفعال)، وقد سمّاها إيماناً، وأقوى الإيمان الفعليّ: إزالة اليد، لاستلزامه إزالة المفسدة على الفور، ثم القولُ، لأنه قد لا تقعُ معه الإزالة، وقد تقع. والإنكارُ القلبيُّ لا يؤثّر إزالةً ألبتة، أو نُلاحظُ عدمَ تأثيره في الإزالة، فيبقى الإيمانُ مضعف.

أي سمّي الإيمانُ ـ بمعنى التصديق القلبي ـ على حقيقته، والمرادُ بضعف الإيمان في الحديث حينئذ: دلالتُه على غربة الإسلام وعدم انتظامه، كما يشير إليه حديثُ «بدأ الإسلامُ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ»، لا ضعفُه بالنسبة للمنكر نفسه، لأنه أدّى ما هو الواجبُ عليه، و﴿لا يُكلِّفُ اللهُ نفساً إلَّا وُسْعَها﴾». انتهى بتصرف يسير وزيادة المقطع الأخير من «تهذيب الفروق» ٤: ٢٨٣ ـ ٢٨٤ للشيخ محمد علي المالكي رحمه الله تعالى.

الفقر المذموم والفقر المحمود:

(١) أي الفقرُ المذموم لديهم، وهو فقرُ النفس التي لا تشبع، وهو الذي كان النبي صلَّى الله عليه وسلّم يتعوّذ منه في دعائه فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من الفقر». أما الفقرُ بمعنى (قلة المال في اليد) فله شأنٌ آخر، بل قد صحّت أحاديثُ كثيرة في فضل هذا الفقر، وهو الذي فضّله طائفةٌ من الأكابر على الغنى، انظر ما نقلتُه في هذا الموضوع عن الإمام أحمد وغيره، في كتابي «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل» ص١٤٥ ـ ١٥٣ أوائل (الجانب الثالث في أخبارهم في الصبر على الفقر وشظف العيش)، من الطبعة الثالثة، وفي كتاب «مرقاة المفاتيح» لعلي القاري ٣: ١٤٠.

وإليك صورة من صور الفقر مع مظهر الغنى: قال رجل لإبراهيم بن أدهم =

وإذا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلاةَ مُوَدِّعٍ (١).

= يا أبا إسحاق، كنتُ أريد أن تقبل مني هذه الجُبَّة. فقال له: إن كنت غنياً قبلتُها منك، وإن كنت فقيراً رفضتها، قال: أنا غني، فقال له: وكم مالُك؟ قال: ألفا دينار، فقال له: أفلا تودُّ لو أنها كانت أربعة آلاف بدلاً من ألفين؟ قال الرجل: بلى، فقال إبراهيم: فأنت فقير فلا أقبلُها منك.

ذكرُ خمسة ممن كانوا على الغاية من العبادة.

(١) كان هذا الوصفُ من العبادة منتشراً في السلف، ويكثُرُ في كتب الرجال والتراجم والتاريخ ذكرُ العُبَّاد الذين كانوا على هذه الحال، وإليك أسماء طائفةٍ منهم كانوا في بيئةٍ من المكانِ متلاصقة، وفي حِقبةٍ من الزمانِ متلاحقة:

١ ـ جاء في «تاريخ الإسلام» للحافظ الذهبي ٤:١٤٤، و«تهذيب التهذيب» لابن حجر ٦:٢٨٦، في ترجمة التابعي الجليل العابد (عبد الرحمن بن أبي نُعْم البجلي الكوفي)، المتوفى قبل سنة مئةٍ من الهجرة رحمه الله تعالى: «كان من الثقات العابدين، قال بُكَيْر بن عامر: لو قيل له: قد توجَّه إليك مَلَكُ الموت يُريدُ قبضَ روحك، ما كانت عنده زيادةٌ على ما هو فيه».

٢ ـ وجاء في «تاريخ الإسلام» أيضاً ٤:٥٤، في ترجمة التابعي الجليل الفقيه الزاهد (مُسْلِم بن يسار البصري)، المتوفى سنة ١٠٠ رحمه الله تعالى ما يلي:

«قال ابن عون، عن عبد الله بن مسلم بن يسار، أنَّ أباه كان إذا صلّى كأنه وَتِدٌ لا يميلُ هكذا ولا هكذا. وقال غَيْلانُ بن جرير: كان مسلم بن يسار إذا صلّى كأنه ثوبٌ مُلْقى. وقال ابنُ شَوْذب: كان مسلم بن يسار يقول لأهله إذا دخل في صلاته: تحدَّثوا فلستُ أسمعُ حديثكم. وجاء أنه وقع حريقٌ في داره وأطفأوه، فلما ذُكِر له بعدُ، قال: ما شعرتُ. رواها سعيد بن عامر الضبعي، عن مَعْدي بن سليمان».

٣ ـ وجاء في «تذكرة الحفاظ» للذهبي ١:١٤١، في ترجمة الإمام (منصور بن زاذان الثقفي الواسطي) أحد الأعلام، المتوفى سنة ١٣١ رحمه الله تعالى. «قال هُشَيم تلميذه: كان لو قيل له: إنَّ مَلَكَ الموت على الباب، ما كان عنده زيادة في العمل».

٤ ـ وجاء فيها أيضاً ١:١٤٢ ـ ١٤٣ في ترجمة الإمام (منصور بن المعتمر السُّلَمي الكوفي)، المتوفى سنة ١٣٢ رحمه الله تعالى: «قال سفيان الثوري ـ تلميذه ـ: لو رأيتَ منصوراً يصلي لقلتَ: يموتُ الساعة».

٩٥

واعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمانِ حَتَّى تُؤْمِنَ بالقَدَرِ كُلِّهِ: خَيرِهِ وَشَرِّهِ(١).

= ٥ ــ وجاء في «تهذيب التهذيب» ٩: ٢٠٩، في ترجمة (محمد بن سُوقَة الغَنَوي) الكوفي العابد الخزّاز شيخ الثوري وعبد الله بن المبارك وهذه الطبقة ما يلي: «قال سفيان بن عيينة: كان بالكوفة ثلاثة لو قيل لأحدهم: إنك تموت غداً، ما كان يقدر أن يزيد في عمله: محمد بن سُوقة، وعمرو بن قيس المُلائي، وأبو حيان يحيى بن سعيد التيمي، وكان محمد بن سُوقة لا يُحسِنُ ــ أي لا يستطيع ــ أن يَعصيَ الله تعالى». انتهى.

وللإمام عبد الحي اللَّكْنوي رحمه الله تعالى كتابٌ فريدٌ في بابه «إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة»، خدمتُه وعنيتُ بنشره، فقف عليه إذا شئت.

(١) أي من الله تعالى، وحتى تعلم وتتيقن أن ما أصابك لم يكن ليُخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. روى الإمام أحمد في «مسنده» ٥: ٣١٧، وأبو داود في «سننه» ٤: ٢٢٥ واللفظ لأحمد، عن التابعي الجليل الوليد بن عُبادة، قال: دخلتُ على أبي ــ عُبادة بن الصامت ــ رضي الله عنه ــ، وهو مريض أتخايلُ فيه الموت، فقلتُ: يا أبتاه، أوصني واجتهدْ لي. فقال: أجلسُوني، فقال: يا بُنيَّ إنك لن تطعم طعْم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى، حتى تُؤمن بالقدر خيره وشرِّه. — كيف يتحقق طعمُ الإيمان بالقدر:

قلتُ: يا أبتاه، فكيف لي أن أعلم ما خيرُ القدر وشرُّه؟ قال: تَعْلَمُ أنَّ ما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وما أصابك لم يكن ليُخطئك. يا بُنيَّ إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يقول: إنَّ أوَّل ما خلق اللهُ تبارك وتعالى القلمُ، ثم قال: اكتُبْ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة. يا بُنيَّ إن مُتَّ ولست على ذلك دخلْتَ النار».

وعن عبد الله بن عباس قال: كنتُ خلْفَ النبي صلى الله عليه وسلَّم يوماً فقال لي: يا غلام إني أعلِّمُك كلمات: احفظ الله يحفظْك، احفظ الله تجدْه تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعنْ بالله، واعلم أنَّ الأُمَّة لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلَّا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك =

= شيء، لم يضرُّوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفّت الصُّحُف».
رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

ومن دعاء النبي صلّى الله عليه وسلّم: «اللهم إني أسألك إيماناً يُباشرُ قلبي حتى أعلمَ أنه لا يصيبني إلاَّ ما كتبت لي، ورِضاً من المعيشة بما قسمت لي» رواه البزار كما في «مجمع الزوائد» ١٠: ١٨١ للهيثمي وقال: «في سنده سعيد بن سنان وهو ضعيف».

من لم يؤمن بالقدر لم يهنأ بعيشه

وقال الإمامُ الجليل إبراهيم الحربي تلميذُ الإمام أحمد بن حنبل وشبيهُهُ من بعده: أجمع عقلاءُ كلِّ أمّة أنه من لم يَجْرِ مع القدر ـ أي يرضَ به ـ لم يهنأ بعيشه. من ترجمته في «تاريخ بغداد» ٦: ٣٠.

لا تحتج بالقدر عند ارتكابك المعصية

هذا، وحذار أن تحتجَّ بالقدر فيما ترتكبُه من تقصير أو ذنوب وإثم، فإنَّ القدر ليس بحُجّة لك في ذلك، إنَّ القدر لا يُحرِّك على امتثال أمْرٍ، بفعل الطاعة، ولا على مخالفة نهْيٍ، بفعل المعصية، وإنما أنت بإرادتك اتّبعْتَ هواك، وملْتَ إلى الشهوات والمحرَّمات، ثم قمت تُبرِّئُ نفسك بالاحتجاج بالقدر، وتُضيفُ وقوعها إلى قدر الله تعالى، لِتبرأ من معرَّتها ودناستها، فهذا إن صدر عنك كان خطأً في الفهم وانحرافاً في العقيدة، نعوذُ بالله من ذلك.

بطلان احتجاج المذنب بالقدر

«قال عبدُ الله بن عمر حين قال له بعضُ الناس: يا أبا عبد الرحمن، إنَّ قوماً يزْنون، ويشربون الخمر، ويسرقون، ويقتلون النفس، ويقولون: كان ذلك في علم الله، فلم نَجد بُدّاً منه، فغَضِبَ عبدُ الله بن عمر، ثم قال:

سبحان الله العظيم، قد كان في علم الله تعالى أنهم يفعلون ذلك، ولم يحملهم علمُ الله على فعلها، مثَلُ علم الله فيكم كمثل السماء التي أظلَّتكم، والأرض التي أقلَّتكم، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض، كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله، وكما لا تحملكم السماءُ والأرضُ على الذنوب، كذلك لا يَحملكم عِلمُ الله عليها.

ثم قال ابن عمر: لعبدٌ يعملُ المعصية ثم يُقِرُّ بذنبه على نفسه أحبُّ إليَّ من عبدٍ يصومُ النهار ويقومُ الليل، ويقولُ: إنَّ الله تعالى بفعلِ الخطيئة فيه». انتهى من كتاب «المُنية والأمل في شرح كتاب المِلل والنِّحل» لأحمد بن يحيى بن المرتضى اليماني ص ٢٥ ـ ٢٦. وقد جاء فيه بعضُ كلام سيدنا ابن عمر هذا حديثاً مرفوعاً، =

= والصوابُ أن يكون موقوفاً كما أوردتُه إذا صحّتْ نسبتُه إليه، والله أعلم، وقد صُوِّر فيه الموضوعُ خيرَ تصوير.

خمسُ وقائع تَشهَدُ فيها أنَّ القدر لا يُغلَب

وهذه خمسُ وقائع ـ من وقائعَ كثيرٍ أمثالُها حفظها التاريخُ الإسلامي ـ تشهدُ فيها: أن الله إذا قدَّر لإنسان سلامةً ونجاةً، فلن يستطيع الناسُ أن يصيبوه بسوء، وإذا قدَّر عليه هلاكاً وعَطَباً فلن تقيَه الأواقي، ولو تمنعه الحصون الموانع.

وإليك أولاً هذه الأخبار الأربعة فيمن سلّمه الله تعالى وأراد بعضُ الناس هلاكه، فسلم وخاب من أراد هلاكه.

الحجاجُ يخضع للقدر سلامة من أراد موته

١ ـ نقل الحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» ٦: ٢٨٦، في ترجمة التابعي الجليل (عبد الرحمن بن أبي نُعْم البَجَلي الكوفي)، العابد الصالح المتوفى قبل سنة مئةٍ من الهجرة، السابقِ خبرُه في العبادة في ص ٩٤، ما يلي:

«قال محمد بن فُضيل، عن أبيه: كان عبدُ الرحمن يُحرِمُ من السَّنة إلى السنة، وكان يقول: لَبَّيك، لو كان رياءً لاضمحلّ.

وكان من عُبّاد أهل الكوفة، ممن يصبرُ على الجُوع الدائم، ودخل على الحجّاج أيام الجماجم فوعظه[1]، فأخذه الحجّاجُ ليقتله، وأدخله بيتاً مُظلماً، وسدَّ الباب عليه خمسة عشر يوماً! ثم أمر بالباب ففُتح ليُخرج فيُدفن، فدخلوا عليه، فإذا هو قائمٌ يصلي! فقال له الحجّاج: سِرْ حيث شئت»[2]. =

وقعة الجماجم ومن شهدها لا يضحكُ بعدها

(١) يريد بالجماجم: وقعة (دير الجماجم)، وهو موضع قرب الكوفة بالعراق، كانت به وقعة عبد الرحمن بن الأشعث مع الحجاج طالت مدة أيامها. انظر خبر هذه الوقعة في حوادث سنة ٨٣ من الهجرة في كتب التاريخ، ومنها «الكامل» لابن الأثير ٤: ٤٦٧ وما بعدها. قيل: سُمِّي ذلك الموضعُ دير الجماجم، لأنه بُنيَ من جماجم القتلى، لكثرة من قُتل به. وقد قُتل فيه من العلماء والصلحاء والعُبّاد الذين كانوا مع ابن الأشعث خلقٌ كثير.
ورأى طلحةُ بنُ مُصرِّف التابعيُّ الجليلُ وسيدُ قُرّاء أهل الكوفة رجلاً يضحك، فقال: إن هذا لم يشهد الجماجم! يريد وقعة دير الجماجم، يعني أنه لو رأى كثرة من قُتل بها من قُرّاء المسلمين وساداتهم لم يضحك! انتهى من «تاج العروس» ٨: ٢٣٣ بزيادة يسيرة.

الفضائل تنجي صاحبها من ظلم الظالم

(٢) كان الحجّاجُ على ظلمه وعتوّه الشديد وسفكه الدماء، يُقدِّر في بعض الأحيان الفضائل والمناقب لأهلها، فيُكرمُهم أو يدعُهم من شرِّ نفسه، كما جاء في هذا الخبر وغيره في سيرة الحجّاج.

. . . .

بُنان الحَمّال يَشمُّهُ الأسد ولا يؤذيه

= ٢ ـ وجاء في «حلية الأولياء» لأبي نعيم ١٠ . ٣٢٤، و«تاريخ بغداد» للخطيب ٧ ١٠١، و«المنتظم» لابن الجوزي ٦ . ٢١٧، في ترجمة المحدِّث العبد الصالح (بُنانِ الحَمّالِ البغدادي) ما يلي:

«بُنان بن محمد بن حمدان بن سعيد، أبو الحسن الزاهد، ويُعرف بالحَمّال، سمع الحسن بن عرفة ـ المتوفى سنة ٢٥٧ ـ وغيرَه، وكان ثقةً زاهداً متعبِّداً، بغداديُّ الأصل وسكن مصر، وكانت له منزلةٌ عند الخاصّة والعامّة، وكان لا يقبلُ من السلطان شيئاً، وكانوا يضربون المَثَل بعبادته وزُهده.

قال أبو علي الرُّوذباري ـ أحدُ أكابر الصوفية ـ: كان سببُ دخولي مصر حكايةَ بُنانِ الحَمّال ـ يعني أنه ذهب إلى مصر ليرى الرجل الصالح الذي أُلقي إلى الأسد ليأكله، فلم يَمَسَّه الأسدُ بسوء ـ، وذلك أنَّ بُناناً الحَمّال أمر ابنَ طُولُون ـ حاكمَ مصر المتوفى سنة ٢٧٠ ـ بالمعروف، فغضب عليه ابنُ طُولُون، وأمر أن يُلقى بين يدي السَّبُع! فلما أُلقي إلى السَّبُع، جعل السَّبُعُ يشمُّه ولا يضرُّه، فلما أُخرج من بين يديه، قيل له: ما كان في قلبك حين شمَّك السبع؟ قال: كنتُ أفكِّرُ في اختلاف العلماء في سُؤْرِ السِّباع ولُعابها ـ أي هل هو طاهرٌ أم نجس؟ ـ».

انتهى.

قال عبد الفتاح: فسبحان الله، ما أثبت هذا القلب؟! وما أشدَّ استئناسَهُ بالله تعالى وإعراضَه عما سواه، وقد أعاش الله بُنانَ الحَمّال بعد وفاة ابن طولون دهراً طويلاً ٤٣ سنة، ومات بمصر سنة ٣١٣ رحمه الله تعالى. وكان يقول: «البريءُ جريء، والخائنُ خائف، ومن أساءَ استوحَش»[1]. =

. . . .

= فلله ما أشرف الفضائل التي يتحلَّى بها نفوسُ الصالحين العاملين، تُعزُّ الطيبين وتُمكِّنهم من تقديرها وغيرها، وتكريم أهلها والمتحقِّقين بها، وتُنجيهم من الظلم والظلم بإذن الله.

الرافعي يستخرج العظات من واقعة بنان الحمّال

(١) وللأديب العربية الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، في كتابه «وحي القلم» ٣: ٥٠ ـ ٥٨، مقالةٌ ماتعةٌ كتبها حول هذه الواقعة، بعنوان (الأسد)، وفيها عبرٌ وعظاتٌ بالغة، فنقتطفُ منها هنا كلامه على أهمية وجود الشخصية الصالحة الفعّالة المؤثرة، في المجتمع، قال رحمه الله تعالى: =

. . . .

. . . .

= «والبلدُ الذي ليس فيه شيخٌ من أهل الدين الصحيح، والنفسِ الكاملةِ، والأخلاق الإلهية، هو في الجهل كالبلد الذي ليس فيه كتابٌ من الكتبِ ألبتة، وإن كان كلُّ أهله علماء، وإن كان في كل محلّةٍ منه مدرسة، وفي كل دار من دوره خزانةُ كتب، فلا تُغني هذه الكتب عن الرجال، فإنما هي صوابٌ أو خطأ ينتهي إلى العقل.

ولكنَّ الرجل الكامل صوابٌ ينتهي إلى الرُّوح، وهو في تأثيره على الناس أقوى من العِلْم، إذ هو تفسيرُ الحقائق في العمل الواقع، وحياتُه عاملةٌ مرتَّبةٌ داعيةٌ إلى نفسها

ولو أقام الناسُ عشر سنين يتناظرون في معاني الفضائل ووسائلها، ووضعوا في ذلك مئة كتاب، ثم رأوْا رجلاً فاضلاً بأصدق معاني الفضيلة، وخالطوه وصحبوه، لكان الرجلُ وحده أكبر فائدةً من تلك المُناظرةِ وأجدى على الناس منها، وأدلَّ على الفضيلة من مئة كتاب ومن ألف كتاب.

ولهذا يُرسلُ اللهُ النبيَّ مع كل كتابٍ مُنزلٍ، ليُعطي الكلمة قوة وجودها، ويُخرج الحالة النفسية من المعنى المعقول، وينشىء الفضائل الإنسانية على طريقة النَّسْل من إنسانها الكبير.

وعلامةُ الرجل الكامل من هؤلاء أن يعمل وجودُه فيمن حوله أكثر مما يعملُ هو بنفسه، كأنَّ بين الأرواح وبينه نسباً شابكاً، فهو معنى أُبوّة الأب في أبنائه لا يراه من يراه منهم إلّا أحسَّ أنه شخصُه الأكبر، فهذا هو الذي تكونُ فيه التكملةُ الإنسانيةُ للناس، وكأنه مخلوق خاصةً لإثبات أن غير المستطاع مستطاع.

ومن عجيب حكمة الله أنَّ الأمراض الشديدة تعملُ بالعدوى فيمن قاربها أو لامسها، وأنَّ القوى الشديدة تعملُ كذلك بالعدوى فيمن اتصل بها أو صاحبها، وهذا يخلق الله الصالحين، ويعملُ القوى فيهم إصابةً كإصابة المرض تصرفُ عن شهوات الدنيا كما يصرفُ المرضُ عنها، وتكسرُ النفس كما يكسرها ذاك، وتُفقدُ الشيء ما هو به شيء، فتتحوّلُ قيمتُه فلا يكون بما فيه من الوَهْمِ بل بما فيه من الحق.

وإذا عدم الناسُ هذا الرجل الذي يهديهم بقوته العجيبة، فقلَّما يصلحون للقوة، فكبارُ الصالحين، وكبارُ الزعماء، وكبارُ القُوّاد، وكبارُ الشجعان، وكبارُ العلماء، وأمثالُهم كلُّ هؤلاء من باب واحد، وكلُّهم في الحكمة ككبار المرضى، – في قوة التأثير وطبع غيرِهم ممن خالَطَهم أو لامَسَهم بصفاتهم الفعّالةِ النافذة – انتهى. =

. . . .

المنصور أبو عامر = يُريد قتل إنسان فيكتب غلطاً ثلاثَ مرات بإطلاقه :

٣ ـ وروَى الحافظ الحُميدي صاحبُ ابن حزم الظاهري وتلميذه في كتابه «جذوة المُقتبِس في ذكر ولاة الأندلس» ص ١١٨ «أن الوزير أبا عُمر أحمد بن سعيد بن حزم ـ والدَ ابن حزم ـ كان جالساً بين يدي مخدومه المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر ـ أمير الأندلس المتوفى سنة ٣٩٢ ـ ، في بعض مجالسه للعامة، فرُفعت إليه رُقعةُ استعطاف لأمِّ رجل مسجون، كان المنصور اعتقله حنقاً عليه لجُرم استعظمه منه.

فلما قرأها اشتدَّ غضبُه وقال: ذكَّرتني ـ واللهِ ـ به، وأخَذ القلم وأراد أن يكتب: يُصلب، فكتب: يُطلق، ورمَى الورقة إلى وزيره المذكور، وأخذ الوزير القلم وتناول الورقة، وجعل يكتب بمقتضى التوقيع إلى صاحب الشرطة، فقال له المنصور: ما هذا الذي تكتب؟ قال: بإطلاق فلان، إلى صاحب الشرطة، فحرد وقال: من أمرك بهذا؟ فناوله التوقيع.

فلما رآه قال: وهِمتُ، واللهِ ليُصلبنَّ، ثم خطَّ على التوقيع، وأراد أن يكتب: يُصلب، فكتب: يُطلق، فأخذ الوزير الورقة، وأراد أن يكتب إلى الوالي بالإطلاق، فنظر إليه المنصور وغضب أشدَّ من الأول، وقال: من أمرك بهذا؟ فناوله التوقيع، فرأى خطه، فخَطَّ عليه.

وأراد أن يكتب: يُصلب، فكتب: يُطلق، وأخذ الوزير التوقيع وشرع في الكتابة إلى الوالي، فرآه المنصور فأنكر أكثر من المرتين الأُوليين، فأراه خطَّه بالإطلاق، فلما رآه عجب من ذلك وقال: نعم يُطلق على رغْمي، فمن أراد الله إطلاقه لا أقدر أنا على منعه». انتهى. وذكرها القاضي ابن خلكان في «وفيات الأعيان» في ترجمة الإمام ابن حزم (علي بن أحمد) ١: ٣٤١، وباللفظ به.

الحجاج يطلق عمر بن حطان بعد قيام السيّاف لقتله

٤ ـ وحكى أبو الحسن الرُّقَّام محمد بن عِمْران العَبْديُّ البصريُّ صاحبُ الإمام اللغوي ابن دُريد، في كتابه العُجاب النفيس «العفْوُ والاعتذار» ص ٥٥٩، قال:

«روى الأخباريون أنَّ الحجَّاج لما ظفر بعامر بن حِطَّان ـ وهو أخو عمران بن حِطَّان الخارجي وعلى مذهبه ـ الصُّفْرِي، أمَر بضرب عُنُقه، وقام السَّيَّافُ على رأسه، فقال الحجاجُ للسَّيَّاف من شدَّة حنقه على عامر: اضربْ عُنُق ابن الفاعلة!

فرفع عامرٌ رأسهُ وقال للحجَّاج: بئس ما أدَّبك أهلُك يا حجَّاج! أبعْد الموت =

. . . .

= غايةً أستَبقيك لها؟! ما الذي آمنك من أن أُراجعَك بمثل ما ابتدأتني به من السَّبِّ؟! فاستَحْيا الحجَّاج ونكَّس رأسَه.

ثم رفَع رأسهُ فقال لعامر: أبيك مَوْضِعٌ للصَّنيعَة؟ قال نعم، فدعَا له بفَرس بسَرْجه ونفقَةٍ، وقال: امْضِ لِشأنِك، فلمّا صار إلى قومه قالوا: عُدْ لقِتالِ الفاسق ـ يعنون الحَجّاج ـ واللهُ أطلقك لا هُوَ، فقال: هيهاتَ! غَلَّ يَداً مُطْلِقُها، وارتَهنَ رَقَبةَ مُعْتِقُها، وأنشأ يقول. . . »، فذكَر أبياتاً تزيدُ عن العشر، قال فيها إنه لا يُحِبُّ جَحْد الصَّنيعة.

فانظر ـ رعاك الله ـ إلى هذا المأمورِ بقتله حُكْماً وتمهيداً، كيف أنجاه الله تعالى، بكلمةٍ من قائله عنطَ عنيه فيها، فكانت سبب نجاته من القتل وبقائه في الحياة إلى أجله المقدَّرِ المحتوم عند الله تعالى، وقد قيل في الأمثال: نِعْم الحارسُ الأجلُ.

وإليك هذا الخبر الخامس، فيمن أراد بعضُ الناس سلامتَهُ، وقدَّر الله تعالى هلاكه فهلك، وخاب قصدُ من أراد سلامته.

رجل أراد القائد له السلامة فكان الهلاك

٥ ـ حدَّثني بعضُ كبار الضُّبَّاط العسكريين الصادقين، الذين كانوا في الجيش العثماني في الحرب العامَّة الأُولى: أنهم استعدُّوا مرَّةً لمعركة يتوقعونها مع الأعداء، وأخذ كل جندي وضابط منهم موقعه، وحفرهُ وحصَّنه على ما قَدَر واستطاع. فمرَّ القائدُ بهم ليشاهد تحصيناتهم ومواقعهم، فأعجبه موقعُ واحد منهم بتحصُّنه وتمكُّنه، فقال للذي فيه: تحوَّل عنه، وأقم فيه واحداً من أحبائه وأعزائه.

فتحوَّل صاحبُه عنه مكرهاً ساخطاً، ولما دارت رحى المعركة، وصبَّ العدوُّ نيران مدافعه، جاءت قذيفة كبيرة فنزلتْ في الموضع الذي تحوَّل منه صاحبُه، وذهبتْ بعزيز القائد من أول ساعة، وسَلِمَ ذاك وعاش إلى مدد بعيدة، فسبحان الذي لا يُغلَبُ قضاؤه وحفظُه.

ولا يَفهمنَّ فاهم من هذا الخبر، أن الحذر لا يدفع القدر، فالحذرُ مطلوبٌ شرعاً تحقَّق به دفعُ القدر أم لم يتحقق. وما أجمل قول التابعي الجليل مُطرِّف بن عبد الله الشِّخِّير المتوفى سنة ٩٥ رضي الله عنه: ليس لأحدٍ أن يصعد فيُلقي نفسه ويقول: قدَّرَ لي ربِّي، ولكن يحذرُ ويجتهد، فإنْ أصابه شيء، علِمَ أنه لن يُصيبه إلاّ ما كُتب له. نقله الحافظ الذهبي في ترجمته في «تذكرة الحفاظ» ١: ٦٤. =

وكنْ قائلاً بالحقِ، عاملاً به، يَزِدْكَ الله نوراً وبصيرة، ولا تكنْ ممَّنْ يأمُرُ بهِ وَيَنْأى عَنْهُ، فتَبوءَ بإثْمِهِ، وتَتَعَرَّضَ لِمَقْتِ الله، قال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عند اللَّهِ أنْ تقولُوا مَا لا تفعَلُونَ﴾(١)، وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «مَنْ وَعَظَ ولَمْ يَتَّعِظْ، وَزَجَرَ ولَم يَنْزَجِرْ، ونَهَى وَلَمْ يَنْتَهِ: فهو عند اللَّهِ مِنَ الخَائِبينَ»(٢).

ولا تُخالِطْ إلاَّ عاقِلاً تقياً، ولا تُجالِسْ إلاَّ عالماً بصيراً(٣). وقد سُئِلَ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: أيُّ جُلسَائِنَا خَيْرٌ؟ فقالَ: «مَنْ ذكَّركُم باللَّهِ رُؤيَتُهُ»(٤)، . . . .

= وجاء في «تاريخ الإسلام» للحافظ الذهبي أيضاً ٤: ٥٥، في ترجمة التابعي الجليل الفقيه الزاهد (مسلم بن يسار البصري) المتوفى سنة ١٠٠ رحمه الله تعالى: «اعملْ عمَلَ رجلٍ تعلمُ انه لن يُنجِيكَ إلاَّ عملُك، وتوكَّلْ توكُّلَ رجلٍ تعلمُ أنه لن يُصيبَك إلاَّ ما كتَبَ الله لك».

(١) من سورة الصف: الآية ٣.

(٢) هذا الحديث لم أقف عليه فيما رجعت إليه من كتب الحديث الصحيح والضعيف والموضوع، فالله أعلم به.

الدنيا كلها ظلمة إلاَّ مجالسَ العلماء

(٣) وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول: الدنيا كلها ظُلْمة إلاَّ مجالس العلماء. من «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر ١: ٥١. وقال سهلُ بن عبد الله التُّسْتَري: من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء، فلينظر إلى مجالس العلماء. من «مفتاح دار السعادة» لابن القيم ص ١٢٩.

آثار مجالسة الأئمة الصالحين الكبار

(٤) وذلك لأنَّ النظر إلى الذاتِ القُدوةِ أفعَلُ في النفس من السماع عنها، وأبقَى لآثار الخير في ناظرها، وقد كان لأصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من ذلك الحظُّ الأوفر، لمجالستهم له صلَّى الله عليه وسلَّم ومشاهدتهم إياه وقُربهم منه، فكانوا خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للناس بعدَ سيِّد الناس عليه الصلاة والسلام.

ورُؤيَةُ الرجلِ الصالح القُدوةِ إنما تُذكِّرُ بالله، لما يُرى عليه من النور والإشراق، والأُنسِ والطمأنينة، والمحبةِ والسكينة، في سَمْتِهِ وهيْبَته وخَشْعته، في نُطقِه وصَمْتِه وإطراقِه وحركته وسكونه وكلِّ شؤونه، فلا ينظرُه ناظرٌ إلاَّ كان نظرُه =

. . . .

= إليه مذكِّراً له بالله، وكانت صُورتُه موجِّهةً له للإقبال على الله، أولئك الذين إذا رُؤوا ذُكِر الله.

كيف ينطبع الخير في قلوب مجالسي الصالحين

قال الحكيم الترمذي رحمه الله تعالى، في «نوادر الأصول» ص ١٤٠ عند شرح قولِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: (من ذكَّركم بالله رُؤيتُه): «هم الذين عليهم من الله سِمَاتٌ ظاهرة، قد علاهم بهاءُ القُربة، ونُورُ الجلال، وهيبةُ الكبرياء، وأُنسُ الوقار، فإذا نظر الناظرُ إليه ــ أي إلى الواحدِ منهم ــ ذَكَر الله تعالى، لما يَرى عليه من آثار الملكوت.

والقلبُ معْدِنُ هذه الأشياء، ومستقرُّ النُّور، ويشربُ الوجهُ من ماء القلب، فإذا كان على القلب نُورُ سلطان الوعد والوعيد، أدَّى إلى الوجه ذلك النورَ، فإذا وقع بصرُكَ عليه ذكَّرك البرَّ والتقوى، ووقع عليك منه مهابةُ الصلاح والعلم بأوامر الله تعالى.

وإذا كان على القلب نورُ سُلطانِ الحق أدَّى ذاك إلى الوجه، فإذا وقع بصرُكَ عليه ذكَّرك الصدقَ والحقَّ، ووقع عليك منه مهابةُ الحق والاستقامة. وإذا كان على القلب نورُ سُلطان الله تعالى وعظمته وجلاله، أدَّى ذاك إلى الوجه، فإذا وقع بصرُكَ عليه ذكَّرك عظمةَ الله وجلالَه وسلطانَه. وإذا كان على القلب نورُ الله تعالى، وهو نُور الأنوار هَتَكَ رُؤيتُه عن النقائص والمخالفات.

فشأنُ القلب أنه يَسقي عُروقَ الوجه، ويُشرِبُه من ماء الحياة الذي يُرطِّب به، ويتأدَّى إلى الوجه من القلبِ ما فيه لا غيرُ ذلك، فكلُّ نُورٍ من هذه الأنوار كان في قلب: شرِب وجهُه منه، قال الله تعالى ﴿ولَقَّاهم نضرةً وسُروراً﴾ أي سُروراً في القلْب، ونَضرةً في الوجه.

فإذا سُرَّ القلبُ برضا الله تعالى عن العبد، وبما يُشرِقُ فيه من نُور: نَضرتْ الوجوهُ بما ولَج القلوب، وهو الذي دَلَّ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على الذكر لله عند رُؤيته، وصَيَّره علامةً لأهل وِلايته». انتهى كلام الحكيم الترمذي مصححاً متمماً من «فيض القدير» للمناوي ٣:٤٦٧.

قال عبد الفتاح: وقد كان هذا النوعُ الكريم في السلف منتشراً وكثيراً، وكان الناسُ يقصدون لقاءه للانتفاع بالنظر إليه، إذْ كانت رُؤيتُه وحدَها تُنيرُ القلب، وتُحرِّكُ الصلاح في النفس، وتُحبِّبُ بالدين، وتُذكِّرُ بالله تعالى. =

. . . .

قصدُ مجالس العلماء والصلحاء لاقتباس هَدْيهم وسَمْتهم والتأدب بهم:

قال الإمام ابن الجوزي في كتابه «صيد الخاطر» ٢: ٣٠٣ «وقد كان جماعةٌ من السلف يقصدون العبد الصالح، للنظر إلى سَمْته وهَدْيه، لا لاقتباس علمه، وذلك أنَّ ثمرة علمه هَدْيُه وسَمْتُه». انتهى. وقال أبو طالب المكي في «قُوت القلوب»: «وقد كانوا يقصدون الأمصار للقاء العلماء والصالحين، للنظر إليهم، وللتبرُّك والتأدُّبِ بهم». انتهى.

مجالسُ الإمام أحمد تُقْصَدُ لتعلم حُسنِ الأدب والسَّمْت:

وجاء في كتاب «مناقب الإمام أحمد بن حنبل» لابن الجوزي ص ٢١٠، في (الباب ٣٥): «قال أبو العباس البَرْدعي: سمعتُ الحسن بن إسماعيل يقول: سمعتُ أبي يقول: كان يجتمعُ في مجلس أحمد بن حنبل زُهاءُ على خمسة آلافٍ أو يزيدون، أقلُّ من خمس مئةٍ يكتبون، والباقون يتعلَّمون منه حُسن الأدب، وحُسْنَ السَّمْت.

وقال أحمد بن سَلْمان النجَّاد: سمعتُ أبا بكر بن المُطَّوِّعيّ، يقول: اختلفتُ إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل ثِنْتَيْ عشْرة سنة، وهو يقرأ «المسند» على أولاده، فما كتبتُ منه حديثاً واحداً، إنما كنتُ أنظرُ إلى هَدْيه، وأخلاقه وآدابه». انتهى.

وإليك أحد عشر نموذجاً من أولئك الذين كانت رُؤيتهم تُذكِّرُ بالله تعالى، وينتفعُ الناسُ بهَدْيهم وسَمْتهم ومشاهدتهم، وها نحن الآن بعد أكثر من ألف عام نسمعُ أخبارهم سماعاً فننتفعُ بهم، فكيف بمن شاهدهم وجالسهم، نفعنا الله بعباده الصالحين:

منهم عمرو بن ميمون الأَوْدي:

١ ـ كان التابعي الجليل عمْرو بن ميمون الأَوْدِي الكوفي أدرك الجاهلية، ولم يلق النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقَدِمَ مع معاذ بن جبل من اليمن فنزل الكوفة، وكان صالحاً قانتاً لله تعالى، حجَّ واعتمر مئة مرَّة، قال تلميذُه أبو إسحاق السَّبيعي: كان إذا رُؤِي ذُكِر الله تعالى، توفي سنة ٧٥ رحمه الله تعالى. من ترجمته في «تهذيب التهذيب» لابن حجر ٨: ١٠٩ و«العبر» للذهبي ١: ٨٥ و«تذكرة الحفاظ» له أيضاً ١: ٦٥.

ومنهم ابن سيرين:

٢ ـ وكان التابعي الجليل والإمام الفقيه محمد بن سيرين البصري، المتوفى سنة ١١٠ رحمه الله تعالى، إذا جلس إليه الناسُ حدَّثهم وتحدَّثوا عنده، وضَحِكَ، وسأل عن الأخبار، فإذا سُئل عن شيءٍ من الفقه والحلال والحرام، تغيَّر لونُه وتبدَّل، حتى كأنه ليس بالذي كان. وكانوا إذا ذكروا عنده رجلاً بسيئةٍ، ذكَره بأحسَنِ =

. . . .

= ما يَعلم قال تلميذاه هشامُ بن حسان الأَزْدِي وأيوبُ بن كَيْسان السَّخْتِياني البصريان. ما رأينا أحداً أعظمَ رجاءً لأهل القبلةِ من ابن سيرين. من «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٧: ١٩٥ و١٩٧ و٢٠٠.

وكان إذا ذُكر الموت مات كلُّ عضوٍ منه. وكان إذا مرَّ في السُّوق، فما يراه أحد إلَّا ذكر الله تعالى. من كتاب «العلل ومعرفة الرجال» للإمام أحمد بن حنبل ١: ٢٠، و«تاريخ الإسلام» للذهبي ٤: ١٩٤، و«تذكرة الحفاظ» له أيضاً ١: ٧٨.

٣ ـ وكان الإمام الحسن البصري التابعي الجليل، المتوفى سنة ١١٠ رحمه الله تعالى، على شاكلة صاحبه وبلديه وعصريِّه الإمام ابن سيرين إذا رُؤي ذُكِر الله تعالى.

ومنهم الحسن البصري

قيل ليونس بن عُبيد: أتعرفُ أحداً يعمل بعمل الحسن البصري؟ فقال: والله لا أعرف أحداً يقول بقوله فكيف يعمل بعمله؟! ثم وصفه فقال: كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفْن حميمه، وإذا جلس فكأنه أُمِر بضربِ عنقه! وإذا ذُكِرَتْ النار فكأنها لم تُخلَق إلَّا له.

قال أشعث بن عبد الله أحدُ أصحابه: كنا إذا دخلنا على الحسن، خرجنا ولا نعُدُّ الدنيا شيئاً. وقال يونس بن عُبيد: كان الرجلُ إذا نظر إلى الحسن انتفع به وإن لم ير عملَه ولم يسمع كلامه. من «الحلية» لأبي نعيم ٢: ١٥٨ و«البداية والنهاية» لابن كثير ٩: ٢٦٧.

وقال مطر الوراق: كان جابر بن زيد ـ البصري الفقيه العالم بكتاب الله ـ رجُلَ أهل البصرة، فلما ظهر الحسن، جاء رجل كأنما كان في الآخرة، فهو يخبر عما رأى وعاين. من «تهذيب التهذيب» ٢: ٢٦٤.

٤ ـ وقال جعفر بن سليمان: كنتُ إذا وجدتُ في قلبي قسوة، غدوتُ فنظرتُ إلى وجه محمد بن واسع البصري كأنه ثَكْلى. من «تاريخ الإسلام» للذهبي ٥: ١٥٩ وهو تلميذ الإمام الحسن البصري، وأحَدُ العلماء العُبَّاد والصُّلَحاء الزُّهّاد المجاهدين في سبيل الله، توفي سنة ١٣٢ رحمه الله تعالى. وسيأتي جُمَلٌ من سيرته العطرة وأخباره الرفيعة في الصفحات التالية ٢١٧، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٣٢، ٢٤١

ومنهم محمد بن واسع البصري

٥ ـ وكان الإمام الحافظ هشام بن حسان القُرْدُوسيّ البصري، المتوفى سنة ١٤٨ رحمه الله تعالى، من البكَّائين العابدين، أُحضِرَ إلى بابه الجَمَلُ والزادُ والسُّفرةُ =

ومنهم هشام بن حسان القُرْدُوسي البصري

. . . .

= ليَحُجَّ، فشقَّ ذلك على أُمِّه وأخذها مِثلُ الرِّعدة، فبَطَّل سَفَرَهُ للحج من أجلها، فلما تُوفيت كان لا يدع الحج، وكان يديم الصوم سوى يوم الجمعة من أجل أُمِّه، فلما ماتت سَرَد الصوم. قال حماد بن سَلَمة: كانت رُؤيةُ هشام بن حسَّان تُبكي. انتهى من «تذكرة الحفاظ» ١:١٦٣.

ومنهم عبدالله بن شَوْذَب الخراساني

٦ ــ وجاء في ترجمة المحدِّث الثقة عبد الله بن شَوْذَب الخُراساني البَلْخي، المتوفى سنة ١٥٦ رحمه الله تعالى: سكن البصرة، ثم بيت المقدس، قال تلميذه كثيرُ بن الوليد: كنتُ إذا نظرتُ إلى عبد الله بن شَوْذَب ذكرتُ الملائكة. من «تهذيب التهذيب» ٥:٢٥٥.

ومنهم عبدالعزيز بن أبي رَوَّاد المكي

٧ ــ وجاء في ترجمة عبد العزيز بن أبي رَوَّاد المكي، المتوفى سنة ١٥٩ رحمه الله تعالى: قال عبد الله بن المبارك فيه: كان يتكلَّمُ ودُموعُه تسيلُ على خدِّه. وقال تلميذُه شُعيب بن حرب: كنتُ إذا نظرتُ إلى عبد العزيز بن أبي رَوَّاد، رأيتُ كأنه يطَّلِعُ إلى القيامة ــ أي ينظر إلى أهل القيامة وهم فيها. من «تهذيب التهذيب» ٦:٣٣٨ و ٣٣٩.

ومنهم محمد بن المنكدر البصري وجعفر الصادق:

٨ ــ وجاء في ترجمة الإمام مالك بن أنس عالم المدينة وإمام المذهب المالكي، المتوفى سنة ١٧٦ رحمه الله تعالى: قال مصعبُ بن عبد الله: كان مالك إذا ذُكِر النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عنده تغيَّر لونُه وانحنى، حتى يصعُب ذلك على جلسائه، فقيل له يوماً في ذلك، فقال: لو رأيتم لما أنكرتم عليَّ ما ترون، كنتُ آتي محمد بن المنكدر وكان سيد القُرَّاء ــ أي سيد العلماء ــ، لا نكاد نسأله عن حديثٍ إلَّا بكى حتى نرحمه.

ولقد كنت آتي جعفر بن محمد ــ هو الإمام جعفر الصادق ــ وكان كثير المزاح والتبسُّم، فإذا ذُكِرَ عنده النبي صلَّى الله عليه وسلَّم اخضرَّ واصفرَّ، وكنتُ كلما أجدُ في قلبي قسوةً آتي محمد بن المنكدر، ــ وكان يجتمع عنده الصالحون ليقتبسوا من هَدْيه وصلاحه ــ فأنظرُ إليه نظرة، فأتَّعظ بنفسي أياماً. من «ترتيب المدارك» للقاضي عياض ٢:٥١ ــ ٥٢.

ومنهم الفضيل بن عياض المكي:

٩ ــ وجاء في ترجمة الإمام العابد الزاهد المحدِّث الفُضيل بن عياض، الخراساني ثم المكي، المتوفى سنة ١٨٧ رحمه الله تعالى: قال إبراهيم بن الأشعث خادم الفُضَيل: ما رأيتُ أحداً كان اللهُ في صدره أعظم من الفُضيل، كان إذا ذُكِرَ =

. . . .

= اللهُ عنده، أو سَمِعَ القرآن ظَهر به الخوفُ والحُزن، وفاضت عيناه فبكى حتى يرحمه من بحضرته. قال خالد بن رباح: قال لي عبد الله بن المبارك: إذا نظرتُ إلى الفُضَيل جدَّد لي الحُزنَ ومَقَتُّ نفسي! ثم بكى. من «تهذيب التهذيب» ٨: ٢٩٦.

ومنهم عبدالله بن داود الخُرَيبي الكوفي:

١٠ ـ وجاء في ترجمة الحافظ الإمام القدوة العابد الناسك عبد الله بن داود الخُريبي الكوفي، المتوفى سنة ٢١٣ رحمه الله تعالى، قولُ الإمام العابد محدِّث العراق وراهب العراق وكيع بن الجراح: النظرُ إلى وجه عبد الله بن داود عبادة. من «تذكرة الحفاظ» ١: ٣٣٨.

ومنهم عبدالله بن مَسْلمة القعنبي المَدَني ثم البصري:

١١ ـ وجاء في ترجمة العبد الصالح والإمام المحدِّث الخاشع عبد الله بن مَسْلمة القعنبي المدني ثم البصري، المتوفى سنة ٢٢١ رحمه الله تعالى، الذي قال فيه الإمام مالك ـ لمَّا قيل له: قدم القعنبيُّ إلى المدينة ـ قوموا بنا إلى خير أهل الأرض، جاء في ترجمته أنه كان إذا مَرَّ بمجلسٍ يقولون: لا إله إلاَّ الله. من «تذكرة الحفاظ» ١: ٣٨٣.

ومثلُ هؤلاء السادةِ في رجال السلف غيرُ قليل، وما أحسَنَ ما قيل، فيمن كان من هذا القبيل:

إذا سَكَنَ الغَديرُ على صفاءٍ   وجُنِّبَ أن يحرِّكَه النَّسيمُ
بَدَتْ فيه السَّماءُ بلا امتراءٍ   كذاكَ الشمسُ تَبْدُو والنجومُ
كذاك (وُجوهُ) أربابِ التجلِّي   يُرَى في صَفْوِها اللهُ العظيمُ

لمجلسٌ لعبدالله بن مسعود أوثق من عمل سنة

وأما قول النبي صلَّى الله عليه وسلَّم «ورد في علمكم منطقُه». فقد قال الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لَمجلسٌ كنت أُجالِسُه عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أوثقُ في نفسي من عمل سَنَة.

مجلسٌ لعُبَيدالله أحبُّ إلى عمر بن عبدالعزيز من الدنيا وما فيها:

وجاء في كتاب «العِلَل ومعرفة الرجال» للإمام أحمد بن حنبل ١: ٣٤٥، و٢: ٣٠٦. وفي «وفَيات الأعيان» للقاضي ابن خلِّكان ١: ٢٧١ في ترجمة التابعي الجليل (عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود) أحَد فقهاءِ المدينة السبعة، الرجل الصالح الجامع للعلم البحر، الشاعرِ الرقيق المبدع، المتوفى سنة ٩٩ رحمه الله تعالى، ما نصه:

«قال عمر بن عبد العزيز: لأن يكون لي مجلسٌ من عُبَيدِ الله أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها. وقال أيضاً: والله إني لأشتري ليلةً من ليالي عُبَيد الله بألف دينار من =

وَزَادَ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَذَكَّرَكُم بِالآخِرَةِ عَمَلُهُ»(١).

وتواضَعْ للحقِّ واخضعْ لهُ(٢)، ....

= بيت المال، فقالوا: يا أمير المؤمنين، تقول هذا مع تحرُّيك وشدَّةِ تحفظك؟ فقال: أين يُذهَبُ بكم؟! والله إني لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوفٍ وألوف، إنَّ في المحادثة ــ يعني له ولمثله ــ تلقيحاً للعقل، وترويحاً للقلب، وتسريحاً للهمّ، وتنقيحاً للأدب». انتهى. وقد صدق رضي الله عنه. وما أصدق ما قيل:

وما بَقِيَتْ من اللذات إلاَّ مُحادثةُ الرجالِ ذوي العقول

(١) رواه عبد بن حُمَيد وأبو يعلى في «مسنديهما» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. كما في «مجمع الزوائد» للحافظ الهيثمي ١٠: ٢٢٦، و«المطالب العالية» للحافظ ابن حجر ٣: ١٩٣. وجاء في «المطالب» بلفظ: (وزاد في علْمكم منطقُه) كما هنا، وجاء في «المجمع» بلفظ: (وزاد في عَمَلِكم منطقُه). ولعله الصواب. وأوّلُ الحديث: «قيل: قيل يا رسول الله أيُّ جلسائنا خير؟ قال: ...».

وهو حديث حسن. قال الحافظ الهيثمي: «رواه أبو يعلى، وفيه مبارك بن حسّان، وقد وُثِّق، وبقيةُ رجاله رجالُ الصحيح». ونحو هذا قال الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» ١: ٨٩. وقال شيخنا حبيب الرحمن الأعظمي فيما كتبه على «المطالب العالية» تعليقاً على حديث عبد بن حُمَيد: «قال البُوصِيري: رُواتُه ثقات، ورواه أبو يعلى الموصلي أيضاً، وله شاهد من حديث أسماء بنت يزيد». انتهى.

قلت: وله شاهد آخر من حديث عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما بنحو اللفظ المذكور، أورده الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» ص ٢٤٠، ونقله عنه الحافظ السيوطي في «الجامع الصغير» ٣: ٤٦٨، شرح «فيض القدير» للمناوي، وأوّلُه: «خِيارُكم من ذكَّركم بالله رُؤيتُه...».

وروى ابن حبّان وصحَّحه من حديث أنس، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنَّ من الناس مفاتيح لذكرِ الله، إذا رُؤُوا ذُكِر اللَّه». من «فيض القدير» للمناوي ٢: ٥٢٨، وله شواهد من حديث ابن عباس وابن مسعود، ذكرها الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠: ٧٨.

قولُ عَمْرو بن عُبَيد: ما بيني وبين الحق عداوة:

(٢) كما هو شأنُ المؤمنين الصالحين، فإنهم إذا عرفوا الحق سارعوا إليه، وإذا كشفوا الباطل في نفوسهم تنكّروا له وعَدلوا عنه. وقد وقع لعمْرو بن عُبَيد أنه قال في =

وأَدِمْ ذِكْرَ الله تَنَلْ قُرْبَهُ(١).

= مسألة رأياً فأخطأ فيه، فناقشه واصلُ بن عطاء فتبيّنَ لعمرو بن عُبيد خطؤه في تلك المسألة، فرجع فيها إلى الحق قائلاً: ما بيني وبين الحقّ من عداوة. والقولُ قولك، وأُشْهِدُ من حضر أني تاركٌ ما كنتُ عليه. فاستحسن الناس ذلك منه، إذ رجع من قولٍ كان عليه، إلى قولٍ آخر من غير شغبٍ، واستدلوا بذلك على ديانته» من «المُنية والأمل» لابن المرتضى ص ٥١.

قول عُبَيدالله العنبري: أرجعُ إلى الحق وأنا صاغر..

وحكى أبو نعيم في «الحلية» ٩: ٦، والحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» ٧: ٧، في ترجمة (عُبيد الله بن الحسن العنبري) المتوفى سنة ١٦٨، أحدِ سادات أهل البصرة وفقهائها وعلمائها وكان قاضيها. «قال عبد الرحمن بن مهدي تلميذُه: كنا في جنازة فسألته عن مسألة فغلط فيها، فقلت له ـ وأنا يومئذ حدث ـ: أصلحك الله ليس هكذا، القولُ فيها كذا وكذا، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال: صدقت يا غلام، إذاً أرجعُ إلى قولك وأنا صاغر، لأن أكون ذنباً في الحق أحبُّ إليَّ من أن أكون رأساً في الباطل». رحمه الله تعالى.

وجاء في «تهذيب التهذيب» أيضاً ١٠: ٢٢، في ترجمة (مالك بن مِغْوَل الكوفي) المتوفى سنة ١٥٩، «قال أحمد بن حنبل: سمعت سفيان بن عيينة يقول: قال رجل لمالك بن مِغْول: اتّقِ الله، فوضَع خدَّهُ بالأرض» رحمه الله تعالى ورضي عنه.

بيانُ ابن القيم فوائدَ ذكر الله وهي مغرية بالذكر:

(١) في قول المؤلف المحاسبي رحمه الله تعالى: «وأدِمْ ذكرَ الله تَنَلْ قُرْبَه» إشارةٌ منه إلى فائدةٍ جُلّى من فوائد ذكر الله عز وجل، وهي القُربُ من الله سبحانه. وقد استوفى الإمام الشيخ ابن القيم بيان فوائد ذكر الله تعالى، في كتابه «الوابل الصيِّب من الكلم الطيِّب» ص ٥٧ ـ ١٣٣ استيفاءً حسناً، يُحبِّبُ الذكر إلى الغافلين والذاكرين جميعاً، فذكَرَها بدليلها وتوجيهها فائدةً فائدة، وأنا أنقلُ لك جملةً من عناوين ما أشار إليه، فأرْعِهِ سمعك لتكون من ﴿الذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾، قال رحمه الله تعالى:

«وفي ذكر الله تعالى أكثرُ من مئةِ فائدة: يُرضي الرحمن، ويَطرُدُ الشيطان، ويُزيل الهمَّ، ويجلبُ السرُور، ويُقوِّي القلب والبدَن، ويُنوِّرُ القلب والوجه، ويَجلبُ الرزق، ويكسبُ المهابةَ والحلاوة، ويُورِثُ محبةَ الله تعالى التي هي رُوحُ الإسلام، ويُورِثُ المعرفة والإنابةَ والقربَ، وحياةَ القلب، وذِكرَ الله للعبد.

وهو قُوتُ القلب ورُوحُه، ويجلو صدَاه، ويَحُطُّ الخطايا، ويَرفع الدرجات، =

. . . .

= ويُحدِث الأُنس، ويُزيلُ الوحشة، ويُذكِّرُ بصاحبه، ويُنجي من عذاب الله، ويُوجبُ تنزُّلَ السكينة، وغشيانَ الرحمة، وحُفوفَ الملائكة بالذاكر، ويَشغلُ عن الكلام الضارّ، ويُسعِدُ الذاكر، ويَسعَدُ به جليسُه، ويؤمِّنُ العبدَ من الحسرة يوم القيامة وهو مع البكاء سببُ إظلالِ الله للذاكر. وبه تُحصَّل العطايا والثوابُ المسوَّغ من الله تعالى.

وهو أيسرُ العبادات وأفضلُها، وهو غِراسُ الجنة، ويُؤمِّن العبدَ من نسيان ربِّه سبحانه، ويعُمُّ الأوقات والأحوال وليس شيء من الطاعات مثله، وهو نورٌ للعبد في دنياه وقبره ويوم حشره، وبه تُخرَجُ أعمالُ العبد وأقوالُه ولها نور، وهو رأسُ الولاية وطريقُها، ويُزيل خلّة الفقر، ويُفرِّقُ غمومه وهمومه، ويُنبِّهُ القلبَ من نومه، ويُثمرُ المعارف والأحوال الجليلة، والذاكرُ قريب من مذكوره، واللهُ معه وأكرمُ الخلق على الله: من لا يَزالُ لسانُه رطباً من ذكر الله.

وهو يُزيل قسوة القلب، وما استُجلِبَتْ نِعمُ الله، واستُدفِعتْ نقَمُه بمثل ذكره. ويُوجب صلاةَ الله وملائكته ـ أي ثناءه وثناء ملائكته سبحانه ـ على الذاكر. ومجالسُ الذكر مجالسُ الملائكة ورياضُ الجنّة وجميعُ الأعمال إنما شُرعت لإقامة ذكر الله تعالى، وأفضلُ كلِّ أهل عمل أكثرُهم فيه لله ذكراً، وإدامةُ الذكر تنوب مناب كثير من الطاعات البدنية والمالية والمركّبة منها.

وهو يُعين على طاعة الله، ويُسهِّلُ كلَّ صعب، ويُيسِّرُ الأمور، ويُعطي الذاكر قوّةً في قلبه وبدنه. والذاكرون أسبَقُ العُمّال في مِضمار الآخرة، وهو سدٌّ بين العبد وبين نار جهنم، وتستغفرُ الملائكةُ للذاكر، وتتباهى الجبالُ وبقاعُ الأرض بمن يذكُرُ الله عليها، وتَشهدُ له. والذكرُ أمانٌ من النِّفاق.

ويدخلُ في ذكر الله ذكرُ أسمائه وصفاته، والثناءُ عليه بهما، وتنزيهُه عما لا يليق به، والخبرُ عن أحكام ذلك، وذكرُ أمرِه ونهيِه. ويكون الذكرُ بالقلب واللسان. وهو الأكمل، ثم القلبِ وحده، ثم اللسانِ وحده. وأفضلُ أنواع الذكر: القرآنُ، ثم الذكرُ والثناء على الله، ثم أنواع الأدعية». انتهى كلام الإمام ابن القيم

شمول ذكر الله لأنواع كثيرة:

وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ١٣: ٢٣ عند شرح حديث البخاري: «يعقِدُ الشيطان على قافِيةِ رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقد... فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة...» قال رحمه الله تعالى: =

. . . .

= «لا يتعين للذكر شيء مخصوص لا يُجزِىء غيرُه، بل كلُّ ما صَدَق عليه ذكر أجزأ، ويدخل في ذكر الله تعالى: تلاوة القرآن، وقراءة الحديث النبوي الشريف، والاشتغال بالعلم الشرعي». انتهى.

قوة الذكر وبركته عند الإمام ابن تيمية:

وقال الشيخ ابن القيم في الكتاب المذكور: «الوابل الصيِّب» ص ١٠٨ وهو يتحدث عن فوائد الذكر لله تعالى ويُعدِّدُها: «الحاديةَ والستون من فوائد الذكر: أنه يعطي الذاكر قُوَّةً، حتى إنه ليفعلُ مع الذكر ما لم يُطِقْ فعلَه بدونه.

وقد شاهدتُ من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية، في سننه، وكلامه، وإقدامه، وكتابته: أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جُمُعَة أو أكثر، وقد شاهد العَسْكرُ من قوته في الحرب أمراً عظيماً».

قولُه: الذكرُ للقلب مثلُ الماء للسمك:

وقال فيه أيضاً في ص ٥٨ ـ ٥٩: «وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله تعالى رُوحه يقول: الذكرُ للقلب مثلُ الماءِ للسَّمَك، فكيف يكون حالُ السَّمك إذا فارق الماء؟.

تَغَذِّيه بذكر الله تعالى:

وحضرتُه مرةً: صلَّى الفجر، ثم جَلَسَ يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غَدْوتي ـ أي فطوري ـ ولم أتغدَّ، ولو لم أتغدَّ هذا الغداء سقطتْ قُوَّتي، أو كلاماً قريباً من هذا. وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلاَّ بنيَّة إجمام نفسي وإراحتها، لأستعدَّ بتلك الراحة لذكرٍ آخر، أو كلاماً هذا معناه».

أنواع الذكر عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم

وقال الشيخ ابن القيم أيضاً رحمه الله تعالى في كتابه «زاد المعاد» في (فصل في هديه صلَّى الله عليه وسلَّم في الذكر) ٢: ٣٧:

«كان النبي صلَّى الله عليه وسلَّم أكمل الخلق ذكراً لله عزَّ وجل، بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة: ذكراً منه لله تعالى، وإخباره عن أسماءِ الرب وصفاته وأحكامِه وأفعاله ووعده ووعيده: ذكراً منه لله تعالى. وثناؤه عليه بآلائه وتمجيدُه وحمدُه وتسبيحه: ذكراً منه لله تعالى. وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته: ذكراً منه لله تعالى. وكان سكوته وصمته: ذكراً منه لله تعالى بقلبه».

فكان ذاكراً لله تعالى في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، فكان ذكره لله تعالى يجري مع أنفاسه: قائماً وقاعداً، وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه، ومسيره ونزوله، وظَعْنه وإقامته». انتهى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى. =

. . . .

الإشارة إلى الذكر المشروع والذكر الممنوع: =

هذا، وذكرُ الله تعالى باللسان، سرّاً وجهراً بانفراد أو جماعة مشروع بشروطه وآدابه(١)، ولكن الذكر الذي يقوم به بعضُ الناس، بحركات موزونةٍ مرتّبة، وترنيماتٍ متصنّعةٍ بأصوات مُطربة، وقفزٍ ووثْب، وحطٍّ وجذْب، وانحناء للأمام ورفْع، والتفات عنيف ودَفْع، ودوران بالحلقات، وضرب للأقدام على إيقاع الكف والنغمات، فالفطرُ السليمةُ تنبو عنه، والقلبُ الخاشعُ يتبرّأ منه، لو خشع قلبُ هذا لخشعتْ جوارحُه، كما قاله الإمام التابعي الجليل سعيد بن المسيِّب رضي الله عنه.

وأشدُّ من هذا نُكراً أنهم يذكرون اسم (الله) سبحانه، في أول دَوَران حلقاتهم بلفظ هادئ مفهوم، ثم يُسرعون ويُسرعون بالذكر والخلْع والوثب، حتى لا يُفهم عنهم ما يقولون! فما هي إلا أصواتٌ تحمحم وترتفع، وأنفاسٌ مبهورةٌ تشتد وتندفع، وهمهمةٌ تتردَّد، وحركاتٌ تتجدَّد، ويَعُدُّون ذلك ذكراً لله! فيا لله — من قلة الأدب مع الله — وإنا إليه راجعون.

إنكار الإمام أحمد لتلحين القرآن:

جاء رجل إلى الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فسأله عن قراءة القرآن بالتلحين، فمنعه وقال له: لا يجوز، فقال الرجل: ولم لا يجوز؟ فقال له الإمام أحمد: ما اسمُكَ؟ قال: محمد، قال له: أيُعجبك أن يقال لك: يا مُوحامَّد؟! ذكره الإمام ابن الهُمام في «فتح القدير» ١٧٣:١ في (باب الأذان).

فالذكرُ لله تعالى يقومُ على تعظيم المذكور سبحانه، وعلى توقير اسمه وإجلاله، وإكباره وإعظامه، ولا يَهُولنَّك كثرةُ الفاعلين لهذا! فهم من العوامِّ في فقه الدين، والأدبِ مع ربِّ العالمين. فانظر إلى أحدهم كيف يكره (التلحين) في اسمه، ولا يكرهه في اسمِ الله تعالى وكلامِه سبحانه!!

وما عُهِدَ فعلُه من السلف في القرون المشهود لها بالخير. وما يقال في تعليل تلك الحركات والوثبات أنها لمنع الخاطر أن يشتغل بغير الله تعالى، فهو مردود بما عُرِف من حال السلف، فقد كانوا أحرص منا على حفظ خواطرهم وقلوبهم وجعلها مع الله ولم يكونوا يفعلونه، بل ذُكِرَ لهم فأنكروه أشدَّ الإنكار، وهم الأئمة المقتدى بهم، والمرجوعُ إليهم، وإليك جملةً يسيرةً من كلامهم في ذلك، مما نقله عنهم الأئمة الأعلام: =

. . . .

(١) انظر بآخر الكتاب ص ٢٥٣، مشروعية الذكر جهراً منفرداً وجماعة.

. . . .

قال الإمام أبو إسحاق الشاطبي الغَرْناطي، الأصولي الفقيه الصوفي البصير، رحمه الله تعالى، في كتابه «الاعتصام»، في أوائل الفصل الأخير من (الباب الرابع) ١: ٢٦٨، وهو يتحدث عن مجالس الذكر الممنوعة المذمومة شرعاً:

كلام الإمام الشاطبي في الذكر الممنوع:

«... فخرجوا عن الصراط المستقيم، إلى أن يجتمعوا، ويقرأ أحدهم شيئاً من القرآن، يكون حسنَ الصوت طيبَ النغمة جيدَ التلحين، تُشبه قراءتُه الغناء المذموم، ثم يقولون: تعالوا نذكر الله، فيرفعون أصواتهم، يَمْشُون ذلك الذكر مداولةً! طائفةٌ في جهة، وطائفةٌ في جهة أخرى، على صوتٍ واحدٍ يُشبه الغناء، ويزعمون أن هذا من مجالس الذكر المندوب إليها! وكَذبوا! فإنه لو كان حقاً، لكان السلف الصالح أولى بإدراكه، وفهمه، والعملِ به». انتهى.

روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى في «صحيحه» في كتاب العيدين، في (باب سُنَّة العيدين لأهل الإسلام) ٢: ٣٧١ ما يلي. «عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل أبو بكر وعندي جاريتانِ من جواري الأنصار، تُغَنِّيانِ بما تقاوَلَتْ الأنصارُ يومَ بُعاث، قالت: وليستا بمُغَنِّيَتين...»

قال العلامة الفتَّني في «مجمع بحار الأنوار» ٣: ٤٢٠ «أجاز الصحابة رضي الله عنهم غناء العرب، وهو مجرد الإنشاد، وأجازوا الحُداء».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في «فتح الباري» ٢: ٣٦٨: «وقال القرطبي ـ هو المحدِّث أبو العباس أحمد بن عمر شيخ القرطبي صاحب التفسير ـ: قولُه: ليستا بمُغَنِّيتين، أي ليستا ممن يَعرِفُ الغناء كما يعرفه المُغَنِّيات المعروفاتُ بذلك. وهذا من عائشة رضي الله عنها تَحرُّزٌ عن الغناء المعتاد عند المشتهرين به، وهو الذي يُحرِّكُ الساكن، ويَبعثُ الكامن. وهذا النوعُ إذا كان في شعْرٍ فيه وصْفُ محاسن النساء والخمر وغيرهما من الأمور المحرَّمة، لا يُختلفُ في تحريمه.

الحافظ ابن حجر ينكر الذكر الممنوع:

قال: وأما ما ابتدعتْهُ الصوفية في ذلك، فمن قَبيل ما لا يُختلفُ في تحريمه، لكن النفوس الشهوانية غلبتْ على كثير ممن يُنسَبُ إلى الخير، حتى لقد ظهرَتْ من كثير منهم فَعَلاتُ المجانين والصبيان، حتى رَقَصُوا بحركات متطابقة، وتقطيعات متلاحقة، وانتهى التواقحُ بقومٍ منهم إلى أن جعلوها من باب القُرَب وصالحِ الأعمال، وأنَّ ذلك يُثمِرُ سنِيَّ الأحوال. وهذا على التحقيق من آثار الزندقة، وقولِ =

. . . .

= أهل المَخْرَقة، والله المستعان». انتهى.

قال الحافظ ابنُ حجر عقبَه: «وينبغي أن يُعكَسَ مُرادُهم، ويُقرأ: (يُشِيرُ سَيِّيءُ الأحوال عِوَضَ سَنِيِّ الأحوال)». انتهى.

إنكار الإمام مالك الذكرَ الممنوع:

وقال الإمام القاضي عياض رحمه الله تعالى في ترجمة الإمام مالك رضي الله عنه في «ترتيب المدارك» ٢: ٥٤: «قال التِّنِّيسيُّ: كنا عند مالك، وأصحابُه حولَه، فقال رجل من أهل نَصِيبين: عندنا قوم يقال لهم: الصوفية، يأكلون كثيراً، ثم يأخذون في القصائد، ثم يقومون فيرقُصون؟ فقال مالك: أصبيانٌ هم؟ قال: لا، قال: أمجانينُ هم؟ قال: لا، هم قومٌ مشايخ، وغيرُ ذلك، عقلاء، فقال مالك: ما سمعتُ أن أحداً من أهل الإسلام يفعل هذا!

فقال له الرجل: بل يأكلون، ثم يقومون ويرقصون دوائب، ويلطم بعضُهم رأسه، وبعضُهم وجهه، فضحك مالك ثم قام فدخل منزله. فقال أصحابُ مالك للرجل: لقد كنت يا هذا شؤماً على صاحبنا، لقد جالسناه نيِّفاً وثلاثين سنة، ما رأيناه ضَحِكَ إلاَّ في هذا اليوم!». انتهى.

وجاء في كتاب «الحث على التجارة والصناعة والعمل» للإمام أبي بكر الخلال رحمه الله تعالى ص ٢٤، ما يلي: «أخبرنا إسحاق بن سَيَّار النُّصَيبي، حدثني عبد الملك بن زياد النُّصَيبي، قال: كنا عند مالك، فذكرتُ له صُوفيين في بلادنا فقلتُ له: يلبَسُون فواخر ثياب اليمن، ويفعلُون كذا، قال: فقال لي: ويحك! أو مسلمون هم؟ قال: فضحك حتى استلقى، قال: فقال لي بعضُ جلسائه: يا هذا! ما رأينا أعظم فتنةً على هذا الشيخ منك، ما رأيناه ضاحكاً قط».

إنكار المفسِّر القرطبي الذكرَ الممنوع

وقال القرطبي المفسِّرُ الصوفيُّ في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» ٧: ٣٦٥، عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر اللهُ وجلتْ قلوبُهم، وإذا تُليتْ عليهم آياتُه زادتْهم إيماناً، وعلى ربِّهم يتوكلون﴾ قال رحمه الله تعالى: «وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوَجَل عند ذكره، وذلك لقوة إيمانهم، ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه.

ونظيرُ هذه الآية: ﴿وبَشِّر المُخْبتين، الذين إذا ذُكرَ اللهُ وجلتْ قلوبُهم﴾. وقال: ﴿وتطمئنُّ قلوبُهم بذكر الله﴾. فهذا يرجعُ إلى كمال المعرفة، وثقة القلب. والوَجَلُ: الفَزَعُ من عذاب الله، فلا تَناقُض. =

. . . .

= وقد جَمَعَ الله بين المعنيين في قوله: ﴿الله نزّلَ أحسَنَ الحديث كتاباً مُتشابهاً مَثانيَ تَقْشَعِرُّ منه جُلودُ الذين يَخْشَوْن ربَّهم، ثم تَلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكر الله﴾. أي تسكُنُ نفوسُهم من حيث اليقينُ إلى الله، وإن كانوا يخافون الله.

فهذه حالةُ العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جُهّال العوام والمبتدِعةُ الطُّغَام، من الزَّعيق والزئير ـ أي الصياح الشديد ـ ، ومن النُّهاق الذي يُشبهُ نُهاقَ الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك، وزعَمَ أن ذلك وَجْدٌ وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حالَ الرسول ولا حالَ أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالُهم عند المواعظ: الفهمَ عن الله، والبكاء خوفاً من الله. ولذلك وصفَ الله أحوالَ أهل المعرفة عند سماعِ ذكره وتلاوةِ كتابه فقال: ﴿وإذا سمعُوا ما أُنزِلَ إلى الرسول ترى أعينَهم تَفيضُ من الدمع مما عرَفوا من الحقّ، يقولون: ربَّنا آمنّا فاكتبنا مع الشاهدين﴾.

فهذا وصفُ حالهم، وحكايةُ مقالهم. ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم، ولا على طريقتهم. فمن كان مُسْتَنّاً فليَستَنَّ بهم. ومن تعاطى أحوال المجانين والجنونِ فهو من أخسِّهم حالاً، والجنونُ فنون.

وروى مسلم عن أنس بن مالك، أنّ الناس سألوا النبي صلّى الله عليه وسلّم حتى أحْفَوْه ـ أي أكثروا عليه ـ في المسألة، فخرج ذات يوم، فصعِدَ المنبر فقال: سَلُوني، لا تسألوني عن شيء إلاّ بيّنتُه لكم ما دُمتُ في مقامي هذا. فلما سَمِعَ ذلك القومُ أرَمُّوا ـ أي أمسكوا ـ ورهِبُوا أن يكون بين يديْ أمرٍ قد حضَرَ. قال أنس: فجعلتُ التفتُ يميناً وشمالاً، فإذا كلُّ إنسانٍ لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي! وذكَرَ الحديث.

وروى الترمذي وصحّحه عن العِرْباض بن سارية قال: وعظَنا رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم موعظةً بليغةً، ذَرَفَتْ منها العيون، ووَجِلَتْ منها القلوب. الحديث. ولم يقل: زَعقْنا، ولا رَقَصْنا، ولا زَفَنّا ـ أي ضربْنا الأرض بأرجلنا كما يفعل الراقص ـ ، ولا قُمْنا. انتهى.

بيان الإمام الشاطبي لمنكرات الذكر المسموع

وقد وقع السؤال قديماً في القرن الثامن، عن هذه المسألة بالذات: (مسألة الذكر الجهري مع التحلق من الذاكرين، وسماعِ الإنشاد الملحَّن، والقَفْزِ والدَّوَرَانِ =

. . . .

= المُقَنّ)، فذكر السؤالَ والجوابَ: الإمامُ الفقيهُ الأصولي، المحدِّث المفسِّر الصوفي، المحقق البصير الذكي: أبو إسحاق الشاطبي المتقدِّمُ ذكره رحمه الله تعالى، في كتابه العظيم: «الاعتصام» في أكثر من عشرين صفحة ١: ٢٦٤ ـ ٢٨٥، في (الباب الرابع في مأخذ أهل البدع بالاستدلال)، وأشبَعَها بحثاً ودرساً وتبييناً، وكشَفَ ما فيها من محظور بالدليل والتعليل، فعليك بقراءته فإنه مما ينير القلوب والألباب، وهو من لُباب العلم.

قال عبد الفتاح: فليْتَ أولئك الذاكرين ـ وهم يقولون: إنَّ هذه الحركات الموزونة... مباحة أو لا تَخرُجُ عن المباح ـ فليتهم إن لم يَخضعوا لأقوال الأئمة الناهية المحرِّمة لتلك الحركات... اعتبروا أقوالَهم في النهي عنها والتحريم لها: تقومُ بها شُبهةٌ في حلِّ فعلها والتلبس بها، فتركوها تنزُّهاً وابتعاداً عما قال العلماء فيه: حرام، فالصوفيُّ كما عرَّفوه: من يتوقَّى الشُبُهات، ويترُكُ بعضَ المباحات، خشية الوقوع في المكروهات، فضلاً عن المحرَّمات، والله الهادي لمن استهداه، فاهدنا اللهم لما تحبه وترضاه.

حظرُ الذكر بلفظ الجلالة بطريقة غير مشروعة:

ففي شيء آخر أرى التنبيه عليه، وهو شائع اليوم في كثير من حِلَق الذكر في زمننا، وذلك أنهم يقولون: الله الله الله...، ويكررونها هكذا، فتكون كلمةُ الجلالة في أول ذكرهم مفهومة، ثم يُسرعون بالنطق بها سُرعةً بالغة متلاحقة، ثم يسرعون بها جداً، حتى تتداخل اللفظةُ في اللفظة مع اقتطاع بعض حروفها، فتصير كلمة الجلالة المعظمة صوتاً مبهماً، يتردَّدُ في الفم بسرعة قصوى، لا يُفهمُ منه شيء! فهو ذكرٌ محظور، فإنا لله، من هؤلاء الذاكرين لله!

وصف التصوف الصحيح شعراً:

ورحم الله تعالى الإمامَ أبا عبد الله بن الطُّوبي الصِّقِلِّي، القائلَ فيما يتصل بتلك الحال ـ كما في ترجمته في «خريدة القصر» للعماد الأصبهاني، في الجزء ١١ والورقة ٢٩ في دار الكتب المصرية برقم ٤٢٥٥ ـ:

ليس التصوُّفُ لُبسَ الصوفِ تَرْقَعُه ... ولا بكاءَك إن غنَّى المغنُّونا
ولا صِياحٌ ولا رَقْصٌ ولا طَرَبٌ ... ولا تَغَاشٍ كأن قد صرتَ مجنونا
بل التصوُّفُ أن تَصفُوْ بلا كَدَرٍ ... وتَتْبَعَ الحقَّ والقرآنَ والدِّينا
وأن تُرَى خائفاً لله ذا نَدَمٍ ... على ذُنوبِك طُولَ الدهرِ محزونا

قالَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «جُلَسَاءُ اللَّهِ يوْمَ القيامة: الخَاضِعون، المتواضِعون، الخَائِفُونَ، الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثيراً»(١).

---

(١) هذا الحديث لم احده فيما رجعتُ إليه من المراجع الحديثية، فالله أعلم به.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في «شرح حديث العلم» ص ١٧ ــ ٢١ «وفي الحديث المعروف عن النبي صلّى الله عليه وسلّم: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلقُ الذكر».

وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا ذكر هذا الحديث قال: أما إني لا أعني القُصّاص، ولكن حلق الفقه، ورُوي عن أنس معناه أيضاً، ورواه ابن الجوزي عنهما في كتاب «القُصّاص والمذكِّرين» ص ١٢٩.

كلمة معاذ بن جبل بشأن فضل الذكر:

ولما حضرَتْ معاذَ بن جبل رضي الله عنه الوفاةُ قال: مرحباً بالموت، مرحباً بزائر جاء على فاقة، لا أفلح من نَدِم، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري الأنهار، ولا لغَرْس الأشجار، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل، ولظمأ الهواجر في الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالرُّكب في حلق الذكر.

كلمة عمر أن الفقه في الدين من العبادة:

وأتى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد العشاء، فقال له عمر: ما جاء بك؟ قال: جئتُ أتحدث إليك، قال: هذه الساعة؟ قال: إنه فقه، فجلس عمر فتحدثا طويلاً ثم إن أبا موسى قال: الصلاة يا أمير المؤمنين، قال: إنّا في صلاة. أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة، كما في «كنز العمال» ٥: ٢٢٨ للمتقي الهندي.

ويعني بحلق الذكر هنا: حِلَق العلم. ومنه قوله تعالى: ﴿فاسألوا أهلَ الذِكرِ إن كنتم لا تعلمون﴾ ذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١: ٥١.

مجالسُ الذكر مجالس الحلال والحرام

وقال عطاء الخراساني: مجالِسُ الذكر مجالسُ الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع، وتصلي وتصوم، وتنكح وتطلق، وتحجُّ، وأشباهُ هذا. وكان أبو السَّوَّار العَدَوي في حلْقة يتذاكرون فيها العلم، ومعهم فتى شابٌّ فقال لهم: قولوا: سبحان الله والحمد لله، فغضب أبو السَّوَّار وقال: ويحك في أي شيء كنا إذاً؟! كما رواه الإمام أحمد في كتاب «الزهد» ص ٣١٦ ــ ٣١٧.

وروى الدارمي في «سننه» في (باب فضل العلم والعالم) ١: ٩٥ ــ من طبعة =

وابذُلِ النصيحةَ للهِ ولرسولِهِ وللمُؤمنين، وشاوِرْ في أَمْرِكَ الذين يَخْشَوْنَ الله[١]. قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٢] وقال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: «الدِّينُ النَّصيحةُ»[٣].

= دمشق ـ «عن وهب بن مُنَبِّه ـ أحد التابعين العُبَّادَ ـ قال: مجلسٌ يُتنازعُ فيه العلمُ أحبُّ إليَّ من قدره صلاةً، لعل أحدهم يَسمع الكلمة فينتفع بها سنةً أو ما بقي من عُمُره». وروى الحافظ ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ١: ٢٢ «عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: الدِّراسَةُ صلاةٌ».

مجالس العلم هي مجالس الذكر

ومن مجالسِ الذكر أيضاً: مجالسُ العلم التي يُذكَرُ فيها تفسيرُ القرآن، وتُروى فيها سُنَّةُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ويُعلَّمُ فيها الفقهُ في الدين. ومجالسُهُ أفضلُ من مجالس ذكرِ الله بالتسبيح والتحميد والتكبير، لأنها دائرة بين فرض عين أو فرضِ كفاية، والذكرُ المجرَّدُ تطوُّع محض.

والمرادُ بهذا أن مجالس الذكر لا تختصُّ بالمجالس التي يُذكر فيها اسمُ الله بالتسبيح والتكبير والتحميد ونحوه، بل تَشْمَلُ ما ذُكر فيه أَمْرُ الله ونهيُه، وحلالُهُ وحرامُه، وما يُحبه ويرضاه، فإنه ربما كان هذا الذكر أنفع من ذلك، لأن معرفة الحلال والحرام واجبةٌ في الجملة على كل مسلمٍ بحسب ما يتعلق به في ذلك.

وأما ذكرُ الله باللسان فأكثره يكون تطوعاً، وقد يكون واجباً كالذكر في الصلوات المكتوبة. وأمّا معرفةُ ما أمر الله به، وما يُحبه ويرضاه وما يكرهه فيجبُ على كلِّ من احتاج إلى شيء من ذلك أن يتعلمه، ولهذا رُوي «طلبُ العلم فريضة على كل مسلم». انتهى كلام الحافظ ابن رجب بزيادة من غيره.

كلمة ناصحة لسيدنا عمر رضي الله عنه:

(١) قول المحاسبي: (وشاور في أمرك الذين يَخْشَون الله) هذه الجملة من كلمةٍ ناصحة لسيدنا عمر رضي الله عنه، رواها عنه ابنُ المبارك في كتاب «الزهد» ص ٤٩١، ونصها بتمامها: «لا تتعرَّضْ لما لا يعنيك، واعتزِلْ عدوَّك، واحتفظْ من خليلك إلاَّ الأمين، فإنَّ الأمين ليس شيء من القوم يعدِلُه، ولا أمين إلاَّ من يخشى الله، ولا تَصْحَبْ الفاجرَ فيحملَك على الفجور، ولا تُفشِ إليه سِرَّك، وشاوِرْ في أمرِك الذين يَخْشَوْن الله تعالى».

(٢) من سورة فاطر، الآية ٢٨.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» ٢: ٣٦ في كتاب الإيمان (باب بيان أن الدين النصيحة)، عن تميم الداري رضي الله عنه. =

واعْلَمْ أَنَّ مَنْ نَصَحَكَ فَقَدْ أَحَبَّكَ(١)، ....

= واعلم أن عبارتك ولهجتك في نصيحتك لبعض الناس، غيرُ عبارتك ولهجتك في نصيحتك للخليفة أو السلطان أو الحاكم أو الأمير أو الوالد أو الكبير إذا أخطأ. وليست الشدةُ في الخطاب دائماً هي الأولى في النُّصح، وأنجع في الموعظة، وأدنى على الذين، وأبرأ للذمة.

أسلوب النصيحة الحسن الناجع

وانظر موقفَ الإمام ابن الجوزي، ونصيحتَه للخليفة، كيف كان على غاية من الكياسة وحُسن الخطاب والتذكير، فقد تكلَّم يوماً في مجلس الخليفة العباسي الهاشمي المستضيء بالله ـ حسن بن يوسف ـ المتوفَّى سنة ٥٧٤، وحَكَى له موعظة شيبان الراعي للخليفة هارون الرشيد، ثم قال:

نصيحة ابن الجوزي للخليفة المستضيء بالله

«يا أمير المؤمنين إن تكلَّمتُ خفتُ منك، وإن سكتُّ خفتُ عليك، فأنا أُقدِّمُ خوفي عليك لمحبتي لك، على خوفي منك، قولُ الناصح: اتَّقِ الله، خيرٌ من قول القائل: أنتم أهلُ بيتٍ مغفورٌ لكم». انتهى من «طبقات المفسرين» للداودي ١: ٢٧٣، و«المنتظم» لابن الجوزي ١: ٢٨٤.

فما أجزل هذا النصح؟ وما أدقَّ التعبير فيه؟ وما أدبه وأوفاه؟ وانظر ما أجمل حذفه لمتعلَّق (تكلَّمتُ) و (سكتُّ)، وحذفَه لكافِ الخطاب من قوله (قولُ الناصح) و (قولُ القائل)، فما قال: (إن تكلمتُ في نصحكم)، و (إن سكتُّ عن نصحكم)، و (قولُ الناصح لكم)، و (قول القائل لكم)، بل حذف كلَّ ما يتصل بالخطاب، وأطلق الكلام عن المواجهة به، لأن المقام يؤدِّي المطلوب، وإنما واجهه بالخطاب في الجملة الأخيرة المادحة. (أنتم أهلُ بيتٍ مغفورٌ لكم)، فاعرِفْ هذا.

وإذا توجَّهت همَّتُك إلى نُصح السلطان، فلا تنسَ ما رسمَه الإمامُ سفيان الثوري سيدُ أهل زمانه رضي الله عنه في هذا الصَّدد، قال: «لا يأمُرُ السلطانَ بالمعروف إلَّا رجلٌ عالمٌ بما يأمُر، عالمٌ بما ينهى، رفيقٌ بما يأمر، رفيقٌ بما ينهى، عدلٌ فيما يأمر، عدلٌ فيما ينهى». من ترجمته من «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصبهاني ٦: ٣٧٩.

وصفُ من يأمر السلطان أو ينهاه:

(١) وانظر ما أجملَ هذه النصيحة التي حوَّلَتْ الحرام إلى الحلال، والفُجور إلى الطاعة، فللّه دَرُّ قائلها وقاعدها! إنه مُغنيةُ السلطان مَلِكْشاه السَّلْجُوقي، المولود سنة ٤٤٧، والمتوفى سنة ٤٨٥ رحمه الله تعالى، فإنه مما أُثِرَ عنه وَعُدَّ من عيون =

نصيحة مغنية حولت السلطان من الحرام للحلال.

وَمَنْ دَاهَنَكَ فَقَدْ غَشَّكَ[١]، وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْ نَصِيحَتَكَ فَلَيْسَ بِأَخٍ لَكَ. قَالَ عُمَرُ بنُ الخطَّاب رضيَ اللَّهُ عنه: لا خَيْرَ في قَومٍ لَيْسُوا بِناصِحِينَ، ولا خَيْرَ في قَومٍ لا يُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ[٢].

وآثِرِ الصِّدقَ في كُلِّ مَوطِنٍ تَغْنَمْ[٣]، ....

= محاسنه. هو أنه أُحضِرتْ له مُغنيةٌ وهو بالرَّيّ، فأُعجِب بها، واستطاب غناءها، وهَمَّ بها.

فقلت له: يا سُلطان، إني أغارُ على هذا الوجه الجميل أن يُعذَّب بالنار، فإنَّ الحلال أيسَرُ، وبينه وبين الحرام كلمة! فقال: صدقت، واستدعى القاضي فزوَّجها منه، وابتنى بها، وتُوفِّي عنها، رحمهما الله تعالى. انتهى من ترجمته في «وفيات الأعيان» لابن خلِّكان ٢: ١٢٤.

فيا الله! ما أصدقها من كلمة، وما أعظمها من حكمة ونصيحة، وما أطيب سماعها على قلب المؤمن وسمْعه، فكيف بطيب وقعها على قلب الممتثل لها. فاللّهم أغننا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك، واحفظنا من طَرَباتِ الهوى! فإنها الرَّدَى والهلاك.

(١) أي من رآك على انحراف عن طاعة الله، وأظهرَ لك رضاه بما أنت عليه، ولم ينصحك ولم يُنكر عليك: فقد غشَّك! واعتبِرْه من جملة أعدائك المبغضين لك، لأن هذا موقفُ الأعداء لا موقفُ الإخوةِ المحبين.

(٢) وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله امرءاً أهدى إلى عمر عيوبه. فعدَّ رضي الله عنه الإشارة إلى العيب من الأخ الناصح هديةً تستحق الدعاء لمُهديها.

نصيحة الحسن البصري بصحبة المذكّرين

وقال رجل للحسن البصري رضي الله عنه: كيف نصنع بأقوام يخوِّفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟! فقال الحسن: والله لأن تصحب أقواماً يخوِّفونك حتى يدركك الأمن خيرٌ لك من أن تصحب أقواماً يؤمِّنونك حتى يلحقك الخوف». من «الحلية» لأبي نعيم ٢: ١٥٠.

فضل الصدق وأثره

(٣) روى الحافظ ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد بن حنبل» ص ٣٥٠ «عن تميم الرازي قال: سمعتُ أبا زُرْعة الرازيَّ يقول: قلت لأحمد بن حنبل: كيف تخلَّصت من سيف المعتصم وسوْط الواثق؟ فقال: لو وُضِع الصِّدقُ على جُرْحٍ =

واعْتَزِلِ الفُضُولَ تَسْلَمْ(١)، ....

= لَتَرى». وفي «الآداب الشرعية» لابن مفلح ٢ : ٢٠٠ «قال أبو بكر المَرُّودي . سمعتُ أحمد بن حنبل ــ وسُئل ــ بم بلَغَ القومُ حتى مُدِحوا؟ قال : بالصدق». وقال قاضي البصرة إياس بن معاوية المزني : «إن أشرف خصال الرجل صِدقُ اللسان، ومن عَدِمَ فضيلة الصدق فقد فُجِعَ بأكرم أخلاقه». نقله الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» ٩ : ٣٣٦.

(١) أي ابتعِدْ عن الدخول فيما لا يعنيك. ولفظُ (الفُضول) أصلُه جمعُ فضل، ثم استُعمل الجمعُ استعمال المفرد فيما لا خير فيه، وهذا نُسب إليه على لفظه فقيل. (فُضولي) بضم الفاء، لمن يشتغل بما لا يعنيه. لأنه جُعل علَماً على نوع من الكلام أو التصرُّف، فنُزِّل منزلة المفرد. والفقهاءُ يُطلقون (الفُضولي) على من تصرَّف بالشيء، وليس هو بمالكٍ له، ولا وكيلٍ، ولا وَليّ.

صعوبة التخلي عن الفضول:

والفضول يدخل في كل شيء! وبلاؤه واسع، واعتزاله عسير إلاّ على من وفَّقه الله تعالى وأعانه. قال رباحُ بن يزيد اللَّخْمي ــ وكان أحد العلماء الثقات العبّاد، والرجال الصالحين الزهاد، وكان من أهل المجاهدات والأخلاق الرفيعة، يُضربُ به المثلُ في زهده وعبادته، وكان مستجاب الدعوة، ولد سنة ١٣٤، ومات سنة ١٧٢ عن ٣٨ سنة ــ قال رحمه الله تعالى:

«رُضْتُ نفسي على ترك المأثم حولاً ثم حولاً فضبطتُها، ورضتُ لساني على ترك ما لا يعنيني، فبعْدَ خمس عشرة سنةً ضبطتُه». قال أبو عثمان سعيد بن محمد الحداد: إنه ليغلبُ على ظني أن هذه الرياضة لم تكن من لَدُن بلغ، لأنه مات ابن ثمان وثلاثين سنة، وكان قد حمل نفسه على الاجتهاد». انتهى من ترجمته في «طبقات علماء إفريقية وتونس» لأبي العرب القيرواني ص ١٢٤، و«معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» لأبي زيد الدبَّاغ ١ : ٢٦٠.

مدح الإمام الشافعي لترك الفضول:

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «أربعةٌ تزيدُ في العقل: تركُ الفضول من الكلام، والسواكُ، ومجالسةُ الصالحين، ومجالسةُ العلماء». ذكره ابن القيم في «زاد المعاد» ٣ : ٤١٧.

ومن أجل أن ترك الفضول عسير جداً، كرَّر المؤلف رحمه الله تعالى التحذير من الفضول في مواضع كثيرة من كتابه هذا، كما سيأتي في ص ١٢٣ عن ابن عباس، وعن غيره في ص ١٦٤ و ١٦٨ و ١٦٩ و ١٧٦ و ١٧٩ و ٢٢٥. وقد شرَحَ المؤلف في =

فإنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى البِرِّ[1]، وَالبِرُّ يَهْدِي إلى رِضَا اللَّهِ تَعَالَى، والكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ[2]، والفجورَ يُورِثُ سَخَطَ اللَّهِ.

= هذه المواطن مسالكَ الفضول ومخاطرَه ونتائجه وآثاره، ولقد أخلص ـ واللهِ ـ ونَصَح، فعليك بالبعد من الفضول في كل شيء طلباً للسلامة، فإن الفضول عاقبته ندامة. تولاّني الله وإياك بعونه وصونه، وهو الذي يتولى الصالحين.

كيف يقوى الصدق والكذب في القلب؟

(١) معنى (يهدي إلى البر): يُوصل إلى العمل الصالح. روى الحافظ أبو نعيم في «الحلية» ٢: ٣٥٩، في ترجمة (مالك بن دينار) عن جعفر بن سليمان الضُّبعي قال: «سمعتُ مالك بن دينار يقول: الصدقُ والكذبُ يعتركان في القلب حتى يُخرِجَ أحدُهما صاحبه، وإنَّ الصدق يبدو ضعيفاً كما يبدو نباتُ النخلة، يبدو غُصْناً واحداً، فإذا نتفَها صبي ذهَبَ أصلُها، وإن أكلتْها عنزٌ ذهبَ أصلُها، فتُسقى فتنتشر، وتُسقى فتنتشر حتى يكون لها أصلٌ أصيل يُوطأ، وظلٌّ يُستظل به، وثمرةٌ يؤكلُ منها. كذلك الصِّدقُ يبدو في القلب ضعيفاً، فيتفقَّده صاحبُهُ ويزيده الله تعالى، ويتفقده صاحبه فيزيده الله، حتى يجعله الله بركةً على نفسه، ويكون كلامُهُ دواءً للخاطئين.

قال جعفر: ثم يقول ابنُ دينار: أما رأيتموهم؟ ثم يرجعُ إلى نفسه فيقول: بلى والله لقد رأيناهم: الحسن البصري، وسعيد بن جبير وأشباههم، الرجلُ منهم يُحيي اللهُ بكلامه الفِئَامَ ـ أي الجماعات ـ من الناس».

(٢) أي يدفع إلى الانبعاث والوقوع في الفسق والمعاصي. قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «ما كان خُلُقٌ أبغض عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب، وما علم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من شيء منه من أحدٍ فيخرُج له من نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة». رواه الإمام أحمد في كتاب «العلل ومعرفة الرجال» ١: ٤٠٦.

بيان قُبح الكذب وما يجوز فيه الكذب:

جاء في «مُسوَّدة آل تيمية في أصول الفقه» ص ٢٣٣ ما يلي: «اختلف الناس في الكذب، هل قُبحُه لنفسِه، أو بحسَبِ المكان؟

فقال الأكثرون ومنهم أبو الوفاء بن عقيل من كبار فقهاء السادة الحنابلة: قُبحُه بحَسَب المكان، ولهذا حَسُنَ عند العلماء حيث أجازه الشرع.

وذهبتْ شِرْذمة إلى أن قُبحه لنفسه. وعند هؤلاء: هو قبيح حيث أجازه الشرع أيضاً، قالوا: لكنه دفع به ما هو أقبحُ منه. ويبعُدُ ابنُ عقيل هذا. =

وقال عبدُ الله بن عباس رَضِي الله عنهما: لا تَتَكَلَّمْ فِيما لاَ يَعْنِيك، ودَعْ كثيراً مما يَعنِيك، ولاَ تُمارِ سَفِيهاً ولا حَلِيماً[1]، واذكُرْ أَخاكَ بِما تُحِبُّ

= وعلى المذهبين: مهما أمكن جعلُ المعاريض مكانَه حَرُم.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية: وهذه المسألة تُبنَى على القول بالقُبح العقلي، فمن نفاه وقال: لا حكم إلاّ لله، والحسنُ ما حسَّنه الشرع، والقبيحُ ما قبّحه الشرع، جعله بحسب موضعه، ومن أثبت القول بالقُبح العقلي، وجعل الأحكام لذواتِ المحلّ، قبَّحَهُ لذاتِه». انتهى بزيادة يسيرة.

قال عبد الفتاح: ويشهد لقول الأكثرين الجمهور، حديثُ «الصحيحين» وغيرهما عن أم كلثوم بنت عقبة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «ليس الكذابُ الذي يُصلحُ بين الناس، فيَنمِي خيراً ويقولُ خيراً».

قال المناوي في «فيض القدير» ٥: ٣٥٩ عند شرح هذا الحديث: «وإنما نفى عن المصلح كونه كذاباً، باعتبار قصده، وهذه أمور قد يُضطرّ الإنسان فيها إلى زيادة القول ومجاوزة الصدق، طلباً للسلامة، ودفعاً للضرر، ورُخِّص في اليسير من الفساد، لما يؤمل فيه من الصلاح.

والكذب في الإصلاح بين اثنين أن ينميَ ـ أي ينقُل ـ من أحدهما إلى صاحبه خيراً، ويبلغه جميلاً، وإن لم يكن سمعه منه، بقصد الإصلاح.

والكذب في الحرب أن يظهر في نفسه قوة، ويتحدَّثُ بما يقوي به أصحابه ويكيد عدوه.

والكذب للزوجة أن يعدها ويمنيها، ويظهر لها أكثر مما في نفسه، ليستديم صحبتها ويصلح به خلقها.

قال النووي: وقد ضبط العلماء ما يباح من الكذب. وأحسن ما رأيته في ضبطه قول الغزالي: الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود ـ أي بوزن الشرع وحُكمه ـ يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً، فالكذبُ فيه حرام لعدم الحاجة، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب ولم يمكن بالصدق، فالكذب فيه مباح لمباح، وواجب لواجب». انتهى.

(١) أي لا تجادله، فإن الجدال لا يأتي بخير. وانظر التعليقة الآتية في ص ١٣٠، ففيها الكلامُ عن الجدال.

أَنْ يذْكُرَكَ بِهِ.

واعمَلْ عمَلَ رَجلٍ يعْلَمُ أنَّهُ مُجازًى بالإحْسانِ، مَأْخُوذٌ بالإجْرام[١].

وأدِمْ شُكْرَ الله، وأقْصِرْ مِنْ أمَلِكَ، وَزُرِ القُبُورَ بهمِّكَ[٢] تذكُرْكَ الموتَ، وَجِّلْ فِي الحَشْرِ بقَلْبِكَ[٣].

---

(١) جاء نحو هذا النص من كلام ابن عباس رضي الله عنهما، في «بهجة المجالس» للحافظ ابن عبد البر ٢ : ٢٥٠ ــ ٢٥١.

(٢) أي بحضور قلبك. عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «زُرْ القبور تذكُر بها الآخرة، واغسلْ الموتى فإنَّ معالجة جسدٍ خاوٍ موعظة بليغة. وصلِّ على الجنائز لعلَّ ذلك يحزُنك؟ فإنَّ الحزين في ظلِّ الله يوم القيامة». رواه الحاكم في «المستدرك» ٤ : ٣٣٠ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وقال الذهبي في «تلخيص المستدرك»: صحيح.

(٣) إنه أمْرٌ ليس بالهيِّن، إنه أمر تتصدع عنده كثيرٌ من القلوب إذا صاحبَ التفكيرَ فيه اليقظةُ التامة. وقد وقع ذلك في السلف لغير واحد.

استحضار عذاب الدار الآخرة بالقلب يوجب الخشية

جاء في سيرة التابعي الجليل (الربيع بن خُثَيم)، تلميذ الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنه كان إذا دخل على عبد الله بن مسعود يقول له: والله لو رآك رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لأحبَّك، وما رأيتُك إلا ذكرْتُ المُخْبِتين. وفي لفظ آخر: كان إذا رآه قرأ قوله تعالى: ﴿وبشِّر المُخْبِتين﴾ أي الخاشعين. وكان الربيع كذلك.

خَشْيةُ التابعي الربيع بن خُثَيم

قال الحافظُ الذهبيُّ في «تذهيب التهذيب» وغيرُه من المحدِّثين والمؤرخين في ترجمته: انطلق الربيع بن خُثَيم وعبد الله بن مسعود إلى شاطىء الفرات، فمرَّا بتلك الحدَّادين، فلما رأى الربيع تلك النيران ــ نيران الحدَّادين وشهيقها وزفيرها ــ، قرأ قوله تعالى: ﴿إذا رأتْهم من مكانٍ بعيدٍ سمعوا لها تغيُّظاً وزفيراً﴾، وخرَّ مغشيّاً عليه، وحانت صلاةُ الظهر، فناداه عبد الله بن مسعود: يا ربيع فلم يُجِبْه، فذهب عبدُ الله فصلى بالناس الظهر، ثم رجع إليه فناداه وقال: يا ربيع فلم يُجبه، فانطلق عبد الله فصلى بالناس العصر، ثم رجع إليه فقال: يا ربيع يا ربيع، فلم يُجبه! ثم انطلق =

وقالَ أبو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عنهُ: اعْمَلْ كَأَنَّكَ ترى(١)، وعُدَّ نَفْسَكَ في المَوْتَى، واعلَمْ أَنَّ الشَّرَّ لا يُنْسَى، والخيرَ لا يَفْنَى(٢)، ....

= عبد الله فصل بالناس المغرب، ثم رجع فقال: يا ربيع يا ربيع، فلم يُجبه! فما صحا من غَشْيته حتى ضَرَبَه بَرْدُ السَّحَر. انتهى.

تأثر ابن المبارك بأخبار الآخرة:

وجاء في «تاريخ بغداد» ١٠: ١٦٧، في ترجمة الإمام (عبد الله بن المبارك): «قال نعيم بن حماد: كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرِّقاق، يصير كأنه ثور منحور، أو بقرة منحورة، من البكاء، لا يجترىء أحد منا أن يدنو منه، أو يسألَهُ عن شيء إلَّا دفعه».

انصداعُ قلب ابن وهب بأخبار الآخرة:

وجاء في ترجمة الإمام المحدِّث الفقيه العابد الزاهد (عبد الله بن وهب القرشي المصري) صاحب الإمام مالك، المتوفى سنة ١٩٧ رحمه الله تعالى، في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض ٣: ٢٤١. «قال يونس: قال ابنُ وهب: إن أصحاب الحديث طلبوا مني أن أُسمعهم صفة الجنة والنار، وما أدري أقدرُ على ذلك؟ ثم قعد لهم، فقرأوا عليه صفة النار فغُشي عليه، فرُشَّ بالماء وجهُه فلم يُفق، فقيل: اقرأوا عليه صفة الجنة، فلم يُفق، وبقي كذلك اثني عشر يوماً ــ لم يتكلم بكلمة ــ، فدُعي له طبيب، فقال: هذا رجلٌ انصدع قلبُه! ثم مات رحمه الله تعالى». انتهى.

هذا، وللمؤلف المحاسبي رحمه الله تعالى كتابٌ نفيسٌ في هذا المعنى، سمّاه «التوهم»، وهو مطبوع بمصر سنة ١٣٥٧، تحدَّث فيه عن شعور أهل النار وما يلقون قبلها وبعد الدخول فيها من أهوالٍ وعذاب، كما تحدَّث فيه عن شعور أهل الجنة وما يجدون قبلها وبعد الدخول فيها من نعيم وتكريم وثواب، وبيَّن هذا وذاك مَرْحلةً مرحلة، حتى لكأنك تراهُ رأيَ العين، وتُحِسُّه إحساسَ المباشر له، واستعرَضه بلغةٍ عالية مُشرقة، وبيانٍ مؤثرٍ بليغ، يُفيدُ قارئه خشيةً وعبرة، ويُورثُه يقظةً لعمل الآخرة، فعليك بقراءته، والله يتولاني وإياك.

(١) أي تَرَى الله تعالى.

إنما أنتم أخبار فطيِّبوا أخباركم:

(٢) أي اعلَمْ أنَّ عملك محفوظ مذكور من الناس ومن الله تعالى، فأحسِنْه لتُذكر بالخير عند الناس وعند الله سبحانه، قال حكيم العرب أكثَمُ بن صيفيّ التميمي، الذي سافر في مئةٍ من قومه إلى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم في المدينة يريدون الإسلام، فمات هو في الطريق بعد أن أسلم، وبلَغ أصحابُه المدينة =

واعلمْ أنَّ قليلاً يُغْنِيكَ خَيرٌ مِنْ كَثيرٍ يُطغِيكَ[١]. وإيَّاكَ وَدَعْوَةَ المَظْلُوم[٢].

= فأسلموا، قال رضي الله تعالى عنه: إنما أنتم أخبار، فطيِّبوا أخباركم. وقد صدق قال الإمامُ ابنُ دُرَيد في مقصورته:

وإنما المرءُ حديثٌ بعدَه فكنْ حديثاً حَسَناً لمن وَعَى

(١) قال الحسن البصري رضي الله عنه: إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرةُ الأشغال!! لا يفتح رجل على نفسه باب شُغلٍ إلاَّ أوشك ذلك البابُ أن يفتح عليه عشرة أبواب. من «الحلية» لأبي نعيم ٢: ١٥٣. وقال التابعي الجليل قتادة: ما كثُرتْ النِّعَمُ على قوم إلاَّ كثُر أعداؤها. رواه الإمام أحمد في «العلل ومعرفة الرجال» ١: ١٧٤.

استجابة دعوة المظلوم ولو كافراً

(٢) وذلك أنها دعوة مستجابة، ولو كانت من عاصٍ فاجر، أو مشركٍ كافر. وأما قوله تعالى في أوائل سورة الرعد: ﴿وما دُعاءُ الكافرين إلاَّ في ضلال﴾ فذلك دُعاؤهم لأصنامهم وآلهتهم، كما يدل عليه سياقُ الآية. وعلى احتمال أن المراد به دعاؤهم الله تعالى، فذلك في دُعائهم للنجاة من نار الآخرة، أما في الدنيا فدعوةُ المظلوم أياً كان مستجابة. وإليك الدليل:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «اتَّقِ دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب». رواه البخاري ٣: ٢٨٥ و٥: ٧٣ و٨: ٥١، ومسلم ١: ١٩٧. ورواه الإمام أحمد وأبو يعلى والضياء المقدسي في «المختارة» بلفظ: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فإنها ليس دونها حجاب». أي هي مستجابة ليس هناك مانع يمنع قبولها من الله تعالى.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «دعوةُ المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً ففُجورُه على نفسه». رواه الإمام أحمد في «مسنده» ٢: ٣٦٧ بإسناد حسن.

الوزير يحيى البرمكي يُقرِّبُ حَتفَه دعوةُ مظلومٍ عليه

ومن عجيب ما يُذكرُ في هذا المقام: ما وقع للوزير (يحيى بن خالد البَرْمكي) الجواد المشهور، الذي يُضربُ المثَلُ به في سعة الجود والكرم، قال الخطيب في «تاريخ بغداد» ١٤: ١٢٨ و١٣٢ في ترجمته رحمه الله تعالى.

«كان الخليفة العباسي المَهْدي، قد ضَمَّ ابنَه هارونَ الرشيد، إلى يحيى بن خالد، وجعَلَه في حِجره، فربَّاه يحيى، وأرضعتْه امرأتُه مع ابنه الفضل، وصار =

. . . .

= الرشيدُ ابنَ يحيى من الرضاعة، فلما استُخلِف الرشيد، عرف ليحيى حقَّه، وولّاه الوزارة، وكان يُعظِّمه، وإذا ذكره قال: أبي، وجعل مصادر الأمور وإيرادها إليه، إلى أن نكب هرونُ الرشيدُ البرامكة، فغضب على يحيى بن خالد البرمكي، وخلّده في الحَبْس إلى أن مات فيه سنة ١٩٠! وقَتَل ابنَهُ جعفراً!

وقال جعفر لأبيه يحيى بن خالد، وهُمْ في القيود والحَبْس: يا أبت بعد الأمر والنهي والأموال العظيمة، أصارنا الدهرُ إلى القُيُود ولُبس الصُّوف والحَبْس! فقال له أبوه يحيى: يا بُنيَّ لعلَّه دعوةُ مظلوم؟! سرتْ بليل غفلنا عنها! ولم يغفل اللهُ عنها، ثم أنشأ يقول:

رُبَّ قومٍ قد غَدَوْا في نَعْمةٍ　　زَمَناً والدهرُ رَيّانٌ غَدَقْ
سَكَتَ الدهرُ زَمَاناً عنهمُ　　ثم أبكاهُمْ دَماً حينَ نَطَقْ!

انتهى بتصرف يسير[1]

قال العلامة سعد الدين التفتازاني في «شرح الأربعين النووية» ص ١٩٤[2]، في شرحه للحديث الرابع والعشرين: (عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه: إني حرَّمتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحرَّماً، فلا تَظَالَمُوا):

سهامُ دعاء المظلوم في السحر قاتلة

«حُكي أنَّ الأمير نوح بن أسد بن سامان، أحد الولاة على ما وراء النهر، لمّا فرض الخراج على أهل سمرقند بعث بريداً إلى أمره، فأحضر الأئمة والمشايخ وأعيان البلد، وقرأ عليهم الكتاب، فقال الفقيه أبو منصور الماتُرِيديُّ للبريد: قد أدّيت رسالة الأمير، فأَدِّ إليه الجواب، وقل له: «رُدَّه ظلماً» حتى بريد في دعاء الليل، ثم تفرَّقوا، فلم يذهب إلَّا أيامٌ حتى وجدوه قتيلاً، وفي بطنه زُجُّ رُمْح ـ الزُّجُّ: الحديدةُ في أسفل الرُّمْح ـ مكتوبٌ عليه:

بَغَى وللبَغْي سِهامٌ تُنْتَظَرْ　　أَتَتْه مِن أيدي المَنَايا والقَدَرْ =

. . . .

(١) هذان البيتان من أعذب الشعر وأبلغه، وهما من شعر أبي العتاهية، فقد نسب الأولَ إليه في «الأنساب» للسمعاني ٢: ٤٠، ولم أجدهما في كتاب «أبو العتاهية: شعره وأخباره» للصديق الدكتور شكري فيصل، رحمه الله تعالى، فيستدركان.

(٢) من طبعة تركيا ١٣٢٣، و ص ١٠٤ من طبعة يونس.

ثُمَّ رُمَّ جِهازَكَ(١) وافْرُغْ مِنْ زادِكَ(٢)، وكُنْ وَصيَّ نفْسِكَ، ولاَ تَجْعَلِ الرِّجالَ أَوْصِياءَكَ(٣)، واعقِلْ أَمْرَكَ، وتَيَقَّظْ مِنْ سِنَتِكَ(٤)، فإنَّكَ مسؤُولٌ عن عُمُرِكَ(٥). قالَ أبو أُمامةَ رضيَ اللّهُ عنْهُ: لَوْ عقَلَ ابنُ آدَمَ

= سِهامُ أيدي القانِتاتِ في السَّحَر   يَرمينَ عن قَوْسٍ لها الليلُ وَتَرْ(١)

بيتان في مدح العدل وذم الظلم: ومما يتصل بهذا المقام ما رأيتُه مكتوباً في القاعة الشَّمالية بقصر رئاسة الجمهورية السورية بالمهاجرين في دمشق، على أعلى جدرانها الخشبيَّة المزيَّنة

حَفِظَ التاريخُ في طَيَّاتِهِ   اسمَ من شادُوا على العدْلِ الدُّوَل

ولقد أنبأَ عمن ظَلَمُوا!!   فجرَى ذكرُهمُ مجرَى المَثَل!!

(١) اي أصلِحْ ما تحتاج إليه في آخرتك

(٢) اي انجِزْ إعداد ما تتزوَّدُ به لآخرتك.

(٣) جاء في «نهج البلاغة» ٤: ١٤٥ منسوباً إلى سيدنا علي رضي الله عنه: «يا ابن آدم، كن وصيَّ نفسك في مالك، واعملْ فيه ما تُؤثِرُ - أي ما تُحِبُّ - أن يُعمل فيه من بعدك». وجاء هذا في كلام التابعي الجليل الربيع بن خُثَيْم تلميذ عبد الله بن مسعود، كما في «كتاب الزهد» للإمام أحمد ص ٣٣٣

أدَّخِرُ مالي عند ربي وأدَّخِرُ ربي لولدي: وجاء في «تاريخ الإسلام» ٤: ٢٠٠ و«سير أعلام النبلاء» ٥: ٦٨ للحافظ الذهبي، في ترجمة التابعي الجليل (محمد بن كعب القُرظي) المدني، المتوفى سنة ١٠٨ أو بعدها رحمه الله تعالى: أنه «كان له أملاكٌ بالمدينة وحصَّل مالاً مرةً، فقيل له: ادَّخِرْهُ لولدك، قال: لا، ولكن أدَّخِرُهُ لنفسي عند ربِّي، وأدَّخِرُ ربِّي لولدي» انتهى. فنعم الادِّخارُ والمدَّخَرُ عنده سبحانه.

(٤) أي من غفلتك ونومك عن الأخرة.

(٥) عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «لا تزولُ قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عُمُره فيم أفناه؟ وعن علْمِه ماذا عمل به؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جِسْمِه =

. . . .

(١) قال عبد الفتاح: وفي ذكر الفقيه أبي منصور الماتُريدي (محمد بن محمد المتوفى سنة ٣٣٣، مع ذكر (الأمير نوح بن أسد بن سامان) المتوفى نحو سنة ٢٤٥ إن كان هو هذا: توقُّفٌ، لتباعُدِ ما بينهما في التاريخ، فتأمَّل.

عنْ ربّهِ كَانَ خَيراً لَهُ مِن جِهَادِهِ.

واعْلَمْ أَنَّ مَنْ جَعَلَ هَمَّهُ الآخِرَةَ كفاهُ اللَّهُ أَمْرَ دُنْياهُ، كَمَا ذُكِرَ في الحديث المرويّ: «تفرَّغُوا مِنْ هُمُومِ الدُّنيا مَا اسْتَطَعْتُمْ، فإنَّهُ مَن كَانتْ الدُّنيا أكْبرَ همِّهِ أَفْشَى اللَّهُ عليهِ ضَيْعَتَهُ[١]، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عينيهِ[٢]، ومَن كَانَتِ الآخِرةُ أَكْبرَ هَمِّهِ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِناهُ في قَلْبِهِ. وَمَا أَقبلَ عبدٌ بقلبه إلى الله عَزَّ وجَلَّ إلاَّ جعلَ اللَّهُ قُلُوبَ المؤمنين تَنْقَادُ إليه بالرَّحْمَةِ وَالمَوَدَّةِ»[٣].

واحذَرْ يا أَخي المِراءَ في القرآن[٤]، ....

فيم أبلاه؟» رواه الترمذي في «جامعه» ٤: ٦١٢، في أول كتاب صفة القيامة، وقال: حديث حسن صحيح.

(١) أي كثّر عليه معاشه ليشغله عن الآخرة، كما في «النهاية» لابن الأثير.

(٢) أي جعله دائماً يشهد نفسه فقيراً محروماً!

(٣) الحديث ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» بشرح المناوي ٣: ٢٦٠، بنحو هذا اللفظ، وقال: «رواه الطبراني عن أبي الدرداء». وجاء في الأصلين (جمع الله أمره) دون لفظ (له). وجاءت الجملةُ الأخيرة منه في «الجامع الصغير» بلفظ: «... تفِدُ إليه بالودّ والرحمة» أي تُسرع. وجاء بعدها: «وكان اللَّهُ تعالى بكلّ خيرٍ إليه أسرع». قال شارحُهُ المُناوي: «ضعّفه المنذري. وقال الهيثمي: فيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب، وهو كذاب. اهـ. وكذا ذكرهُ غيرُه». انتهى كلام المناوي. قلتُ: فمع هذا يكون الحديث في غاية الضعف، والله أعلم.

(٤) أي الشكُّ فيه أي في كونه كلام الله تعالى، أو المراد: الخوضُ فيه بأنه مُحدث أو قديم، أو المراد: المجادلةُ في الآيات المتشابهة، أو المرادُ بالمراء في القرآن التدارؤ فيه، وهو أن يروم تكذيب القرآن بالقرآن، ليدفع بعضه ببعض، فيتطرَّق إليه قدحٌ وطعن.

ومن الحقّ على الناظر في القرآن الكريم أن يجتهد في التوفيق بين الآيات، والجمع بين المختلفات ما أمكنه، فإن القرآن يُصدِّقُ بعضه بعضاً، فإن أشكل عليه شيء من ذلك، ولم يتيسر له التوفيق، فليعتقد أنه من سُوء فهمه، وليَكِلْه إلى عالمه

والجدالَ في الدين[1]، ....

= وهو اللهُ ورسولُه، ﴿فإن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول﴾

وروى الإمام أحمد في «المسند» ٢: ٣٠٠ في (مسند أبي هريرة) عنه رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، المراءُ في القرآن كفر، ثلاث مرّات، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردُّوه إلى عالمه». أفاده العلامة المناوي رحمه الله تعالى في «فيض القدير» ٦: ٢٠٥.

تعريف الجدال والجدل

(١) الجدال: المخاصمةُ والمغالبة، مأخوذ من قولك: جدلْتُ الحبل أجدُلُه جدْلاً إذا أحكمت فتله. فكأنَّ المتجادلين يفتلُ كلُّ واحد منهما بكلامه الآخر عن رأيه وقصده، ليصير رأي نفسه. وهو مذموم إلاَّ على وجه الإنصاف، أو لإظهار الحق، ولكن ما أقلّه وأقلَّ أهلَه اليوم؟!

الفرق بين الجدل والإفهام

والفرق بين الجدل والإفهام: أنك حين تناقش إنساناً، وتحاول الغلبة عليه، فأنت حينئذ مجادل. أما إذا حاولت أن تُفهمه وأن تُفهِمَه ما لديك، أو تَفهمه فأنت مُفهِم، وسيشعر أنَّك صاحبه وتحدِّثه، فسيصبح توّاقاً إلى معرفة ما لديك من الحقائق، ومحباً لك ومعترفا بفضلك.

الجدلُ المذمومُ شرعاً

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى، في رسالة له في «المشتبه في القرآن» ص ١١: «واعلم أنَّ من حُسن إسلام المرء تركَهُ ما لا يعنيه. وإذا أراد الله بعبدٍ شرّاً ابتلاه بالجدل، وإذا أراد الله بعبدٍ خيراً وفّقهُ للعمل. إنْ أخذ منك ساعتك وردَّ إليك قلبك، فقد لطف بك. وإن أخذ منك قلبك وردَّ إليك لسانك، فقد عظُمتْ مُصيبتُك!». انتهى.

وقد حذَّر النبي صلّى الله عليه وسلّم من الوقوع في الجدل، وجعله سبباً يتحوَّلُ به الناسُ من الهدى إلى الضلال. روى الصحابي الجليل أبو أمامة رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «ما ضلَّ قومٌ بعد هُدى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ما ضربُوه لك إلاَّ جدلاً بل هم قومٌ خصمون﴾». رواه الإمام أحمد في «المسند» ٢٥٢:٥، والترمذي ١٣٣:١٢ وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه ١٩:١، والحاكم في «المستدرك» ٤٤٨:٢ وقال «صحيح»، وأقرَّه الذهبي.

وروى الإمام أحمد في «المسند» ٢: ٣٥٢ و٣٦٤ عن مكحول عن أبي هريرة =

والكلامَ في التَّحْدِيد(١)، وكُنْ من الَّذِين قال اللَّهُ عزَّ وجَلَّ فيهم:

= ـ ومكحول لم يسمع منه فالسندُ ضعيفٌ لما فيه من انقطاع ـ . أن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «لا يؤمنُ العبدُ الإيمانَ كلَّه حتى يترك المراء وإن كان صادقاً» أي مُحقّاً.

وروى الترمذي ٨ : ١٦٠ ـ بسند فيه ضعف ـ عن ابن عباس أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «لا تُمارِ أخاك». وروى الترمذي أيضاً ٨ : ١٥٩ وحسَّنه، وابن ماجه ١ : ١٩ عن أنس مرفوعاً: «من ترك المراء وهو مُحِقٌّ بُني له قصرٌ في وسط الجنة». انتهى.

وذلك أن الجدال يولِّدُ النُّفرة والكراهة، ويُسبِّبُ الإيحاش بين المتحدثين فضلاً عن غيرهما، فإذا كان لتاركه ـ وهو محق ـ هذا الأجر الجسيم، فينبغي اجتنابُه والبُعدُ عنه.

مارى رجلٌ الإمام التابعيَّ محمد بن سيرين، فقال له ابن سيرين: إني أعلم ما تريد، وأنا أعلمُ بالمراء منك! ولكن لا أريد أن أُماريك. من «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٧ : ١٩٥.

أدب الجدل في عشر خصال

ومما رأيته مكتوباً على وجه كتاب مخطوط، كتاب «الانتصار في المسائل الكبار» لمحفوظ بن أحمد الكلوذاني إمام السادة الحنابلة في عصره، فهم بعض العلماء ـ وقد يكتبون على وجوه الكتب إلا الفوائد العوالي، والدُّرر واللآلي، يسرعون بكتابتها على وجه الكتاب لئلا تشرُد منهم، وليروْها كلما نظروا الكتاب فيحفظوها ـ

«من أدب الجدل: جاء رجل إلى بعض الأئمة الحكماء، فقال: أريد أن أناظرك، فقال: بعد أن تشترط على نفسك عَشْرَ خِصال:

أحدُها: لا تغضب. والثانيةُ: لا تعجل. والثالثةُ: لا تعجب. والرابعةُ: لا تتحكَّم. والخامسةُ: لا تضحك. والسادسةُ: لا تجعل الدَّعوى دليلك. والسابعةُ: إذا أخذت في الأخبار كان غرضنا التصدُّق. والثامنةُ: إذا أخذت بنا في العُقُول آنقدنا للمعرفة. والتاسعةُ: أن يجعل كلُّ واحد منا الحقَّ ضالَّته، لا لعلة غائبة. والعاشرةُ: أن لا تَقبل على غيري وأنا أُكلِّمُك. والسلام». انتهى. وهي آداب غايَةٌ في بابها.

(١) المراد به: ذكرُ الحدِّ لله تعالى سبحانه، والخوضُ في صفاته تعالى بالتشبيه والتمثيل والتعطيل. قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى، في رسالة له في «المتشابه =

﴿وإذا خاطَبَهم الجاهلون قالوا سَلاماً﴾[1].

والزم الأدبَ، وباعِدْ الهوى والغَضَبَ، واعْمَلْ في أسبابِ التيقُّظِ[2]، والمراقبةُ غايةُ قصدك، واتَّخِذِ الرِّفْقَ خِدْناً، والتأني صاحِباً،

= في القرآن» ص ١٠ و ١١ «قُلْ: آمنتُ ـ بالله ـ بلا تشبيه، وصدَّقتُ بلا تمثيل، وعليَّ ضمانُك في يوم القيامة. فإنه لا بُدَّ أن تعتقد أنَّ معبودَك لا يُشبهُ شيئاً، ولا يُشبِهُهُ شيء».

ولا أُحيلُك على العقل والكلام ـ أي علم الكلام ـ، وقد قال الله تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ ويكفيك هذه الآيةُ ردّاً على المشبِّهة والمجسِّمة. ويكفيك ﴿وهو السميعُ البصيرُ﴾ ردّاً على المعطِّلة. وليس على المرء أضرُّ من الخوض في ذات الله وصفاته، تفكَّروا في آلاء الله ـ أي نعم الله ـ ولا تتفكَّروا في الله»

(١) من سورة الفرقان: الآية ٦٣.

تصويرُ غفلة الإنسان بمفاتن الدنيا:

(٢) ذلك لأن مفاتن الدنيا برَّاقة خلّابة، تجلب لك الغفلة عن عاقبتك، وتُنسيك ما أنت صائر إليه؛ فالعملُ على تحصيل أسباب التيقظ لازمٌ لك، لسلامتك من دار الغرور. وما أصدق ما قاله ابنُ المُقَفَّع وهو يُصوِّرُ غفلة الإنسان عن آخرته بلهو زوارق زيف الحياة، فتصدُّه عن سبيل قصده وغايته، فيهلك وهو مخدوع بفتنتها. قال في كتابه «كليلة ودمنة» ص ٨٩ قبلَ باب الأسد والثور:

«التمستُ للإنسان مثلاً فإذا مثلُه مثلُ رجلٍ نجا من خوف فيلٍ هائج إلى بئر فتدلَّى فيها، وتعلَّق بغُصنين كانا على سمائها ـ أي على أعلى البئر ـ فوقعتْ رجلاه على شيء في طيِّ البئر، فإذا حيَّاتٌ أربعٌ قد أخرجْن رؤوسهن من أجحارهن.

ثم نظر فإذا في قعر البئر تِنِّينٌ ـ هو نوع من الحيّات كأكبر ما يكون منها، طويل كالنخلة السَّحُوق. أحمرُ العينين مثلُ الدم، واسعُ الفم يبتلع كثيراً من الحيوان، في فمه أنياب مثل أسنَّة الرماح ـ فاتحٌ فاه، منتظرٌ له ليقع فيأخذه، فرفع بصرَهُ إلى الغُصنين فإذا في أصلهما جُرذان ـ فأران كبيران ـ أسودُ وأبيضُ. وهما يقرِضان الغُصْنَين دائبين لا يَفْتُران!

فبينما هو في النظر لأمره والاهتمام لنفسه، إذ أبصر قريباً منه كُوارةً ـ بيت النحل ـ فيها عسلٌ، فذاق العسل فشغلتْه حلاوتُه، وألهتْهُ لذَّتُه عن الفكرة في شيء من أمره، وأن يلتمس الخلاص لنفسه، ولم يذكر أن رجليه على حيَّاتٍ أربعٍ لا يدري =

والسلامةَ كَهْفاً، والفراغَ غنيمَةً، والدُّنيا مَطِيَّةً، والآخِرةَ مَنْزِلاً[١].

قال الحسَنُ رضي الله عنه[٢]: إنَّ الله تعالى لَمْ يَجْعَلْ لِلمُؤْمِن راحةً دون الجنة[٣].

واحذَرْ مَواطِنَ الغَفْلَة، ومَخَاتِلَ العَدُوّ[٤]، وطَرَباتِ الهَوى[٥]، وضَراوةَ الشهوة[٦]، وأمانيَّ النَّفْس، ....

= متى يقع عليهن، ولم يذكر أنَّ الجُرذين دائبان في قطع الغُصْنين، ومتى انقطعا وقع على التِّنين! فلم يزل لاهياً غافلاً مشغولاً بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التِّنين فهلك!!». انتهى. فيا عبد الله لا تغفلْ عن آخرتك، سَلَّمني الله وإياك من الغفلة.

(١) وقع في الأصول: (منهلاً). وهو تحريف عما أثبتُّه.

(٢) هو الحسنُ البصريُّ التابعيُّ الجليل، سيدُ الزُّهّادِ والعُبّاد في عصره توفي سنة ١١٠، وهو الذي سمعتْ السيدةُ عائشة رضي الله عنها كلامه فقالت: من هذا الذي يُشبهُ كلامُهُ كلامَ الأنبياء رضي الله عنه. كما نقله ابن المرتضى في «المُنْية والأمل» ص ٣٦.

(٣) وقال الحسنُ أيضاً رضي الله عنه: «فضح الموتُ الدنيا، فلم يترك فيها لذي لُبٍّ فَرَحاً». من «تاريخ الإسلام» للذهبي ٤:١٠٢.

وكان مالك بن دينار تلميذُ الحسن يقول: «عُرْسُ المتقين يوم القيامة». من «الحلية» لأبي نعيم ٢: ٣٨٠.

(٤) أي مخادعه. ووقع في الأصلين: (مخايل العدوّ)، وفي أ: (مخال العدو)، وفي ب: (مجايل...)، وكله تحريف.

(٥) أي هجمات الهوى التي تستخفُّك للمعصية حتى تُلقيك فيها.

(٦) أي شدَّتها واستعارها، وبقليلٍ من المصابرة على الشهوة مع ذكر الله تعالى والنظر في عاقبة طاعة الشهوة، وعاقبةِ عصيانها، يكون لك الفوزُ والغلبةُ عليها، ويغمرُك الرضوانُ العظيم من الله تعالى، ويستنيرُ قلبُك، وتسمو رُوحُك، ويربو إيمانُك، وتحُفُّ بك الملائكة، وتشعرُ بنفحات روحانية سماوية لا تَسْتَوفيها العبارات، فاعتصِمْ بالله تنجو.

معالجة الشهوة الحرام واجبة ولذّةُ الانتصار عليها

وما أجملك منتصِراً على الشهوة تَفرحُ بك الملائكة، وتغشاك داعيةُ مهنئة؟ وما =

فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «أعدى أعدائِك نفسُكَ التي بين جَنْبَيْك»[1]. وإنما صارتْ أعدى أعدائِكَ لِطَاعتِك لها

وكلُّ أَمرٍ اشتَبَه عليك فيه الحقّ، فاعرِضْهُ على الكتاب والسُّنّة

= أفقدتك ـ حتى عند نفسك ـ منتصرةً عليك الشهوةُ، تفرحُ بك الشياطين ويحيقُ بك سَخَطُ الله! أسألُ اللهَ لي ولك السلامة.

آثار الشهوة ومساوئها

ورحم الله الإمام ابن القيِّم إذ يقول في كتابه «الفوائد» ص ١٣٩ «واعلم أنّ الصبر عن الشهوة أسهلُ من الصبر على ما تُوجبه الشهوة، فإنّ الشهوة إما أن توجب ألماً وعقوبة، وإما أن تقطع لذةً أكمل منها، وإما أن تضيع وقتاً إضاعتُه حسرة وندامة، وإما أن تثلم عِرْضاً توفيرُهُ أنفعُ للعبد من ثلمه، وإما أن تذهب مالاً بقاؤه خيرٌ من ذهابه، وإما أن تضع قدراً وجاهاً قيامُهُ خيرٌ من وضعه، وإما أن تسلُب نعمةً بقاؤها ألذُّ وأطيبُ من قضاء الشهوة، وإما أن تُطرِّق لوضيعٍ إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همّاً وغمّاً وحزناً وخوفاً لا يُقارِبُ لذةَ الشهوة، وإما أن تُنسي علماً ذِكرُه ألذُّ من نيل الشهوة، وإما أن تُشْمِت عدوّاً، وتُحزِن وليّاً، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تُحدث عيباً يبقى صفةً لا تزول، فإنّ الأعمال تُورث الصفاتِ والأخلاق».

وسيأتي تعليقاً في هذا المعنى كلامٌ طيب جداً في ص ٢١٨ ـ ٢٢٢، فانظره.

(١) وقع في النسخة المغربية: (أعدى أعاديك) في الموضعين. والحديث رواه البيهقي في «كتاب الزهد» بإسناد ضعيف، وله شاهد من حديث أنس. ويجري على ألسنة كثيرين: «أعدى عدوَّيْك» بالتثنية، ولا أصل له بهذا اللفظ، والمشهورُ على الألسنة: «أعدى عدوِّك» بالإفراد. أفاده العلامة العجلوني في «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» ١: ١٤٣.

وقال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» أوائل كتاب عجائب القلب ٨ ٧: «أخرجه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غَزْوان، أحدُ الوضّاعين». انتهى. وقال الزبيدي في «شرح الإحياء» ٧ ٢٠٦ عقب كلام العراقي: «ووجدتُ بخط الحافظ ابن حجر ما نصُّه: وللحديث طرق أخرى غير هذه من حديث أنسٍ وغيره».

والآدابِ الصالحة[1]، فإنْ خَفِيَ عليكَ أَمْرُهُ فَخُذْ فيه رَأْيَ مَنْ تَرْضَى دِينَه وعَقْلَهُ.

---

(١) هكذا في نسخة (ح) وغيرها، ومعناه واضح، وفي الأصلين: (وكل أمر لاح لك ضوؤهُ بمنهاج الحقّ، فاعرضْهُ على الكتاب . . .)، ومعناه أي كلُّ أمر بدا لك منه بارقةُ خير، فلا تدخل فيه حتى تعرضهُ على الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح.

ارتباط الصوفية بالكتاب والسنَّة:

قال الجُنيد رحمه الله تعالى: مذهبُنا هذا مقيَّد بالأصول بالكتاب والسنة، فمن لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، ويتفقَّه، لا يُقتدى به. انتهى من «إغاثة اللهفان» للشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى ١ : ١٢٥.

وقال الشيخ الشَّعراني رحمه الله تعالى في كتابه «كشف الغُمَّة» ١ : ٢: «كلُّ طريقٍ لم يمشِ فيه الشارعُ صلى الله عليه وسلَّم فهو ظلام، ولا يكون أحدٌ ممن مشى فيه على يقينٍ من السلامة وعدم العطب». وقال رحمه الله تعالى: «دُورُوا مع الشرع كيف كان، لا مع الكشف فإنه يُخطئ، ويعني إكثارُ مطالعة كتب الفقه، عكسُ ما عليه المتصوِّفةُ الذين لاحت لهم بارقةٌ من الطريق فمنعوا مطالعة الفقه! وقالوا: إنه حجابٌ! جهلاً منهم». نقله ابنُ العماد الحنبلي في «شذرات الذهب» في ترجمة الشعراني ٨ : ٣٧٤.

وقال الإمام الغزالي في «الإحياء» ١ : ٣٧ ـ ٣٨: «قال الجنيد رحمه الله: قال لي السَّريُّ شيخي يوماً: إذا قمتَ من عندي فمن تجالس؟ قلتُ: المُحاسِبيُّ، فقال: نعم، خُذْ من علمه وأدبه، ودَعْ عنك تشقيقه الكلام وردَّه على المتكلِّمين. ثم لما وليتُ سمعتُه يقول: جعلك الله صاحب حديثٍ صُوفيّاً، ولا جعلك صُوفيّاً صاحب حديث».

قال الغزالي: «أشار إلى أن من حصَّل الحديث ـ أي العلم ـ ثم تصوَّف أفلح، ومن تصوَّف قبل العِلم خاطَرَ بنفسه».

ذمُّ بعض الصوفية العلم الظاهر قد يخرجهم عن الإسلام —

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في كتابه: «شرح حديث العلم» ص ١٦: «وكثيرٌ ممن يدَّعي العلم الباطن ويتكلَّم فيه ويقتصرُ عليه: يَذمُّ العلم الظاهر الذي هو الشرائع والأحكام والحلال والحرام، ويطعنُ في أهله ويقول: هم محجوبون وأصحاب قشور!

واعلَمْ أنَّ على الحقِّ شاهداً بقبول النَّفْسِ لَهُ[١]. ألا تَرى لِقَولِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «ٱستَفْتِ قَلبَكَ وإنْ أفتاكَ ٱلْمُفْتُونَ»[٢].

= وهذا يُوجِبُ القدح في الشريعة المطهرة والأعمالِ الصالحة التي جاءت الرسلُ بالحثِّ عليها والاعتناء بها، وربما انحلَّ بعضُهم عن التكاليف وادَّعى أنها للعامة، وأمّا من وَصَل فلا حاجة به إليها وأنها حجاب له!

وهؤلاء كما قال الجُنيد وغيرُه من العارفين: وصلُوا ولكن إلى سقر. وهذا من أعظم خداع الشيطان وغروره لهؤلاء، لم يزل يتلاعب بهم حتى أخرجهم عن الإسلام.

ومنهم من يظنُّ أن هذا العلم الباطن لا يُتلقَّى من مشكاة النبوة، ولا من الكتاب والسُّنَّة! وإنما يُتلقَّى من الخواطر والإلهامات والكشوفات!! فأساؤوا الظنَّ بالشريعة الكاملة، حيث ظنُّوا أنها لم تأت بهذا العلم النافع، الذي يُوجِبُ صلاح القلوب وقُرْبها من علام الغيوب! وأوجب ذلك لهم الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في هذا الباب بالكليّة! والتكلُّم فيه بمجرَّد الآراء والخواطر، فضلُّوا وأضلُّوا».

متى يظهر الباطل على الحق؟

(١) فإنَّ الفِطَر السليمة تقبل الحق وترفض الباطل بطبيعة ما فطرها الله عليه. ولا يزال الحقُّ يُعتبَرُ ظاهراً على الباطل ما تعلَّقت القلوبُ به وثبتتْ عليه. جاء في «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي رحمه الله تعالى ص ٣١١: «قيل لأحمد بن حنبل أيام المحنة ـ أي أيام ظهور المعتزلة على أهل السنة ودعوتهم الناس بسلطان الدولة إلى القول بخلق القرآن ـ: يا أبا عبد الله: ألا ترى الحقَّ كيف ظهر عليه الباطل؟! فقال: كلَّا! إنَّ ظهور الباطل على الحقّ أن تنتقل القلوبُ من الهُدى إلى الضلالة! وقلوبُنا بعدُ لازِمةٌ للحقّ».

(٢) رواه بهذا اللفظ البخاريُّ في «التاريخ الكبير» عن الصحابيّ الجليل وابصة بن معْبد الأسَدي رضي الله عنه، كما في «الجامع الصغير» للسيوطي، وذكره النوويُّ في «الأربعين حديثاً» تحت عنوان (الحديث السابع والعشرون) بأتمَّ من هذا اللفظ، وقال: «حديثٌ حسن، رَوَيناه في مُسْنَدَي الإمامين أحمد بن حنبل والدارمي بإسنادٍ حسن».

من يقالُ له استفتِ قلبك؟

قال الإمام الغزاليُّ في «الإحياء» ٥: ٦ عند هذا الحديث: «وما أعزَّ مثلَ هذا القلب؟ ولذلك لم يرُدَّ عليه السلام كلَّ أحدٍ إلى فتوى القلب، وإنما قال ذلك لوابصة =

وَقَيِّدِ الجوارِحَ بإحكامِ العِلْمِ(١)، وراعِ هَمَّكَ بِمَعْرِفَةِ قُرْبِ الله

= لما كان قد عَرَف مِنْ حاله». انتهى. «وقال الغزالي أيضاً: واستفتاءُ القلب إنما هو حيث أباح المفتي، أمَّا حيث حرَّم فيجبُ الامتناعُ. ثم لا نعوِّل على كلِّ قلب، فرُبَّ قَلْبٍ مُوَسْوِسٍ ينفي كلَّ شيء، ورُبَّ ــ قلبٍ ــ مُتَساهِلٍ يطيرُ إلى كلِّ شيء، فلا اعتبارَ بهذين القلْبَين. وإنما الاعتبارُ بقلْبِ العالِمِ الموفَّقِ لدقائق الأحوال، فهو المحكُّ الذي يُمتحنُ به حقائقُ الأمور، وما أعزَّ هذا القلبَ؟» انتهى من «إرشاد الفحول» للشوكاني ص ٢٣٣.

قال العلامة المُناوي في «فيض القدير» ١: ٤٩٥: «قال بعضُ العلماء: وبفَرْضِ عموم الخطاب في هذا الحديث فالكلامُ فيمن شَرَح الله صدرَه بنور اليقين، فأفتاه غيرُه بمجرَّد حَدْسٍ أو مَيْل، من غير دليل شرعي، وإلاَّ لَزِمه اتِّباعُه وإن لم يَنْشرِح له صَدْرُه». انتهى».

وقال الحافظ ابنُ رجب في «جامع العلوم والحكم» ص ٢٢١ ــ ٢٢٢: «وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ الله فطرَ عباده على معرفة الحق والسُّكون إليه وقبوله، وركَّز في الطباع محبَّةَ ذلك والنفور عن ضدِّه، ولهذا سمَّى سبحانه ما أمرَ به (معروفاً) وما نَهى عنه (منكراً)، وأخبر أنَّ قلوب المؤمنين تطمئنُّ بذكره. فدلَّ حديثُ وابصة على الرجوع إلى القلب عند الاشتباه، فما سكن إليه القلبُ وانشرح إليه الصدرُ فهو البرُّ والحلال، وما كان خلافَ ذلك فهو الإثمُ والحرام».

وقال العلامة ابنُ حجر الهَيْتمي المكي في «الفتح المبين بشرح الأربعين» ص ١٩٢: «وفي جوابه صلَّى الله عليه وسلَّم لوابصة بهذا: إشارةٌ إلى متانة فهمه، وقوَّة ذكائه، وتنوير قلبه، لأنه صلَّى الله عليه وسلَّم أحاله على الإدراك القلبي، وعلمَ أنه يُدرِكُ ذلك مِن نفسه، إذ لا يُدرِكُ ذلك إلاَّ من هو كذلك. وأمَّا الغليظُ الطبع، الضعيفُ الإدراك فلا يُجابُ بذلك، لأنه لا يتحصَّلُ منه على شيء، وإنما يُفصَّل له ما يحتاج إليه من الأوامر والنواهي الشرعية. وهذا مِن جَميلِ عاداته صلَّى الله عليه وسلَّم مع أصحابه، فإنه صلَّى الله عليه وسلَّم كان يخاطبهم على قَدْرِ عقولهم، ومن ثَمَّ قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: أمرنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن نُنْزِلَ الناسَ مَنازلَهم».

من تعبَّد بغير علم أفسد أكثر مما يصلح:

(١) أي لا تُحرِّكْ جارحةً من جوارحك إلاَّ أن يكون لديك علم ــ من الشارع الحكيم ــ بجواز ما تفعله وصحته، وإلاَّ كان تصرُّفك عليك لا لك، قال =

مِنكَ، وَقُمْ بينَ يَديهِ مَقامَ العَبدِ المستَجِير: تجِدْهُ رَؤُوفاً رَحِيماً[1].

= سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: من تعبَّد بغير علم، وفي رواية: من عَمِلَ على غير علم، كان ما يُفسدُ أكثرَ مما يُصلح. رواه الدارمي في «سننه» ١: ٧٧، والإمام أحمد في «الزهد» ص ٣٠١، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» ١: ١٩، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ١: ٢٧، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» ١: ٣٤٩.

حكايةُ المُكاري المستغيثِ بالله ونجاتُه من القتل:

(١) وما أسرع إجابته وما أشدَّ عونه لمن وقف بين يديه مستجيراً به، ليس في قلبه إلَّا الله تعالى.

نقل الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٣: ٣٧١ عند قوله تعالى في سورة النمل ﴿أمَّنْ يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ ويكشفُ السُّوءَ؟﴾ نقل عن الحافظ ابن عساكر الدمشقي قال: «كان رجل مُكارياً على بغل له ـ أي يُركِبُ الناس على بغل له للسفر بالأجرة ـ، يُكارِي به من دمشق إلى الزَّبداني، فركب معه ذات يوم رجل، قال: فمررنا على بعض الطريق عن طريق غير مسلوكة.

فقال لي الرجل: خذ في هذه الطريق فإنها أقرب، فقلت له: لا خِبْرة لي بها، فقال: بل هي أقرب مسلكاً، فانتهينا إلى مكانٍ وعْرٍ ووادٍ عميق فيه قتلى كثيرون، فقال لي الرجل: أمسكْ رأس البغل حتى أنزل، فنزل وتشمَّر وجمع عليه ثيابه، وسلَّ سكِّيناً معه، وقصدني من بين يديه ـ فهربتُ ـ وتبعني! فناشدته الله وقلتُ له: خُذ البغلَ بما عليه، فقال: هو لي، وإنما أُريدُ قتلك، فخوَّفته بالله تعالى والعقوبةِ منه، فلم يَقبل!

فاستَسلمتُ بين يديه، وقلت له: إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين، فقال: لك ذلك وعجِّلْ. فقمتُ أصلّي، فأُرْتِجَ عليَّ ـ أي ذهب عني كلُّ ما أحفظه من القرآن ـ، فلم يَحضُرني منه حرف واحد، فبقيتُ واقفاً متحيِّراً وهو يقول لي: هيّا افرُغْ، فأجرى الله على لساني قوله تعالى ﴿أمَّنْ يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاه ويكشِفُ السُّوءَ﴾؟ فإذا أنا بفارسٍ قد أقبل من فم الوادي، وبيده حَرْبةٌ فرمى بها الرجل فما أخطأتْ فؤادَه، فخَرَّ صريعاً.

فتعلَّقتُ بالفارس، وقلتُ له: بالله من أنت؟ فقال: أنا عبدُ ﴿من يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاه ويكشِفُ السُّوء﴾. قال: فأخذتُ البغل والحِمْلَ ورجعتُ سالماً». انتهى. فسبحان من يُجيرُ ولا يُجارُ عليه.

قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْزِلُ العَبْدَ مِنْ نفسِهِ بِقَدْرِ مَنْزِلَتِهِ مِنْهُ»[1].

وذلكَ عَلَى قدرِ الخشيةِ لله، والعلمِ به، والمعرفةِ لَهُ.

واعلم أَنَّ مَنْ اثرَ اللَّهَ آثره[2]، ومن أطاعه أحبَّه، ومَنْ تَرَكَ له شيئاً لم يُعَذِّبْهُ به، كما قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ». فإنك لن تَجِدَ فَقْدَ شيءٍ تركتَهُ لله[3].

---

(١) هو جزء من حديث ورد في فضل ذكر الله عز وجل بنحو هذا اللفظ، وأوَّله عن جابر مرفوعاً: «يا أيها الناس إنَّ لله سرايا من الملائكة تحلُّ وتقفُ على مجالس الذكر في الأرض ... إن الله يُنزِلُ العبد منه حيث أنزلهُ من نفسه». قال الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» ٣: ٦٥ و ٥: ٥٣٤: «رواه ابنُ أبي الدنيا وأبو يعلى والبزار والطبراني والبيهقي والحاكم وقال: صحيحُ الإسناد. وفي أسانيدهم كلِّها عُمرُ مولى غُفرة، ضعَّفه ابنُ معين والنَّسائي، وقال أحمد: ليس به بأس، لكن أكثر حديثه مراسيل، وقال ابن سعد: ثقة كثير الحديث. وبقيةُ أسانيدهم ثقات مشهورون محتجٌّ بهم، والحديثُ حَسَن، والله أعلم». انتهى.

قلت: قال الحافظ الذهبي في «تلخيص المستدرك» ١: ٤٩٥ بعد رواية الحاكم له وقوله: صحيح الإسناد: «قلتُ: عُمر ضعيف».

وقال الذهبي أيضاً في «الميزان» ٢: ٢٦٤، في ترجمة (عمر) بعد أن ساق ما نقله المنذري فيه: «وقال ابنُ حبّان: كان ممن يقلبُ الأخبار، يروي عن الثقات ما لا يُشبه حديث الأثبات، لا يجوز الاحتجاجُ به، ولا ذكرُهُ في الكتب إلَّا على جهة الاعتبار». ثم ساق الحديث المذكور مساق الشاهد لقول ابن حبّان فيه.

وقال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: «عُمر بن عبد الله المدني مولى غُفْرة: ضعيف، وكان كثير الإرسال». انتهى. فالحديثُ ضعيف، وتحسينُ الشيخ المنذري له غيرُ حَسَن، والله أعلم.

(٢) أي من قدَّم طاعة الله على حظِّ نفسه اختصَّه الله بالقُرْب منه والرضا عنه.

(٣) رواه بهذا اللفظ كلِّه من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً =

. . . .

= أبو نعيم في «الحلية» ٦: ٣٥٢، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» ٢: ٣٨٧، والحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ» ٣: ٨١٤ في ترجمة (ابن معدان): محمد بن أحمد بن راشد بن معدان. ولكن في سنده مطاعن كما أشار إلى ذلك كلٌّ من أبي نعيم والخطيب والذهبي، ومرجع المطاعن فيه أنَّ في سنده عندهم (عبدَ الله بنَ أبي رُوْمان الإسكندراني)، ضعَّفوه. وإلى أنَّ لفظ زيادةِ (فإنك لن تجد فقد شيء تركته لله). فهي زيادة غير ثابتة، فلذا جعلتُها خارجَ الهلالين للحديث

إذ قد جاء بلفظ «دع ما يريبك إلى ما لا يَريبك». دون تلك الزيادة من حديث أنس عند الإمام أحمد في «مسنده»، ومن حديث الحسن بن علي عند النسائي، ومن حديث وابصة بن معبد عند الطبراني، كما في «الجامع الصغير» للسيوطي. وقال شارحه العلامة المناوي في «التيسير بشرح الجامع الصغير» ٢: ٧ «وإسناده حسن، وله شواهد ترقيه إلى الصحة».

وروى الإمام أحمد في «مسنده» والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم في «المستدرك» ٢: ١٣ وأبو نعيم في «الحلية» ٨: ٢٦٤ «عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: دعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الحق طُمأنينة، وإن الشرَّ رِيبة». قال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وأقره الذهبي فقال: «حديث صحيح».

وجملةُ (فإنك لن تجد فقد شيء تركتَه لله) جاءت من كلام القاضي شريح، كما في ترجمته عند ابن سعد في «الطبقات الكبرى» ٦: ١٣٦ و«المصنَّف» لعبد الرزاق: ١١: ١٥٧ و٣٠٨. والله أعلم.

معالجة الورع صعوبةً ويُسراً:

هذا، ومما يناسب المقام، أنَّ حسان بن أبي سنان البصري، أحَد العُبَّاد في زمن التابعين وتلميذ الحسن البصري رحمه الله تعالى، قال: ما رأيتُ شيئاً أهون من الورع، دعْ ما يريبُك إلى ما لا يريبُك. علَّقه البخاري في «صحيحه» ٤: ٢٥٠، في أول كتاب البيوع، في (باب تفسير المشبَّهات).

قال شارحه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ٤: ٢٥٠ و«تهذيب التهذيب» ٣: ٢٥٣ «روى أبو نعيم في «الحلية» من طريق زهير بن نُعيم البابي السَّلولي البصري، أحدِ الزُّهَّادِ العُبَّاد المتقشفين أنه اجتمع يونسُ بنُ عُبيد ــ العَبْديُّ البصريُّ وتلميذُ الحسن البصري، المتوفى سنة ١٣٩ ــ وحسانُ بن أبي سنان، فقال =

واحْمِ القَلْبَ عن سُوءِ الظنِّ بحُسْنِ التأْويل، وادفعِ الحَسدَ بقِصَرِ الأَمَل، وانْفِ الكِبْرَ بسُلْطانِ اللّهِ تعالى(١)، واتْرُكْ كلَّ فعلٍ يَضطرُّك إلى الاعتذار(٢)، وجانِبْ كلَّ حالٍ يَرمِيك في التكلُّف، وصُنْ دِينك بالاقتداء، واحفظْ أمانَتك بطَلَب العِلْم، وحَصِّنْ عقلَك بآدابِ أهلِ الحِلْم، وأعِدَّ الصَّبْرَ لكلِّ موطن، والزمْ الخَلْوَةَ بالذِّكْرِ(٣)، واصحَبِ النِّعَم بالشُّكْر(٤).

= يونس: ما عالجتُ شيئاً أشدَّ عليَّ من الورع، فقال حسان: لكني ما عالجتُ شيئاً أهون عليَّ من الورع، قال: كيف؟ قال حسان: تركتُ ما يريبُني إلى ما لا يريبُني فاسترحت.

قال بعضُ العلماء: تكلَّم حسان على قدر مقامه. والتركُ الذي أشار إليه أشدُّ على كثير من الناس، من تحمُّل كثيرٍ من المَشاقّ البدنية، انتهى. قال عبد الفتاح: فهنيئاً لمن علتْ همَّتُه إلى مقامِ حسَّان بن أبي سنان، فاستراح في الدنيا والآخرة.

(١) أي ادفعْ التكبُّر من نفسك باستشعارِ سُلطان الله تعالى عليك.

(٢) قال سيدنا علي رضي الله عنه: إياك وما يسبقُ إلى العقول إنكارُه، وإن كان عندك اعتذارُه، فليس كلُّ سامعٍ نُكراً، يُطيقُ أن تُسمعهُ عُذراً، من «مراقي الفلاح» للشُّرُنْبلالي من (فصْلُ ما يكره للصائم وما لا يكره) ص ٦٦٢، و«فيض الباري» للكشميري ١: ١٥٣.

(٣) أي اذْكُر الله تعالى خالياً منفرداً، فإنَّ ذلك أبعد عن الرياء، وأرجى للقبول من الله تعالى، ففي حديث السبعة الذين يُظِلُّهم الله تحت ظل عرشه يوم القيامة: «ورجلٌ ذكرَ اللَّهَ خالياً...».

كثرةُ الشكر والحمد على ألسنة السلف:

(٤) الشكر هو الثناءُ على المنعِم المتفضِّل بالعطية والمِنحةِ ابتداءً. وعرَّف بعضُهم الشكر بأثره فقال: الشكرُ قَيْدٌ للموجود، وصيْدٌ للمفقود. أخذاً من قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُم لأَزِيدَنَّكُم﴾.

وقد كان (الشكرُ للّهِ) و(الحمدُ له) سبحانه على ألسنةِ الصحابة والتابعين والسَّلَف الصالحين دائماً لا ينفك، عند كل لُقيٍّ واجتماع، وفي السرَّاء والضرَّاء، وذلك لاستنارة قلوبهم بشُهودِها نِعَمَ الله تعالى عليهم متواليةً تَتْرى، فكانت ألسنتهم دائماً تَلهَجُ بالحمد والثناء على المنعِمِ المحمودِ جلَّ جلالُه، بل كان بعضُهم يَتقصَّدُ =

. . . .

= لِقاء أخيه، ويسألُه عن حاله مع قُرب العهد بينهما، وما مقصودُه من سؤاله أو السلام عليه إلاّ أن يَسمَع منه حمْدَ اللّهِ تعالى والثناء عليه سبحانه.

سؤالهم الرجلَ عن حاله ليحمد الله

وقد جاء هذا القصْدُ في عمل النبي صلّى الله عليه وسلّم وسيرته الشريفة، روى الطبراني بإسناد حسن، عن عبد الله بن عمْرو رضي الله عنه، قال: «قال النبي صلّى الله عليه وسلّم لرجل: كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أحمَدُ الله إليك يا رسول الله، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: هذا الذي أردتُ منك». من «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٠: ١٤٠، و٨: ٤٦.

ومعنى (أحمَدُ اللّه إليك): أحمَدُ اللّه معك، أو أشكر معك أياديَهُ ونعمهُ. ففقط (إلى) بمعنى (مع): هكذا فسّره الخليلُ بنُ أحمد الفراهيدي رحمه الله تعالى في كتاب «العَيْن» ٣: ١٨٩.

وروى الإمام عبد الله بن المبارك في «كتاب الزهد والرقائق» ص ٦٨ ــ ٦٩ «عن علقمة بن مرثد، عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنه، قال: إنْ كنا لعلَّنا أن نلتقي في اليوم مرارًا، يسأل بعضُ بعضًا ــ عن حاله ــ، وإنْ نريدُ بذلك ــ أي ما نُريدُ بذلك ــ إلاّ الحمدَ للّهِ عزَّ وجلّ.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعتُ عمر بن الخطاب سلَّم عليه رجل، فردّ عليه السلام، وقال للرجل: كيف أنت؟ قال الرجل: أحمَدُ الله إليك، قال عمر: هذه أردتُ منك.

وعن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جُبير، قال: إنّ أوَّل من يُدْعى إلى الجنة: الذين يحمدُون الله على كل حال، أو قال: في السَّراء والضرَّاء» انتهى.

فالحمدُ لله دائمًا وأبدًا وعلى كل حال.

وجاء عن إسحاق بن عبد الله، قال: قال عمر لرجل: كيف أصبحتَ يا فلان؟ قال: أحمَدُ اللّه إليك، قال عمر: لذلك سألتُك. رواه أبو نعيم في «الحلية» ٧: ٢٣٠.

خروج ابن عمر للسوق ليسأل عن حاله فيحمد الله

وروى ابن سعد في «الطبقات الكبرى» ٤: ١٥٥ و١٥٢ «عن سعيد المقبريّ قال، قال ابنُ عمر: إني لأخرُجُ إلى السوق، مالي حاجةٌ إلاّ أن أُسلِّم ويُسلَّم عليَّ. قال بُشير بن يسار: ما كان أحدٌ يبدأُ أو يبدُرُ ــ أي يَسْبِقُ ــ ابن عُمر بالسلام»

واستَعِنْ باللّهِ في كلِّ أمْرٍ، واسْتَخِرِ اللّهَ في كلِّ حال، وما أرادَكَ اللّهُ لَهُ فاترُكِ الاعتراضَ فيه، وكلُّ عَمَلٍ تُحِبُّ أنْ تَلْقَى اللّهَ به فألْزِمْهُ نَفْسَكَ، وكلُّ أمْرٍ تكْرهه من غيرِكَ فاعْتَزِلْهُ مِنْ أخْلاقِكَ. وكلُّ صاحبٍ لا تَزْدادُ به خيراً في كُلِّ يَوْمٍ فانْبِذْ عنكَ صُحْبَتَهُ. وخُذْ بِحَظِّكَ مِنَ العَفْوِ والتَّجاوُزِ[1]

آثارُ الخصومة في القلب ومزايا تركها.

(١) يشير المؤلف إلى أنك إذا وقعت في خصومة مع إنسان، فالعفو والتجاوز خيرٌ لك مردّاً من الاستمرار والتَّلدد في الخصومة. وقد صدق رحمه الله تعالى، فإن الخصومة تَمحقُ الدين، وتشغلُ العقل، وتفتن طُمأنينة القلب والخاطر، وتُقضُّ المضاجع، وتجعل سُويداء الإنسان حجيماً دائم الاستعار ولاتّقاد. فالعفو والتجاوز ـ وإن صاحبه هضم وغبن ـ أعظمُ حظاً، إذ يقضي على هذه الآثار كلِّها، ويُعوِّض بدلاً منها الراحة والسكينة والفضل والإحسان.

قصة سلم بن قُتيبة في تركه الخصومة والمقاضاة

وقد وقعتْ لأحد أتباع التابعين العُبّاد: سَلْم بن قُتيبة الباهلي البصري خصومةٌ بينه وبين ابن عم له، فلجَّ سَلْمٌ فيها حتى انتهتْ به إلى مجلس القضاء، ثم عدل عنها إكراماً لنفسه فكان من الغانمين.

قال سَلْمُ بنُ قُتيبة: مرَّ بي بشيرُ بن عُبَيْد الله بن أبي بكرة ـ يعني: وهو في مجلس القضاء ينتظرُ المحاكمة بينه وبين خصمه ـ، فقال: ما يُجلِسُك ها هنا؟ قلتُ: خُصُومةٌ بيني وبين ابن عم لي، ادَّعى أشياء في داري، فقال: إنَّ لأبيك عندي يداً، وإني أريد أن أجزيك بها، والله ما رأيتُ شيئاً أذهبَ للدين، ولا أنقص للمروءة، ولا أضيع للذة، ولا أشغل للقلب من الخصومة.

قال سَلْمُ بنُ قتيبة: فقمتُ لأنصرف، فقال لي خَصْمي: ما لك؟ قلت: لا أُخاصمُك، قال: إنك عرفت أن الحق لي؟ قلتُ: لا، ولكن أُكرِمُ نفسي عن هذا، وتركتُ الخصومة. حكاها الإمام الغزالي في «الإحياء» ٨: ٩، في كتاب آفات اللسان في ذكر (الآفة الخامسة: الخصومة)، وابن أبي الدنيا في «كتاب الصمت» ص ٩٨.

قلتُ: والإنسانُ إذا ناله الأذى من الناس، وصبر عليه وسامح فيه، ولم يفكر بالانتقام والمقابلة من مؤذيه، كان عاقبةُ أمره أفضل من عاقبة المنتقم لنفسه، المقابِلِ للسيئة بنظائرها. وذلك أنه إذا تسامَحَ وحَلُم، وتنازلَ وكَرُم، يشهدُ في نفسه ومشاعرِهِ ـ

. . . .

— مشهد السلامة وبَرْد القلب، كما يشهدُ مشهد الأمن وهدوء البال، بل بعضُ المعتدين الظالمين الحاقدين تَرْكُ المقابلةِ والردِّ عليه أقتَلُ له من الرد.

حسن العاقبة لمن ترك الخصومة والانتقام

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «مدارج السالكين» ٢: ٣٢٠، وهو يتحدث عن هذين المشهدين. «ومشهدُ السلامةِ وبرْد القلب: مشهدٌ شريف جداً لمن عرفه وذاق حلاوته، وهو أن لا يشتغل قلبُه وسِرُّه بما ناله من الأذى، وبطلب الوصول إلى دَرْك ثأرِه وشفاء نفسه، بل يفرِّغ قلبَه من ذلك، ويرى أن سلامةَ قلبه وبَرْدَه وخُلُوَّه من ذلك أنفعُ له، وألذُّ وأطيب، وأعونُ على مصالحه

وذلك أن القلب إذا اشتغل بشيء من هذا الانتقام، فاتَه ما هو أهمُّ عنده، وخيرٌ له، فيكون بذلك مغبوناً، والرشيدُ لا يرضى بذلك، ويرى أنه من تصرُّفات السفيه! فأين سلامةُ القلبِ من امتلائه بالغلِّ والوساوس، وإعمالِ الفكر في إدراك الانتقام؟

أما مشهدُ الأمن وسكون البال، فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام، أمن ما هو شرٌّ من ذلك. وإذا انتقم واقعهُ الخوفُ ولا بُدّ، فإنّ ذلك يزرعُ العداوة، والعاقلُ لا يأمنُ عدُوَّهُ ولو كان حقيراً، فكم من حقير أردى عدوَّه الكبير؟ فإذا غفر ولم ينتقم ولم يقابل، أمن من تولُّد العداوة أو زيادتها. ولا بُدَّ أنَّ عفوه وحلمه وصفحه يكسرُ عنه شوكة عدوه، ويكفُّ من جزعه، بعكس الانتقام. والواقعُ شاهدٌ بذلك أيضاً».

أبيات لأبي شامة في تفويض الانتقام إلى الله

واسمعْ هذه الأبيات الناصحة ـ واعملْ بها ـ في ترك الخصومات، والتفويض فيها إلى عالم الخليّات والخفيَّات، والوكيلِ الحسيب على كلّ المخلوفات، وهي للإمام الحافظ الفقيه المؤرخ المقرىء اللغوي جامع العلوم أبي شامة المقدسي (عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي)، المتوفى سنة ٦٦٥، وقد جرى عليه اعتداء عظيم، وأذىً شديدٌ على جسمه وبدنه، وقد شارف السبعين من العمر، وكان شيخَ دمشق في عصره، فقيل له: اجتمعْ بولاة الأمر، ليأخذوا لك الحقَّ وينتصروا لك، فقال هذه الأبيات، كما ذكرها في آخر كتابه «ذيل الرَّوْضتينْ» ص ٢٤٠:

قلتُ لمن قال: أما تشتكي ... ما قد جَرَى فهو عظيمٌ جليلْ:
يُقَيِّضُ اللّهُ تعالى لنا ... من يأخُذُ الحقَّ ويَشْفِي الغليلْ
إذا توكَّلْنا عليه كَفَى، ... فحَسْبُنا اللّهُ ونِعمَ الوكيلْ

واعْلَمْ أَنَّ المؤمِنَ مُخْتَبَرٌ صِدْقُهُ في كُلِّ حَال، مُطَّلِبٌ نفسُهُ بالْبَلْوَى[١]، رقيبٌ للّهِ عَلَى نَفْسِهِ. فاثْبُتْ عَلَى مَحَجَّةِ الحقّ، تأتِك مَوَدَّةُ الخَلْق[٢].

---

(١) هكذا جاء مشكولاً في الأصل وفي (ب)، ومعناه ـ على ما يظهر ـ أنَّ المُؤمِن تُقصدُ نفسُه بالابتلاء والاختبار. وجاء في النسخة المغربية: (يَطْلبُ نفسه بالبلوى)، وفي نسخة أ (يطالبُ نفسه بالبلوى)، وفي نسخة ح (فعليه أن يطالب نفسَه بالبلوى). أي يُطالبُ نفسه بالصبر على البلوى، والله أعلم.

(٢) هكذا جاء في النسخ غير الأصلين، وجاء في الأصلين: (واثبت على محجة الحق، فإنك مراد العون)

ثبوت الإمام أحمد على المحنة وما ناله من التعذيب

وقد ثبت الإمامُ أحمدُ بن حنبل على الحقّ، ثبوتاً جاء له بمودّةِ الخَلْق وبعون الحقّ تبارك وتعالى، فإنه لما أُخذَ رضي الله عنه، بمحنة مسألة (خلق القرآن)، وحُبس، وقُيِّد بالحديد في رجليه لم يُبال بالحبس، ولا أن يُقتَل بالسيف، ولكن خاف أن يضعُف جسمُه عن تحمُّل العذاب من ضرب السياط، فيضعُف صبرُه على الحق! فجاءته كلماتُ التأييد والتثبيت على الحق، والتصبيرِ على البلاء والعذاب في سبيل الله، ممّن لا يُظَنُّ أن يأتي منهم شيء.

جاءته من اللُّصوص والشُّطّار وبعضِ أهل البادية، فقويتْ نفسُه للصبر على العذاب، وكانت سنُّهُ حينذاك ٥٧ سنة، فهو قد ولج في سنّ الشيخوخة ولحق به ضعفُها وعوارضُها، فجُلد، وخُلِعَتْ كتفاه، وضُرب بالسياط ضرباً شديداً حتى غُشِيَ عليه، فصبر وانتصر الحقُّ وأحمدُ بن حنبل، وبطل ما كانوا يعملون، وقَرَّتْ عيونُ المسلمين أهل السُّنّة بصبره وشجاعته، وارتبطتْ قلوبُهم بحُبِّه ومودَّته، إلى قيام الساعة.

جاء في «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي ص ٣١٦ و٣٣٢ و٣٣٥ و«طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى ١: ٤٣، في ترجمة (أحمد بن داود أبي سعيد الحداد الواسطي) و٢ ٥ و٢٧٩ و«البداية والنهاية» لابن كثير ١٠: ٢٣٤ و«المنهج الأحمد» للعُليمي ١. ٣٤. ما خلاصته. «لما أُخِذ أحمد من بغداد، وسافروا به إلى الرَّقّة حيث كان المأمون، فحُبسَ بها، دخلَ عليه بعضُ العلماء يذاكرونه فيما يُروَى من الأحاديث في العمل بالتقيَّة، فأبى أحمد أن يَسلك التَّقِيَّة قائلاً لهم: كيف =

= تصبرون بحديث خبّاب «إنَّ من كان قبلكم كان يُنشرُ أحدُهم بالمنشار، ثم لا يصُدُّه ذلك عن دينه». فيئسوا منه أن يَعمل بالتقية.

وقال في الحبس وهو مهدَّد بالضرب والقتل: إذا سكت الجاهلُ بجهله وأجاب العالِمُ تقيَّةً، فمتى تقومُ لله حُجَّةٌ؟! وقال أبو سعيد الحداد الواسطي (أحمدُ بن داود): دخلتُ على أحمد الحبسَ قبل الضرب، فقلتُ له في بعض كلامي: يا أبا عبد الله، عليك عيال، ولك صبيان، وأنت معذور، كأني أُسهِّلُ عليه الإجابة، فقال لي أحمد: إن كان هذا عقلَك يا أبا سعيد فقد استرحتَ!.

فقال لهم: لستُ أبالي بالحبس، ما هو ومنزلي إلَّا واحد، ولا قتلاً بالسيف، إنما أخاف فتنةَ بالسوط، وأخاف أن لا أصبر! فسمعه بعضُ أهل الحبس فقال له: لا عليك يا أبا عبد الله، فما هو إلَّا سوطان ثم لا تدري أين يقع الباقي! فكأنه سُرِّي عنه.

تثبيت الإمام أحمد على التعذيب من أبي الهيثم اللصّ الطرّار:

قال أحمد ــ رضي الله عنه ــ: ما سمعتُ كلمةً منذ وقعتُ في هذا الأمر الذي وقعتُ فيه، أقوى من كلمة أعرابي كلَّمني في رحبة طَوْق ــ اسم مكان ــ، قال لي: يا أحمد إن يقتُلْك الحقُّ متَّ شهيداً، وإن عشتَ عشتَ حميداً. فقوّى قلبي.

قال ابنه عبد الله: كنتُ كثيراً أسمعُ والدي ــ أحمد بن حنبل ــ يقول: رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم.

فقلت له: يا أبتِ من أبو الهيثم؟ قال: ألا تعرفه؟ قلت: لا، قال: أبو الهيثم الحدّاد، اليوم الذي أُخرجتُ فيه للسِّياط، ومُدَّتْ يداي للعُقابَين ــ هما خشبتان يُشبَحُ الرجل بينهما أي يُمَدُّ بينهما ليُجلد ــ[1]، إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي =

---

(١) العُقابان بضم العين المهملة وفتح القاف دون تشديد، كما يفيده صنيعُ إطلاق المعروف له من الضبط، كالمُطرِّزي في كتاب «المُغرب» ص ٣٢٢ في (عقب)، وابن منظور في «لسان العرب» ٢: ١١٢ في (عقب)، والمُحِبِّي في «جنى الجنتين في تمييز نوعَي المثنَّيين» ص ٨٠، والزَّبيديِّ في «تاج العروس» ١: ٣٩٣ في (عقب).

ووقع مني هنا في الطبعة الثانية وما بعدها لهذا الكتاب ضبطُهُ شكلاً بتشديد القاف (العُقَّابان)، ولا أتذكر الآن المصدر الذي اعتمدتُه في هذا الضبط، ولم أجده الآن في الكتب التي عندي، فلذا عَدَلتُ عنه هنا وضبطتُه بتخفيف القاف. =

. . . .

ـ ويقول: تعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا أبو الهيثم العيّار ـ أي النشيطُ في المعاصي ـ، اللّصُّ الطَّرّار ـ أي النَّشّالُ من الجيوب ـ، مكتوبٌ في ديوان أمير المؤمنين أني ضُرِبتُ ثمانيةَ عشر ألف سوط بالتفاريق، وصبرتُ في ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعةِ الرحمن لأجل الدين.

قال أحمد: فأُمِرَ بي فأُقِمتُ بين العُقابين، وجيء بكرسي فأُقمتُ عليه، وأمرني بعضُ من حضر خلفي فقال: خُذْ بأيّ الخشبتين ـ يعني أمسكْهما من أعلاهما ـ فلم أفهم فتخلّعتْ يداي، وجيء بالضرّابين ومعهم السِّياط، فجعل أحدُهم يضربني سوطين ويقول له المعتصم: شُدَّ قطع الله يديك! ويجيء الآخر فيضربني سوطين، ثم الآخر كذلك، فضربوني أسواطاً فأُغمي عليَّ وذهب عقلي مراراً، فإذا سكن الضربُ يعودُ عليَّ عقلي.

وقام المعتصم إليَّ يدعوني إلى قولهم ـ أي إلى قول المعتزلة الذي تبنّاه المعتصمُ بعد المأمون ـ فلم أجبه، وجعلوا يقولون: ويحك! الخليفةُ على رأسك، فلم أقبل، وأعادوا الضرب ثم عاد المعتصمُ إليَّ فلم أُجبه، فأعادوا الضرب، ثم جاء إليَّ الثالثة، فدعاني فلم أعقل ما قال من شدة الضرب، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلي فلم أُحسَّ بالضرب، وأرعبهُ ذلك من أمري، فأُطلِقتُ ولم أشعر إلّا وأنا في حجرة من بيت، وقد أُطلقتُ الأقيادُ من رجليَّ، وكان ذلك في اليوم ٢٥ من رمضان من سنة ٢٢١

فقال رجل ممن حضر: إنّا كببْناك على وجهك، وطرحنا على ظهرك باريةً ـ أي حصيرةً ـ ودُسْناك، قال: فما شعرتُ بشيء من ذلك، فأتوني بسويق لأفطر من الضعف، فامتنعتُ من ذلك وأتممتُ صومي. وحين حضرتْ صلاةُ الظهر تقدَّم القاضي ابنُ سماعه فصلّى، فلما انفتل من الصلاة قال لي: صلّيتَ والدمُ يسيل في =

. . . .

ـ وقد وقع تحريفٌ غريبٌ في تفسير (العُقابين) في «لسان العرب» من طبعة بولاق ٢: ١١٢، ثم في طبعة بيروت ١: ٦٢١، فجاء فيهما هكذا: «والعُقابان: خشبتان يشبحُ الرجلُ بينهما للجلد» انتهى. وهو تحريف مصقول يُغيِّرُ مقوله! وصوابه: «يُشبَحُ بينهما الرجلُ ليُجلد» بالبناء للمجهول في (يُشبح) و(ليُجلد)، وبرفع (الرجل) نائب فاعل. فاعرفه.

واصْدُقْ في الطَّلَب تَرِثْ عِلْمَ البصائر، وتَبْدُ لَكَ عيونُ المعارف، وتَمَيَّزْ بنفسِكَ عِلْمَ ما يَرِدُ عليكَ بِخَالصِ التوفيق، فإنما السَّبْقُ لمَنْ عَمِلَ، والخشيةُ لمَنْ عَلِمَ، والتوكلُ لمَنْ وَثِقَ، والخوفُ لمَنْ أيقَنَ، والمَزِيدُ لمَنْ شَكَرَ.

= ثوبك؟! فقلت: قد صلَّى عمر رضي الله عنه وجُرحُه يَثْعَبُ دماً ـ أي يسيل دماً ـ فسكَت.

ولما رجع أحمد إلى منزله جاءه الجرائحيُّ، فقَطَع لحماً ميتاً من جسده وجعل يداويه حتى عُوفي، وبقي مدةً إبهاماهُ يؤذيهما البَرْد ولما شفاه الله بالعافية فرح المعتصم والمسلمون بذلك، وذلك أن المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندماً كثيراً. وجعل أحمدُ كلَّ من آذاه في حلّ إلاَّ أهلَ البدعة، وكان يتلو في ذلك قولَه تعالى: ﴿وليَعْفوا وليَصْفَحُوا ألا تُحِبُّون أن يَغفرَ اللهُ لكم واللهُ غفورٌ رحيم﴾ ويقول: ماذا ينفعُك أن يُعذَّبَ أخوكَ المسلمُ بسببِك[1]؟

قال أحمد: فضُرِبتُ ثمانيةَ عشر سوطاً، بدل ما ضُرِب ثمانية عشر ألفاً، وخرج الخادمُ فقال: عفا عنه أميرُ المؤمنين.

قال أبو الحسين ابنُ المُنادي. حدَّثنا جدي، قال: ضُرِب أبو عبد الله في دار المعتصم مُعلَّقاً، بينه وبين الأرض مقدارُ قُبْضَة، وإنما قُطِعَ الضربُ عنه لأنه غُشي عليه، فذهب عقلُه، واصفرَّ واسترخى، ففزع لذلك المعتصمُ، وقال: حُلُّوا القيودَ عنه، واحملوه إلى منزله ـ أي الدار التي كان محبوساً فيها ـ.

قال بعضُ الجلاَّدين: لقد أبطل أحمد بن حنبل الشُّطَّار، والله لقد ضربتُه ضرباً لو أُبركَ لي بعيرٌ فضربتُه ذلك الضرب، لنَقبْتُ عن جوفه! وقال بعضُ الجلاَّدين الذين تعاقبوا عليه في تلك السياط الثمانيةَ عشر: لو ضربتُ تلك السياط فيلاً هدَّتْه!، انتهى. قلتُ: فسبحان الله ما أسرع عونه لعباده الصادقين.

---

(١) والإمام أحمد في هذا القول ينظر إلى قول شيخه الإمام الشافعي رضي الله عنهما:

من نال مني أو عَلِقتُ بذمته ... ساعحتُه لله راجيَ منّته
كي لا أُعوِّقَ مُسْلماً يوم الجـ ... ـزاءِ ولا أَسُوءَ محمداً في أُمّته

واعْلَمْ أَنَّ ما يَصِلُ العبدُ إليه منَ الفهمِ: بقَدْرِ تقويم عَقْلِهِ[1]، وموجودِ عِلْمِهِ. فتقواهُ للَّهِ وطاعَتُهُ. فَمَنْ وَهَبَ اللَّهُ لَهُ العَقْلَ، وأَحْيَاهُ بالعِلْم بعدَ الإيمانِ، وبَصَّرَهُ باليقينِ، وعرَّفه عيوبَ نفسِه: فقدْ نُظِمَتْ لَهُ خِصَالُ البِرِّ. فاطْلُبِ البِرَّ في التقوى، وخُذِ العِلْمَ من أهل الخَشْيَةِ[2]،

---

(١) أي استقامة عقله وصحة إدراكه، وجاء في نسخة أ: (بقدر تقديم عقله)، أي بقدر ما يؤثِرُ عقلَهُ على هواه وحظوظِ نفسِه.

آثارُ التقوى وبشائرها وهي ٢٧

(٢) أشار المؤلف رحمه الله تعالى بقوله: (فاطلب البرَّ في التقوى...) إلى أثر عظيم من آثار التقوى وهو البرّ، وهي كلمة شاملة لأنواع الخير. وقد عدَّد العلامة الفيروزابادي في كتابه «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» ٢: ٣٠١ ـ ٣٠٣ آثار التقوى وبشائرَها التي جاءت في القرآن الكريم، فبلغتْ سبعاً وعشرين بشارة، وإليك بيانها كما أوردها، قال رحمه الله تعالى:

«وأما البشاراتُ التي بشَّر الله تعالى بها المتقين في القرآن فسبعٌ وعشرون بشارة:

الأولى: البُشرى بالكرامات ﴿الذين آمنوا وكانوا يتَّقون لهم البُشرى﴾.

الثانية: البُشرى بالعون والنُّصرة ﴿إنَّ الله مع الذين اتَّقَوْا﴾.

الثالثة: البُشرى بالعلم والحكمة ﴿إنْ تَتَّقُوا اللَّه يجعلْ لكم فُرقاناً﴾.

الرابعة: البُشرى بكفَّارةِ الذنوب وتعظيمِ المتقي بتعظيم أجره ﴿ومن يتَّقِ اللَّه يُكَفِّرْ عنه سيئاتِه ويُعظِمْ له أجراً﴾.

الخامسة: (سقطت هذه البشارة من المطبوعة فتنظر في مخطوطة من الكتاب).

السادسة: البُشرى بالمغفرة ﴿واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّه غفورٌ رحيم﴾.

السابعة: اليُسرُ والسهولةُ في الأمر ﴿ومن يتَّقِ الله يجعلْ له من أمرِه يُسراً﴾.

الثامنة: الخروجُ من الغَمِّ والمِحْنَةِ ﴿ومن يتَّقِ اللَّهِ يجعلْ له مَخْرَجاً﴾.

التاسعة: رزقٌ واسعٌ بأمنٍ وفراغ ﴿ويَرْزُقْه من حيثُ لا يَحْتَسِبُ﴾.

العاشرة: النجاةُ من العذابِ والعقوبة ﴿ثم نُنَجِّي الذين اتَّقَوْا﴾

الحادية عشرة: الفوزُ بالمراد ﴿ويُنَجِّي الله الذين اتَّقَوْا بمَفازَتِهم﴾. ﴿إنَّ للمتَّقين مَفَازاً﴾.

الثانية عشرة: التوفيقُ والعصمة ﴿ولكنَّ البِرَّ من آمَنَ بالله واليوم الآخِرِ﴾ إلى =

واستحْلِب اليقينَ بمَباحثِ الصدق في مواطن التفكُّر. قال اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وكذلك نُرِي إبراهيم ملكوتَ السمواتِ والأرضِ وليكونَ منَ المُوقِنينَ﴾[1].

= قوله: ﴿وأولئك هم المتَّقُون﴾.

الثالثة عشرة: الشهادةُ لهم بالصدق ﴿أولئك الذين صدقُوا وأولئك هم المتَّقون﴾.

الرابعة عشرة: بشارةُ الكرامةِ والأكرميّةِ ﴿إنَّ أكرمَكم عندَ الله أتقاكم﴾.

الخامسة عشرة: بشارةُ المُحِبّ ﴿إنَّ الله يُحِبُّ المتَّقين﴾.

السادسة عشرة: الفلاحُ ﴿واتّقُوا اللّهَ لعلّكم تُفلِحون﴾.

السابعة عشرة: نيلُ الوصلِ والقُربة ﴿ولكنْ ينالُهُ التقوى منكم﴾.

الثامنة عشرة: نيلُ الجزاءِ بالمحبة ﴿إنّه من يتَّقِ ويصبرْ فإنَّ الله لا يُضيعُ أجْرَ المحسنين﴾.

التاسعة عشرة: قبولُ الصَّدَقة ﴿إنما يتقبَّلُ اللّهُ من المتَّقين﴾.

العشرون: الصَّفاءُ والصَّفْوة ﴿فإنَّها من تقوى القُلوب﴾.

الحادية والعشرون: كمالُ العُبوديّة ﴿اتَّقُوا الله حَقَّ تُقاتِه﴾.

الثانية والعشرون: الجنَّات والعُيون ﴿إنَّ المتَّقين في جنّات وعُيُون﴾.

الثالثة والعشرون: الأمْنُ من البليّة ﴿إنَّ المتَّقين في مقامٍ أمين﴾.

الرابعة والعشرون: عزُّ الفوقيَّة على الخلْق ﴿والذين اتَّقوْا فوقهم يومَ القيامة﴾.

الخامسة والعشرون: زوالُ الخوفِ والحُزْن من العقوبة ﴿فمن اتّقى وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنون﴾.

السادسة والعشرون: الأرواحُ الموافقةُ ﴿إنَّ للمتَّقين مفازاً حدائق وأعناباً وكواعبَ أتراباً﴾.

السابعة والعشرون: قُرْبُ الحضرةِ واللقاءِ والرُّؤية ﴿إنَّ المتَّقين في جنّات ونَهَر في مقْعَدِ صِدْقٍ عند مليكٍ مُقْتَدِر﴾، انتهى بتصرف يسير. فما أكثرَ غنائمَ التقوى؟ وما أغنَمَ المتقين؟ فاحرص أن تكون منهم.

(١) من سورة الأنعام: الآية ٦.

وقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «تعلَّموا اليقينَ فإني أتعلَّمُهُ»[١].

واعْلم أنَّ كلَّ عقلٍ لا يصحبُهُ ثلاثة أشياء فهو عقلٌ مكيدٌ[٢]: إيثارُ الطاعةِ على المعصية، وإيثارُ العلمِ على الجهل، وإيثارُ الدِّين على الدُّنيا، وكلُّ علمٍ لا يصحَبُهُ ثلاثةُ أشياء فهو مزيدٌ في الحُجَّة: كفُّ الأذى بقطعِ الرَّغْبة، ووُجُودُ العمل بالخشية، وبذْلُ الإنصاف بالتذلُّل والرَّحْمة.

واعْلمْ أنَّهُ ما تزيَّن أحدٌ بزينةٍ كالعقل[٣]، ولا لبس ثوباً أجْمل من

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٦/ ٩٥ عن ثور بن يزيد مرسلاً، بلفظ «تعلموا اليقين، كما تعلَّموا القرآن، حتى تعرفوه، فإني أتعلَّمُه». وفي سنده بقيةُ بن الوليد الحمصي، وهو معروف بالتدليس، وقد عنعن، وشيخُه العباسُ بن الأحنف السَّكْسكي قال عنه الذهبي في الميزان: إنه مجهول. والحديثُ ضعيفٌ واهٍ، ومعناه غريب، وفيه وقفة نحوية في لفظ «كما تعلَّموا»، حذف النون مع أنه في حالة الرفع.

ثم رأيتُ الحافظ العراقيَّ أورده في «تخريج أحاديث الإحياء» ١/ ١٢٢ وقال: «أخرجه أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسلاً، وهو مُعْضَلٌ، ورواه ابن أبي الدنيا في «اليقين» من قول خالد بن معدان» انتهى. وهو أقرب إلى الصواب. قال الإمام العراقي: ومعنى قوله «تعلَّموا اليقين»: جالسُوا الموقنين، واستمعوا منهم علم اليقين، وواظِبُوا على الاقتداءِ بهم ليقوى يقينُكم كما قوِيَ يقينُهم.

(٢) أي مغلوب بالشهوة. ووقع في الأصول: (فهو عقل مكد) أي بالدال المهملة، ولعله تحريف عن (مكّر) بالراء المهملة، أي عقل مخادع غير مسدَّد يُري لصاحبه الشر خيراً، والخير شراً. وسقط من نسخة أ، وأثبتُّ (مَكِيدٌ) من نسخة ج، ولعله أصح الوجوه.

(٣) قال التابعي الجليل عُرْوة بن الزُّبير رحمه الله تعالى: أفضلُ ما أُعطي العبادُ في الدنيا العقْلُ، وأفضلُ ما أُعطوا في الآخرة رضوانُ الله عزَّ وجلَّ، من كتاب «العقل وفضله» لابن أبي الدنيا ص ١٣.

العِلم (١)، لأنَّهُ ما عُرِفَ اللّهُ إلاَّ بالعَقْلِ، ولا أُطِيعَ إلاَّ بالعلم (٢).

فضلُ العلم وشرفُه:

(١) قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «لو كان للعلم صورةٌ لكانت صورتُهُ أحسَنَ من صورة الشمس والقمر والنجوم والسماء».

وقال مُعاذُ بن جبل رضي الله عنه: «العلمُ حياةُ القلوب من الجهل، ومصباحُ الأبصار من الظلمة، وقوّةُ الأبدان من الضعف، يَبْلُغُ بالعبد منازل الأخيار والأبرار، والدرجات العُلى في الدنيا والآخرة. والتفكُّرُ فيه يَعْدِلُ الصيام، ومذاكرتُه تَعْدِلُ القيام، وبه توصل الأرحام، ويُعرفُ الحلالُ من الحرام. وهو إمامٌ والعملُ تابعُهُ، ويُلهمُهُ السُّعداء، ويُحرمُهُ الأشقياء». نقله الحافظ ابن رجب في «شرح حديث العلم» ص ٣٣ و ٣٥.

وقال العلامة الفيروزابادي في «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» ١: ٤٢: «واعلم أنه تبيَّن في علم الأخلاق أن الفضائل الإنسانية التي هي الأمهات أربع، وهي: العلم، والشجاعة، والعفّة، والعدل. وما عدا هذه فهي فروع عليها أو تضاف إليها.

فالعلمُ فضيلةُ النفس الناطقة. والشجاعةُ فضيلةُ النفس الغضبيّة. والعفّةُ فضيلةُ النفس الشهوانية. والعدلُ فضيلةٌ عامّةٌ في الجميع.

ولا شكَّ أن النفس الناطقة أشرَفُ هذه النفوس، ففضيلتها أشرف هذه الفضائل أيضاً، لأن تلك لا توجد كاملة إلاَّ بالعلم. والعلمُ يتمُّ ويوجد كاملاً بدونها، فهو مستغنٍ عنها، وهي مفتقرة إليه، فيكون العلمُ أشرفَ».

وقال نصير الدين الطوسي في أوّل رسالته «آداب المتعلمين»: «شرفُ العلم لا يخفى على أحد، إذ العلمُ هو المختصُّ بالإنسانية، لأن جميع الخصال سوى العلم يشتركُ فيه الإنسانُ وسائرُ الحيوانات كالشجاعة والقوة والشفقة وغيرها. وبه أظهر الله تعالى فضل آدم عليه السلام على الملائكة وأمرهُم بالسجود له. وأيضاً هو الوسيلة للوصول إلى السعادة الأبدية إن وقع العمل على مقتضاه».

أبيات في المفاضلة بين العلم والعقل:

(٢) هذا من المؤلِّف أبي عبد الله المحاسبيّ يُفيدُ أنَّ العقل أفضلُ من العلم وهو الحقُّ، وفضّلَ بعضُهم العلم على العقل، وأدار بينهما حواراً لطيفاً، أبدى فيه كلٌّ منهما فَضلَه على الآخر فقال على لسانهما:

عِلْمُ العليمِ وعَقْلُ العاقلِ اختَلَفا ... من ذا الذي منهما قد أحرز الشَّرفا؟
فالعلمُ قال: أنا أحرزتُ غايتَه ... والعقلُ قال: أنا الرحمنُ بي عُرِفا =

واعْلَمْ أنَّ أهلَ المعرفةِ باللّٰهِ بَنَوا أُصُولَ الأحوالِ على شَاهِدِ العِلْمِ باللّٰه[١]، وتَفَقَّهُوا في الفروع[٢]، ألا تَرَى لِقَول النبـي صلّى الله عليه وسلَّم:

= فأفصح العلمُ إفصاحاً وقال له بأيِّنا اللهُ في فُرْقانه اتَّصفا؟

فبان للعقلِ أنَّ العِلْمَ سَيِّدُهُ فقبَّلَ العَقلُ رأسَ العلم وانصرفا

وقد فات هذا القائل: أنَّ العقل منبعُ العلم وأصلُه، وأنَّ العلم يجري من العقل مجرى النُّور من الشمس والرُّؤية من العين ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾.

ورحم الله المؤلِّفَ المحاسبي إذ يقول في كتابه «الرعاية»: «ومَثَلُ العقل مَثَلُ البصر، ومثلُ العلْم مثلُ السِّراج، فمن لا بصر له لا ينتفع بالسراج، ومن له بصرٌ بلا سراج لا يَرى ما يحتاج إليه».

وكأنَّ الإمام ابن الجوزي اقتبس منه قوله في فاتحة كتابه «تلبيس إبليس» إذ قال رحمه الله تعالى: «أما بعد، فإنَّ أعظمَ النعم على الإنسان العقل، لأنه الآلةُ في معرفة الإلٰه سبحانه، والسببُ الذي يُتوصَّل به إلى تصديق الرسل، إلَّا أنه لمَّا لم ينهض بكل المراد من العبد، بُعثتْ الرسل وأُنزلتْ الكتب، فمثَلُ الشرع الشمسُ، ومثَلُ العقل العينُ، فإذا فُتحتْ وكانت سليمةً رأت الشمس. ولمَّا ثبت عند العقل أقوالُ الأنبياء الصادقةُ، بدلائل المعجزات الخارقة، سلَّم إليهم، واعتمد فيما يخفى عليه»،

قال الشيخ شهاب الدين ابنُ جَهْبَل (أحمد بن يحيى) الشافعي الدمشقي رحمه الله تعالى: «والشرعُ قد عدَّل العقل، وقبل شهادته، واستدلَّ به في مواضع كثيرة من كتابه، كالاستدلال بالإنشاء على الإعادة في قوله تعالى: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلْقَهُ، قال من يُحيي العظام وهي رميم؟ قل يُحْييها الذي أنشأها أوَّل مرَّةٍ﴾ واستدلَّ به على التوحيد، فقال تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلّا اللّٰهُ لفسدتا﴾. فيا خيبة من ردَّ شاهداً قبله الله، وأسقط دليلاً نصبه الله». من «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٩: ٨٤ و٨٥.

(١) وقع في الأصول الثلاثة: (بنَوا أصول الأحوال على شاهد العلم)، وفي نسخة أ (تبنوا أصول ...)، وفي نسخة ح (ثبَّتوا أصول ...)، فأثبتُّ ما ترى.

(٢) سبق تعليقاً في ص ١٣٥ ـ ١٣٦ عن الشيخ الشعراني والحافظ ابن رجب =

«مَنْ عملَ بما عَلِمَ، ورّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ»[١]. وعلامةُ ذلكَ فهْمُ تزايُدِ العِلْمِ بالإشفاق، ومزيدُ العلمِ بالاقتداء، فكُلّما ازدادَ عِلماً ازداد خوفاً[٢]، وكُلّما ازداد عملاً ازدادَ تَواضُعاً[٣].

والأصلُ الذي ثبتُوا به في طَريقِهمْ[٤]: التِزامُ الأمْرِ بالمعروفِ والنّهي عن المُنْكَرِ بالصدْق[٥]، وتَقْديمُ العلْمِ على حُظُوظ ..

الحسن كلاماً بنصّ بوجوب تقديم جانب العلم الذي هو الكتابُ والسُّنّة، والحلالُ والحرام... فانظره.

(١) هذا ليس بحديث، وإنما هو ـ فيما يُرْوَى ـ من كلام سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام. قال الحافظ أبو نعيم في «الحلية» ١٠: ١٥ بعد أن ساقه بسنده عن أنس مرفوعاً ما نصُّه: «ذكر أحمدُ بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعضُ الرواة أنه ذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم، فوضعَ هذا الإسنادَ عليه». انتهى.

وقول الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» ١: ١٢٢: «أخرجه أبو نعيم في «الحلية» من حديث أنس وضعّفه»، فيه قصور، إذ لم يضعّفه أبو نعيم بل قال بوضع سنده، كما سبق نصُّ عبارته.

(٢) ومن أصدق ما نُقل عن الإمام الشافعي رضي الله عنه قوله:

على قَدْرِ علمِ المرءِ يعظُمُ خوفُه ... فلا عالمٌ إلّا من الله خائفُ

وآمِنُ مكرِ اللهِ باللهِ جاهلٌ ... وخائفُ مكرِ الله بالله عارفُ

(٣) وجاء في الأصل: (وكلما ازداد علماً ازداد تواضعاً)، فأثبته كما ترى.

(٤) وقع في الأصول: (والأصل الذي بنوا...) ولفظ (به) غير موجود في النسخة المغربية. وجاء في نسخة أ (ثبتوا به...)، فأثبته.

(٥) يعني بالصدق هنا: أنك إذا أمرت بالمعروف ائتمرت به، وإذا نهيت عن المنكر انتهيت عنه. ولا تكن ممن ذمّهم الله تعالى بقوله: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾. قال الحسن البصري رضي الله عنه: إذا كنت آمراً بالمعروف، فكن من آخَذِ الناس به وإلّا هلكت، وإذا كنت ممن ينهى عن المنكر، فكن من أنكر الناس له وإلّا هلكت. ذكره الإمام أحمد في كتاب «الزهد» ص ٣٦٠.

النفوس[1]، والاستغناءُ باللهِ عنْ جَميعِ خَلْقِه.

فاطْلُب آثارَ مَنْ زَادَهُ العِلْمُ خشيةً، والعَمَلُ بصيرةً[2]، والعَقْلُ مَعْرِفَةً. فإن حَجَبَكَ عنْ مِنْهاجِهِمْ فَقْدُ الأدب، فارْجِعْ بالذمِّ عَلى نَفْسِكَ، ولَنْ يَخْفَى على أَهْلِ العِلْمِ صِفَةُ المُخبِصين.

---

(١) وينبئك هذا الخبر عن الإمام ابن الجوزي، لتشهد منه تقديم العلم على حظوظ النفوس. قال الحافظ أبو شامة المقدسي في «ذيل الروضتين» ص ٢٢، والحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ» في ترجمة (الإمام أبي الفرج ابن الجوزي) ٤: ١٣٤٢ ـ ١٣٤٥ ما ملخصُه: «هو الإمام العلامة الحافظ، عالم العراق، وواعظ الآفاق، كان لطيف الصورة، حلو الشمائل، رخيم النغمة، موزون الحركات والنَّغَمات، لذيذ المفاكهة، وله في السجع الوعظي ملكة قوية.

حلاوة شمائل ابن الجوزي ومجالسه الوعظية

وكان يحضرُ مجلس وعظه الألوف المؤلفة، وقد تاب على يده ألف، وحصل له من الحُظوة في الوعظ ما لم يحصُل لأحد قط، وحضر مجالسه الملوكُ والوزراء، بل والخلفاء من وراء السِّتْر، ـ وكان الناس يستعدون لحضور درسه قبل يوم أو يومين، ويستأجرون الأماكن لذلك ـ.

قال له رجل: ما نمتُ البارحة من شوقي إلى المجلس، قال: لأنك تُريد الفُرجة، وإنما ينبغي أن لا تنام الليلة لأجل ما سمعت!». انتهى. فرحم الله الإمام ابن الجوزي ما أيقظ قلبه ولُبّه؟ إذ ردَّ هذا السائل من حظّ النفس إلى حقّ العلم.

الإمامُ البخاري صان المسجدَ عما تُصان عنه لحيتُه.

(٢) وما أجمل بصيرة الإمام البخاري رحمه الله تعالى في علمه وفي عمله، أما في علمه فشيء مشهور في كتابه «الصحيح للبخاري» وغيره كما يعلمه أهل العلم. وأما في عمله فمنه ما حكاه الحافظ ابن حجر في «هدي الساري مقدمة فتح الباري» ٢: ١٩٦ في خلال ترجمة الإمام البخاري. قال رحمه الله تعالى:

«قال محمد بن منصور: كنا في مجلس أبي عبد الله البخاري، فرفع إنسانٌ قذاةً من لحيته وطرحها إلى الأرض في المسجد، فرأيتُ البخاريَّ ينظر إليها وإلى الناس، فلما غفل الناس رأيتُه مدَّ يده ورفع القذاة من الأرض فأدخلها في كُمّه، فلما خرج من المسجد رأيتُه أخرجها وطرحها على الأرض». انتهى. فقد صان رحمه الله تعالى أرض المسجد عما تُصانُ عنه لحيتُه، إنها بصيرةُ العلم والعمل ﴿فبهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾.

واعْلم أنَّ في كلِّ فِكْرَةٍ أَدَباً، وفي كلِّ إشارَةٍ عِلْماً، وإنَّما يُمَيِّزُ ذَلكَ مَنْ فَهِمَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُرادَهُ، وَجَنَى فوائِدَ اليقينِ مِنْ خِطابِهِ.

وعلامةُ ذلكَ في الصادِقِ: إِذَا نَظَرَ اعْتَبَرَ، وَإِذَا صَمَتَ تَفكَّرَ، وَإِذَا تَكَلَّمَ ذَكَرَ، وَإِذَا مُنِعَ صَبَرَ، وَإِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابتُلِيَ اسْتَرْجَعَ، وَإِذَا جُهِلَ عليه حَلُمَ، وَإِذَا عَلِمَ تَوَاضَعَ، وَإِذَا عَلَّمَ رَفَقَ، وَإِذَا سُئِلَ بَذَلَ.

شِفاءٌ للقاصدِين، وعَونٌ للمُسْتَرْشِدِين، وحلِيفُ صِدْقٍ للصدِيقِين، وكَهْفُ أَمْنٍ للخائفين، برٌّ، قَريبُ الرِّضا في حقِّ نَفْسِهِ، بَعيدُ الهِمَّةِ في حَقِّ اللَّهِ تَعالَى.

نِيَّتُهُ أَفضلُ مِنْ عمله، وعَمَلُهُ أبلغُ مِنْ قَوْلِه، مَوْطِنُهُ الحَقُّ، ومَعْقِلُهُ الحَياءُ، وَمَعْلُومُهُ الوَرَعُ[1]، وشاهِدُهُ التقوى، لهُ بصائرُ من النُّورِ يُبْصِرُ

نموذج فريد من ورع ابن المبارك:

(١) أي علمُه يقومُ على العمل بالورع، لا بالرُّخص والتساهلات، فذلك ثمرةُ العلم الصحيح، وخاصةً من كان قُدوةً وأُسوةً لغيره. نقل الحافظ الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» ١٠: ١٦٧، والحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» ٥: ٣٨٧، في ترجمة الإمام عبد الله بن المبارك، فقيه خراسان وإمام المسلمين في عصره، المولود سنة ١١٨، والمتوفى سنة ١٨١ رحمه الله تعالى، من دقيق الورع ما قلَّ نظيره:

«قال أبو حسان البصري عيسى بن عبد الله: سمعتُ الحسن بن عرفة يقول: قال لي ابنُ المبارك: استعرتُ قلماً بأرض الشام، فذهب عليَّ أن أردَّه إلى صاحبه، فلما قدمتُ مرو نظرتُ فإذا هو معي! فرجعتُ إلى أرض الشام حتى رددته على صاحبه». انتهى.

قلتُ: ولعلك تستغربُ هذا وتستبعده؟ نعم هو مستغرب في زماننا، بمقاييس حياتنا وحياةِ أمثالنا ومجتمعنا. ولكن حياة الناس قبل أكثر من ألف ومئتي عام، تختلف عن حياتنا اليوم، بمثل هذا البعد الزمني بيننا وبينهم فضلاً وسُمُوّاً وصلاحاً ووَرَعاً وعملاً.

حرصُ الإمام أبي داود على سُنَّة نبوية:

وهذا الإمام أبو داود السِّجِسْتاني صاحبُ كتاب «السُّنن»، المتوفى سنة ٢٧٥ =

بِهَا، وَحَقَائِقُ مِنَ العِلْمِ يَنْطِقُ مِنْهَا، وَدَلَائِلُ مِنَ اليَقِينِ يُعَبِّرُ عَنْهَا[1].

= رحمه الله تعالى، يفعل من أجل القيام بتشميت العاطس ما نستغربه نحن في زماننا، قال العلامة الشَّنَواني في أواخر «شرحه على مختصر ابن أبي جَمْرَة» ص ٢٩٠، تعليقاً على حديث أنس في العُطَاس: قد وَرَد عن أبي داود صاحب «السُّنَن»، أنه كان في سفينة، فسمع عاطساً على الشَّطِّ حمد الله تعالى، فاكترى زَوْرَقاً بدرهم حتى جاء إلى العاطس فشمَّتَهُ، فسُئِل عن ذلك؟ فقال: لعله يكون مُجابَ الدعوة. فلما رَقَدُوا سمعوا قائلاً يقول: يا أهل السفينة، إنَّ أبا داود اشترى الجنة من الله بدرهم.

حمالُ ذي الأرض كانوا في الحياة وهُمْ بعد الممات جمالُ الكُتْبِ والسِّيَرِ

(١) ما أجل هذه الصفات وأحلَاها؟ وما أعظمها غنيمةً متحقِّقَةً في العبد المسلم؟ وقد كان في سلفنا الصالح من هذا النوع النفيس أعداداً لا تُحصى.

صبر الإمام ابن تيمية على السجن وانشراحه بالمحن

ورحم الله تعالى شيخ الإسلام ابن تيمية، إذ جدَّد بعظيم سيرته تاريخ الأسلاف في هذه الصفات، فإنه لمَّا نزلتْ به المحنة، وحُبس في قلعة دمشق، وقُطِع عن الناس، وسُجن معه تلميذه ابن القيم منفرداً عنه حتى مات الشيخ في السجن: كانت حالُه في ارتياح وسرور ورضا عامر، وكان كما قال المؤلف رحمه الله تعالى ـ: «... له بصائرُ من النور يُبصر بها، وحقائقُ من العلم ينطقُ منها، ودلائلُ من اليقين يُعبِّرُ عنها»، فكان السجنُ له خلوة، وكان يشكر الله على ذلك شكراً عظيماً.

يصفُ ابنُ القيم في كتابه «الوابل الصيب» ص ٦٦ ـ ٦٧ ـ ونقله عن ابن القيم الحافظُ ابنُ رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» ٢: ٤٠٢ ـ حال الشيخ وحال نفسه آنذاك فيقول: «قال لي مرَّةً: ما يصنعُ أعدائي بي؟ أنا جَنَّتي وبُستاني في صدري ـ يعني بذلك: إيمانه وعلمه أو الكتابَ والسُّنَّة ـ، أين رُحتُ فهي معي لا تفارقني، إنَّ حَبْسي خَلْوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في مَحْبسه في القلعة: لو بذلتُ لهم ملء هذه القلعةِ ذهباً ما عدلَ عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتُهم على ما تسبَّبوا لي فيه من الخير.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعِنّي على ذكرك وشكرك وحُسنِ عبادتك، ما شاء الله. ـ أي يقولُ ذلك ويكرِّرُه كثيراً جداً ـ

وقال لي مرة: المحبوسُ من حُبس قلبُه عن ربِّه تعالى، والمأسورُ من أسرَهُ هواه. ولمَّا دخل القلعة وصار من داخلِ سُورِها، نظر إليه وقال: ﴿فضُرِبَ بينهم بسُورٍ له باب، باطنُه فيه الرحمة، وظاهِرُه من قِبَله العذاب﴾. =

وَإِنَّما يُوَاصَلُ بِذَلِكَ مَنْ جَاهَدَ للّهِ تَعَالَى نَفْسَهُ، واستَقَامَتْ طاعتُه، وحَسُنَتْ نِيَّتُهُ، وخَشِيَ اللّهَ في سِرِّهِ وعَلانِيَتِهِ، وَقَصَّرَ الأَمَلَ، وَشَمَّرَ مِئْزَرَ الحَذَرِ، وَأَقْلَعَ بِرِيحِ اللَّجَأ في بَحْرِ الابتِهَال، فأوقاتُهُ غَنِيمَةٌ، وأحوالُهُ سَلِيمَةٌ، لَمْ يَغْتَرَّ بِزُخْرُفِ دَارِ الغُرُورِ، ولم يُلْهِهِ بَرِيقُ سَرَابِ نَسِيمِها عَنْ أَهْوالِ يَوْمِ النُّشُورِ[1]، ففاز بمقامِ اليَقَظَة بعدَ نومِ الغفلة.

واعْلَمْ أنَّ العاقِلَ لمَّا صحَّ عِلْمُهُ وثَبَتَ يَقِينُهُ: عَلِمَ أنه لا يُنْجيه مِنْ ربِّه إلَّا الصِّدقُ، فسعى في طَلَبِه، وبَحَثَ عَنْ أخلاقِ أهْلِه رغبةً في أَنْ يحيا قبل مماته[2]، ليَسْتَعِدَّ لدار الخُلُود بَعْدَ وفاته، فباعَ نفسَهُ ومالَهُ من ربِّه حيثُ سمعهُ يقُولُ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[3].

ـ وعلم الله ما رأيتُ أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرهم نفساً، تَلُوحُ نَضْرَةُ النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب عنا ذلك كلُّه، وينقلب انشراحاً وقوّة ويقيناً وطمأنينة. وكان يقول: إنَّ في الدنيا جنةً ـ يعني بها جنَّة الإيمان بالله وبما جاء به رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ـ من لم يدخلها ـ أي يستعمل نفسَهُ بها في الدنيا ـ لا يَدخل جنة الآخرة.

فسبحان من أشهد عباده جنّته قبلَ لقائه، وفَتَحَ لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قُواهم لطلبها والمسابقة إليها».

(١) وقع في الأصلين: (ولم يله ببريق شراب نسيمها). وهو تحريف. وفي نسخة ج: (ولا يلهيه بريق شراب نسيمها...)، فصوَّبْتُه كما ترى.

(٢) أي: يُذكر في حياته بالخير في عداد أهله الصالحين، بصدقه وأمانته ودينه وحُسنِ سيرته.

(٣) من سورة التوبة، الآية ١١١، وتمامُ الآية الكريمة ﴿يُقاتلون في سبيل ـ

فعلِمَ بعْدَ الجَهْلِ، واستغْنَى بعْدَ الفقْرِ، وأَنِسَ بَعْدَ الوَحْشَةِ، وقَرُبَ بعْدَ البُعْدِ، واستراحَ بعْدَ التَّعَبِ، فانتَظَمَ أَمْرُهُ، واجْتَمَعَ هَمُّهُ، وصارت التقوى شِعَارَهُ، والمراقبةُ حالَه.

ألا ترى لقولِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «اعْبُدِ اللهَ كأنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ»[1].

– الله، فيقتُلون ويُقتَلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله؟ فاستبشِروا ببيعكم الذي بايعتُم به، وذلك هو الفوزُ العظيمُ﴾

أبو الوفاء بن عقيل يدعو لبذل النفس لله

قال الحافظ ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» ١: ١٥٥، في ترجمة أبي الوفاء بن عقيل: «كان الإمامُ أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي، الذي قيل فيه: أحدُ أفاضل العالم، ومن أذكياء بني آدم، يقول رحمه الله تعالى:

«لا يَعظُمُ عندك تَلَفُ نفسِك في ذات الله، فهي التي بذلتَها بالأمس في حبِّ معشوقةٍ وهوى أمردٍ، وخاطرتَ بها في الأسفار لأجل زيادة دينارٍ، فلما جئتَ إلى طاعة الله عظُمَتْ ما بذلتَه — أي عظُم عليك بذلُها، وغلا عندك سعرُها —. ومنه ما يَخشى بذلَ النفس إلا لمن إذا أخذ أعاد، وإذا أعاد أفاد، وإذا أفاد خلَّد فلذّته على الآباد، فذاك — والله — الذي تُخشى فيه بذلُ النفوس، وإبانةُ الرؤوس، أليس هو القائل:

﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون، فرحين بما آتاهم اللهُ من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ، وأنَّ الله لا يُضيعُ أجْرَ المؤمنين﴾». انتهى كلام الإمام أبي الوفاء.

قال قَتَادة التابعيُّ: ثامَنَهم — واللهِ — فأَغْلَى لهم الثَّمَن. وقال الحسن البصري: — أعطاهم — أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها — ثم اشتراها منهم — سبحانه. قال النَّسَفي في «تفسيره» ٢: ٢٥٥: «ومرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابيٌّ وهو يقرؤها، فقال: بيْعٌ — والله — مُرْبح، لا نُقيلُه ولا نستقيلُه، فخرج إلى الغزْو واستُشهِد» رضي الله عنه.

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو نعيم في «الحلية» ٨: ٢٠٢ عن زيد بن أرقم مرفوعاً، وذكره السيوطي في «الجامع الصغير» ١: ٥٥١ معزواً لأبي نعيم، وقال

يَحْسَبُهُ الجاهِلُ صِمِّيتاً عَيِيّاً[١]، وَحِكْمَتُهُ أَصْمَتَتْهُ[٢] . . . .

= شارحه المُناوي في شرحه الصغير «التيسير بشرح الجامع الصغير» ١: ١٦٧ إنه بهذا اللفظ حديث حسن لاعتضاده بحديث آخر. والجملة المذكورة منه هنا جاءت بنحو هذا اللفظ في «صحيح مسلم» ١: ١٥٧ في أول كتاب الإيمان، في حديث سؤال جبريل عن الإحسان، الذي رواه عمر رضي الله عنه.

فضلُ الصمت عما لا يَعني وصمتُ لقمان الحكيم.

(١) الصِّمِّيتُ بوزن السِّكِّيت ومعناه، وهو طويل الصَّمْت والسكوت من غير عِيٍّ ولا عِلّة، فإذا تكلم أحسن. وهكذا كان الكثيرُ من رجال السلف

إذا سكتوا رأيتَ لهم جَمالاً ... وإن نطقوا سمعتَ لهم عُقولا

تَجَلُّ مجالسهم ووقارهم وسكينتهم وحشمتهم وصُورهم المُنَوَّرة تنفع بهم

وإليك ما قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره «جامع البيان عن تأويل القرآن» ٢١: ٦٧، عند تفسير قوله تعالى في سورة لقمان ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾. «يقول الله تعالى: ولقد آتينا لقمان الفقه في الدين، والعقل، والإصابة في القول، فعن مجاهد قال: قولُهُ تعالى ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾: الفقه، والعقل، والإصابةَ في القول من غير نُبُوَّة.

قال عَمْرو بن قيس: كان لقمان عبداً أسود، غليظ الشفتين، مُصَفَّح القدمين، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يُحَدِّثُهم ـ أي يعلمهم ويرشدهم ـ، فقال له: ألستَ الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدقُ الحديث، والصَّمتُ عما لا يعنيني». انتهى

وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٥: ٣٨١: «روَى ابنُ أبي حاتم عن أبي الدرداء ـ الصحابيُّ الجليل الذي يُلقَّبُ: حكيم الأمة ـ رضي الله عنه، قال: ما أُوتي لقمانُ الحكيمُ ما أُوتي، عن أهلٍ ولا مال، ولا حسب ولا خصال، ولكنه كان رجلاً صِمِّيتاً سِكِّيتاً، طويل التفكر، عميق النظر، لم ينم نهاراً قطُّ، ولم يرهُ أحد قطُّ يبزقُ ولا يتنحنح، ولا يبولُ ولا يتغوط، ولا يغتسل، ولا يعبثُ ولا يضحك، . . . فبذلك أُوتي ما أُوتي». آتاه اللهُ تعالى الحكمة. وما أجمل هذه الأخلاق فاجتهدْ أن تتأسّى بها.

(٢) جاء في «كتاب العلم» لأبي خيثمة النسائي ص ١١٤ وكتاب «الزهد» للإمام أحمد ص ٣٦١ «قال الحسن البصري: لقد أدركت أقواماً إن كان الرجل منهم ليجلسُ مع القوم فيرون أنَّ به عِيّاً، وما به من عِيٍّ، إنه لفقيهٌ مُسْلِم». وفي لفظ آخر =

وَيَحْسَبُهُ الأَحْمَقُ مِهْذَاراً، والنَّصِيحَةُ للّهِ أَنْطَقَتْهُ[1]، وَيَحْسَبُهُ غَنِيّاً، والتَعَفُّفُ أَغْنَاهُ، وَيَحْسَبُهُ فَقِيراً، والتَّوَاضُعُ أَدْنَاهُ.

لا يَتَعَرَّضُ لِمَا لا يَعْنِيهِ، وَلَا يَتَكَلَّفُ فَوْقَ ما يَكْفِيهِ، ولا يَأْخُذُ مَا لَيْسَ بِمُحْتَاجٍ إليه، ولَا يَدَعُ مَا وُكِّل بحِفْظِهِ، النَّاسُ منهُ في رَاحَةٍ، وهُوَ مِنْ نَفْسِهِ في تَعَبٍ، قدْ أَمَاتَ بالوَرَعِ حِرْصَهُ، وحَسَمَ بالتُّقى طَمَعَهُ، وأَطْفَأَ بِنُورِ العِلْمِ شَهَوَاتِهِ[2].

عنه: «إن كان الرجل ليكون فقيهاً جلساً مع القوم، فيرى بعضُ القوم أنَّ به عيّاً، وما به من عِيٍّ إلّا كراهيتُه أن يَشتهِر».

(١) فهو على غِرار من قال فيه الشاعر وقد أحسن وأجاد:

ضَحُوكُ السِّنِّ إن نطقوا بخير ... وعند الشر مِطراقٌ عَبُوسُ

وفيه وفي أمثاله من السلف الصالح ومن شابههم ممن بعدهم يصح أن يقال: إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يُسبَقوا، ـ أي لم يفتهم خيرٌ ولا بيانُ حق ـ ولولاهم لم يعرف الحق من الباطل، ولا المحقُّ من المبطل، رضي الله عنهم.

(٢) جاءت كلمات على نحو هذه الكلمات، من جزالة والشموخ والنصح والحكمة، في كلام (أبي علي شُقْران بن علي) الصوفي القيرواني، شيخ ذي النون المصري، وسحنون، وعون بن يوسف، وهذه نصه. وكان وحيد زمانه في العبادة والزهد والصلاح، مات سنة ١٨٦ وقد أناف على السبعين رحمه الله تعالى.

نصيحة شُقران القيرواني لذي النون المصري.

جاء في ترجمته في «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» للدباغ وابن ناجي ١: ٢٨٣ أن ذا النون المصري، لما رحل إليه لينتفع بصحبته وكلامه، لازمه سبعين يوماً ثم أراد الرجوع إلى بلده، فطلب منه النصيحة والموعظة، فقال له شُقران رحمه الله تعالى:

«اعلم يا هذا أن الزهد في الدنيا قُوتُه ما وجد، ومسكنُه حيث أدرك، ولباسُه ما ستر، والخلوةُ مجلسُه، والقرآن حديثُه، والربُّ عزيزٌ جليسُه، والذكرُ رفيقُه، والزهدُ قرينُه، والصَّمْتُ حكمتُه، والخوفُ محجّتُه، والشوقُ مطيّتُه، والنصيحة همّتُه، والاعتبارُ فكرتُه، والصبرُ وسادُه، والتُّراب فراشُه، والصدّيقون إخوانه، والحكمةُ كلامُه، والعقلُ دليلُه، والحلمُ خليلُه، والتوكل كسبُه، والجوعُ إدامُه، والله عَوْنُه.

فهكَذا فكُنْ، ولمثْلِ هَؤُلاءِ فاصْحَبْ(١)، ....

= قال ذو النون: فقلتُ له: يرحمك الله، بم تنبتُ الزهادةُ للعبد في هذا المكان؟ فقال: بالمحاسبةِ للنفس، والمناقشةِ لها، حَسْبُك الآنَ حَسْبُك.

قال ذو النون: وسمعته يقول في بعض مواعظه: من توكّل استغنى، ومن لم يتوكل تعب، ومن شكر كُفي، ومن رضي عُوفي، والنظرُ إلى الصَّفوة فيه التحقيق، واصحبْهم أوّلُ الطريق، أي انظر إليهم وجالسْهم آيةٌ محقَّقة.

نصل صحبة الصالحين والعلماء الأبرار ونفعُها

(١) وهؤلاء الذين يُسمّيهم الإمامُ المحاسبي: علماء الآخرة، تمييزًا لهم عن علماء الدنيا. فإذا فعلتَ ذلك غُذّيتَ منهم، وإذا صحبتهم حَسُنت معهم، وقَرُبت بسبب صحبتهم. فقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم في «صحيحه» ١٧: ١٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلَّ الله عليه وسلَّم قال:

«إنّ لله ملائكةً سيّارةً يطوفون في الأرض، فإذا صعدوا إلى السماء سألهم الله تعالى وهو أعلمُ بهم: من أين جئتُم؟ فيقولون: جئنا من عند عبادٍ لك في الأرض، يُسبّحونك، ويُكبّرونك، ويُهلّلونك، ويَحمدونك ويسألونك، ويستجيرونك. فيقول: قد غفرتُ لهم، وأعطيتُهم ما سألوا، وأجرتُهم مما استجاروا. فيقولون: ربِّ فيهم فلانٌ عبدٌ خطّاء، إنما مرَّ فجلس معهم، فيقول: وله غفرتُ، هُمُ القومُ لا يشقى بهم جليسُهم».

أبيات لطيفة في فضل صحبة العلماء والصلحاء

ومن أجلِ هذا قال الشاعر الحكيم:

بعِشْرَتِكَ الكِرامَ تُعَدُّ مِنهم فلا تُرَيَنْ لِغيرِهِمُ أَلُوفَا

ولشيخ شيوخنا العلامة الشيخ بشير الغزّي الحلبي أبياتٌ لطيفة، أصلُها بالفارسية، فنظمها بالعربية، وزادها رِقَّةً ولطفًا، قالها على لسان «التراب الطيّب» المعروف عند العامّة في بلدنا حلب باسم (طين بورد)(١)، قال رحمه الله تعالى:

(١) وهي نوع من التراب الناعم الرقيق جدًا، يُطحن جيدًا ويُعجن بالطيوب كالذريرة والورد والمسك ونحوها، ثم يُجفَّف بطريقة خاصة، ويُستعمل بأن توضع قطعة منه في إناء صغير، ويُصبّ عليها قطرات من الماء الفاتر أو العادي، وتُنقع نحو عشر دقائق، فتصير منقوعًا حلالًا كالعجين، فيطلي المستحمُّ به رأسه أو تطلي به المرأة جسمها، بعد أن يكون قد غسله بالصابون ونحوه لتنظيفه، ويُبقيه نحو ربع ساعة، ثم يغسل الطلاء، فتبقى له أطيبُ الرائحة العَطِرة في الشَّعر أو الجسد.

ولآثارِهِمْ فاتَّبِعْ، وبأَخْلاقِهِمْ فتَأَدَّبْ، فهؤلاءِ الكَنْزُ المأمون[١]، بائِعُهم بالدُّنيا مَغْبُون[٢]، . . . .

= رأيتُ الطِّينَ في الحَمَّام يوماً ... بكَفِّ الحِبِّ أثَرَ ثم نَمْ
فقلتُ له: أمِسْكٌ أم عَبِيرٌ؟ ... لقد صَيَّرْتني بالحِبِّ مُغْرَم
أجابَ الطينُ أني كنتُ تُرْباً ... صَحِبْتُ الوَرْدَ صَيَّرني مُكرَّم
ألِفْتُ أكابراً وازددتُ عِلماً ... كذا من عاشَرَ العُلماءَ يُكرَم[١]

(١) يشير بقوله (الكنز المأمون) إلى أن صحبة هؤلاء خيرٌ محضٌ ونفعٌ محقق، لا فتنة فيها، ولا مغبَّة منها، بخلاف (الكنز المدفون)، فإنه إذا وقع لبعض الناس العثورُ على كنزٍ من المال، كان له ذلك فتنةً في دينه وأمانته وخلقه وسلوكه، وضرراً عليه في دنياه وآخرته. ولذلك وصف صحبتهم بـ(الكنز المأمون)، ولم يصفها بـ(الكنز المدفون) لما أشرتُ إليه. ورحم الله هذا الإمام المحاسبيَّ ما أعمق نظره وأدقَّ فكرَه.

(٢) أي: لو حصَّلَ الإنسانُ الدنيا، وفاتَه صُحبةُ هؤلاء، فهو مغبون مخدوع في رضاه بالدنيا بدلاً عنهم، وقد صدق رحمه الله تعالى.

---

(١) رأيتُ في كتاب «ترتيب المدارك لمعرفة أصحاب مذهب مالك» للقاضي عياض رحمه الله تعالى ٧: ٢٢٥، في ترجمة الإمام (القاضي أبي محمد عبد الوهاب بن نصر المالكي) البغدادي ثم المصري، المولود سنة ٣٦٢، والمتوفى سنة ٤٢٢ رحمه الله تعالى، ما يلي من قول القاضي عياض:

«حُدِّثْتُ عن بعض الأندلسيين أنه قال: دخلتُ مصر حاجّاً، واجتمعتُ فيها بالقاضي أبي محمد ـ عبد الوهاب المالكي ـ وعندي آنيةٌ بطَفْلٍ مُطيَّب ـ الطَّفْلُ: التراب الناعم الرقيق ـ، فقصدتُ إليه وناولتُه استعمالَه، فتدلَّكَ به وشَمَّهُ، وسألني: من أين هو لك؟ قلتُ: اشتريتُ خادماً ـ أي جاريةً ـ فكان هذا في أسبابها ـ أي أمتعتها ومتاعها ـ، فقال لي: اشترطتَ مالَها؟ قلتُ: لا، قال: خُذْهُ إليك فلا حاجة لي به». انتهى.

فدلَّ هذا الخبرُ أوّلاً على أنَّ هذا النوع من الطِّيب الحِسّي كان معروفاً قديماً في القرن الرابع، في الأندلس إذا كان قد اشترى جاريته من الأندلس، وهو الظاهر، أو معروفاً في مصر إذا كان قد اشترى جاريته من مصر، ودلَّ ثانياً على سُمُوِّ ورع القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله تعالى.

وهُمْ العُدَّةُ في البَلاءِ، والتُّقَاةُ منَ الأخِلاَّءِ، إنِ افْتَقرْتَ أَغْنَوْكَ، وإنْ دَعَوا الرَّبَّ لَمْ يَنْسَوْكَ ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الله ألا إنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفلِحُونَ﴾[1].

وَاعْلَمْ ـ وسَّعَ اللّهُ بالفَهْم قلبي وقلبكَ، وأنَارَ بالعِلم صدري وصَدْرَكَ، وجَمَعَ باليقين همي وهَمَّكَ ـ أني وجدتُ أصلَ كُلِّ بلاءٍ داخلٍ عَلَى القلب ـ ضَرُورةً[2] ـ مِنْ نَتَائج الفُضُول[3]، وأَصْلُ ذلك الدُّخولُ في الدنيا بالجهلِ[4]، ونسيانُ المَعَادِ بعد العِلْم. والنجاةُ مِنْ ذلك تَرْكُ كُلِّ

---

(١) من سورة المُجادِلة: الآية ٢٢.

(٢) أي قطعاً ويقيناً.

التصوُّفُ كلُّه تركُ الفضول

(٣) قلت: ولقد صدق رحمه الله تعالى، ومن هذا قول الإمام الحافظ المحدث الزاهد أبو سعيد ابنُ الأعرابي (أحمد بن محمد) البصري الصوفي، صاحبُ التصانيف، وأحدُ رواة «سنن أبي داود» عنه، المتوفى سنة ٣٤٠ رحمه الله تعالى: «التصوُّفُ كلُّه تركُ الفضول، والمعرفةُ كلُّها الاعترافُ بالجهل، والزهدُ كلُّه أخذُ ما لا بد منه، والمعاملةُ كلُّها استعمالُ الأولى فالأولى، والرضا كلُّه تركُ الاعتراض، والعافيةُ كلُّها سقوطُ التكلُّف بلا تكلُّف». انتهى من ترجمته في «تذكرة الحفاظ» للذهبي ٣: ٨٥٢.

العملُ بما عرف حكم الشرع قبل الدخول في العمل

(٤) فلذا يكثُرُ مالُ الحرام في أيدي الناس ويقلُّ الحلال؛ لأنهم يدخلون إلى الأعمال تجارةً أو صناعةً أو زراعةً دون استشارة الشرع واستفتائه، فتقعُ المحرماتُ والمكاسبُ المحرمة، فتفسُدُ الأخلاقُ والأعمال وقد قالوا: إذا أكلت الحرام عصيت الله شئت أو أبيت، وإذا أكلت الحلال أطعت الله شئت أو أبيت.

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ١: ٢٠٤، في شرح الحديث التاسع: «واعلم أن كثرة وقوع الحوادث ـ المخالفة ـ التي لا أصل لها في الكتاب والسنة، إنما هو من ترك الاشتغال بامتثال أوامر الله ورسوله، واجتناب نواهي الله ورسوله، فلو أنَّ من أراد أن يعمل عملاً سأل ـ قبل الدخول فيه ـ عما شرعه اللّه في ذلك العمل فامتثله، وعما نهى عنه فيه فاجتنبه، وقعتْ الحوادث مقيَّدةً بالكتاب والسنة. ـ ما أَدَقَّ هذا الكلامَ وما أصدقَهُ فاعمَلْ به ـ.

وإنما يعمل العامل بمقتضى رأيه وهواه، فتقع الحوادث عامَّتُها مخالفةً لما شرعه الله، وربما عسُر ردُّها إلى الأحكام المذكورة في الكتاب والسنة لبعدها عنها».

مَجْهُولٍ في الوَرَعِ(١)، وأَخْذُ كُلِّ معلومٍ في اليقين(٢).

نموذج من ورع أبي حنيفة:

(١) اي في حكم الورع. ولله دَرُّ الإمام أبي حنيفة ما أورعه وما أرعاه لسلامة نفسه، قال العلامة ابن حجر الهَيْتمي في «الخيرات الحِسان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان» ص ٤٣ «أرسَل أبو حنيفة لشريكه متاعاً فيه ثوبٌ مَعِيب، يَبِيعُه ويُبيِّنُ ما فيه من العيب، فباعه ولم يُبيِّنِ العيبَ نسياناً، وجَهِلَ المشتري، فلما علم أبو حنيفة تصدَّق بثمن المتاع كلّه، وكان ثلاثين ألفَ درهم، وفاصَلَ شريكه ــ أي فارقه ــ». انتهى.

صورة من ورع ابن عبد الرحيم المقدسي:

وهذه صورةٌ ثانية من صُوَر الورع ــ وما أكثرها في تاريخ سَلَفنا ــ، قال ابن العماد في «شذرات الذهب» ٥: ٤٠٦ في ترجمة الإمام شمس الدين محمد بن عبد الرحيم المقدسي الحنبلي الدمشقي، المتوفى سنة ٦٨٨ رحمه الله تعالى «قال الذهبي: كان إماماً فقيهاً محدِّثاً زاهداً عابداً، كثير الخير، له قدم راسخة في التقوى، وكان متقلِّلاً من الدنيا.

حُكي لي عنه أنه كان يحفرُ مكاناً في جبل الصالحية لبعض شأنه، فوجد جرَّةً مملوءة دنانير، وكانت زوجتُه معه تُعينه على الحفر، فاسترجع ــ قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، إذ عدَّ ذلك فتنةً له ومحنةً أي اختباراً ــ، وطمَّ المكان كما كان أولاً، وقال لزوجته: هذه فتنة، ولعل لها مستحقين لا نعرفهم، وعاهدها على أنها لا تُشعر بذلك أحداً، ولا تتعرض إليه، وكانت صالحةً مثله، فترك ذلك تورُّعاً مع فقرهما وحاجتهما. وهذا غايةُ الوَرَع والزُّهد».

(٢) اي أخْذُ ما عُلم يقيناً أنه حلال. وإذا وقع لك شتباه في أمر من الأمور، أو عمُصتْ عليك قضية من القضايا، فلا تحتكم فيها للعقل وحده، فإنه يضعُفُ ويقوى، ويتأثر بالعواطف والمؤثِّرات، ولكن احتكم فيها للشرع، فإنه خيرُ هادٍ لك فيما تشتبه أو تشتبه فيه، وما أجمل قولَ بعض الحكماء، مما وجدتُه على ظهر كتاب:

أبيات لطيفة في استهداء المُسْلِمِ الشرعَ قبل العقل:

الشرعُ أعظمُ مُرشِدٍ في ظُلْمَةِ الشُّبَهِ البَهِيمَهْ
والعقلُ يَقْفُوهُ ولو لاهُ لَكُنَّا كالبَهِيمَهْ
فاتْبَعْهما ولمن لَحَا كَ عليهما قُلْ: يا بَهِيمَهْ

وفي قوله (يا بَهِيمَهْ) تورية، إذ المقصود: (يا بَهي ــ أي يا جميل ــ مَهْ)، أي اكفُفْ عن لومي في اتباع الشرع الناصح والعقل المستنير به. وكُتِبَتْ (يا بَهِيمَهْ) =

ووَجدتُ فسادَ القلب فسادَ الدين، ألا ترَى لقول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «ألا وإنَّ في الجَسَد مُضْغَةً إذا صلَحتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فسدتْ فسَدَ الجسدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ»[١] ومعنى

= موصولةٌ لإحكام التورية لطفاً وكتابةً ومُلْحةً أيضاً، قال مصعب بن عبد الله الزبيري: قال أبي: المُلَحُ بابٌ لا يفهمُها إلا عُقلاءُ الرجال. وقد قرَّر هذا الحكيم ما قرَّره العلماء وهو أنَّ الشرعَ عِصمةٌ للعقل، والعَقْلَ نِبراسٌ للشرع.

العقل في حاجة دائماً إلى الشرع

ويُقرِّرُ الإمامُ الراغبُ الأصفهاني رحمه الله تعالى في كتابيه «الذريعة إلى مكارم الشريعة» و«تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين» في شأن العقل مع الشرع ما ملخَّصُه:

إنَّ الشرعَ سائسٌ، والعقلَ تابعٌ، والشرعُ مثلُ العقل، والعقلُ في حاجةٍ دائماً إلى الشرع، فالشرعياتُ تجري مجرى الأغذية الحافظة للصحة، والمعقولاتُ تجري مجرى الأدوية الجالبة للصحة، والشرعُ والعقلُ توأمان، يكمِّلُ أحدُهما الآخر، ولا استغناءَ لأحدهما عن الثاني، وبينهما اندماجٌ وليس بينهما تنافرٌ فنحتاجَ إلى التوفيق بينهما.

ويَرى الراغبُ الأصفهانيُّ أيضاً: أنَّ لذَّاتِ الحسِّ كلَّها كالملبوسات والمشروبات والمسموعات والمبصرات تابعةٌ للشهوة الحيوانية، وهي أغلبُ، لأنها أقدمُ وجوداً في البشر، ويحتاجُ الإنسانُ إلى أن يقهرَ لذاتِ الحسِّ بواسطة العقل، ولذلك قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: «حُفَّتِ الجنةُ بالمكاره، وحُفَّتِ النارُ بالشهوات» وما من أحدٍ من الناس إلَّا وله قُوَّةٌ على اكتساب قدْرٍ من الفضائل.

ولذاتُ الأخرويةُ لا تُدرَكُ بالعقل في هذه الدنيا، لأنه يقصُرُ عن معرفتها، ولذا قرَّب الله سبحانه تلك اللذاتِ إلى الأذهان، فشبَّهها لهم بأنواع ما تُدركه حواسُّهم، فقال سبحانه: ﴿مثلُ الجنَّةِ التي وُعِدَ المتقون، فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّر طعمُه، وأنهارٌ من خمرٍ لذَّةٍ للشاربين، وأنهارٌ من عسلٍ مُصفَّى، ولهم فيها من كلِّ الثمرات، ومغفرةٌ من ربِّهم﴾ انتهى.

هذا، وتقدم تعليقٌ في ص ١٥٢ كلامٌ حسنٌ في تفضيل العقل على العلم، فعُدْ إليه إذا شئت.

(١) هو بعضُ حديثٍ رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن النعمان بن =

الجَسَد ـ هاهنا ـ : الدِّينُ[1]، لأنَّ بالدِّينِ صَلاحَ الجَوَارِحِ وفَسَادَهَا.

وأَصْلُ فَسَادِ القَلْبِ تَرْكُ المحاسبة للنَّفْس، والاغْتِرَارُ بطُولِ الأَملِ، فإذا أرَدْتَ صلاحَ قَلبِكَ فقِفْ مَعَ الإرادةِ، وعِندَ الخَواطِرِ، فَخُذْ ما كَانَ للّهِ، ودَعْ ما كَانَ لِغَيْرِهِ[2]، وَاستَعِنْ عَلَى قِصرِ الأَمَلِ بِدَوَامِ ذِكْرِ الموتِ[3].

= بشير رضي الله عنه. البخاري في كتاب الإيمان (باب فضل من استبرأ لدينه) ١: ١٢٦، ومسلم في كتاب المساقاة (باب أخذ الحلال وترك الشبهات) ١١: ٢٧.

(١) يعني أنَّ الفساد المضاف إلى الجسد هنا، المرادُ به: فسادُ الدِّين.

(٢) قال الشيخ الفقيه الصالح أحمد بن رسلان الشافعي رحمه الله تعالى في آخر «متن الزُّبَد»:

وزِنْ بوَزْنِ الشَّرْعِ كلَّ خاطِرِ   فإن يكن مأمورَهُ فبادِرِ

وإن يكن مما نُهِيتَ عنه   فهو من الشيطانِ فاحذَرَنْهُ

وقال الإمام السيِّد الجُنيدُ رحمه الله تعالى: لقد تردُ النُّكتةُ ـ أي الخاطرةُ ـ على قلبي فلا آمنُها إلا بشاهدَيْ عدلٍ من الكتاب والسُّنَّة. وسبق تعليقاً في ص ٧٨ ـ ٧٩ كلامٌ نفيس في (الخواطر) لابن القيم فعُدْ إليه.

سُرعةُ مرور العمر وانقضاءِ الحياة

(٣) كان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: كلَّ يومٍ يقالُ: مات فلانٌ وفلان، ولا بُدَّ من يومٍ يقال فيه: مات عمر. وكان سيدنا علي رضي الله عنه يقول: إذا كنت في إدبار والموتُ في إقبال فما أسرع الملتقى. من «نهج البلاغة» ٤: ٨٧. وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: «ابنَ آدم إنما أنت أيام، كلما ذهب يومٌ ذهب بعضُك». من ترجمته في «تاريخ الإسلام» للذهبي ٤: ١٠٤، وكتاب «الزهد» للإمام أحمد ص ٢٧٨. ومن قول الحسن هذا أخذ القائل:

وما المرءُ إلاَّ راكباً ظَهْرَ عُمْرِهِ   على سَفَرٍ يُفْنيهِ باليوم والشهرِ

يَبِيتُ ويُمسي كلَّ يومٍ وليلةٍ   بَعِيداً عن الدنيا قريباً من القبرِ

وما أصدق ما قيل:

يَسُرُّ المرءَ ما ذَهَبَ الليالي   وكان ذَهَابُهُنَّ له ذَهَابا!

ومن ألطف ما قيل في تصوير قِصَرِ أيام العُمر قولُ القائل: =

وَوَجَدْتُ أُصولَ الفُضُولِ المتحرِّكةَ من القلب تَظْهَرُ على السمعِ، والبصرِ، واللسانِ، والغِذاءِ، واللباسِ، والمسكن.

فَفُضولُ السَّمعِ يُخرِج إلى السَّهْوِ والغفلة.

وفضولُ البَصَرِ يُخرِجُ إلى الغَفْلَة والحَيْرة.

وفُضولُ اللسانِ يُخرِجُ إلى التزيُّد والبِدعة[1].

وفُضولُ الغِذاءِ يُخرِجُ إلى الشَّرَهِ والرَّغْبَة[2].

= أذانُ المرءِ حينَ الطِّفلُ يأتي وتأخيرُ الصَّلاةِ إلى المماتِ

دليلٌ أنَّ مَحْياهُ يسيرٌ كما بينَ الأذانِ إلى الصلاةِ

(١) وفي بعض النسخ: (التزيُّن) بالنون، أي التفاصح للناس. وكم جرَّ التفاصُحُ والتزيُّد والفضولُ في الكلام، إلى ذنوبٍ وعيوبٍ وآثام.

تحذير عطاء بن أبي رباح من فضول الكلام:

قال يَعْلى بن عُبيد: دخلنا على محمد بن سُوْقة ـ الكوفي العابد الصالح المُحدِّث التابعي ـ، فقال: ألا أحدثكم بحديث لعله ينفعكم؟ فإنه نفعني، قال لنا عطاءُ بن أبي رباح: إنَّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعُدُّون فضول الكلام: ما عدا كتابَ الله أن يُقرأ، أو أمْراً بمعروف، أو نهياً عن منكر، أو أن تَنطِقَ في حاجتِك في معيشتِك التي لا بُدَّ لك منها.

أتُنكِرون: ﴿إنَّ عليكم لَحافظين كراماً كاتبين﴾، ﴿عن اليمين وعن الشِّمالِ قعيد. ما يَلفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لديه رقيبٌ عتيد﴾، أما يَستحي أحدُكم لو نُشِرتْ صحيفتُهُ التي أَمْلاها صدرَ نهاره، أكثرُ ما فيها ليس من أمرِ دينهِ ولا دُنياه.

قال إسماعيل بن أمية: كان عطاءٌ يُطيل الصمت، فإذا تكلَّم يُخيَّل لنا أنه يُؤيَّد. انتهى. رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣١٤:٣، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٨٣:٥ و٨٦، في ترجمة التابعي الجليل عطاء بن أبي رباح المكي مفتي الحرم.

طلبُ الاعتدال في خدمة الجسم:

(٢) يشير بهذا إلى أن التوسع في الغذاء، والتَّرف فيه، يَجُرُّ صاحبَه إلى النَّهم، ثم إلى الرغبات الفاسدة والمشتهيات المؤذية له في دينه أو بدَنِه، فعلى العاقل الحصيف ـ ولو كان ميسوراً غنياً ـ أن يعتدل في مطعمه ومشربه، فإن التقتير فيه مضر، والتبذير فيه مضر، قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كتابه «صيد الخاطر» ص ٤٤٥: =

وفُضولُ اللباسِ يُخرِجُ إلى المُباهاةِ والخُيَلاء.

وفُضولُ المسكنِ يُخرِجُ إلى الإسرافِ والفخر(١).

= «لا ينبغي للإنسان أن يَحمِلَ على بدَنِه ما لا يُطيق، فإن البدن كالراحلة، إن لم يُرفقْ بها لم تصل بالراكب، وإنْ مطعماً يؤذي البدن فبموتُه فعلُ خير، ينبغي أن يُهجَر. ولا تظنَّ أني آمُرُ بأكل الشهوات، ولا بالإكثار من الممدود، إنما آمُرُ بتناول ما يحفظ البدن، وأنهى عما يؤذي البدن، وأما التوسُّعُ في المطاعم، فإنه يُسبِّبُ النوم، والشِّبَعُ يُعمي القلب، ويُرهِلُ البدن ويُضعفه، فالطريق هي الوسطى» انتهى ملخصاً

ذكر أنواع الفضول:

(١) وإليك بيان بعض أنواع الفضول، زيادةً في توضيح ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى:

الفضول في الكلام: أن تذكر ما لم تُسأل عنه، ولا يقتضي المقامُ ذكرَه، أو تتدخل فيما لا يعنيك.

الفضول في الطعام والشراب: أن تجاوز قدر الشبع، أو تكثر من الألوان أو من صنع الكمية منها

الفضول في النوم: أن تنام أكثر من الحاجة، وفي السهر: أن تسهر في غير فائدة ونفع.

الفضول في اللباس: أن تشتري أكثر مما تحتاج إليه في فصول السنة والمناسبات المشروعة.

الفضول في المسكن: أن يكون زائداً عن الحاجة، يدخل في الترف والبطر

الفضول في الأثاث: أن تقتني من الوسائل والمتاع ما يزيد على الحاجة لديك

الفضول في النظر: أن تنظر إلى ما لا يهمك ولا يفيدك، أما النظر إلى ما لا يجوز لك نظره شرعاً فحرام.

الفضول في الصحبة: أن تصاحب كل من ترى أو تعرف، دون أن تتوخى المؤمن التقي والصالح الرضي.

الفضول في البذل: أن تصرف المال فيما لا تحتاج إليه، أو فيما لا يرجى نفعه

الفضول في العلم: أن تَسأل عما لا تحتاج إليه حالياً أو فيما بعد.

الفضول في الكتب: أن تقتني منها ما لا يفيدك أو لا يدخل في مجالك العلمي

واعلَمْ أنَّ حِفظَ الجوارح فريضة، وتَرْكَ الفُضُول فَضِيلة.

والتوبةُ قبل ذلك فريضة، وقد فَرَضها اللّٰهُ ورسولُه. فقال جلَّ ذكرُه: ﴿يا أيها الذين آمنوا تُوبوا إلى الله توبةً نَصوحاً﴾[1]، ومعنى (نصوحاً): تَرْكُ العَوْدةِ فيما تاب منه العبدُ إلى ربِّه[2]. وقال رسول الله

---

(١) من سورة التحريم: الآية ٨.

خبرُ توبة الفُضَيل بن عياض اللصِّ وقاطع الطريق:

(٢) وإليك خبر توبة (الفُضيل بن عياض) الذي تحوَّل في ساعةٍ واحدة، من سارقٍ قاطع طريق، إلى زاهدٍ عابد، ثم محدِّثٍ عالم، وداعيةٍ إلى الله تعالى بحاله ومقاله، وذلك حين سمع كلام الله تعالى بقلبه ولُبِّه، فتاب توبةً صادقةً نصوحاً.

جاء في «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر ٨: ٢٩٤ و٢٩٦، في ترجمته «هو الزاهدُ العابد (فُضيل بن عياض) التميمي اليَربوعي الخُراساني ثم المكي، المتوفى سنة ١٨٧ رحمه الله تعالى.

قال أبو عمّار الحسين بن حُريث ــ تلميذ الفضيل ــ: سمعتُ الفضلَ بن موسى يقول: كان الفُضيل بن عياض شاطراً يقطعُ الطريق بين أَبِيوَرْد وسَرْخَس! وكان سببُ توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجُدران إليها، إذْ سمع تالياً يتلو: ﴿ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قُلوبُهم لذكر الله﴾؟!

فلما سمعها قال: بلى يا ربِّ قد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خَرِبَة، فإذا فيها سابلةٌ ــ أي جماعةٌ من المارَّة واقفين فيها ــ، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نُصبحَ فإنَّ فُضَيلاً على الطريق يقطعُ علينا!

قال: ففكَّرتُ وقلتُ: أنا أسعى بالليل في المعاصي!! وقومٌ من المسلمين يخافونني هٰهنا! وما أرى الله ساقني إليهم إلاّ لأرتدع. اللهم إني قد تُبتُ إليك، وجعلتُ توبتي مُجاورةَ البيت الحرام. وانتقل إلى مكة فزارها وجاور فيها إلى أن مات بها.

قال إبراهيم بن الأشعث خادم الفضيل: ما رأيت أحداً كان اللّٰهُ في صدره أعظم من الفُضيل، كان إذا ذُكر اللّٰهُ عنده، أو سمع القرآن، ظهر به الخوفُ والحزن، وفاضت عيناه فبكى حتى يرحمه من بحضرته. قال رباح بن خالد: قال لي عبدُ الله بن المبارك: إذا نظرتُ إلى الفُضيل، جدَّد لي الحزن، ومقتُّ نفسي! ثم بكى». انتهى. وهكذا يا أخي: التوبةُ المُحرقة، تأتي بالأنوار الصادقة.

صلَّى الله عليه وسلَّم: «يا أيُّها الناسُ توبوا إلى ربِّكم قَبْلَ أنْ تَموتُوا[1]، وتَقَرَّبوا إلى اللَّه بالعملِ الصالح مِنْ قبل أنْ تُشْغَلُوا»[2].

طُوبَى لمن مات وماتت معه ذنوبُه:

(١) توبةُ العبد المذنب من ذنوبه قبل موته: منحةٌ ربانية، وهناك أناس يموتون على ذنوبهم من غير توبة منها، فتبقى عليهم ذنوبهم! قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في «الإحياء» ٢: ٧٤ وفي طبعة ٤: ١٩١، في (كتاب آداب الكسب) في القسم الأول فيما يَعُمُّ ضَرَرُه:

«طوبى لمن إذا مات ماتتْ معه ذنوبُه، والويلُ الطويلُ لمن يموتُ وتبقى ذنوبُه مئة سنةٍ ومئتيْ سنة أو أكثر! يُعذَّبُ بها في قبره، ويُسأل عنها إلى آخر انقراضها. قال تعالى: ﴿ونكتُبُ ما قدَّموا وآثارهم﴾ أي نكتُبُ ما قدَّموه من أعمالهم، ونكتُبُ أيضاً ما أخَّروه من آثار أعمالهم، مما سنُّوه لمن بعدهم فعُمِل به. وفي مثله قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قدَّم وأخَّر﴾ وإنما أخَّر أعماله من سُنَّةٍ سيئة عمل بها غيره».

انتهى.

واذكر في طليعة هذا الصنف: الحكامَ السُّوء وقوانينهم المخالفة لشرع الله تعالى، وأصحابَ المؤلفات الخبيثة الملحدة، ودُعاة الفجور وعارضيه في الناس، وأصحاب الأغاني الماجنة الفاسقة، وأشباههم، فإنهم يموتون ولا تموتُ ذنوبُهم معهم!.

(٢) هذا جزء من حديث طويل، أخرجه ابن ماجه من حديث جابر في «سننه» ١: ٣٤٣، في باب فرض الجمعة، ولفظه: «يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشْغَلوا...».

وفي سنده: علي بن زيد بن جُدعان، وهو ضعيف باتفاق، والراوي عنه: عبدُ الله بن محمد العدوي، قال الذهبي في «الميزان» ٢: ٦٨، في ترجمته: «قال البخاري: منكر الحديث، وقال وكيع: يضعُ الحديث، وقال ابن حبَّان: لا يجوز الاحتجاج بخبره». ثم ساق الذهبي الطَّرَفَ المذكور هنا من حديثه.

وقال الحافظ ابن حجر في ترجمته في «تهذيب التهذيب» ٦: ٢١، بعد أن ذكر ما نقله الذهبي في تجريحه: «روى له ابنُ ماجه حديثاً واحداً في صلاة الجمعة، وقال ابنُ عبد البر: إنَّ جماعة أهل العلم بالحديث يقولون: إنَّ هذا الحديث من وضع عبد الله بن محمد العدوي، وهو عندهم مَوْسُومٌ بالكذب». انتهى. فالحديث موضوع.

ولا تصِحُّ التَّوْبةُ إلَّا بأَرْبعةِ أشياء:

حَلُّ إصرارِ القَلْب على المُعاوَدَةِ.

والاستغفارُ بالنَّدَمِ.

وَرَدُّ التَّبِعَاتِ وَالمَظَالِمِ (١).

وَحِفظُ الجَوارِح مِنَ الحواسِّ السَّبْع: السَّمعِ، والبصرِ، واللسانِ، والشَّمِّ، واليدينِ، والرجلينِ، والقلْبِ وهو أميرُهَا، وبه صَلاحُ الجَسَدِ وفَسَادُهُ.

وقد جعَلَ الله عَلى كلِّ جَارِحةٍ أمْراً ونهْياً فريضةً مِنْهُ، وجعَلَ بَيْنهُمَا سَعَةً وإباحَةً تَرْكُها فَضِيلَةٌ للْعَبدِ.

ففَرْضُ القلبِ ـ بعد الإيمانِ والتوبةِ ـ إخْلاصُ العمَلِ للَّه، واعتقادُ حُسنِ الظَّنِ عند الشبهة(٢)، والثقةُ بوعده، والخَوفُ مِنْ عذابِه، والرجاءُ لفضلِه(٣).

= وكان أولى بالمؤلف أن يستدلَّ على أمْر الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم بالتوبة بحديث الأغرّ بن يسار المُزني رضي الله عنه قال. قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم «يا أيها الناسُ توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرَّة» رواه مسلم في «صحيحه» ١٧ : ٢٤.

(١) المرادُ من رَدِّ التَّبعاتِ والمظالم: رَدُّ الحقوق إلى أصحابها.

(٢) هكذا في جميع النسخ، ولعل معناه إذا رأيت إنساناً صالحاً على شبهة فحسِّنْ ظنَّك به، فالأصلُ في المسلم حُسنُ الظَّنِّ بأخيه المسلم.

الهَرَبُ من اللَّهِ إلى الله

(٣) واعلم يا أخي. أنَّ كلَّ واحد إذا خفتَه هربْتَ منه، إلا الله سبحانه، فإنك إذا خفتَه هربْتَ إليه، فهو المخوفُ منه والمرجَّى المستأمَنُ به، فالخائفُ من الله هارِبٌ من رَبِّه إلى رَبِّه. ﴿ففِرُّوا إلى الله إني لكم منه نذيرٌ مُبينٌ﴾.

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم في حديث الدعاء عند النوم. «... لا ملْجأ ولا منْجا منك إلَّا إليك». رواه البخاري ١١ : ٩٨. =

وقد رُوِيَ في مَعْنَى القَلْبِ أخْبارٌ كَثيرة، منها: أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «إنَّ مِنَ المؤمنينَ مَنْ يَلِينُ لَهُ قَلبي»[1]. وقَالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «إنَّ الحقَّ يأتي وعلَيْه نُورٌ، فعليكم بِسَرائِرِ القلوب»[2].

= ومسلم ١٧: ٣٢. وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنه صلَّى الله عليه وسلَّم قال في دعائه في السجود من صلاة الليل: «اللهم إني أعوذ برضاك من سَخَطك، وبمعافاتك من عُقوبتك، وأعوذُ بك منك، لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك» رواه مسلم ٤: ٢٠٣.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في «شرح صحيح مسلم» ٤: ٢٠٤ «قال الإمام أبو سليمان الخطَّابي رحمه الله تعالى: في هذا الحديث الشريف معنى لطيف، وذلك أن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، استعاذ بالله تعالى، وسأله أن يُجيره برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته. والرِّضا والسُّخطُ ضِدَّان متقابلان، وكذلك المعافاةُ والعقوبة. فلمَّا صار صلَّى الله عليه وسلَّم إلى ذكر ما لا ضدَّ له، وهو الله سبحانه استعاذ به منه لا غير. ومعناه: الاستغفارُ من التقصير في بلوغ الواجب من حقِّ عبادته والثناءِ عليه».

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» ٥: ٢٦٧ في مسند أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وذكره الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠: ٢٧٦، وقال: «رواه الطبراني، ورجالُه وُثِّقوا». ولفظُ الحديث عنده عن أبي أمامة قال: لَقيني رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فأخذ بيدي ثم قال: «يا أبا أمامة إنَّ من المؤمنين من يَلينُ له قلبي». ولفظ الحديث في «مسند أحمد»: «قال أبو راشد الحُبْراني: أخَذَ أبو أمامة الباهلي بيدي وقال: أخذ بيدي رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: «يا أبا أمامة إنَّ من المؤمنين من يَلينُ لي قَلْبُه». لكن رواه الحافظ الذهبي في «ميزان الاعتدال» ١: ٣٣٢، في ترجمة (بقية): «... من يلينُ له قلبي». وكذلك رواه الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ١: ٤٢٠ في سورة آل عمران، عند الآية ١٥٩ عن «مسند أحمد» بلفظ: «من يلين له قلبي». فلعل نسخة «المسند» المطبوعة وقع فيها قلب في الإسناد إلى القلب!. وكذا في «مجمع الزوائد» ١: ٦٣، و ١: ٤٠٥ طبعة ١٤١٢.

(٢) لم أقف عليه فيما رجعت إليه من المراجع الحديثيّة، فالله أعلم بثبوته.

وقالَ ابنُ مسعود رضي الله عنه: للقُلوبِ شَهْوَةٌ وإقبالٌ[١]، وفَتْرَةٌ وإدْبَارٌ، فاغتنِمُوها عِندَ شَهْوتِها وإقبالِها[٢]، وذَرُوها عِندَ فتْرَتِها وإدْبارِها.

وقالَ ابنُ المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: القَلْبُ مِثْلُ المِرآة: إذَا طَالَ مكثها في اليَدِ صَدِئَتْ[٣]، وكالدابَّة: إذَا غَفَلَ عَنْها صاحِبُها هُزِلَتْ[٤].

---

(١) هكذا جاء في الأصلين وفي «الحلية» لأبي نعيم ١: ١٣١ وفي «روضة العقلاء» لابن حبّان ص ١٧ ـ ١٨ أي عند جميعهم بلفظ: (شهوة وإقبال)، والمعنى واضح. ولو قيل: إنها محرَّفة عن (شِرَّة وإقبال) أي نشاط ورغبة لما كان بعيداً، والله أعلم.

(٢) وقع في الأصلين: (فأكرموها عند شهوتها) وهو تحريف عن (فاغتنموها) كما جاء في نسخة ج، والمثبت من «الحلية».

(٣) هكذا في أكثر من نسخة، وجاء في نسخة ج: (إذا طال مكثها في البيت صدئت) وفي نسخة أ: (إذا طال مكثه في الكيس)، ولا شك أن التحريف عوَّر هذه الكلمة. والمعنى أن المرآة إذا طال بقاؤها من غير تعهّد لها وعناية بها صدئت.

(٤) هكذا في نسخة ج، ومعنى (هُزِلَتْ): ضعُفَتْ، وفي غير نسخة ج: (عدلت) أي مالت عن الطريق المطلوبة بسبب غفلة راكبها.

غفلةُ لحظة تكلّفُ المتاعبَ والأهوال:

ورُبَّ غفلة للقلب منك تُكلِّفُك المتاعب والأهوال! وتُشِطُّ بك عن الجادَّة مسافات وأميال! وما أجمل قول شاعر الإسلام محمد إقبال رحمه الله تعالى في «ديوان الأسرار والرموز» ص ١٢٦:

لحظةً يا صاحبي إن تغفُلِ ... ألفَ ميلٍ زادَ بُعْدُ المنزلِ!

رامَ نَقْشَ الشَّوْكِ حيناً رَجُلٌ ... فاختفَى عن ناظِرَيْهِ المَحْمِلُ

يقول إقبال رحمه الله تعالى: إنَّ إنساناً كان تائهاً في مفازة يمشي على قدميه، فشاهد عن بُعْدٍ منه محملاً أمَّل فيه أسباب النجاة والفوز من الهلاك، فأسرع متعجلاً يقصدُ ذلك المحمل حافياً متلهفاً، آملاً نجاته بوصوله إليه، فأصاب الشَّوْكُ قدمه، فصرف بصرَه عن المحمل لحظةً لنزع الشوكة من قدمه، فغاب المحملُ عنه! ومات أملُه، ولبسته الحسرات!! فحقٌّ من يطلُبُ شيئاً أن لا يتحوَّل عنه حتى يناله، ولو لقي في سبيله الشدائد والألاقيّ!

وقالَ بعضُ الحكماء: مَثَلُ القَلْبِ مَثَلُ بيتٍ لَهُ سِتَّةُ أبوابٍ، ثمَّ قِيلَ لَكَ: احذَرْ ألَّا يَدْخُلَ عليكَ مِنْ أحدِ الأبوَابِ شيء، فَيُفسِدَ عليْكَ البَيْتَ، فالقلْبُ هوَ البَيْتُ، والأبوابُ. اللِّسانُ، والبَصَرُ، والسَّمْعُ، والشَّمُّ، واليَدانِ، والرِّجْلانِ، فَمتَى انْفَتَحَ بَابٌ مِنْ هَذِهِ الأبوابِ بغيرِ عِلْمٍ ضَاعَ البيتُ!

ففَرْضُ اللسان، الصِّدْقُ في الرِّضَا والغضَب، وكفُّ الأذى في السِّرِّ والعلانية، وتَرْكُ التزيُّن للنَّاسِ بِالخَيْرِ والشرِّ.

قالَ رسُولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «مَنْ ضمِنَ لي ما بينَ لَحْيَيْهِ وما بينَ رِجْلَيْهِ ضَمِنْتُ لَهُ عَلى اللَّهِ الجنَّةَ»[1].

وقال رسُولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لمُعاذ بن جبَلٍ رضي الله عنه: «وهلْ يكُبُّ الناس في النَّار على مَناخِرِهِمْ إلَّا حَصَائِدُ ألسِنَتِهِمْ!؟»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» ١١ ٢٦٤ في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه بلفظ: «من يضمنْ لي ما بين لحْيَيْه، وما بين رجليه أضمنْ له الجنة». قال الحافظ ابنُ حجر في «فتح الباري». «اللَّحْيان هما العظمان في جانبي الفم. والمرادُ بما بينهما: اللسانُ وما يتأتّى به النطق، والمرادُ بما بين الرجلين الفَرْج. قال ابنُ بطّال. دلَّ الحديثُ على أن أعظم البلاء على المرء في الدُّنْيا. لسانُهُ وفَرْجُه، فمن وُقي شرَّهما وُقي أعظم الشرِّ»

(٢) هذا جزء من حديث طويل، أخرجه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه. الإمامُ أحمد والنسائي وابنُ ماجه والترمذي. وقال «حديث حسن صحيح»

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ص ٢٤١: «المرادُ بحصائدِ الألسنة: جزاءُ الكلامِ المحرَّمِ وعقوباتُه، فإنَّ الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات، ثم يحصُدُ يوم القيامة ما زرع، فمَنْ زرع خيراً من قول أو عمل حصد الكرامة، ومَنْ زَرَع شرّاً من قول أو عمل حَصَد الندامة!!».

وقالَ صلَّى الله عليه وسلَّم: «أُنْذِرُكُمْ فُضُولَ الكلامِ، حَسْبُ أَحدِكم مَا يَبلُغُ بِهِ حَاجتَهُ، فإنَّ الرجلَ يُسْأَلُ عنْ فُضُولِ كلامِهِ كَما يُسْأَلُ عنْ فُضُولِ مَالِهِ»(١).

وقالَ صلَّى الله عليه وسلَّم: «إنَّ اللَّهَ عِندَ لِسَانِ كُلِّ قائلٍ، فاتَّقى اللَّهَ امْرُؤٌ عَلِمَ مَا يَقُولُ»(٢).

---

(١) هذا ليس بحديث. وإنما هو من كلام الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، كما نسبه إليه الغزالي في «الإحياء» ٨: ٢١٢، ولفظه: «قال ابنُ مسعود: أنذركم فُضولَ كلامكم، حسْبُ امرىء من الكلام ما بلغ به حاجته». وقال شارحُ «الإحياء» العلامة الزبيدي في «شرحه» ٧: ٤٦٦. «أخرجه ابنُ أبي الدنيا في «كتاب الصمت»، فقال: حدثنا أبي، أخبرنا ابن عُلَيّة، عن ليث: أنَّ ابن مسعود قال: أُنذرُكم فُضولَ الكلام، بحسْب أحدكم ما بلغ حاجته». انتهى.

فقد جَعل ابنُ مسعود رضي الله عنه الفضول من الكلام أي الزائد منه على قدر الحاجة ذنباً يستحق العقوبة، ولذا أنذر وحذَّر منه. وقد حذَّر الشيخ أبو علي الدقّاق من فضول الكلام بأسلوب آخر يتحسَّسُهُ أهلُ الدنيا، المنهمكون في جَمع حُطامها الحريصون عليها، فقال رحمه الله تعالى: «لو كنتم تشترون الكاغد ــ أي الورق ــ للحفظة لسَكتُّم عن كثير من الكلام» كما في «شرح الأربعين النووية» للإمام النووي في شرح (الحديث الخامس عشر).

الساكتُ عن الحق شيطان أخرس: وأبو علي الدقاق هو الذي يقول: الساكتُ عن الحق شيطان أخرس. قال أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى: السكوتُ في وقته صفةُ الرجال، كما أن النطق في موضعه من أشرفِ الخصال.

وما أحسن ما قيل: اللهم اجعَلْ صَمْتي فِكْراً، ونُطقي ذكراً. أي مُرضياً لك أُثابُ عليه.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٨: ١٦٠ عن ابن عمر، والحكيمُ الترمذي في «نوادر الأصول» عن ابن عباس كما في «الجامع الصغير» للسيوطي ٢: ٢٤٠ بشرح المُناوي. وأشار المُناوي إلى ضعف الحديث بوجود راوٍ في سنده ساقط الاعتبار. ومعنى (فاتَّقى اللَّهُ امرؤ) أي فليتّقِ الله امرؤ. (فاتّقى) فعلٌ ماضٍ بمعنى فِعل الأمر.

وفَرْضُ البصرِ: الغَضُّ عنِ المَحَارِمِ، وتَرْكُ التَّطَلُّعِ فِيْما حُجِبَ وسُتِرَ[1]. ....

تزيينُ الشيطان لك مَنْ تحرم عليك من النساء:

(١) قال ابنُ المُقَفَّع في كتابه «الأدب الكبير» ص ٩٩، وهو يتحدَّثُ عن النساءِ البعيدات عن المرء، ويُحذِّرُ من التعلُّق بهنّ. «وما يَتزيَّنُ في العيونِ والقلوب، من فَضْلِ مَجْهُولاتِهِنَّ عن معروفاتِهنّ: باطلٌ وخُدْعَةٌ، بل كثيرٌ مما يَرغَبُ عنه الراغبُ مما عنده: أفضَلُ مما تتوقُ إليه نفسُهُ منهن». انتهى.

وقال الإمام ابن مفلح الحنبلي رحمه الله تعالى في كتابه «الفروع» ٥: ١٥١ و ١٥٥ و ١٥٨ «وليحذر العاقلُ إطلاقَ البصرِ، فإنَّ العين ترى غير المقدور عليه على غير ما هو عليه (أي ترى الإنسان الذي تُمنَعُ شرعاً من معاشرته والاختلاط به، على غير ما هو عليه!

تراه أجمل منظراً، والطفَ مَخبراً، وأوفقَ معشراً، وأطيبَ مَذاقاً وأُنْساً، مما عندها من القرين الحلال الطيب! الجميل اللطيف المتسامح المُوَاتي! تزييناً من الشيطان وتلبيساً منه عليها، ليُحوِّلَ أخزاه الله بتزيينه وتلبيسه ذاك المفتونَ من الحلالِ الطاهر إلى الحرام الخبيث، أو ليُكرِّهَه بالحلالِ الذي عنده، ويُحبِّبه بالحرام الذي لا يَحِلُّ له. ولأنَّ النفس لا تَميلُ إلى ما أَلِفَتْ، وتَطلبُ غيرَ ما عَرفَتْ، وتتخايَلُ لها في الجديد مزايا ومحاسن لم توجد فيما هو عندها!، فإنَّ الشيطان لفساده وإفساده يُريك أن ما ليس عندك أحسَنُ وأفضلُ مما عندك!).

وربما وقع من ذلك العشق، فيهلِكُ البدنُ والدين! وكم من نَظرةٍ ألقتْ في قلب صاحبها البلابل (وكم في المَحاجِر ــ أي حدقات العيون ــ من خناجر! وكم منها في القلوب من نُدوب! ــ أي جروح ــ).

وروى الحاكم في «تاريخه» عن ابن عيينة قال: حدثني عبد الله بن المبارك، وكان عاقلاً، عن أشياخِ أهل الشام قال: من أعطى أسباب الفتنة من نفسه أوَّلاً، لم يَنْجُ منها آخراً وإن كان جاهداً». انتهى بزياداتٍ ما بين الأهلة.

ربما هند بنت الخُسّ بعبدها لدوام قُربها منه

نعم، وكم ساق إطلاقُ البصر والاختلاطُ المحظور إلى مهالك وعارٍ ومخازٍ لا تُنسَى! «قيل لهند بنتِ الخُسِّ الإياديّة، إحدى أميرات العرب في الجاهلية، المشهورةِ بالعقل والذكاء والفصاحةِ وكثرة الحِكَم، ــ وقد زَنَتْ بعبدها، وكانت شريفةَ قومها وحكيمةَ نساء العرب ــ: لِمَ زَنَيْتِ بعبدكِ وأنتِ سيِّدةُ قومِكِ ولم تزني =

قال حُذَيفة رضي الله عنه: قال رَسُولُ الله صلىَّ الله عليه وسلَّم:

= محُرّ؟! وما أغراك به؟ فقالت: قُرْبُ الوساد، وطُولُ السُّواد!».

تعني أن الحامل لها على الوقوع في الزنا، وتعبّدِ أبيضاً: أمران، أحدُهما: (قُربُ الوِساد) أي كثرةُ المخالطةِ له ونومُها في مكان بالقُرْب منه، والآخرُ: (طُولُ السُّواد) أي كثرةُ المُحادثةِ له في السِّرِّ ودوامُ المُناجاةِ معَهُ، فهما الأمرانِ اللذانِ خرجا بها قليلاً قليلاً عن حشْمتها وعفافها! وشرفها وسيادتها في قومها! حتى وقعتْ في عار الزنا! وبعَبْدٍ! وقالت هذه الحِكمة!!

فلم تنفع بعقلها وفطنتها وحكمتها وذكائها! بل أقدمت على الوقوع في الفاحشة مع علمها بقُبحها وعارها، وسُوءِ سيرتها وسُمْعتها، وما ذلك إلاّ بسبب القُرْب والمحادثة ممن يحرم عليها. نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

وإنما استنكروا من (هند بنت الخُسّ) أن تزني ـ وهي حرة ـ بعبدها ـ وهو رقيق ـ، لأن الحُرَّة عند العرب تستنكف عن الزنا، ولما قرأ رسول الله صلىَّ الله عليه وسلَّم على النساء آية المبايعة لهن، وبلغ إلى قوله تعالى: ﴿ولا يزنين﴾ قالت هند امرأة أبي سفيان: أو تزني الحُرَّةُ يا رسول الله؟! لقد كنا نستحي من ذلك في الجاهلية، فكيف بالإسلام. أخرجه سعيد بن منصور وابن سعد ٨: ٩ و٢٣٧ عن الشعبي مرسلاً بسند صحيح. كما قاله ابن حجر في «الإصابة» ٤: ٤٢٥.

واستنكروا زناها بالرقيق العبد! لكون الرقيق دنيَّ المنزلة ـ يُباعُ ويشترى ويُستخدَم ويُمتهَن ـ فكان زناها به أقبَحَ وأكثر سقوطاً لها، وإنما عشَّى بَصرها وعقلَها عن الانتباه لكل ذلك قُرْبُ الوِساد وطُولُ السُّواد.

وقال الجاحظ في كتابه: «الحيوان» ١: ١٦٩ و١٧١، وهو يتحدث عن أثر تكرار النظر ـ مع القرب والمعرفة، واستمرارِ المحادثة ـ في طبيعة الإنسان:

«وبابٌ آخر مما يدعو إلى الفساد، وهو طولُ وقوعِ النظر على الإنسان الذي في طبعِه أدنى قابلٍ، وأدنى حركةٍ عند مِثْلِه.

وطولُ التداني، وكثرةُ الرؤية، هما أصلُ البلاء! كما قيل لابنة الخُسّ: لم زنَيْتِ بعبدك ولم تزْني بحُرّ، وما أغراك به؟ قالت: طُولُ السُّواد، وقُربُ الوساد.

قال الأوّلُ: ولا يَضُرُّكَ حُسنُ من لم تَعرِف ـ أي من لم يكن بينك وبينها معرفة وصلَة ـ، لأنك إذا أتبعتها بصرَك، وقد نَقَضَتْ طبعك، فعلمت أنك لا تصلُ إليها بنفسك ولا بكتابك ولا برسولك، كان الذي رأيت منها كالحُلْم، وكما يُتصوَّرُ =

«النَّظَرُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبليس، فَمَنْ تَرَكَه مِنْ خَوفِ الله آتاهُ اللّهُ إيماناً يَجِدُ حلاوتَهُ في قَلْبِه»[١]. وقال أبو الدَّرْدَاء رضي الله عنه: مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنِ النظر الحرام، زوَّجه الله مِنَ الحُورِ العينِ حيثُ أحبَّ، ومَنِ اطَّلَعَ فوقَ بُيوتِ الناس حشَرهُ الله يَوم القيامة أعْمَى!

وقال داودُ الطائيُّ لرجُلٍ ــ وقد أحدَّ النظرَ إلى بعضِ مَنْ يَنْظُرُ إليه ــ: يا هَذا ارْدُدْ نَظَرَكَ إليك، فإنهُ بَلَغَني أنَّ الرجلَ يُسْأَلُ عَنْ فُضُولِ نظرِه كَما يُسْأَلُ عَنْ فُضُولِ عمله[٢]. ويُقالُ: «لكَ النَّظْرَةُ الأولَى، ولَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ»[٣]. . . . .

= للمتمني، فإذا انقضى ما هو فيه من المُنى، ورجعتْ نفسُه إلى مكانها الأول، لم يكن عليه من فقدها إلا مثلُ فقد ما رآه في النوم، أو مثَّلته له الأماني» انتهى. أي بخلاف القريبة المنال، فإن الفتنة بها أقوى، واستيلاء الشيطان عليك بسببها أسرع وأنفذ.

فالعاقل من باعد بينه وبين الفتنة وأسبابها، ورجا من الله السلامة والعافية.

وقد صدق القائل البصير:

إنَّ السَّلامَةَ من سَلْمَى وجَارَتِها ... أنْ لا تَمُرَّ على حالٍ بوادِيها

يقال في اللغة: ساود الرجلُ المرأةَ سوداً، إذا سارَّها فأدنى سواده من سوادها، أي شخصه من شخصها، كما في «لسان العرب» لابن منظور في مادة (سود)، وقد حكى فيها هذا الخبر، وهو في «أعلام النساء» لكحّالة ٥: ٢٣١ ــ ٢٣٤.

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» ٤: ٣١٤ عن حُذيفة، وصحَّحه، وردَّه الحافظ الذهبي بأن فيه راوياً واهياً، وآخر ضعيفاً. ورواه الطبراني عن ابن مسعود، وقال الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» ٣: ٣١٧: «في سنده واهٍ». وأقربُ الروايتين لفظاً إلى اللفظ المذكور روايةُ الحاكم، وهي: «النَّظْرةُ سهْمٌ من سهام إبليس، مسمومةٌ، فمن تركها من خوف الله أثابه الله إيماناً يجدُ حلاوته في قلبه».

(٢) جاء في الأصل (عِلمِه)؛ وفي نسخة ج (مالِه).

(٣) هو حديث مرفوع، رواه بُريدةُ بن الحُصيب رضي الله عنه عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم. أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وقال: «حديث حسن =

فما هَجَمَ عَلَى النظرِ فهو موضوع عنِ العبد، وما استَمَرَّ بِهِ النظرُ بمعقولِ الفهم فالعبدُ مأخوذٌ بِهِ[١].

وفَرْضُ السَّمْعِ: تَبَعٌ للكلامِ والنَّظرِ، فكُلُّ مَا لا يَحِلُّ لَكَ الكلامُ فِيه ولا النظرُ إلَيه: لاَ يَحِلُّ لَكَ استِماعُهُ ولا التَلَذُّذُ بِهِ.

والبَحْثُ عَمَّا كُتِمَ عنكَ تَجَسُّسٌ[٢]، وَسَمَاعُ اللَّهْوِ والغِناءِ وأذى المسلمينَ: حَرَامٌ كالميتةِ والدَّمِ. قالَ عبدُ الله بن عُمَر رضي الله عنهما: نُهينا عنِ الغِيبةِ والاستِماعِ إلَيْها، وعنِ النَمِيمَةِ والاستِماعِ إليها.

وسُئِلَ القاسِمُ بنُ مُحَمَّد[٣] عنْ سَمَاعِ الغِناءِ؟ فقالَ: إذا ميَّزَ اللَّهُ بينَ الحقِّ والباطلِ يومَ القيامة، أين يقَعُ الغِناءُ؟ قيلَ: في حَوْزِ الباطل، قالَ: فَأَفْتِ نَفْسَكَ[٤].

= غريب». ولفظُهُ عندهم: «قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم: يا عليُّ لا تُتْبِع النظرةَ النظرة، فإنما لك الأولى، وليستْ لك الآخرة». وقولُه: «لك الأولى» يعني حيث تكون مفاجأةً من غير قصد. وقولُه: «وليستْ لك الآخرة» لأنها باختيارك وقصدِك فتكون عليك.

(١) يعني: ما توجَّهَ إليه النظرُ بقصد وفكر، فالعبدُ مسؤولٌ عنه.

(٢) جاء في الأصول الأربعة: (تجسيس). وهو تحريف.

(٣) هو: القسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كان من سادات التابعين وأحَدَ الفقهاء السبعة الذين كانوا مُتعاصرين في المدينة المنورة، ولد سنة ٣٧، توفي سنة ١٠٦ رضي الله عنه.

تحريم استماع الآلات وماتجره من ويلات:

(٤) رواه عنه ابن أبي الدنيا في كتاب «ذم الملاهي» بنحو هذا اللفظ، ورواه من طريق ابن أبي الدنيا: البيهقي في «السنن الكبرى» ١٠: ٢٢٤. وإليك ما جاء في تحريم آلاتِ الغِناء: المعازف، جاء في «صحيح البخاري» ١٠: ٤٧ ـ ٤٨ في كتاب الأشربة، في (باب ما جاء فيمن يَستحِلُّ الخمرَ ويُسمِّيهِ بغير اسمِهِ) عن عبد الرحمن بن غَنْم الأشعري قال: حدثني أبو مالك الأشعري ـ واللَّهِ ما كذَبني ـ سَمعَ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: «لَيَكونَنَّ من أمّتي أقوامٌ يَستحِلُّون الحِرَ ـ يعني: الزنى ـ، والحريرَ، والخمرَ، والمعازف» انتهى. =

وليسَ مِنْ جَارِحَةٍ أَشَدُّ ضَرَراً علَى العبدِ ـ بعد لِسانِه ـ مِنْ سَمْعِهِ، لأنه أَسْرَعُ رَسُولٍ إلَى القَلْب، وأَقْرَبُ وقُوعاً في الفِتْنَة.

وقدْ ذُكِر عَنْ وكيع بن الجرَّاح(١)، أنه قالَ: سَمِعْتُ كَلِمَةً مِنْ مُبْتَدِعٍ

= وفي هذا الحديث بيَّنَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ بين هذه الفواحش ترابطاً قوياً، إذ كلُّ واحدة منها تستدعي الأخرى، فالزنى يستدعي استحلال الترَيُّن بالحرير، وهو حرام على الرجال، كما يستدعي استحلال شُرْب الخمر، واستحلال عزف آلات اللهو، ليُزادَ بذلك عُرامُ الفساد في نفوس أهله، وليؤجِّجَ لَهيبَه إذا فَتَر فيها! نسأل الله السلامة والعافية.

قال الإمام أبو الفرج بن الجوزي: اعلم أن سماع الغناء يَجمعُ شيئين: أحدهما: أن يُلهي القلبَ عن التفكر في عظمة الله تعالى والقيامِ بخدمته. والثاني: أن يُميلَه إلى اللَّذات العاجلة، ويَدْعُو إلى استيفائها من جميع الشهوات الحسيَّة، ومعظمُها النكاح، وليس تمامُ لذَّتِهِ إلاَّ في المتجدِّدات، ولا سبيلَ إلى كثرة المتجدِّدات من الحلِّ، فلذلك يَحُثُّ على الزنا، فبين الغِناء والزنا تناسُبٌ من جهةِ أنَّ الغِناء لذَّةُ الروح، والزنا أكبرُ لذَّات النفس. انتهى من «رسالة في السماع والرقص» للشيخ ابن تيمية ٢: ٣١١ من «مجموعة الرسائل الكبرى» له

تعريف بوكيع بن الجراح زاهد العراق:

(١) هو الإمام الحافظ الثَّبت، محدِّثُ العراق، أبو سفيان وكيع بن الجراح الرُّؤاسي الكوفي، أحد الأئمة الأعلام. ولد بالكوفة سنة ١٢٩، وتوفي بفَيْد ـ بُلَيْدة في نصف طريق مكة من الكوفة ـ عائداً من الحج سنة ١٩٧ رحمه الله تعالى.

تفقه وحفظ الحديث واشتهر بالعلم، وصار من كبار العلماء في عصره. قال الإمام إسحاق بن راهويه فيه: كان حفظُه طَبْعاً، وحفظُنا بتكلُّف. وقال الإمام أحمد: ما رأيتُ أوعى للعلم ولا أحفظ من وكيع للحديث، ويُذاكِرُ بالفقه فيُحسِنُ، مع ورعٍ واجتهاد، ولا يتكلم في أحد، وكيعٌ إمامُ المسلمين في وقته. انتهى. وأراد الخليفة هارون الرشيد أن يوليه قضاء الكوفة، فامتنع ورعاً.

وقال الإمام يحيى بن معين فيه: وكيعٌ في زمانه كالأوزاعي في زمانه، وما رأيتُ أفضلَ منه، يقومُ الليل، ويَسرُدُ الصوم، ويُفتي بقول أبي حنيفة. وقال الإمام ابن المبارك: رجلُ المِصْرَيْنِ ـ أي الكوفة والبصرة ـ اليومَ: وكيعُ بن الجراح. وقال سَلْم بن جُنادة: جالستُ وكيعاً سبعَ سنين، فما رأيته بَزَق، ولا مَسَّ حَصَاةً، ولا =

مُنذ عِشْرِينَ سنة، مَا أَسْتَطِيعُ إِخْرَاجَها مِنْ أُذُنِيَّ!

وكَانَ طَاوُوس(١) إِذَا أَتَاهُ مُبتدِع سَدَّ أُذُنَيْه، ....

= خلس مجلسه فتحرَّك، ولا رأيتُه إلا مستقبل القبلة، وما رأيته يحلف بالله.

وقال سعيد بن منصور: قدم وكيع مكة، وكان سميناً، فقال له الفُضيل بن عياض: ما هذا السِّمَنُ وأنت راهبُ العراق؟ فقال: هذا من فرحي بالإسلام، فأفحمه. وكتَب مرةً من مَحْبرةِ إنسان، فوصَلَه بصُرَّةِ دنانير لكونه كَتَب من مَحبرته، وقال: اعذُرْني فإني لا أملكُ غيرَها. رحمةُ الله عليه. من «تذكرة الحفاظ» للذهبي ١: ٣٠٦ ـ ٣٠٩، و«تهذيب التهذيب» لابن حجر ١١: ١٢٣ ـ ١٣٠.

تعريف بطاووس بن كيسان اليماني بركة أهلِ اليمن:

(١) هو الإمام الجليل أبو عبد الرحمن طاووس بن كَيْسان اليماني الجَندي، أحد أكابر التابعين تفقهاً في الشريعة، وروايةً للحديث، واجتهاداً في الأتباع، وتنسُّكاً في الدين، وزهداً في الدنيا، وتقشفاً في العيش، وفضلاً في السلوك، وجرأةً على وعظ الخلفاء والملوك.

ولد سنة ٣٣ في بلدة جَنَد من اليمن، وكان رأساً في العلم والعمل. قال ليث بن أبي سُليم: كان طاووس يعُدُّ الحديث حرفاً حرفاً. وقال ابن حبان: وكان من عُبّاد أهل اليمن، ومن سادات التابعين، وحجَّ أربعين حجة، وكان مستجاب الدعوة.

وقال فيه الصحابي الجليل عبد الله بن عباس: إني لأظنُّ طاووساً من أهل الجنة. وقال قيس بن سعد: كان طاووس فينا ـ يعني في أهل اليمن ـ مثل ابن سيرين في أهل البصرة. وقال إبراهيم بن مَيْسَرة: ما رأيت أحداً الشريفُ والوضيعُ عنده بمنزلةٍ إلّا طاووساً. وقال سفيان بن عيينة: متجنِّبو السلطان ثلاثة: أبو ذر في زمانه، وطاووس في زمانه، وسفيان الثوري في زمانه.

قال الحافظ الذهبي: كان طاووس شيخ أهل اليمن، وبركتهم ومفتيهم، له جلالة عظيمة، وكان كثير الحج. فاتفق موتُه بمكة قبل يوم التروية ـ أي قبل يوم الخروج إلى منى ـ بيوم، سنة ١٠٦، ولم يتمكنوا من الصلاة عليه لكثرة زحام الناس على جنازته، حتى بعث إبراهيمُ بن هشام أميرُ مكة بالحرس، وكان ممن حمله عبدُ الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وكان يحمل السريرَ على كاهله، وقد سقطتْ قَلَنْسوةٌ كانت على رأسه، ومُزِّق رداؤه من خلفه، وصلّى عليه هشامُ بن عبد الملك الخليفة، رحمةُ الله عليه. =

لئِلَّا يَسْمَعَ كَلامَهُ[1].

= (تتمة مهمة): القصة التي ذكرها ابن خلكان في ترجمة طاووس، من أنه ـ ومعه مالك بن أنس ـ وعظ أبا جعفر المنصور وأغلظ له القول...، قصةٌ باطلة، لا يصح وقوعُها له ولا لابنه عبد الله، فإن طاووساً توفي سنة ١٠٦، ومالك بن أنس ولد سنة ٩٣، وأبا جعفر المنصور ولد سنة ٩٥، فكان عند وفاة طاووس في سِنّ الطفولة بعدُ، ودليلٌ آخرُ على بطلانها أن أبا جعفر تولى الخلافة بعد وفاة أخيه السفّاح سنة ١٣٦، فكيف يدخل عليه طاووس المتوفى قبل ثلاثين سنة؟! ولا يصح وقوعُها لابنه عبد الله أيضاً، فإنه توفي سنة ١٣٢ كما في ترجمته في «تهذيب التهذيب»، قبل خلافة أبي جعفر بأربع سنين، فالقصة باطلة مصنوعة.

التنبيه على كذب قصة طاووس مع المنصور:

(١) قال الإمام مالك: كان يقال: لا تُمَكِّنْ زائغَ القلب من أُذُنَيْك، فإنك لا تدري ما يَعْلَقُك من ذلك! ولقد سمع رجلٌ من الأنصار من أهل المدينة شيئاً من بعض أهل القدر ـ يعني سمع كلاماً من بعض المبتدعة ـ فعلق قلبَه، فكان يأتي إخوانه الذين يستنصحهم، فإذا نهوْه قال: فكيف بما علق قلبي؟! ولو علمتُ أن الله يرضى أن ألقي نفسي من فوق هذه المنارة فعلتُ». من كتاب «الجامع» للإمام ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله تعالى ص ١٢٠.

نماذج من تحفُّظ السلف من ذوي البِدَع:

روى الحافظ أحمد بن عبد الله الرازي الصنعاني في «تاريخ مدينة صنعاء اليمن» ص ٣٢٨، والحافظ ابن الجوزي في أوائل كتابه «تلبيس إبليس» ص ١٢، بسنده إلى «أحمد بن حنبل قال: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر قال: كان طاووس جالساً وعنده ابنُه، فجاء رجل من المعتزلة فتكلَّم في شيء، فأدخل طاووس إصبعيه في أذنيه، وقال: يا بُنيُّ أدخل إصبعيك في أذنيك حتى لا تسمع من قوله شيئاً، فإن هذا القلب ضعيف، ثم قال: أي بُنيَّ اُشْدُدْ، فما زال يقول: اُشْدُدْ حتى قام الآخَرُ». وفي نسخةٍ: المعتزليُّ.

وجاء في «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٧: ١٩٧، في ترجمة الإمام الكبير والتابعي الفقيه الجليل (محمد بن سيرين البصري) رحمه الله تعالى ما يلي:

«عن ابن عون، قال: جاء رجل إلى محمد بن سيرين، فذكَرَ له شيئاً من القدر، فقال محمد بن سيرين: ﴿إنَّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القُربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون﴾. =

وفَرْضُ الشَّمّ: تَبَعٌ للسَّمْع والبَصَر، فكُلُّ مَا حَلَّ لك استماعُهُ ونَظَرُهُ، جَازَ لكَ شَمُّهُ. وقَد رُوِيَ عَنْ عُمَر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه أُتِيَ بمِسْكٍ، فَأَمْسَكَ على أَنْفِهِ. فَقِيلَ لَهُ في ذلِكَ؟ فقالَ: وَهَلْ يُنْتَفَعُ مِنهُ إلَّا بِرَائِحَتِهِ[١]؟.

وفَرْضُ اليدينِ والرجلينِ: أَنْ لَا تَبْسُطَهما إلَى مَحْظُورٍ، ولاَ تَقْبِضَهما عَنْ حَقّ. قَالَ مسروق: مَا خَطَا العَبدُ خَطْوَةً إلَّا كُتِبَتْ حَسَنَةً أو سَيِّئَةً.

وكَتَبَتْ ابنَةُ سُلَيمان بن عبد الملك[٢]، إلى عَبْدَة بِنْتِ خَالدِ بن مَعْدَان[٣]: (زُورِيني)، فكَتَبَتْ إليها عَبْدَةُ: (أَمَّا بعدُ. فإنَّ أَبي رحِمَهُ اللّٰهُ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَسِيرَ مَسِيراً لَيسَ هُوَ فيهِ ضَامِناً على اللّٰهِ، أوْ يأْكُل

= قال: ووضع - ابنُ سيرين - إصبعيْ يديه في أذنيه وقال: إما أن تخرُج عني، وإما أن أخرُج عنك! قال: فخرج الرجل، فقال ابنُ سيرين: إنَّ قلبي ليس بيدي، وإني خفتُ أن ينفُث في قلبي شيئاً فلا أقدر أن أُخرجه منه، فكان أحبَّ إليَّ أن لا أسمعَ كلامَه».

(١) وقع في الأصلين: (فامسك عن أنفه)، وهو تحريف عن أنفه. والظاهرُ أنَّ المسْك كان من بيتِ المال حتى تورَّع الخليفة عمر بن عبد العزيز عن شمِّه رضي الله عنه.

(٢) هو سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي المُحْسن، ولد بدمشق، وتوفي فيها سنة ٩٩ رحمه الله تعالى، ولم أقف على ترجمة ابنته، فذكرتُ هذه الكلمة عنه للتعريف بها إجمالاً.

(٣) هو أحد التابعين رواة الحديث الثقات، كان أحدَ العُبّاد، وأصلُه من اليمن، وأقام بحمص من بلاد الشام، وكان شجاعاً غازياً كثير التسبيح والعبادة، توفي سنة ١٠٣ رحمه الله تعالى، وعرَّفتُ به لأني لم أقف على ترجمة ابنته، وفي ذلك بعضُ تعريف بها. وقد ذُكر لها رواية عن أبيها كما في ترجمته في «تهذيب التهذيب» ٣: ١١٩، وكما نراه في «تفسير ابن أبي حاتم» في الورقة السادسة من الجزء الأول المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية عند تفسير قوله تعالى: ﴿وأنزل من السماء ماءً﴾

طَعَاماً إذَا سُئِلَ عنهُ يوم القيامة لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فيهِ مَخْرَج، وقَدْ كَرِهْتُ مِنْ ذَلِكِ مَا كَرِهَ أَبِي. والسَّلَامُ عليكِ».

فإنْ قالَ قائل: فما السَّبِيلُ إلى العمَلِ بذلكَ؟ قِيلَ: لُزومُ مِنهاجِ الأئمةِ المتَّقين، والنظرُ في آدابِ المسترشدين لمعرفةِ الخَطْو[١]، والتيقُّظُ بالمحاسبة[٢]، والعَمَلُ بالإنْصافِ، والتجمُّلُ بكَفِّ الأَذَى، . .

---

(١) أي السَّيْرِ والسلوك الصحيح.

ستةُ نماذج من تيقظ السلف بالمحاسبة.

(٢) وإنما يَنْهضُ بهذا التيقُّظ الموفَّقون المراقبون شرْعَ الله في أنفسهم في المنْشط والمكْرهِ والسرَّاء والضرَّاء، وإليك ستّة نماذج من سيرة أولئك الموفَّقين تُدرِكُ منها معنى (التيقُّظ بالمحاسبة)، ولا يغبْ عن بالك كما سبق في الصفحة السابقة حجزُ إمساك الخليفة عمر بن عبد العزيز أنفه عن مِسْكٍ أُتِيَ به إلى بيت المال، فقيل له في ذلك؟ فقال: وهل يُنتفعُ منه إلاَّ برائحته؟ وهذا من أعلى درجات التيقظ بالمحاسبة.

ورعُ عمر عن تمسّح زوجته بالمسك عند وَزْنِهاله:

١ ــ روى الإمام أحمد في «كتاب الزهد» ص ١١٩، بسنده إلى «سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قدم على عُمر مِسْكٌ وعنبرٌ من البحْرين، فقال عمر: والله لوددتُ أني أجدُ امرأةً حسنةَ الوزْن، تزنُ لي هذا الطِّيبَ حتى أقسمه بين المسلمين.

فقالت له امرأته عاتكة: أنا جيِّدةُ الوزن، فهلُمَّ أزن لك، قال: لا، قالت: ولِمَ؟ قال: إني أخشى أن تأخذيه فتجعليه هكذا، وأدخل أصابعه في صُدْغيه، وتمسحين به عنقَك، فأصيبَ فضلاً على المسلمين».

نهي عمر بن عبد العزيز المتكلم أن يشير بيمينه

٢ ــ روى الحافظ أبو نُعيم في «الحلية» ٥: ٣٢٦ والإمام أحمد في «كتاب العلل ومعرفة الرجال» ١: ٣٨١، وفي «كتاب الزهد» ص ٣٠٠ ــ ٣٠١ في ترجمة عمر بن عبد العزيز خليفة الراشد رحمه الله تعالى: «أنَّ عُمر بن عبد العزيز رأى رجلاً يُشير بشماله، فقال: يا هذا إذا تكلّمت فلا تُشِرْ بشمالك، أشِرْ بيمينك، فقال الرجل: ما رأيتُ كاليوم، إنَّ رجلاً دلَّ أعزَّ الناس إليه ــ وهو ابنه عبدُ الملك التقيُّ الناسكُ العابدُ ــ، ثم إنه بهمَّة بمني من شمالي! فقال عمر: إذا استأثر الله بشيء فالْهُ عنه ــ أي اتْرُكه وأعرِضْ عنه ولا تَشْغل فكرك به ــ، فقال له الرجل: جزاك الله عن الإسلام خيراً. فقال له عمر بن عبد العزيز: لا، بل جزى الله الإسلام عني

. . . .

خيراً[1]

الحافظ المنذري يستلقي بالطريق ولا يجلس على مسطبة حانوت

٣ ـ قال الشيخ تاج الدين ابن السُّبْكي في «طبقات الشافعية الكبرى» ٥ : ١٠٩ في ترجمة الحافظ زكيّ الدين عبد العظيم المُنْذري الإمام الورع الزاهد الصالح صاحب كتاب «الترغيب والترهيب»: «سمعتُ أبي يحكي عن الحافظ الدمياطي أن الشيخ المنذري خرج من الحَمَّام مرّةً وقد أخذ منه حرُّه، فما أمكنهُ المشيُ! فاستلقى على الطريق إلى جانب حانوت! فقال له الحافظ الدمياطي: يا سيدي أنا أُقعدُك على مسطبة الحانوت، وكان الحانوت مغلقاً، فقال له الشيخ المنذري وهو في تلك الشدَّة: بغير إذن صاحبه كيف يكون! وما رضي».

التقي السبكي ينهى ابنه عن زجر الكلب بتحقير

٤ ـ قال الشيخ مرتضى الزبيدي في شرح «الإحياء» ٧ : ٥٦٦ في مبحث جواز غيبة الفاسق: «إن ذكر الفاسق بما فيه ليحذره الناسُ مشروطٌ بقصد الاحتساب وإرادة النصيحة دفعاً للاغترار به، فمن ذكر أحداً من هذا الصنف، تشفياً لغيظه، أو انتقاماً لنفسه، أو نحو ذلك من الحظوظ النفسية فهو آثم، صرّح بذلك التاج ابن السبكي عن والده تقي الدين السبكي، قال تاج الدين: كنتُ جالساً بدهليز دارنا فأقبل كلب، فقلتُ: اخسأ كلبَ بن كلب، فزجرني والدي من داخل البيت، فقلت: أليس هو كلب بن كلب؟ قال: شرطُ الجواز عدمُ قصد التحقير، فقلت: هذه فائدة».

أبو يوسف قاضي الرشيد يحاسب نفسه عند الوفاة

٥ ـ حكى العلامة علاء الدين الحصكفي في كتابه «الدر المختار» المحشى بكتاب «رد المحتار» ٤ : ٣١٣ قبل (فصلٌ في الحبس) من كتاب القضاء: أن الإمام أبا يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة وقاضي القضاة في زمن هارون الرشيد، كان قد تقاضى عنده الخليفةُ هارون الرشيد ونصرانيٌّ في خصومة وقعتْ بينهما، فقضى أبو يوسف للنصراني على الخليفة، ولما أدركتْه الوفاةُ قال: اللهم إنك تعلمُ أني وليتُ هذا الأمر، فلم أمل إلى أحد الخصمين حتى في القلب، إلا في خصومة النصراني مع الرشيد لم أسوِّ —

---

(1) وبه اقتدى الإمامُ أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، فقد سأله رجل عن شيء فأجابه، فقال له: جزاك الله عن الإسلام خيراً، فغضب وقال: لا، بل جزى الله الإسلام عني خيراً، ومن أنا؟ وما أنا؟ حتى يجزيني الله عن الإسلام خيراً. نقله ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد ص ٢٧٥.

. . . .

بينهما ـ أي في ميل القلب، إذ تمنيت بنفسي أن يكون الحق مع الرشيد ـ وقضيتُ للنصراني على الرشيد، ثم بكى!. انتهى من محاضرة الأستاذ عارف النكدي «القضاء في الإسلام» ص ٢٥.

ابنُ حامد الورّاق يمتنع عن شرب الماء قُبَيل موته ليَعرف مصدره.

٦ ـ ذكر القاضي ابن أبي يعلى الحنبلي في «طبقات الحنابلة» ٢: ١٧٧، في ترجمة (ابن حامد الورّاق: عبد الله بن الحسن بن حامد البغدادي) أنه كان ينسخ الكتب بيده ويقتات من أجرته، فسُمّي (ابن حامد الورّاق)، وكان كثير الحج، فعوتب في كثرة سفره وحجه مع كبر سنه، فقال: لعل الدرهم الزيف يخرُجُ مع الدراهم الجيِّدة.

قال: «وخرج إلى الحج في سنة ٤٠٢، فناله في بعض طريقه عطش شديد، فجاءه إنسان من الحاجّ بقليل ماء، وهو مستندٌ إلى حجر وقد أشرف على التلف، فأومأ ابن حامد إلى الجائي به يقول: من أين هو؟ أيُّ شيء وجهُه؟ فقال له الجائي: ما هذا وقتُ هذا السؤال؟! فأومأ أن نعم، هذا وقتُه، عند لقاء الله عز وجل أحتاج أن أدري ما وجهُه. وتوفي في طريقه راجعًا من مكة سنة ٤٠٣ رحمه الله تعالى».

فانظر ـ رعاك الله ـ إلى مدى يقظة هؤلاء الأئمة في محاسبتهم لأنفسهم.

والخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه خاف أن يزيد فضلاً عن نصيبه شيئًا من المسك سيبقى في أصابع إحدى زوجاته، من مباشرتها تقسيم المسك ووزنه. فيمنعها أن تتولى وزنه وقسمه.

والخليفة عمر بن عبد العزيز لم يَشغله حُزنُه الذي ملأ عليه يومَه ـ إذ دَفَن فيه أعزَّ الناس إليه ولدَه وفلذة كبده ـ أن يُعلّم الرجل ما أخطأ فيه، فلم يسمح لنفسه أن يسكت على مخالفة تقع من أحد أفراد الرعيّة، وهي الإشارةُ باليد اليسرى، فأرشد الرجل ـ وهو مغمورٌ في ذلك الحُزن العميق ـ إلى أن السُّنّة الإسلامية الإشارةُ باليد اليُمنى.

ولمّا مدَحه الرجل وأشار إلى فضله على الإسلام، ردَّه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك، ونبّهه إلى أن الفضل للإسلام وحده، إذ هو الذي علّمه الأدب والأخلاق، وهو الذي يصنع في نفوس أبنائه الأعاجيب من الأعمال والمناقب.

= والحافظ السِّري أرهقه حرُّ الحمّام حتى لم يستطع المشي، فاستلقى في الطريق

وبَذْلُ الفَضْلِ بِتَرْكِ المِنَّةِ، وحُسْنُ السَّمْتِ بغيرِ حَسَدٍ، والقناعةُ بِحُبِّ الخُمُولِ، وطُولُ الصَّمْتِ رغبةً في السلامة(١)، والتواضُعُ لِلْخَلْقِ بِلا وَحْشةٍ(٢)، والأُنْسُ بالذكرِ في الخَلْوَة، وتَفرُّغُ القَلْبِ للْخدمة، واجْتماعُ

من شدة ضعفه وانهيار قواه! فيقول له صاحبه: أنا أقعدك على مسطبة الحانوت، والحانوت معتق لا يتضرَّر بجلوسه أحد لو جلس، فيقول الشيخ وهو أشدُّ ما يكون تعبًا ورهقًا: فغير إذن صاحبه كيف يكون؟! وما رضي أن يجلس بل رأى أن الاستلقاء في الطريق أحبُّ إليه من القعود على مسطبة الحانوت، وهو شيخ مشايخ عصره مقامًا وعلمًا.

أما تقي الدين السبكي فقد رأى أن أنه أخطأ حين زجر كلبًا بلهجة المتنقِّص المحتقِر، فأعلمَهُ أنَّ ذلك لا يسوغُ ولو مَعَ الحيوان والكلب.

وأما القاضي أبو يوسف رحمه الله تعالى فقد رأى أنَّ مجرَّد ميله القلبي وتمنِّيه أن يكون الحقُّ في جانب إمام المسلمين الخليفة الرشيد لا في جانب النصراني زلَّةٌ يخشى عقوبتها من الله تعالى، فتجسَّم له ذلك الميلُ القلبي ذنبًا ارتكبه فبكى وهو يُودِّع الحياة!

وأما الفقيه ابن حامد الحنبلي رحمه الله تعالى فرأى — وهو في النَّفَس الأخير — أنْ يموت عطشًا أحبُّ إليه من أن يدخل جوفه ماءٌ لا يدري من أين جاء به حاملُه؟ لأنه يريد أن يلقى الله تعالى وهو نقيُّ الظاهر والباطن مما قد يُسألُ عنه.

فما أجلَّ هؤلاء الرجال؟ ولقد صدَقَ القائلُ:

هُمُ الرجالُ وعَيْبٌ أن يقالَ لمن ... لم يتصف بمعاني وَصْفِهم: رَجُلُ!

(١) وإذا كنتَ في مجلس وطال، فشعرتَ بفراغه من الخير فقُمْ عنه لسلامتك، ولا تُطِل جلوسك فيه، فقد قال الإمام الجليل محمد بن شهاب الزهري رحمه الله تعالى: إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب. كما في ترجمة الزهري من تاريخ ابن عساكر ص ١٥٢، وكما في مقدمة ابن الصلاح ص ٢١١ في النوع الثامن والعشرين.

(٢) وقد اختلفوا في معنى (التواضع) وأكثروا فيه، ومن خير ما فُسِّر به ما جاء عن الحسن البصري في كتاب «الزهد» للإمام أحمد في ترجمة (الحسن البصري أبي سعيد) ص ٢٧٩ «قال هشام بن حسان: ذكروا التواضع عند الحسن وهو —

الهمُّ بالمُرَاقبةِ، وطَلَبُ النجَاةِ في طَريقِ الاستقامةِ.

قالَ اللّهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿إنَّ الذينَ قَالُوا رَبُّنا الله ثُمَّ استقامُوا فَلا خوفٌ عليهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]. وقالَ سُفيان بن عبد الله الثقفي: يا رَسُول الله حَدِّثني بأمْرٍ أعتصِمُ بهِ، قالَ: «قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، ثُمَّ آسْتَقِمْ»[2].

وَقالَ عُمَر بنُ الخطَّاب رضي الله عنهُ: (استقاموا): لله بطاعته، ولم يَرُوغوا رَوَغانَ الثَّعالب. وقالَ أبو العالية الرِّياحيّ: (استقاموا): أَخْلَصُوا لله الدِّينَ والدَّعْوَةَ وَالعَمَلَ.

وَاصْلُ الاسْتقامة في ثلاثَةٍ: اتِّباعُ الكتابِ، والسُّنَّةِ، ولُزُومُ الجماعة[3].

= ساكت، حتى إذا أكثروا فيه قال لهم: أراكم أكثرتم الكلام في التواضع، قالوا: أي شيء التواضع يا أبا سعيد؟ قال: يخرُجُ من بيته فلا يلقى مُسْلِماً إلّا ظنَّ أنه خيرٌ منه».

(١) من سورة الأحقاف: الآية ١٣.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» ٢: ٩، ولفظه: «قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: قل . . .» وفي رواية: «لا أسأل عنه أحداً بعدك». قال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» ٢: ٩: «قال القاضي عياض رحمه الله: هذا من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلَّم وهو مطابق لقوله تعالى: ﴿إنَّ الذين قالوا: ربُّنا الله ثم استقاموا﴾ أي وحَّدُوا الله وآمنوا به، ثم استقاموا فلم يَحِيدوا عن التوحيد، والتزموا طاعته سبحانه وتعالى إلى أن تُوفُّوا على ذلك».

(٣) المرادُ بلزوم الجماعة: لزومُ الحقِّ وأهله ولو قَلُّوا، لا لزومُ أكثرِ الناس، وهذا مما يقع الخطأ في فهمه، فاقتضى ذلك التنبيه عليه. قال الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى في كتابه «الإحكام في أُصول الأحكام» ٥: ٨٧، في باب مبحث الشذوذ والجماعة: ما هي الجماعة التي عليك لزومُها؟

«والجماعةُ والجملةُ هم أهلُ الحق، ولو لم يكن في الأرض منهم إلّا واحدٌ فهُمْ =

. . . .

= الجماعةُ والحملةُ، وقد أسلم أبو بكر وخديجةُ رضي الله عنهما فقط، فكانا هم الجماعة، وكان سائرُ أهلِ الأرض ــ غيرهما وغيرِ رسول الله صلّ الله عليه وسلّم ــ أهلَ شذوذٍ وفُرقة، وهذا الذي قلنا لا خلافَ فيه بين العلماء».

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» ١: ٦٩ «وما أحسن ما قال أبو شامة في كتاب «الحوادث والبدع»: حيث جاء الأمرُ بلزوم الجماعة، فالمرادُ به لزومُ الحقّ واتّباعُه، وإن كان المتمسِّكُ به قليلاً والمخالفُ له كثيراً، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صلّ الله عليه وسلّم وأصحابه. ولا نظرَ إلى كثرة أهل البدع.

قال عمرو بن ميمون الأَوْدي: صحبتُ معاذاً باليمن، فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام، ثم صحبتُ بعده أفقه الناس: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فسمعته يقول: عليكم بالجماعة فإنّ يد الله على الجماعة. ثم سمعته يوماً من الأيام وهو يقول: سيلي عليكم وُلاةٌ يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فصلّوا الصلاة لميقاتها، فهي الفريضة، وصلُّوا معهم فإنها لكم نافلة.

قال: قلت: يا أصحاب محمد، ما أدري ما تُحدِّثون؟ قال: وما ذاك؟ قلت: تأمرني بالجماعة وتحضّني عليها، ثم تقول: صلِّ الصلاة وحدك، وهي الفريضة، وصلِّ مع الجماعة وهي نافلة؟

قال: يا عمرو بن ميمون قد كنتُ أظنُّك من أفقه أهل هذه القرية، تدري ما الجماعة؟ قلت: لا، قال: الجماعةُ ما وافق الحقَّ وإن كنت وحدك.

وفي لفظ آخر: فضرب على فخذي وقال: ويحك! إنّ جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق طاعةَ الله عزَّ وجلَّ.

وقال نُعيم بن حمّاد: إذا فسدت الجماعةُ فعليك بما كانت عليه الجماعةُ قبل أن تفسُد وإن كنت وحدك، فإنك أنت الجماعة حينئذ. ذكره البيهقي وغيره» انتهى.

ورواه الحافظ اللالكائي في كتاب «السنة» ١: ١٠٩ ــ المطبوع باسم «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» ــ بنحو هذا اللفظ.

وروى الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» ٢: ١٩١ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: الجماعةُ: الكتابُ والسُّنَّةُ وإن كنت وحْدك، وفي رواية: الجماعةُ =

واعْلَمْ أَنَّ أَنْجَى طَرِيقٍ للعبد: العمَلُ بالْعلم، والتحرُّزُ بالخوف، والغِنى بالله عَزَّ وَجَلَّ. فَاشْتَغِلْ بِإِصْلاحِ حَالِكَ، وافْتَقِرْ إلى رَبِّكَ وتَنَزَّهْ عَنِ الشُّبهات(١)، ....

= أهلَ الحقِّ وإن كنت وحدك. وقال إبراهيم النخعي: الجماعةُ هو الحقُّ وإن كنت وَحْدَك.

وقال ابنُ القيم أيضاً مثله في «إعلام الموقعين» ٣: ٤٠٩، ثم زاد عقبه ما ملخَصُه: «وقد جعل بعضُ الناس السُّنَّةَ بدعة، والمعروف منكراً، لقلة أهله وتفرُّدهم في الأعصار والأمصار، وقالوا: من شذَّ شذَّ في النار. وما عرفوا أن الشاذَّ من خالف الحق، وإن كان الناس كلُّهم إلا واحداً خالفوا الحق فهم الشاذُّون، وذلك الواحدُ هو الجماعة.

وقد شذَّ الناس في زمان الإمام أحمد بن حنبل إلا نفراً يسيراً، فكان ذلك النفر هم الجماعة، وكان القضاة والمفتون والخليفة وأتباعهم هم الشاذين، وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة. ولما لم تتحمل هذا عقولُ الناس قالوا للخليفة: يا أمير المؤمنين أتكون أنت وقضاتُك وولاتك والفقهاء والمفتون كلُّهم على الباطل، وأحمد وحده هو على الحقّ؟ فلم يتسع علمُه لذلك! فأخذه بالسياط والعقوبة بعد الحبس الطويل!». ثم ظهر الحقُّ وأهلُه، وبطل ما كانوا يدَّعون. كما تقدَّم تعليقاً في ص ١٤٥ ـ ١٤٨.

تعريف الشبهة وأثرُها في القلب والنهي عن الاسترسال معها:

(١) قال الشيخ الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «مفتاح دار السعادة» ص ١٥٢: «الشُّبهةُ واردٌ يردُ على القلب، يحول بينه وبين انكشاف الحق له. وبعضُ الناس ينقدحُ الشكُّ في قلبه بأوَّل عارضٍ من شُبهة. وهذا لضعف علمه وقلة بصيرته، إذا وردتْ على قلبه أدنى شبهة، قدحتْ فيه الشَّكَّ والرَّيْبَ، بخلاف الراسخ في العلم، لو وردتْ عليه الشُّبَهُ بعدد أمواج البحر ما أزالتْ يقينه، ولا قدحتْ فيه شكاً، لأنه قد رسخ في العلم فلا تستفزُّه الشُّبُهات، بل إذا وردتْ عليه، رَدَّها حَرَسُ العِلم وجَيْشُه مغلولةً مغلوبة.

ومتى باشر القلبُ حقيقةَ العلم، لم تُؤثِّر تلك الشبهةُ فيه، بل يقوى علمُهُ ويقينُه بردِّها ومعرفة بُطلانها. ومتى لم يُباشر حقيقةَ العلم بالحق قلبُه، قدحتْ فيه =

وَأَقْلِلْ حَوائِجَكَ إلى الناس(١)، وأَحِبَّ لَهُم مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، واكْرَهْ لَهُم ما تكرَهُ لنفسِك.

ولا تَحْقِرَنَّ ذَنْباً، ولا تُظْهِرَنَّ سِرّاً، ولا تَكْشِفَنَّ سِتْراً، ولا تُحَدِّثَنَّ نفسَك بخطيئةٍ، ولا تُصِرَّنَّ علَى صَغيرة.

= الشكُّ بأول وهْلة، فإنْ تداركها وإلاَّ تتابعتْ على قلبِه أمثالُها، حتى يصير شاكاً مرتاباً.

والقلبُ يتوارده جيشانِ من الباطل، جيشُ شهواتِ الغيِّ، وجيشُ شبهاتِ الباطل. فأيُّما قلبٍ صَغَا إليها وركَن إليها، تشرَّبها وامتلأ بها، فينضحُ لسانُه وجوارحُه بموجبها. فإن أُشرِب شُبُهاتِ الباطل تفجَّرتْ على لسانه الشكوكُ والشبهاتُ والإيرادات، فيظُنُّ الجاهلُ أن ذلك لسعة علمه، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه.

وقال لي شيخ الإسلام ــ ابن تيمية ــ رضي الله عنه، وقد جعلتُ أُوردُ عليه إيراداً بعد إيراد: لا تجعلْ قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشرَّبها فلا ينضحُ إلاَّ بها، ولكن اجعلْه كالزُّجاجة المُصْمتة، تمرُّ الشبهاتُ بظاهرها ولا تستقرُّ فيها، فيراها بصفائه ويدفعُها بصلابته، وإلاَّ فإذا أشربْتَ قلبك كلَّ شبهة تمرُّ عليك صار مقرّاً للشبهات. أو كما قال. فما أعلمُ أني انتفعتُ بوصيةٍ في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك.

وإنما سُمِّيت الشُّبهة شُبهةً، لاشتباه الحق بالباطل فيها، فإنها تلْبسُ ثوبَ الحق على جسم الباطل. وأكثرُ الناس أصحابُ حُسْنٍ ظاهر، فينظر الناظر فيما أُلبسَتْه من اللباس، فيعتقِدُ صحَّتها. وأما صاحبُ العلْم واليقين فإنه لا يغْترُّ بذلك، بل يُجاوزُ نظَرَه إلى باطنها وما تحت لباسها فتنكشفُ له حقيقتُها.

ومثالُ هذا: الدرهمُ الزائف، فإنه يغْتَرُّ به الجاهلُ بالنقد، نظراً إلى ما عليه من لباس الفضة. والناقدُ البصيرُ يُجاوزُ نظرَهُ إلى ما وراء ذلك فيطَّلعُ على زيْفه.

فاللفظُ الحسنُ الفصيح، هو للشُّبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف، والمعنى كالنُّحاس الذي تحته. وكم قد قتل هذا الاغْترارُ من خلقٍ لا يُحصيهم إلاَّ الله تعالى!».

(١) وقد قيل: عِزُّ الرجل استغناؤه عن الناس.

وافزَعْ إلى الله عند كلِّ فاقة، وافْتَقِرْ إليهِ في كلِّ حَال، وتوكَّلْ عليه في كلِّ أمر[١].

واعتزِلِ الهَوى، ولا تَقْنَعْ مِنْ نَفْسِكَ بالتربُّصِ، وأَخْمِلْ ذِكرَكَ، وأَدِمْ للّهِ شُكْرَكَ، وأَكْثِرْ مِنَ الاستغفارِ، واعْتَبِرْ بالإفكارِ[٢]، واستَعِدَّ بالعِلْمِ لوقوعِ الفِتَنِ.

وعليكَ بالتأنِّي عند مواردِ العَجلَة، وحُسْنِ الأدَبِ في المُخالطَة[٣]. ولا تغْضبْ لنفسكَ على الناس، واغضَبْ للّهِ على نَفسكَ، ولا تُكافِئَنَّ أحداً بإساءةٍ، واحذرْ المِدْحة للْجاهل بنفسه، ولا تَقْبلْها لنفسكَ مِنْ أحدٍ. وأَقلِلِ الضَّحِكَ، وَجَانِبِ المزاحَ[٤].

---

(١) ومن حقيقة التوكل: إثبات الأسباب والمسبَّبات، ومن نفاها فتوكُّله مزحٌ ولعب. وهذا عكسُ ما يظهر في بادئ الرأي من أنَّ إثبات الأسباب يقدحُ في التوكل، ولكن الأمر بخلافه، فإنَّ نفاة الأسباب لا يستقيمُ لهم توكُّلٌ البتة، فإنَّ التوكُّل أقوى الأسباب في حصول المتوكَّل به. فالتوكُّل كالدُّعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعُوِّ به. أفاده العلامة الفيروزآبادي في «بصائر ذوي التمييز» ٢: ٣١٨.

ومصداقُ هذا قولُ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم للأعرابي حين سأله: يا رسول الله أُرسِلُ ناقتي وأتوكَّل؟ قال: «أعقلْها وتوكَّل». رواه ابن حبان في «صحيحه» عن عمرو بن أمية الضَّمْري وإسناده صحيح كما في «فيض القدير» ٢: ٧ ــ ٨ وعقل الناقة: شد ركبتها مع ذراعها بحبل.

(٢) أي تدبَّرْ ما تفكَّرُ فيه واعتبِرْ، ولا تجعل تفكيرك فيما لا ثمرة منه.

(٣) أي في مخالطة الناس. قال رُوَيم بن أحمد البغدادي لابنه: يا بُنيَّ اجعلْ عملك مِلْحاً، وأدبك دقيقاً. أي استكثر من الأدب حتى تكون نسبته في سلوكك من حيث الكثرة، كنسبة الدقيق إلى الملح الذي يوضع فيه عند عجنه لِصُلحه خبزاً. وكثيرٌ من الأدب مع قليل من العمل الصالح، خيرٌ من كثير من العمل مع قلة الأدب. ذكره الإمام القرافي في كتابه «الفروق» ٣: ٩٦.

(٤) وكان التابعي الجليل الحسن البصري رضي الله عنه يقول: «الحُزْنُ في الدنيا تلقيحُ العمل الصالح، وضحكُ المؤمن غفلةٌ من نفسه، وكثرةُ الضحك تميت

واكتُمِ الأوجاعَ، وأظهِرِ التَّعفُّفَ، واستَبْطِنِ الثقة[1]، واستَشْعِرِ اليأسَ وصُنِ الفقْرَ، واصبِرْ عَلَى مَا أصابَكَ، وارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ، وكُنْ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ عَلَى يقِينٍ، وَمِنْ وَعِيدِه على وَجَلٍ. ولا تتكلَّمنَّ مَا قَدْ كُفِيتَهُ، ولا تُضيعَنَّ ما وُكِّلْتَ بِطَلَبِهِ، وافتقِرْ إلى اللَّهِ في كلِّ عَطائِه، وارْغَبْ في النجَاةِ مِنهُ.

واعْفُ عمَّنْ ظَلَمَكَ، وأعطِ منْ حرَمَكَ، وَصِلْ في الله من قَطَعكَ[2] واثِرْ في اللَّهِ مَنْ أحبَّكَ، وابذُلْ نفْسكَ ومَالَكَ لإخْوانكَ[3]،

= القلب». من «الحلية» لأبي نعيم ٢: ١٣٣ و١٥٢.

كان الصحابة يتمازحون ويتبادحون بالبطيخ وعند الحقائق هم الرجال

فإن قلت: أما كان الصحابة الكرام يضحكون ويمزحون؟ قلت: نعم، ولكن ما كان ذلك منهم على طبيعة أهل الغفلة واللهو والمُجون، فقد كانوا رضي الله عنهم يضحكون ويمزحون، وإذا واجهتهم المسؤوليةُ في أمر أو نهي كانوا هم الرجال.

وقد وصفهم التابعي الجليل بكر بن عبد الله المزني رضي الله عنه فقال: كان أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم يتمازحون ويتبادحون بالبطيخ ـ يتبادحون: يترامون ـ أي يترامون به، فإذا جاءت الحقائقُ كانوا هم الرجال. أي أصحاب الأمر. من «النهاية» لابن الأثير و«القاموس» للفيروزابادي في مادة (بدح).

ورَوَى ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» ص ٣١١، عن التابعي الجليل «أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، قال: كان من أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم من إذا أُريد على شيء من دينه، رأيت حماليق عينيه في رأسه تَدُور، كأنه مجنون!».

(١) أي اعتقد الثقة بالله تعالى في باطنك. وهو الذي لا يُخلف عقد من وَثِق به سبحانه.

(٢) في كتاب «العلل ومعرفة الرجال» للإمام أحمد ١: ٩٧ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أهدِ لمن لا يُهدي لك، وعُدْ من لا يعودك». وهو حديث مرسل.

(٣) قيل للتابعي الجليل محمد بن المنكدر رحمه الله تعالى: أيُّ العمل أحبُّ =

وَآرْعَ حقُوقَ المَوْلَى في دِينِكَ، ولاَ يَعْظُمُ في عينيك كَبيرٌ مِنَ المعروف تفعلُه، ولا تَحْقِرَنَّ صغيراً مِنَ المنكر تفعلُه[1]، وتفطَّنْ لدسائس القلوب، فإن لله عقوبات.

واحْذرْ التزيُّن بالعلم، كما تَحْذَرُ العُجْبَ بالعمل، وَلاَ تَعْتَقِدَنَّ باطِناً مِنَ الأَدَبِ يَنْقُضُهُ عليكَ ظَاهِرٌ مِنَ العِلْم.

وأطع الله في معصيةِ الناس، وَلا تُطع الناس في معصية اللّٰه تعالى، ولا تدَّخِرنَّ مِنْ جُهْدِكَ عن اللّٰهِ شيئاً، ولا ترْضَ مِنْ نفسك للّٰه عَمَلاً، وقُمْ بينَ يديهِ في صَلاتِكَ جُمْلَةً[2]، ....

بعث؟ قال: إدخال السرور على مؤمن، قيل له: فأيُّ شيء تشتهي؟ قال: الإفضال على الإخوان. رواه الإمام أحمد في كتاب «العِلَل ومعرفة الرجال» ١: ٣٣.

رزق الضيف يأتي معه

وقال الحافظ السِّلَفي رحمه الله تعالى في «معجم السَّفَر»: «أنشدني أحمد بن يوسف بن نام العقمري الشاطبي، بتوزير، أنشدني أبو الحسن جعفر بن إبراهيم الحرق المعروف بالحاج:

لِـمَ لا أُحِـبُّ الـضَّـيْـفَ أو ... أرتـاحُ مِـن طَـرَبٍ إلـيـهِ؟
والـضَّـيْـفُ يـأكُـلُ رزقَـهُ ... عِـنْـدي ويَشكُـرني عليـه»

نقله الدكتور إحسان عباس في «أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السَّفَر للسِّلَفي» ص ١٥٦.

(١) أو تراه، فإنه قد يقوم كثرة رؤية المنكر مقام الارتكاب، فتسلُبُ القلوب نور التمييز والإنكار، لأنَّ المنكرات إذا كثُر ورودُها على القلب، وتكرَّر في العين شهودها، ذهبتْ عظمتُها وبكارتُها من القلوب شيئاً فشيئاً، إلى أن يراها الإنسان فلا يخطر بباله أنها منكر، ولا يمر بفكره أنها معاصٍ، لِتألُّف القلوب بها. انتهى من «فيض القدير» للمناوي ٢: ٣٩٩.

لماذا جاء التكليف بالصلاة بلفظ (أقيموا الصلاة)؟

(٢) أي قم لله في صلاتك بكليتك وجميعك قلباً ونفساً وعقلاً، مع رعاية هيئتها وآدابها، فذلك هو المعنى المقصود من تكرار أمر الله تعالى في كتابه الكريم بلفظ ﴿أقيموا الصلاة﴾، ولم يأتِ هذا الأمرُ ـ ولا مرة واحدة ـ بلفظ (صلُّوا)

• • • • • • •

= و (إقامة الصلاة) معناها: أداؤها كاملة الأركان والشروط الظاهرة والباطنة.

ولإقامة الصلاة (بهذا المعنى) ثمراتٌ وأيُّ ثمرات في سعادةِ الأمة وسعادة أفرادها.

فمن شروط إثمار (إقامتها): أن تكون مستوفية حقَّها ظاهراً وباطناً، صورةً ومعنى، ففي الظاهر: الاطمئنانُ والخشوعُ في ركوعها وسجودها، والتأمُّلُ والتفهمُ من المصلي فيما يقرأ ويقول أو يسمعُ من الإمام من ذكر وأدعية، وفي الباطن استشعارُهُ خشية الله، وهو واقف بين يديه فيها، فلا يصرفه عنها شاغلٌ مَّا مهما كان عظيماً.

ولمنزلة (هذه الصلاة) كانت أوَّلَ شيء يطلبُه خليلُ الرحمن سيدُنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، من ربه لنفسه ولذريتِه فيقولُ: ﴿ربِّ اجعلني مُقيم الصلاة ومن ذُرِّيَّتي﴾

ومن أجل هذه المنزلة (لهذه الصلاة أيضاً) طلب اللهُ سبحانه من سيدنا محمد خاتم المرسلين صلَّى الله عليه وسلَّم: أن يأمر أهله بالصلاة، ويصبر على مشاقِّها فقال: ﴿وأْمُرْ أهلك بالصلاة واصطبِرْ عليها لا نسألُك رزقاً نحن نرزُقُك والعاقبة للتقوى﴾.

ومن ثمرات (هذه الصلاة) حين تؤدَّى على الوجه الذي طلبه الله سبحانه من (إقامتها) أنها تكُفُّ صاحبها عن كل فُحْش، وتُقصيه عن كل منكر، كما جاء ذلك في قوله سبحانه: ﴿وأقم الصلاة إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾

ومن ثمرات (هذه الصلاة) أن يتعوَّد المؤمنُ على الاستعانة بها في الشدائد، وتحمُّلها بنفس مطمئنة وعزيمة ثابتة، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبرِ والصلاةِ إن الله مع الصابرين﴾.

ومن ثمرات (هذه الصلاة) أنها تمحو الخطايا والسيئات، وأيُّ واحد ــ سوى من عصمهم الله ــ ليس له خطايا وسيئات؟! فكلُّنا في حاجة شديدة إلى هذه العبادة المطهِّرة، قال تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفيِ النهار وزُلَفاً من الليل إنَّ الحسنات يُذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾.

ومن ثمرات (هذه الصلاة) أنها تضعُ ــ بين صاحبها وبين التذبذب في دائرة الجزع والشُّح ــ سدّاً منيعاً، قال تعالى: ﴿إنَّ الإنسان خُلق هلوعاً إذا مسَّه الشرُّ جزوعاً وإذا مسَّه الخيرُ منوعاً إلاَّ المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون﴾. —

وَأَدِّ زكاةَ ما افْتَرَضَ اللّهُ عليكَ بالنشاطِ والرغبةِ، وَاحفَظْ صَوْمَكَ مِنَ الكذِبِ والغِيبةِ. وَارْعَ حَقَّ الجارِ والمِسكينِ والقريبِ[1]، . . . . . .

= وبعد هذا إذا رأينا رجلاً يصلي ولا تكسبه صلاتُه ثمرةً من هذه الثمرات الثمينة، تحتَّم أن نجزم أن صلاته ليست هي الصلاة التي أمر الله بها عباده، بل تكون أشبه بصلاة من قال الله فيهم سبحانه ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالَى يراءون الناس ولا يذكُرون الله إلاَّ قليلاً﴾ وقانا الله شرَّ ذلك بمنه وكرمه.

حُسنُ الجوار صفة المسلم

(١) واحرصْ أن تكون الجار الصالح المحبوب الذي قال فيه الشاعر:

إني لأحسُدُ جارَكم لجوارِكم ... طُوبى لمن أمسَى لدارِكَ جارا

يا ليت جارَك باعني مِن داره ... شِبراً فأعطِيه بشبرٍ دارا

وإليك ثلاثةَ أخبار لطيفة، جاء فيها المُغالاةُ بثَمَن حُسن الجوار، ذكر الخبرين الأولين منها أبو بكر الخوارزمي في كتاب «المكارم والمفاخر» ص ٢٣، قال:

جوار العجوز لعبدالله ابن طاهر:

١ ـ «كانت عجوز في جوارِ عبد الله بن طاهر ـ أمير خُراسان في العهد العباسي، توفي سنة ٢٣٠ ـ، ولها أربعُ بنات، فقيل لها: أنت فقيرة، فلو بعت دارك وتوسَّعت بها على نفسك وعيالك؟! فقالت: نعم، غير أني لا أبيع جوار عبد الله بن طاهر بالدنانير. فانتهى إليه الخبر، فدعا عبدُ الله بدلاّلة النساء، وقال لها: إنَّ لي أربع بنات، فاطلبي أزواجاً كراماً لهُنَّ، فجهَّزهنَّ كلَّ واحدة بمئة ألفٍ من خِزانته.

جوار اليهودي لعبدالله ابن المبارك:

٢ ـ وكان لعبد الله بن المبارك جارٌ يهودي، فأراد أن يبيع داره، فقيل له: بكم تبيع؟ قال: بألفين، فقيل له: لا تساوي إلاَّ ألفاً، قال: صدقتم، ولكنْ ألفٌ للدار، وألفٌ لجوار عبد الله. فأُخبر ابنُ المبارك، فدعاه فأعطاه ثمن الدار وقال: لا تَبِعْها». انتهى

جوارُ أبي الجهم لسعيد بن العاص:

٣ ـ باع أبو الجهم سليمانُ بن الجهم الأنصاري الكوفي، التابعيُّ الجليل، داره بمئة ألف درهم، ثم قال: بكم تشترون جوار سعيد بن العاص؟ قالوا: وهل يُشترى جوار قط؟ قال: ردوا عليَّ داري وخذوا مالكم، فإني والله لا أدع جوار رجل إن قعدتُ سأل عني، وإن رآني رحَّب بي، وإن غبتُ حفظني، وإن شهدتُ قرَّبني، وإن سألته قضى حاجتي، وإن لم أسأل بدأني، وإن نابتني الحاجة فرَّج عني، فلم =

وأدِّبْ أهلَكَ. وَارْفُقْ بما مَلَكَتْ يمينُكَ، وكُنْ قوَّاماً بالقِسطِ كما أمَرَكَ مولاك، وإذا حُرِّكْتَ لخيرٍ فتَعَجَّلْهُ، وما اشْتَبَهَ عليكَ فدعْهُ[1]. وألزِمِ الرَّحمةَ لِلمُذْنِبين، ولا تَدَعْ النَّصيحةَ لِلمؤمِنين، وقُلِ الحقَّ حيثُما كُنْتَ.

ولا تُكْثِرِ الأيمانَ وإنْ كُنتَ صَادِقاً[2]، ....

= ذلك سعيداً فبعث إليه بمئة ألف درهم.

وحذارِ أن تكون الجارَ الذي يَفِرُّ الناسُ منه، ويُباعُ جوارُه بأرخص الأثمان، كما قال بعضُ من نُكِبَ بسُوء الجوار:

يلومونني أن بِعتُ بالرُّخْصِ منزلي ... ولم يَعلموا جاراً هناك يُنغِّصُ

فقلت لهم: كُفُّوا الملامَ فإنها ... بجيرانها تغلُو الديارُ وترخُصُ

وجاء في «الوفيات» لابن خلكان ١: ٢٤١ في ترجمة التابعي الجليل أبي الأسود الدُّؤَلي: «كان لأبي الأسود بالبصرة دار، وله جارٌ يتأذى منه في كل وقت، فباع الدار! فقيل له: بعتَ دارك؟! فقال: بل بعتُ جاري، فأرسلها مثلاً». قال الميداني في «مجمع الأمثال» ص ٦٨: «وفي المثل: بعتُ جاري، ولم أبِعْ داري. أي كنتُ راغباً في الدار، إلا أن جاري أساء جواري، فبعت الدار!».

(١) وكان التابعي الجليل محمد بن سيرين رضي الله عنه إذا عرض له أمران في دينه أخذ بأوثقهما. وحدث أنه اشترى طعاماً ـ أي قمحاً للتجارة ـ بأربعين ألف درهم، فأُخبر عن أصل الطعام بشيء فكرهه، فتركه أو تصدَّق به. قال تلميذه هشام بن حسّان: ترك محمد بن سيرين أربعين ألفاً في شيء ما ترون به اليوم بأساً. كما في «تاريخ الإسلام» للحافظ الذهبي ٤: ١٩٤ ـ ١٩٥. وقد سبق في ترجمة المؤلف المحاسبي ص ٦٠ أنه ترك سبعين ألفَ درهم لشبهة قامت له في معتقَد أبيه.

(٢) فقد قيل: علامةُ الكاذب جُودُه بيمينه من غير مستحلِفٍ له. بل إن استطعت أن لا تحلف فلا تحلف، فقد روى ابن ماجه في «سننه» ١: ٦٨٠ والبخاري في «التاريخ» والحاكم في «المستدرك» ٤: ٣٠٣ واللفظ له بسند فيه ضعف «عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: الحلفُ حِنْثٌ أو نَدَم».

وذلك أن الحالف إما أن يحلفَ يمينه فيحنث ويأثم لكذب اليمين، أو يندمُ على =

ولا تُخاصِمْ وإن كنتَ مُحِقّاً، واحْذَرِ التوسُّعَ في المَنطِقِ وإنْ كُنتَ بَليغاً، وإيَّاكَ والتكلُّفَ في الدِّينِ وَإنْ كُنتَ عَالماً به. وَقَدِّمِ العِلْمَ قَبْلَ كلِّ مقالٍ(١).

= منعه نفسه مما كان له فعلُه وعملُه، أو مما كان لا ينبغي له فعله فدفعَه اليمين إلى فعله. ثم في قوله: والله لا فعلتُ، أو: واللهِ لأفعلَنَّ نوعُ تألٍّ على الله تعالى، فربما أكذبه الله فحنِثَ، أو عذَّب قلبَه بندم، فحقُّ المسلم أن يَتحاشى من الحلف ما استطاع، وإن ندر منه الحلفُ سهواً فليُتْبِعه بالاستثناء بمشيئة الله تعالى فيقول: إن شاء الله تعالى. فذلك أحفظُ لدينه وأسلمُ ليمينه، والله الهادي لمن استهداه.

(١) أي ينبغي أن تعلم حُكمَ ما تقوله أو تعمله قبل صدوره منك.

قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «اعلم أنَّ العمل تبعٌ للعلم، كما أنَّ الأعضاء تبعٌ للبصر، فالعلمُ مع العمل اليسير أنفعُ من الجهل مع العمل الكثير، ومثلُ ذلك: الزَّادُ القليلُ الذي لا بُدَّ منه في المفازة، مع الهداية بها، أنفعُ من الجهالة مع الزاد الكثير، ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ هلْ يَسْتوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾؟». من كتاب «العالم والمتعلم» رواية أبي مقاتل السمرقندي عنه ص ٩.

قال الشيخ ابن القيم في «إعلام الموقعين» ٢: ١٦٠ ـ ١٦١ وهو يتعرَّضُ لتفسير قوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم﴾. قال رحمه الله تعالى مبيِّناً أنَّ للعمل المشروع الناجح ثلاثة شروط:

أصول سعادة العبدِ بعمله اجتماعُ ثلاثة أمور، وهذا دستور لكل عمل:

١ ـ «وللعبدُ إذا عزم على فعل أمرٍ فعليه أن يعلم أوَّلاً هل هو طاعة لله أم لا؟ فإن لم يكن طاعة فلا يفعله إلاَّ أن يكون مباحاً يستعين به على الطاعة، وحينئذ يصير طاعة.

٢ ـ فإذا بان له أنه طاعة فلا يُقدِمْ عليه حتى ينظُر هل هو مُعانٌ عليه أم لا؟ فإن لم يكن مُعاناً عليه فلا يُقدِمْ عليه فيُذِلُّ نفْسه. وإن كان مُعاناً عليه بقي عليه نظرٌ آخر.

٣ ـ وهو أن يأتيه من بابه. فإن أتاه من غير بابه أضاعه، أو فرَّط فيه، أو أفسد منه شيئاً.

فهذه الأمور الثلاثة ـ الطاعة والإعانة والهداية ـ أصلُ سعادة العبد وفلاحه، وهو معنى قول العبد لربه: ﴿إيَّاك نعبد، وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم﴾. =

. . . .

= فأسعدُ الخلق أهلُ العبادة، والاستعانة، والهدايةِ إلى المطلوب. وأشقاهم من عَدِمَ الأمور الثلاثة.

ومنهم: من يكون له نصيبٌ من ﴿إياك نعبد﴾، ونصيبُه من ﴿إياك نستعين﴾ معدومٌ أو ضعيف، فهذا مخذولٌ مَهين محزون.

ومنهم: من يكون نصيبُه من ﴿إياك نستعين﴾ قوياً، ونصيبُه من ﴿إياك نعبد﴾ ضعيفاً أو مفقوداً، فهذا له نفوذٌ وتسلُّطٌ وقوّة، ولكن لا عاقبة له، بل عاقبتُه أسوأُ عاقبة!

ومنهم: من يكون له نصيبٌ من ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، ولكن نصيبُه من الهداية إلى المقصود ضعيف جداً، كحال كثيرٍ من العُبّاد والزُّهّاد الذين قلَّ علمُهم بحقائق ما بَعث الله به رسولَه صلّى الله عليه وسلّم من الهُدى ودين الحق». انتهى.

قال عبد الفتاح: هذا ــ والله ــ دستور عظيم، عليه أنوار مشكاة النبوة، يحتاجُ إليه كلُّ عاملٍ لصلاح نفسه، أو عاملٍ لصلاح الأمّة، فاحفظه حفظاً، معنى ولفظاً، فإنه ينفعك أيما نفع بإذن الله.

الفقيه البُهلولُ القيرواني يتخوّفُ أن يَعمل بدعة:

ومن جميل ما جاء عن السلف في تقديم العلم على العمل: ما حكاه القاضي عياض في «ترتيب المدارك» ٣: ٨٩ في ترجمة الإمام (البُهلول بن راشد القيرواني المالكي) صاحب الإمام مالك، المتوفى سنة ١٨٣ رحمه الله تعالى، وهو من كبار العُبّاد والزهاد وأهل الورع، قال فيها:

«خرج بُهلول يوماً على أصحابه، وقد غطّى خنصرَه بيده، وكان أهلُه قد سألوه حاجة، فربط في خنصره خيطاً ليذكرها، ثم قال: خفتُ أن أكون ابتدعتُ، فغطّى إصبعه لئلا يراه أحد فيقتدي به، ثم وجّه بعض أصحابه ــ وأسرَّ إليه الأمر ــ يسألُ ابن فرُّوخ صاحبَه عن ذلك، فجاءه فأخبره عنه: أن عبد الله بن عمر كان يفعل ذلك، فنحّى بهلول كفّه عن خنصره وقال: الحمد لله الذي لم يجعلني ممن ابتدع بدعة في الإسلام».

فانظر ــ رحمك الله ــ كيف توقف هذا الإمام الجليل عن إظهار الرُّتَيمة ــ ربط الخيط بالإصبع للتذكر ــ حتى يعلم حكمها من الشرع، خشية أن يقع في البدعة والمخالفة رحمه الله تعالى.

وآلزَم الإشفاقَ بعدَ الاجتهادِ، وَدَارِ الناسَ ما سَلِمَ لكَ الدِّينُ، وآحذَرِ المُدَاهَنةَ أَصلاً(١).

بيان الفرق بين المداراة والمداهنة:

(١) قال الحافظُ ابن حجر في «فتح الباري» ١٠: ٤٢٨ ما خلاصته: الفَرْقُ بين المداراة والمداهنة أنَّ المداراة هي خَفْضُ الجناح للناس، والرفقُ بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وتركُ الإغلاظ عليه حيث لا يُظهِر ما هو فيه، والإنكارُ عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألُّفِه، وهي من أخلاق المؤمنين ومندوبٌ إليها.

والمداهنةُ ـ وهي مأخوذة من الدِّهان، وهو الذي يظهَر على الشيء ويَستُرُ باطنه ـ مُعاشرةُ الفاسقِ وإظهارُ الرضا بما هو فيه من غير إنكارٍ عليه، وهي محرَّمة منهيٌّ عنها. انتهى.

وقيل في الفرق بين المداراة والمداهنة أيضاً: إنَّ المداراة هي بذلُ الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو صلاحهما جميعاً. والمداهنة هي بذلُ الدين لصلاح الدنيا.

وقال الإمام ابن القيم في الفرق بين المداراة والمداهنة في كتاب «الرُّوح» ص ٢٨١، ونقله الحافظ البقاعي في مختصره «سِرّ الرُّوح» ص ٢٣ ولخصه بقوله: «والفرق بين المداراة والمداهنة: أن المداراة: التلطفُ بالإنسان لتستخرج منه الحق، أو تردَّه عن الباطل. والمداهنةُ: التلطفُ به لتقره على باطله، وتتركه على هواه، فالمداراةُ لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق.

مثالُ ذلك رجل به قَرْحة فجاءه الطبيب الرفيق فتعرَّف حالها، ثم أخذ في تليينها حتى إذا نضِجَتْ بَطَّها برفق وسهولة، فأخرج ما فيها، ثم وضع عليها من الدواء ما يمنع الفساد ويقطع المادة، ثم تابع عليها المراهم المنبِّتة للحم، ثم ذرَّ عليها ما يُنشِّفُ الرطوبة، ثم شدَّ عليها الرباط، ولم يزل حتى صلحت، فهذا المداري.

وأما المُداهن فقال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء، فاستُرْها عن العيون بخرقة ثم الْهُ عنها. وهذا لِما رأى من جَزَعه من بطِّها، فلم تزل مادَّتُها تقوى وتستحكم، حتى زادت مَوادُّها وعظُمَ فسادُها!». انتهى.

وقد قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إنَّ الرجل لَيخرُجُ من بيته ومعه دِينُه، فيلقى الرجلَ له إليه حاجة، فيقول: إنك لذَيْتَ إنك لذيت ـ من ألفاظ الكنايات مثل كَيْتَ وكيت ـ يُثني عليه، وعسى أن لا يَحلى =

وَخَالِقِ الناسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ. ولا تَسْتَحِيَنَّ أَنْ تَقولَ فيما لا تعلم: اللّهُ أعلم[1].

ولا تَنْشُرْ حَدِيثَكَ عِندَ مَنْ لَا يُرِيدُهُ، ولَا تَبذُلْ دِينَكَ عِندَ مَنْ يُبْغِضُهُ إليكَ. وَلَا تَتَعَرَّضْ مِنَ البَلاءِ مَا لا طَاقَةَ لَكَ بِهِ، وأَكْرِمْ نفسَكَ عمَّنْ يُهِينُها، ونَزِّهْ هِمَّتَكَ عَنْ دَنَاءَةِ الأخلاقِ، ولا تُواخِ إلَّا أميناً.

ولا تُبدِ أَسْرارَكَ لكلِّ الناس، ولا تُجاوِزْ بالمرءِ حَالَهُ، ولا تُخاطِبْهُ مِنَ العِلْمِ بما لا يَحْتَمِلُهُ عقْلُهُ، ولا تَدْخُلْ في أَمْرٍ لَمْ تُدْعَ إليه.

ووَقِّرْ مَجَالِسَ العُلَماء، واعرفْ قَدْرَ الحُكَماء[2]. . . . .

= ـ أي لا يُعطى ـ من حاجته شيء، فيرجعُ بِسُخطُ الله عليه، فيرجعُ وما معه من دينه شيء! رواه الإمام أحمد في كتاب «العلل ومعرفة الرجال» ١: ٢٦٨.

(١) تقدم تعليقاً في ص ٨٢ ـ ٨٤ كلمةٌ حول هذا الأدب، فعُدْ إليها.

(٢) ما أجمله من أدب، وما أنفعه من طب؟ وقد لزم الإمامُ أحمد بن حنبل رضي الله عنه شيخه (هُشيم بن بشير الواسطي) خمس سنين، قال: وما سألتُه عن شيء هيبةً له إلّا مرتين. كما في كتاب «العلل ومعرفة الرجال» للإمام أحمد ١: ١٤٥.

وجاء في «الجامع الصغير» للسيوطي ٣: ٢٥٣ بشرح المُناوي، عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قوله: «تعلّموا العلم، وتعلّموا للعلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تعلّمون منه». رواه عن أبي هريرة: الطبراني في «الأوسط» وابن عدي في «الكامل» بإسناد ضعيف.

تواضع المتعلِّم للمعلِّم وطرَفٌ من تواضع السلف وأدبهم

قال العلامة المناوي في شرح قوله صلّى الله عليه وسلّم: (تواضعوا لمن تعلّمون منه): «فإن العلم لا يُنال إلّا بالتواضع وإلقاء السمع. وتواضُعُ الطالب لشيخه رفعة، وذُلُّه له عِزّ، وخضوعُه له فخر. وأخذ الحَبْرُ ـ أي العالِمُ الإمامُ ـ عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما مع جلالته وقرابته للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم بركاب زيد بن ثابت، وقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا، فقبَّل زيدٌ يدَ ابن عباس وقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا.

وقال السُّليمي: ما كان إنسانٌ يجترىء على ابن المسيِّب يَسأله حتى يستأذنه كما =

ولا تَدَعِ المُكافأةَ بالصَّنائع(١)، فإن لم تقدر فبالدعاء. ... ...

= يُستأذَنُ الأمير. وقال الشافعي: كنتُ أتصفَّحُ الورَقَ بين يدَيْ مالك برفْق لئلا يسمع وقْعَها. وقال الربيع ــ تلميذ الإمام الشافعي ــ: والله ما اجترأتُ أن أشرب الماء والشافعيُّ ينظر». انتهى.

أدبُ أبي حنيفة مع شيخه وأدبُ أبي يوسف معه:

وفي «مناقب الإمام أبي حنيفة» للموفَّق الخُوارزمي ٢: ٧: «رُوِي عن أبي حنيفة أنه قال: ما مددتُ رجلي نحو دار أستاذي حمّاد إجلالاً له، وكان بين داري وداره سبْعُ سكك. وما صلَّيتُ صلاةً منذ مات حمّاد إلاّ استغفرتُ له مع والديّ، وإني لأستغفرُ لمن تعلّمتُ منه أو علّمني علماً. وقال أبو يوسف ــ تلميذ الإمام أبي حنيفة ــ: إني لأدعو لأبي حنيفة قبل أبويّ. ولقد سمعت أبا حنيفة يقول: إني لأدعو لحمّاد مَعَ أبويّ». انتهى.

أدب الإمام أحمد مع الإمام الشافعي:

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ما بِتُّ منذ ثلاثين سنة إلاّ وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلتُ لأبي: أيُّ رجلٍ كان الشافعي، فإني سمعتُك تُكثر من الدعاء له؟ فقال: يا بُنيَّ، كان الشافعيُّ كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر، هل لهذين من خلف؟ أو عنهما من عوض؟ من «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي ٢: ٦٢ و٦٦.

عِظَمُ حقِّ المعلم

قال الإمام الغزالي في «الإحياء» ١: ٥٥، في (بيان وظائف المرشد المعلم):

«حق المعلم أعظم من حق الوالدين، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم ــ أعني الدالّ على الخير والآخرة ــ سبب الحياة الباقية، ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة». انتهى. قال عبد الفتاح: فأبُ الإفادة أنفعُ من أب الولادة.

اللهم اغفر لمشايخنا ولمن علّمنا وارحمهم، وأكرمهم برضوانك العظيم، في مقعد الصدق عندك، واجمعنا معهم في مستقر رحمتك يا أرحم الراحمين، واغفر لمن دعا لمؤلِّفه راجي الدعاء بالرحمة والمغفرة.

طلبُ المكافأة على الصنيعة

(١) الصنائع: جمعُ صنيعة، وهي النعمة واليدُ الحسنةُ تُقدَّمُ لك من غيرك، فلا تدعْ المكافأة عليها ومقابلةَ الصنيعة بالصنيعة. قال سيدنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «من صَنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له، حتى تروا أنكم قد كافأتموه». رواه عن ابن عمر. النسائي ٥: ٨٢ وأبو داود ٢: ١٧٢ واللفظ له في كتاب الزكاة (بابُ عطيّةِ من سأل بالله). =

وأَعْرِضْ عَنِ الجُهَّالِ، وَاحْلُمْ عَنِ السُّفَهاءِ، وَشَاوِرْ في أَمْرِكَ الذينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ.

وانصرْ أَخاكَ مظلوماً، وَرُدَّهُ إلى الحقّ إنْ كَانَ ظَالماً، وَابذُلْ لَهُ حَقَّهُ منكَ، ولا تُطَالِبْهُ بحَقِّكَ مِنهُ، وَيَسِّرْ عَلَى الغَرِيم[١]، وارْفُقْ بالأَرْمَلَةِ واليتيم، وأكرِمْ الصابرين من الفقراء، وَارْحَمْ أَهْلَ البَلاءِ مِن الأَغنياء، ولا تَحْسُدَنَّ أَحَداً عَلَى نِعْمَة، ولا تَذْكُرَنَّ أحداً بِغيبةٍ.

وَسُدَّ عَلَى نفسِكَ بَابَ سُوءِ الظَّنِّ بخَوْفِ المسألةِ[٢]، وافتَحْ بَابَ حُسْنِ الظنّ بِسَعَةِ التأويلِ، وأَغْلِقْ بَابَ الطَمَع بالإياس، واستَفْتِحْ بَابَ الغِنَى بالقناعةِ[٣].

= ومن المكافأة للنصيحة أن تدعُو لمن تعلّمت منه، أو أفادك فائدة، كما رأيته في التعليقة السابقة من دُعاء أبي حنيفة لشيخه حمّاد، ودُعاء أبي يوسف لشيخه أبي حنيفة، ودُعاء أحمد لشيخه الشافعي رضي الله عنهم. وقد جاء عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: الحُرُّ من راعى وِدادَ لحظة، أو انتمى لمن أفاده لفظة. كما في «شرح الباجوري على السنوسية».

(١) أي المَدين.

(٢) أي بخوفك من أن تُسأل بين يديْ الله تعالى عن سوء ظنّك بغيرك.

(٣) نَعَمْ: القناعةُ غِنى، وكنزٌ لا يفنى، وعزٌّ لا يموت، وشرفٌ لا يبلى، وطمأنينةُ قلب دائمة، أما الحرصُ والطمع فمرضٌ مُصاحِب، وهمٌّ دائب، يُقْلِقُ القلبَ ويُرهِقُه بالليل والنهار، ولا يُفارقُه إلّا عند الموت! وقد جاءت جملةُ أحاديثَ شريفة تَحُضُّ على القناعة وتدعو إليها، ومنها الحديثُ الذي صَحّ عن أبي الدرداء وغيرِهِ، عن النبي صلّى الله عليه وسلّم وفيه قوله: «ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألْهى». رواه الإمام أحمد في «المسند» ٥: ١٩٧.

قال بعضهم خُذ من الدنيا ما شئت، وخُذْ من الهمّ أضعافَه! ولهذا تحلّى العقلاء بالقناعة، إراحةً لقلوبهم وحِفاظاً على دينهم، وقد أحسن كلَّ الإحسان الإمامُ الحافظ المتقِنُ الأديب الشاعر أبو الحسن علي بن أحمد النُّعيمي البصري الشافعي، المتوفى سنة ٤٢٣ رحمه الله تعالى، وكان صاحب بأوٍ أي فخرٍ وتعاظم، في قوله كما في ترجمته في «سِيَر أعلامِ النبلاء» ١٧: ٤٤٧: =

ونَزِّهْ ذِكْرَ الله عنْ إضَافةِ المَكَارِهِ(١)، وحصِّلِ الأوقاتَ، واعرِفْ مَا يَذْهَبُ بهِ لَيلُكَ ونَهارُكَ(٢).

=

إذا أظمأتْك أكُفُّ اللئام | كفَتْك القناعةُ شِبْعاً وريّا
فكن رجلاً رِجْلُهُ في الثرَى | وهَامَةُ هِمّتِهِ في الثُّريّا
أبيّاً لنائلِ ذي ثروةٍ | تراه بما في يديه أبِيّا
فإنَّ إراقة ماءِ الحيا | ةِ دُونَ إراقةِ ماءِ المُحَيّا

لزوم الأدب في إضافة الأشياء لله:

(١) وقد كان من دعاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في افتتاح الصلاة: «لبَّيك وسعْديْك، والخيرُ كلُّه في يديك، والشرُّ ليس إليك». كما رواه أبو داود في «سننه» ١: ٢٠١ في (باب ما يستفتحُ به الصلاة من الدعاء).

قال ابن الأثير في «النهاية» في شرح قوله صلّى الله عليه وسلّم «والخيرُ كلُّه بيديك، والشرُّ ليس إليك». أي أنَّ الشرَّ لا يُتقرَّبُ به إليك ولا يُبتغى به وجهُك، أو أنَّ الشرَّ لا يصعدُ إليك، وإنما يصعدُ إليك الطيِّبُ من القول والعمل.

وهذا الكلامُ إرشادٌ إلى استعمال الأدب في الثناء على الله، وأنْ تُضاف إليه سبحانه محاسنُ الأشياء دُون مساويها. وليس المقصودُ نفي شيء عن قُدرته تعالى وإثباته لها، فإن هذا الأدب في الدعاء مندوب إليه، يُقال: يا ربُّ السماء والأرض، ولا يُقالُ: يا ربُّ الكلاب والخنازير وإن كان هو ربَّها، وربُّ كلِّ شيءٍ سبحانه.

حِفاظُ العلماء على الساعات، ومنهم الخطيب البغدادي:

(٢) أي اكتسِب الأوقات ولا تُضيِّعْها فرعةً من غير أن تملأها باستفادة أو إفادة، وخاصةً إذا كنت طالب علم، فالوقت هو رأس مالك، ولقد كان مؤرِّخ بغداد ومحدِّثُها الخطيبُ البغدادي يمشي وفي يده جُزءٌ يُطالعُه، كسباً للوقت حتى في أثناء المشي. كما في ترجمته في «تذكرة الحفاظ» للذهبي ٣: ١١٤١.

ومنهم أبوالوفاء بن عقيل الحنبلي وهو أعجوبة:

وجاء في سيرة الإمام الشيخ أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي (علي بن عقيل)، المولود سنة ٤٣١، والمتوفى سنة ٥١٣، وهو أحد الأعلام في الإسلام، ومن أفاضل العالَم، ومن أذكياء بني آدم: أنه كان يقول: إني لا يحِلُّ لي أن أُضيع ساعةً من عمري، حتى إذا تعطّل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملتُ فكري في حال راحتي، وأنا منطرح، فلا أنهضُ إلاّ وقد خطر لي ما أسطره. وإني لأجدُ من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشدَّ مما كنت أجدُه وأنا ابن عشرين سنة.

=

. . . .

= وأنا أُقصِّرُ بغاية جهدي أوقاتَ أكلي، حتى أختار سفَّ الكعك وتحسِّيه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوتِ المضْغ، توفُّراً على مطالعةٍ، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه. وإنَّ أجلَّ تحصيلٍ عند العقلاء بإجماع العلماء، هو الوقت، فهو غنيمة تُنْتَهزُ فيها الفُرَص، فالتكاليف كثيرة.

قال الشيخُ ابنُ الجوزي: كان الإمام ابن عقيل دائم الاشتغال بالعلم، وكان له الخاطرُ العاطر، والبحثُ عن الغوامض والدقائق، وجعل كتابه المسمَّى بـ «الفنون» مَناطاً لخواطره وواقعاته.

قال الحافظ ابن رجب: وللإمام ابن عقيل تصانيف كثيرة في أنواع العلوم، نحو العشرين تصنيفاً، وأكبرُ تصانيفه كتابُ «الفنون»، وهو كتاب كبير جداً، فيه فوائد كثيرة جليلة، في الوعظ، والتفسير، والفقه، وأصول الفقه، وأصول الدين، والنحو، واللغة، والشعر، والتاريخ، والحكايات، وفيه مناظراتُه ومجالسُه التي وقعَتْ له، وخواطرُه ونتائجُ فكره، قيَّدها فيه.

قال الحافظ الذهبي: لم يُصنَّف في الدنيا أكبرُ من هذا الكتاب، حدَّثني من رأى منه المجلَّد الفلانيَّ بعد الأربع مئة. قال ابن رجب: وقال بعضهم: هو ثمانُ مئة مجلَّدة.

قال ابن الجوزي: ولما أدركتْ الوفاةُ الإمام ابن عقيل واحتُضِر بكى النساء! فقال: قد وقَّعْتُ عن الله خمسين سنة ـ يعني أنه كان يُوقِّعُ الفتاوي التي يُبيِّنُ فيها أحكام الله في الوقائع والحوادث التي تقع للناس، فكان يُوقِّعُ فيها نيابةً عن الله تعالى ـ فدَعُوني أتهنَّأ بلقائه. ولم يُخلِّف سوى كتبه وثياب بدنه، وكانت بمقدار كفنه وأداءِ دَيْنه. رحمه الله تعالى وجزاه عن العلم والدين والإسلام خيراً.

وكان الفقيه عبد الله بن المبارك العُكْبَري تفقَّه على ابن عقيل، فأشار عليه شافعٌ الجيلي بشراء كتب ابن عقيل، فباع مِلكاً له واشترى بثمنه كتاب «الفنون» وكتاب «الفصول»، ووقفهما على المسلمين. انتهى ملخصاً من «ذيل طبقات الحنابلة» للحافظ ابن رجب ١: ١٤٢ ـ ١٦٥ و ١٨٥.

فانظر يا أخي ـ رعاك الله وإياي ـ كيف يُثمرُ إعمالُ الخاطر، وحفظُ الوقت، ودأْبُ النفس في الخير والعلم، إنه لَيُثمر ثمراتٍ لا تكاد تُصدَّق وإنها لَصِدق، يُثمِرُ (ثمانَ مئة مجلَّدة) للإمام ابن عقيل الحنبلي، فضلاً عن باقي مؤلفاته =

. . . .

= التي هي نحو العشرين مؤلفاً، وبعضُها في عشر مجلّدات.

العلم كالسَّيل يجتمع من نقطة نقطة:

وما أصدق وأجلَ قولَ الإمام بهاء الدين ابن النحاس الحلبي النحوي، المتوفى سنة ٦٩٨ رحمه الله تعالى إذ يقول:

اليومَ شيءٌ وغداً مِثلُهُ ... من نُخَبِ العِلْمِ التي تُلتَقَطْ
يُحصِّلُ المرءُ بها حِكمةً ... وإنما السَّيلُ اجتماعُ النُّقَطْ

وسامحني أيها القارىء فقد أطلتُ عليك في هذه التعليقة، ولكني أرجو أن ينفعك الله بها لتعرف قيمة الوقت، فإنه أرخصُ ما يكون عند الجهال، وأغلى ما يكون عند العلماء والعقلاء، فهو قوامُ علمهم وعمادُ حياتهم. وإذا كنت عرفت حالَ الإمام أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي في محافظتِه على وقتِه، وحرصه على الانتفاع به في كل نفسٍ من أنفاسه، حتى إنه كان يختارُ سفَّ الكعك وتحسِّيهُ بالماء على مضْغ الخبز، لأجل ما بينهما من التفاوت في الوقت، ليتوفّر على مطالعة، أو تسطير فائدة، أو القيام بعبادة.

حال ابن الجوزي في حفظ الوقت وهو إمام في ذلك:

فهلمّ حال الشيخ الإمام ابن الجوزي، تلميذ تلامذة أبي الوفاء بن عقيل، الذي اقتدى به في سيرته حتى كاد أن يكون إياه، لتشهده كيف كان يعرف شرف الوقت وقيمته، وكيف كان يكسِبُ الوقت إذا زاره ضيوف أو نزل به ثُقلاء بطّالون. قال رحمه الله تعالى في كتابه «صيد الخاطر» ١: ٤٦ و٢٠١ ــ ٢٠٢ و٢: ٣١٨ ــ ٣١٩:

«ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدْر وقته، فلا يُضيِّع منه لحظةً في غير قُربة، ويُقدِّم الأفضل فالأفضل من القول والعمل. ولتكنْ نيتُه في الخير قائمةً من غير فتور، بما لا يعجزُ عنه البدن من العمل، كما جاء في الحديث: «نيّةُ المؤمن خيرٌ من عمله». وقد كان جماعةٌ من السلف يُبادرون اللّحظات، فنُقِلَ عن عامر بن عبْد قيس ــ أحد التابعين العُبّاد الزهاد ــ أنّ رجلاً قال له: (كلِّمني)، فقال له عامر: أمْسِك الشمسَ.

وقد رأيتُ عمومَ الخلائق يدفعون الزمان دفعاً عجيباً! إن طال الليلُ فبحديثٍ لا ينفع، أو بقراءةِ كتاب فيه غزلٌ وسمر، وإن طال النهار فبالنوم، وهم في أطراف النهار على دِجلة أو في الأسواق ــ وكان ابنُ الجوزي يعيش في بغداد ــ فشبّهتُهم بالمتحدِّثين في سفينةٍ وهي تجري بهم، وما عندهم خبر!

. . . .

= ـرأيتُ أخا الدنيا وإن كان حاضراً أخا سَفَرٍ يُسْرَى به وهو لا يَدْري!

* * * * *

وإنا لفي الدنيا كركبِ سفينةٍ نُظَنُّ وقوفاً والزمانُ بنا يَجْري! ـ

ورأيتُ النادرين قد فهمُوا معنى الوجود، فهم في تعبئة الزاد والتأهُّب للرحيل، فالله الله في مواسم العمر، والبدارَ البدارَ قبل الفوات!

وأعوذ بالله من صُحبة البطَّالين! لقد رأيتُ خَلْقاً كثيراً يجرُون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويُسمُّون ذلك التردُّد خدمة، ويُطيلون الجلوس، ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني، وما يتخلَّله غيبة. وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المَزُور، وتشوَّفَ إليه، واستوحش من الوحدة، وخصوصاً في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضُهم إلى بعض. ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يمزجون ذلك بما ذكرتُه من تضييع الزمان!

فلما رأيتُ أنَّ الزمان أشرفُ شيء، والواجبُ انتهارهُ بفعل الخير، كرهتُ ذلك، وبقيتُ معهم بين أمرين. إن أنكرتُ عليهم وقعتْ وحشةٌ لموضع قطعِ المألوف، وإن تقبَّلتُه منهم ضاع الزمان! فصرتُ أُدافعُ اللقاءَ جُهدي، فإذا غُلبتُ قصَّرتُ في الكلام لأتعجَّل الفراق. ثم أعددتُ أعمالاً لا تَمنع من المحادثة، لأوقات لقائهم، لئلا يمضي الزمان فارغاً، فجعلتُ من الاستعدادِ للقائهم قطع الكاغد ـ أي قصُّ الورق ـ وبَرْي الأقلام، وحزم الدفاتر، فإنَّ هذه الأشياء لا بُدَّ منها، ولا تحتاجُ إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتُها لأوقات زيارتهم، لئلا يضيع شيء من وقتي

ولقد شاهدتُ خلقاً كثيراً لا يعرفون معنى الحياة، فمنهم من أغناه الله عن التكسب لكثرةِ مالِه، فهو يقعُدُ في السوق أكثر النهار ينظُرُ إلى الناس، وكم تمُرُّ به من آفة ومنكر. ومنهم من يخلو بلعب الشِّطْرنج، ومنهم من يقطعُ الزمان بحكاية الحوادث عن السلاطين والغلاء والرُّخص إلى غير ذلك، فعلمتُ أن الله تعالى لم يُطْلِع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلاَّ من وفَّقه وألهمه اغتنام ذلك، ﴿وما يُلَقَّاها إلاَّ ذو حظٍ عظيم﴾ نسألُ الله عز وجل أن يُعرِّفنا شرف أوقاتِ العُمر، وأن يُوفِّقنا لاغتنامه». آمين. انتهى كلام ابن الجوزي.

وقد أوسعتُ هذا الموضوع في كتاب لطيف، بلغ نحو ١٤٠ صفحة وطُبع أكثر =

وجَدِّدْ في كلِّ وقتٍ توبة، واجعَلْ عُمُرَكَ ثلاثَ ساعَات: سَاعةً للْعِلْمِ، وسَاعةً للعَمَلِ، وسَاعةً لحُقوقِ نفسِكَ ومَا يَلْزَمُكَ(١). واعتَبِرْ بمَنْ مَضى، وتفكَّرْ في مُنْصَرَفِ الفريقَيْنِ من بين يدي الله تعالَى: فريقٍ في الجنةِ بِرِضَاهُ، وفريقٍ في السَّعِيرِ بسَخَطِهِ، واعرِفْ قُرْبَ اللهِ مِنكَ، وأكْرِم

= من ست مرات، جمعتُ فيه أخبار العلماء في محافظتهم على الأوقات، فجاء كتاباً عجباً فيه العجائبُ الغرائب، وسمَّيتُه: «قيمة الزمن عند العلماء»، فاقرأه إذا شئت.

قولُ النبي: ياحنظلة ساعةً وساعة:

(١) روى الإمام مسلم في «صحيحه» ١٧: ٦٥ ـ ٦٧ في أوائل كتاب التوبة عن الصحابي الجليل كاتب الوحي لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حنظلة بن الربيع الأُسَيْدي رضي الله عنه قال:

«كُنَّا عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يُذكِّرُنا بالنار والجنة، حتى كأنَّا رأيُ عينٍ ـ أي نراهما رأيَ عين ـ، ثم جئتُ إلى البيت فضاحكتُ الصِّبيان ولاعبتُ المرأة، فخرجتُ فلقيتُ أبا بكرٍ فذكرتُ ذلك له، فقال: وأنا فعلتُ مثل ما تذكُر.

فانطلقتُ أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقلتُ: نافق حنظلةُ يا رسول الله! فقال: مَهْ ـ أي اكفُفْ عن هذا القول ـ، وما ذاك؟ قلتُ: يا رسول الله نكونُ عندك، فتُذكِّرُنا بالنار والجنة، حتى كأنَّا رأيَ عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسْنا الأزواج والأولاد والضَّيعات ـ أي لاعبنا الأزواج والأولاد واشتغلنا بمعايشنا وأعمالنا ـ فنَسِينا كثيراً!

فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: والذي نفسي بيده، إنْ لو تَدُومُون على ما تكونون عندي، وفي الذِّكْر، لصافحتْكُم الملائكةُ على فُرُشِكم وفي طُرُقكم، ولو كانتْ تكونُ قلوبُكم كما تكونُ عند الذكر، لصافحتكم الملائكةُ حتى تُسلِّم عليكم في الطُّرُق، ولكنْ يا حنظلةُ ساعةً وساعة، ساعةً وساعة، ساعةً وساعة». انتهى.

وقد أفاد هذا الحديثُ الشريفُ: فضلَ دوامِ الذكر لله تعالى، والفكرِ في أمور الآخرة والمراقبة، وجوازَ تركِ ذلك في بعض الأوقات، وجوازَ الاشتغال بأمور الدنيا. قاله الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» ١٧: ٦٥.

قال عبد الفتاح: ويُستفادُ من هذا الحديث الشريف أيضاً أن مخالطةَ الأهل والأولاد، والدخول في الأعمال الدنيوية المباحة، يَنتُجُ عنها غفلةٌ في القلب، ولكنها غفلة جائزةٌ مباحة، لا مؤاخذة فيها ولا تأثيم، والله تعالى أعلم.

الحَفَظَةَ الكرامَ الكَاتِبِينَ[١].

وتناوَلْ نِعَمَ اللّهِ بالفَهْم، ورُدَّهَا إليهِ بحُسْنِ الثناءِ والشُّكرِ[٢].

رعاية حق الملائكة الحفظـــة الكـــرام عليك

(١) قلت: نعم وما أحقَّهم بالإكرام، فإذا كان الرسول الكريم صلَّى الله عليه وسلَّم قد أوصى بالجار من الناس حتى قال «ما زال جبريل يُوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيُورِّثُه» وهذا في الجار من الناس الذي بينك وبينه جدار وأحجار، فكيف بالجار الكريم الملك المستقرِّ على كتفيك، يراك في كل تصرف تتصرفه لك أو عليك، فرعايةُ جواره أحق، وإكرامُ قُرْبه أسنَى والصق.

وما أحسَنَ ما قاله الشيخ ابن أبي جَمْرة الأندلسي رحمه الله تعالى في كتابه «بهجة النفوس وتحلِّيها بمعرفة مالها وما عليها» ٤ : ١٦٥ وهو يشرح حديث «ما زال جبريل يُوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيُورِّثُه» قال:

«تنبيه. إذا كنت يُؤكَّدُ عليك في حقِّ جار بيتك، وبينه وبينك جدار، وتُمنَعُ أن يصل إليه منك أذيّة، وتُؤمرُ بحفظه وإيصال الخير إليه، فكيف بمراقبة المسكينَ الحافظين، اللذين ليس بينك وبينهما جدار ولا حائل؟ وأنت تؤذيهما مع مُرور الساعات! بدوام التفريط وإيقاع المخالفات؟!

انظر بعقلك هل يصحُّ لك مع ذلك حقيقةُ الإيمان؟ ثم كيف حالُك يا مسكين؟! لأنه قد جاء أن الحفظة الكرام يُسرُّون بحسنات العبد أكثر مما يُسرُّ العبدُ بها عند رؤية ثوابها. وأنهما يحزنان ويغتمّان من سيئات العبد ومعصيته أكثر مما يحزن العبد إذا رأى جزاءه عليها.

فإساءتُك لهما بخطيئتك، وأنت لا تستحي ولا تنزجر! فتنبَّهْ يا بطّال قبل رفع الحجاب، وغلْق الباب، إذا كنت بنفسك لا تحفظُها، وجيرانُك منك لا يَسلمون، فالهربَ منك ثم الهربَ ثم الهَرَبَ!». انتهى.

بيتان في رقابة الملكين عليك في الخلوة:

ولقد صَدق نابغةُ بني شَيْبان عبدُ الله بن المُخارق التابعي الجليل رحمه الله تعالى، إذ يقول في قصيدة من «ديوانه»:

إنَّ من يَركَبُ الفواحش سرّاً ... حِينَ يخلو بسَوْءَةٍ غيرُ خالي
كيف يخلو وعنده كاتباهُ ... شاهِدَيهِ وربُّهُ ذو المِحالِ.

أي ذو القُوَّة.

(٢) وما أحسن موقف التابعي الجليل (عُبَيد بن عُمير المكي) قاصِّ أهل =

. . . .

عُبَيد بن عُمَير التابعي المكي وموقفه من الحسناء الفاتنة وردُّه لها عابدة

= مكة، المتوفى سنة ٦٨ من الهجرة رحمه الله تعالى، وقد اشتهر بعنايةٍ دينه وصلاحه، وكان فصيحاً بليغاً يجلسُ الصحابيُّ عبدُ الله بنُ عُمر في حلقته، ويبكي متأثراً بكلامه وصلاحه. فقد جاءته امرأة جميلة معجبة بحسنها، تريد أن تفتنه عن دينه وصلاحه، فأخرجها من أن تكون فاتنة من الفاتنات إلى أن تكون عابدة من العابدات، وردَّها إلى الله بالفهم لنعمه وحسنِ الشكر له سبحانه.

قال العجلي في كتابه «الثقات» ٢: ١١٩ «حدثني أبي عبدُ الله قال: كانت امرأةٌ جميلة بمكة، وكان لها زوج، فنظرتْ يوماً إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها: أتُرى أحداً يرى هذا الوجه ولا يُفتنُ به؟!! قال: نعم، قالت: من؟

قال: عُبيد بن عُمير، قالت: فأذَنْ لي فيه فلأفْتِنَنَّه! قال: قد أذِنتُ لكِ.

فأتته فاستفْتَتْه، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام، قال: فأسفرتْ عن مثل فلقة القمر! فقال لها: يا أمةَ الله اتقي الله، قالت: إني قد فُتِنْتُ بك فانظر في أمري! قال: إني سائلُك عن شيء فإن أنت صدقتِ نظرتُ في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلاّ صَدَقْتُك.

قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاكِ ليقبض روحكِ أكان يسرُّكِ أني قضيتُ لكِ هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقتِ. قال: فلو أن الناس أُعطوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابكِ بيمينك أم بشمالك؟ أكان يسرُّكِ أني قضيتُ لكِ هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صَدقتِ.

قال: فلو أردتِ الممرَّ على الصراط ولا تدرين أتنجين أم لا تنجين! أكان يسرُّكِ أني قضيتُ لكِ هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقتِ. قال: فلو جيء بالموازين وجيء بكِ لا تدرين تخفّين أم تثقلين! أكان يسرُّكِ أني قضيتُ لكِ هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقتِ. قال: فلو وقفتِ بين يدي الله للمُسائلة أكان يسرُّكِ أني قضيتُ لكِ هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقتِ.

قال: اتقي الله يا أمةَ الله، فقد أنعم الله عليكِ وأحسن إليكِ. قال: فرجعتْ إلى زوجها، فقال: ما صنعتِ؟ قالت: أنت بطّال ونحن بطّالون! فأقبلتْ على الصلاة والصوم والعبادة، فكان زوجُها يقول: ما لي ولعُبيد بن عُمير؟ أفسد عليَّ امرأتي!! كنتُ كلَّ ليلة عَرُوساً فصيَّرها راهبة!». انتهى.

ولقد صدَقَ من قال:

ما الكِيميا قلبُ الحجارةِ فِضّةً   بل أن تُزيلَ الظُلمةَ الأنوارُ

واحذَرْ مِن إيهامِ النَّفْسِ برُؤيةِ المقامات(١)، وتَسْفيهِ الحقِّ بغَمْطِ الناسِ فإنه سُمٌّ قاتلٌ، واعتزِلْ خَوفَ السُّقُوطِ مِنْ أَعْيُنِ الناسِ، بخوفِ مقت الله لك، وَخَوْفَ الفقر: بقرب الأجل منك. وَأَخْفِ أَثَرَكَ ما استَطَعْتَ(٢).

---

(١) معناه: إذا أَوهَمَتْكَ نفسُك أنَّ لكَ مقاماً عند الله تعالى، فاتَّهِمها واحذَرْ أن تغترَّ بما تُريك، أو بما يقوله الناسُ فيك، فليس ذلك من شأن العارفين بالله تعالى، الخائفين من علّامِ الغيوب.

ماجنةُ سمرقند تطلب من البهلول القيرواني دعوةً لاستمرار توبتها:

جاء في «طبقات علماء إفريقية وتونس» لأبي العَرَب ص ١٣٠، و«ترتيب المدارك» للقاضي عياض ٣ ٨٩، و«معالم الإيمان» للدباغ وابن ناجي ١ ٢٦٧ في ترجمة الإمام (البُهْلُول بن راشد القيرواني المالكي) أحدِ أصحاب الإمام مالك، المتوفى سنة ١٨٣ رحمه الله تعالى، وهو أحدُ العُبّاد الزهاد الورعين ما يلي

عن سعْدون بن أبان، عن دخْيُون بن راشد قال: كنتُ بالمدينة، فإذا رجلٌ يسأل أهاهنا رجلٌ من إفريقيَّة؟ فقلت له أنا، فقال: من أهل القيروان؟ قلت: نعم، قال. أتعرفُ لبُهلول بن راشد؟ قلت. نعم، فدفع إليَّ كتاباً وقال أوصِلْه إليه، فدفعتُ إليه الكتاب، ففتحه فإذا فيه. من امرأة من أهل سمرقند خراسان، أنا امرأة عشْتُ مُجوناً لم يمجُنه أحدٌ إلاّ أنا، ثم إني تُبْتُ إلى الله عز وجل، وسألْتُ عن العُبّاد في أرض الله تعالى، فوُصِف لي أربعةٌ أحدُهم بُهلول بإفريقية، سألتُك بالله يا بُهلول إلاّ دَعوتَ اللَّهَ أن يُديمَ لي ما فتَحَ لي فيه.

قال. فسقط الكتابُ من يده وخرَّ على وجهه، وجعَلَ يبكي، فلم يزل يبكي حتى لصِق الكتابُ بطين دُموعه، ثم قال. يا بُهلول! ذُكِرت بسمرقند خراسان! الويلُ لك من الله إن لم يستُر عليك يوم القيامة!». انتهى. فزادتْه رؤيةُ مقامه خوفاً وخشيةً من الله تعالى فما أعرفَه وأعقلَه!

نموذجان من السلف لإخفاء العمل الصالح:

(٢) أي أخفِ أعمالك الصالحة ما استطعت، لتكون أوفر إخلاصاً منك، وأوفى قبولاً من الله تعالى. وإليك هذين النموذجين:

١ ــ روى ابن سعد في «الطبقات الكبرى» ٦:٢٧٦، في ترجمة التابعي الجليل فقيه العراق (إبراهيم النخعي الكوفي) المتوفى سنة ٩٦ عن ٤٩ سنة رحمه الله تعالى، قال:

وابْذُل الجهدَ عِندَ المَشُورَة، وأَحِبَّ في اللّهِ بعَزْمٍ، وَاقْطَعْ في اللّهِ بحَزْمٍ(١). ....

= «أخبرنا الفضل بن دُكَين، قال: حدثنا معاوية بن عبد الله اليَمامي، قال: حدثني طلحة، قال: كان إبراهيم إذا أخذ الناسُ مَنامَهم، لَبِسَ حُلَّة طرائف، وتَطيَّب، ثم لا يبرحُ مسجدَه حتى يُصبح أو ما شاء الله من ذلك، فإذا أصبح نَزَع تلك ولَبِسَ غيرَها».

٢ ــ وقال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى في «تذكرة الحفاظ» ١٤٢:١، في ترجمة الإمام (منصور بن المعتمر السُّلَمي الكوفي) المتوفى سنة ١٣٢ رحمه الله تعالى: «قال زائدة بن قُدامة ــ تلميذ منصور ــ: صام منصور أربعين سنة، وقام ليلَها، وكان يبكي الليل كلَّه، فإذا أصبح كحَل عينيه، وبرَّق شفتيه، ودهَنَ رأسَه، فتقول له أُمُّه: أقتلتَ قتيلاً؟ ــ أي لكثرةِ ما ترى من بكائه ووجله وعبادته لله تعالى ــ، فيقول: أنا أعلمُ بما صَنَعَتْ نفسي! وكان قد عَمِش من البكاء».

قالت فتاة: يا أبت، الأسطوانةُ التي كانت في دار منصور ما فعلَتْ؟ قال: يا بنية ذاك منصور كان يصلي الليل، وقد مات! قال الثوري: لو رأيتَ منصوراً يصلي، قلت: يموت الساعة!». انتهى..

وتقدم تعليقاً في ص ٩٤ خبرُ الثوري عن (منصور بن المعتمر) هذا في وصفِ صلاتِه، فرحمةُ الله على تلك الأرواحِ المؤمنةِ الخاشعةِ المستترة، الوجِلةِ في الدنيا، الآمِنةِ المطمئنةِ عند لقاء ربها راضيةً مَرْضيةً في الآخرة.

الفرقُ بين العزم والحزم:

(١) العزْمُ في أصل معناه اللغوي: القُوَّة، والصبرُ، والجِدُّ، وتوجُّهُ الإرادة لفعل الشيء أي عقْدُ النية على فعله. والحَزْمُ: تعجُّلُ المرءِ فِعلَ ما يَخشى فواته بعد إحكام رأيه.

قال العلامة ابن الأثير رحمه الله تعالى في كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر» في (حزم) و(عزم): «الحَزْمُ ضبطُ الرجل أمْرَهُ والحذَرُ من فَوَاتِه. والعزمُ: الجِدُّ والصبرُ والقُوَّة».

حزمُ الخليفة أبي بكر وعزمُ الخليفة عمر

ومنه الحديث: «قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لأبي بكر: متى تُوتر؟ فقال: أوَّلَ الليل ــ يعني قبل أن ينام ــ، وقال لعُمَر: متى تُوتر؟ فقال: من آخِرِ =

ولا تُخَالِلْ إلّاَ تَقِيّاً[١]، ولا تجالس إلّاَ عَالِماً، ولا تُخَالِطْ إلّاَ عَاقِلاً بصِيراً. وكُنْ مُقتدياً بِمَن قَبْلَكَ مِنَ الأَئمّة، مُعَلِّماً لِمَنْ بَعْدَكَ مِنَ الأُمّة، إماماً للْمُتَّقِين، كَهْفاً للْمُسْتَرْشِدِينَ.

ولا تُظْهِرَنَّ إلَى أحدٍ شكوى، ولا تَأْكُلْ بِدِينِكَ الدُّنيا[٢]، . .

= الليل ــ يعني بعد أن ينام ويستيقظ من آخر الليل ــ ، فقال لأبي بكر: أخذت بالحَزْم، وقال لعمر: أخذتَ بالعَزْم.

أراد أنَّ أبا بكر حذر فوات الوتر بالنوم، فاحتاط وقدَّمه، وأنَّ عُمر وثق بالقوة على قيام الليل فأخَّره. ولا خير في عزمٍ بغير حزْم، فإنَّ القُوَّة إذا لم يكن معها حذر أورَطَتْ صاحبَها. انتهى.

والحديثُ المذكور رواه أبو داود في «سننه» ٢: ٨٩ بنحو هذا اللفظ، في (باب الوتر قبل النوم) عن أبي قتادة أن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال لأبي بكر.. الحديث. ورواه بنحوه أيضاً الإمام مالكٌ في «الموطأ» ١: ٢٣١ بشرح الزُّرقاني.

والمؤلف المحاسبي رحمه الله تعالى يريد بقوله: (وأحبُّ في الله بعزم، واقطعْ في الله بحزْم): أنه ينبغي أن تكون محبتك لمن تحبُّ في الله: بقوة وجدّ ومتانة، وقطيعتُك لمن تقطعُ في الله: بصرامة وسُرعة وحزامة، حتى لا يتمادى في انحرافه ومخالفته، فيكونُ ذلك رادعاً له وزجراً. والله أعلم. وفي هذه المسألة عندي تفصيل لا يتسعُ له المقام.

(١) قال سيدنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «لا تُصاحبْ إلَّا مؤمناً، ولا يأكلْ طعامكَ إلَّا تقي». رواه عن أبي سعيد الخدري أبو داود ٤: ٢٥٩، والترمذي ٩:٢٤٢ وقال: حديث حسن.

نموذج من ورع الفقيه البهلول القيرواني

(٢) وإليك نموذجاً ممن ترك أكل الدنيا بالدين، جاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض رحمه الله تعالى ٣: ٩٨، في ترجمة الإمام (البهلول بن راشد القيرواني المالكي) أحد أصحاب الإمام مالك رحمهما الله تعالى، «قال بعضهم: دفع بُهلول إلى بعض أصحابه دينارين ليشتري له بهما زيتاً يَستعدِبُه له، فذُكِرَ للرجل أن عند نصراني زيتاً أعذب ما يوجد، فانطلق إليه الرجلُ بالدينارين، فأخبرَ النصرانيَّ أنه يريد زيتاً عذباً للبهلول.

فقال النصراني: نحن نتقرَّبُ إلى الله بالبُهلول كما تتقربون أنتم به إليه، =

وخُذْ بحَظِّكَ منَ العُزْلَة[١]، ....

= وأعطاه بالدينارين من ذلك الزيت: ما يُعطى بأربعة دنانير من ذلك الزيت. ثم أقبل إلى بهلول فأخبره الخبر، فقال له بهلول: قضيتَ حاجةً فاقضِ لي أخرى، رُدَّ عليَّ الدينارين، فقال: ولِمَ؟ قال: ذكرتُ قولَ الله تعالى: ﴿لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر، يُوادُّون من حادَّ اللهَ ورسُوله﴾ فخشيتُ أن آكل زيت النصراني، فأجد له في قلبي مودةً، فأكون ممن حادَّ الله ورسوله على عرضٍ من الدنيا يسير!» انتهى.
فللّه درُّه ما أحرصَه على دينه؟

العُزلةُ المحمودة:

(١) العُزلةُ المطلقةُ التامَّةُ عن الناس غيرُ ممكنة ولا مطلوبة، فإنَّ الإنسان مدني بالطبع، لا يمكنه أن يعيش منفرداً، ولكن هناك عُزلةٌ محدودة أو خلطةٌ معدودة، تُطلبُ في زمن السُّوء وزمن الفتن، يقتصر فيها المرءُ على مخالطة الصالحين المجانسين له، الذين ينتفع بصُحبتهم في دينه وسُلوكه، وينتفعون بصحبته كذلك. فهذه العُزلةُ التي عناها المؤلف بقوله: (وخُذْ بحَظِّك من العُزْلة).

عُزلة الإمام ابن الجوزي:

وهذه العُزلةُ التي عناها الإمام ابن الجوزي في مواضع من كتابه البديع النفيس «صيد الخاطر» ص ١٣٢ و ٣٥٣ و ٣٧٣ و ٣٩٨، فقال رحمه الله تعالى:

«من أراد اجتماع همِّه، وإصلاح قلبه، فليحذر من مخالطة الناس في هذا الزمان ـ في القرن السادس قبل أكثر من ثماني مئة سنة ـ ؛ فإنه قد كان ـ أي قديماً عند السلف ـ يقعُ الاجتماعُ على ما ينفعُ ذكرُه، فصار الاجتماعُ على ما يضرُّ.

وقد جرَّبتُ على نفسي مراراً أن أحصرَها في بيت العزلة، فتجتمعُ همَّتي، ويُضافُ إلى ذلك النظرُ في سير السَّلف، فأرى العزلةَ حِميةً، والنظر في سير القوم دَواءً، واستعمالُ الدواءِ مع الحميةِ عن التخليط نافع.

فإذا فَسَحتُ لنفسي في مُخالطة الناس ولقائهم ـ أي عامَّةً ـ ، تشتَّتَ القلبُ المجتمعُ، ووقع الذهولُ عما كنتُ أُراعيه، وانتقش في النفس ما قد رأتْهُ العين! وفي الضمير ما سمعَتْه الأُذن! وفي النفس ما تطمعُ في تحصيله من الدنيا! وإذا جُمهورُ المخالطين أربابُ غفلة! والطبعُ بمجالستهم يسرقُ من طبعهم!

فإذا عُدتُ أطلبُ القلبَ لم أجده، وأرومُ ذلك الحضور فأفقدُه، فيبقى فؤادي في غِمار ذلك اللقاءِ للناس أياماً حتى يسلو الهوى! وما فائدةُ تعريض البناء للنقض؟ فإنَّ دوام العزلة كالبناء، والنظر في سير السلف يرفعُه، فإذا وقعت المخالطة، انتقض ما بُني في مُدَّةٍ، في لحظة، وصَعُبَ التلافي، وضَعُفَ القلب! =

ولا تأْخُذَنَّ إلَّا حلالاً(١)، وجَانِبِ الإسراف، واقْنَعْ مِن الدُّنيا بالكَفَافِ.

= ولا يصفو التعبُّدُ والتزهدُ والاشتغالُ بالآخرة، إلَّا بالانقطاع الكلي عن الخلق، بحيث لا يُبصرهم، ولا يَسمعُ كلامَهم إلَّا في وقتِ الضرورة، كصلاةِ جمعة أو جماعة، ويَحترز في تلك الساعات منهم، وإن كان عالماً يُريدُ نفعَهم، وعدهم وقتاً معروفاً، واحتَرَز في الكلامِ معهم.

فليس في الدنيا أطيبُ عيشاً من منفردٍ عن العالم بالعلم، فهو أنيسُه وجليسُه، قد قَنِع بما سَلِم به دِينُه من المباحات الحاصلةِ لا عن تكلفٍ ولا تضييعِ دين، وارتدى بالعزِّ عن الذُّلِّ للدنيا وأهلها، والتحف بالقناعة باليسير، إذ لم يقْدر على الكثير.

بهذا الاستعفاف يسلمُ دينُه ودنياه، واشتغالُه بالعلم يَدُلُّه على الفضائل، ويُفَرِّجُه في البساتين، فهو يسلمُ من الشيطان والسلطان والعوامِّ بالعُزْلة، ولكن لا يصلح هذا إلَّا للعالم. فإنه إذا اعتزل الجاهلُ فاتَهُ العلمُ فتخبَّط، فكم فوَّتَتْ العُزلةُ علماً يصلُحُ به أصلُ الدين، وكم أوقعتْ في بليَّةٍ هلك بها الدين، وإنما عُزلةُ العالمِ عن الشرِّ فحسب».

آثار أكل الحلال:

(١) سُئل الإمام أحمد بن حنبل: بم تلينُ القلوب؟ قال: بأكل الحلال. كما في «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى ١: ٢١٩. وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَري: من أحبَّ أن يُكاشَف بآيات الصدِّيقين فلا يأكل إلَّا الحلال، ولا يعمل إلَّا في سُنَّة. وقال عبد الله بن المبارك: ردُّ درهم من شبهة أحبُّ إليَّ من أن أتصدَّق بمئة ألف درهم.

قول نساء السلف: اتقوا الله فينا ولا تطعمونا الحرام.

وكان نساءُ السلف يوصين أزواجهن إذا خرجوا للسعي والكسب فيقُلن لهم: اتقوا الله فينا ولا تُطعمونا الكسب الحرام، فإنا نصبر على الجوع والضرّ ولا نصبرُ على النار. من «الإحياء» للإمام الغزالي أواخر كتاب آداب النكاح. وكان الإمام التابعي الجليل محمد بن سيرين، إذا ودَّع رجلاً قال له: اتق الله واطلب ما قُدِّر لك من حلال، فإنك إن أخذته من حرام لم تُصِب أكثر مما قُدِّر لك. من «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٧: ٢٠١.

وقال بشرٌ الحافي شيخُ الزهد والورع: عشرةٌ كانوا يأكلون الحلال، لا يدخلُ بطونهم غيرهُ ولو استفُّوا التراب! الفُضيلُ بنُ عياض منهم. من «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر ٨: ٢٩٦.

واطلُبِ الأَدَبَ في بَسَاتِينِ العِلْمِ[1]، وَالأُنْسَ في مَوَاطِنِ الخَلْوةِ، والحياءَ في شُعَبِ اليقينِ، والاعتبارَ في أَوْدِيَةِ التفكر[2]، والحِكْمَةَ في رِيَاضِ الخَوْفِ.

وآعرفْ دَوَامَ إحسانِ اللَّهِ إِلَيكَ مَع مُخَالَفَتِك لأَمْرِهِ، وحِلْمَهُ عنك مع إِعْرَاضِكَ عنْ ذِكرِه، وسَتْرَهُ عليكَ مع قِلَّة حيائكَ منه[3]، وغِنَاهُ عنكَ مع فَقْرِكَ إِليهِ.

أين عالمٌ بربّه؟ أينَ خائفٌ مِنْ ذَنْبِهِ[4]؟ أين مَسْرُورٌ بِقُرْبِهِ؟ أين

---

(١) وبُستانُ تلك البساتين: القرآن. قال العالم الصالح والعابد الزاهد التابعي الجليل محمد بن واسع البصري: «القرآن بُستانُ العارفين، فأينما حلُّوا منه حلُّوا في نُزْهة». من «الحلية» لأبي نعيم ٢: ٣٤٧.

(٢) في الأصل: (الفكر). والمثبت من النسخة المغربية.

(٣) وتحقق أن المعاصي كالسُّموم يضرُّ قليلُها وكثيرُها، وخفيُّها وظاهرُها، فلا تغترَّ بالستر والحِلْم عنها، فإن لله تعالى عيوناً من ملكوت ناظرةً إليك.

للمعاصي نَتْنٌ وللطاعات عَرْفٌ

وتحقق أيضاً أن للطاعات عَرْفاً وشذاً يفوح على أهلها وإن كتموها، وأن للمعاصي نَتْناً ودخاناً يَنُمُّ على أهلها وإن أخفَوْها. وإن نزعت عن المعصية فتركتها لله لا للناس فيكتب لك حسنة، ففي الحديث الشريف: «وإذا همَّ بسيئة فلم يعملها ـ أي لله ـ كُتبت له حسنة».

(٤) روى الطبراني عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «ما رأيتُ مثل النار نام هاربُها، ولا مثل الجنة نام طالبُها». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠: ٢٣٠: «إسناده حسن».

قال المناوي في «فيض القدير» ٥: ٤٤٦ عند شرح هذا الحديث: «يعني النارُ شديدةٌ، والخائفون منها نائمون غافلون، وليس هذا طريق الهارب، بل طريقه أن يهرب من المعاصي إلى الطاعات. وفيه معنى التعجب، أي ما أعجب حال النار الموصوفة بشدة الأهوال وحال الهارب منها مع نومه وشدة غفلته والاسترسال في سَكْرته؟!

وما أعجب حال الجنة الموصوفة بهذه الصفات وحال طالبها الغافل عنها؟!»

مَشغولٌ بذِكرِهِ؟ أينَ مُشْفِقٌ مِنْ بُعْدِهِ؟ هُو ذا مغفورٌ لَهُ يا مَغرور! ألَمْ يَرَكَ الجليلُ وقد هَتَكْتَ السُّتُورَ؟!

واعْلَمْ يا أخي أنَّ الذنوبَ تُورِثُ الغفلَةَ[1]، والغفْلة تُورِثُ القَسْوَةَ، والقسوة تُورِثُ البُعْدَ مِنَ الله، والبُعْدَ من اللَّهِ يُورِثُ النَّار! وإنما يَتفكَّرُ في هذا: الأحياءُ، وأمَّا الأمواتُ فإنهم قد أماتوا أنفسهم بحُبّ الدنيا[2].

ذكرُ آثار الذنوب:

(١) قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إني لأحسبُ أنَّ الرجل ينسى العلم قد علمه بالذنب يعمله. من «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر ١٩٦:١.

الإمامُ أبو حنيفة يستغفر أو يصلي لاستكشاف المسألة

وجاء في «طبقات الحنفية» لعلي القاري ٢: ٤٨٧: «كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ورضي عنه إذا أشكلتْ عليه مسألة قال لأصحابه: ما هذا إلا لذنب أحدثتُه! وكان يستغفر، وربما قام وصلّى، فتنكشفُ له المسألة، ويقول: رجوتُ أني تيب عليَّ. فبلغ ذلك الفُضيلَ بن عياض، فبكى بكاءً شديداً ثم قال: ذلك لقلة ذنبه، فأما غيره فلا يَنتبه لهذا».

وجاء في «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر ١٢٩:١١، في ترجمة (وكيع بن الجراح الكوفي) وهو أحدُ الأئمة الأعلام الحُفّاظ. وقد كان الناسُ يحفظون تكلُّفاً، ويحفظُ هو طبعاً، «قال علي بن خشرم: رأيتُ وكيعاً وما رأيتُ بيده كتاباً قط، إنما هو يحفظ. فسألتُهُ عن دواء الحفظ؟ فقال: تركُ المعاصي، ما جرَّبتُ مثله للحفظ».

وهو الذي عناه الإمامُ الشافعي رضي الله عنه بقوله:

شكوتُ إلى وكيع سُوءَ حفظي ... فأرشدني إلى تركِ المعاصي
وأخبرني بأنَّ العلم نُورٌ ... ونُورُ الله لا يُهدى لعَاصي

قول الصحابي ابن عباس: للحسنة نور وللسيئة ظلمة.

(٢) أشار المؤلفُ هنا إلى بعض آثار الذنوب، وقد وازن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس بين آثار الحسنات والسيئات على ظاهر الإنسان وباطنه، فقال رضي الله عنه: إنَّ للحسنةِ نوراً في القلب، وزيناً في الوجه، وقوةً في البدن، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق، وإنَّ للسيئةِ ظلمةً في القلب، وشيناً في الوجه، ووهناً

. . . .

= في البدن، ونقصاً في الرزق، وبِغْضَةً في قلوب الخلق.

بيانُ الإمام ابن القيم آثارَ ترك الذنوب وآثار ارتكابها

واستوفى الشيخ ابنُ القيم في كتابه «الفوائد» وكتابه «الجواب الكافي» بيانَ أضرار الذنوب والمعاصي استيفاءً جامعاً، وقابل بين آثار فعل الذنوب وآثار تركها مقابلةً صادقةً دقيقة، تدفعُ بكل ذي لُبّ وعقل إلى ترك الذنوب والبُعد عن أسبابها، وإلى التحلي بالطاعات وما يبعث عليها، وها أنا ذا أنقلُ لك كلامه ـ على طوله ـ لنفاسته واستيفائه وصدق وقعه، فأرعه سمعك، ووجّه له قلبك، وأعمِلْ له عقلَك، واللهُ يتولى الصالحين.

قال رحمه الله تعالى في كتابه «الفوائد» ص ٤١ و ٩٧ و ١٣٩ و ١٥٠ ـ ١٥١

«الذُّنوبُ جراحات، ورُبَّ جُرحٍ وقع في مقتل!! وما ضُرب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبُعد عن الله. وأبعدُ القلوب من الله القلبُ القاسي! وإذا قست القلوبُ قحطت العينُ، وقسوةُ القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدرَ الحاجة: الأكلِ، والنوم، والكلام، والمخالطة.

والصبرُ على الشهوة أسهلُ من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإن الشهوة إما أن توجب ألماً وعقوبة، وإما أن تقطع لذةً أكمل منها، وإما أن تُضيع وقتاً إضاعتُه حسرةٌ وندامة، وإما أن تثلم عِرضاً توفيرُه أنفعُ للعبد من ثلمه، وإما أن تُذهب مالاً بقاؤه خيرٌ من ذهابه، وإما أن تضع قدراً وجاهاً قيامُه خيرٌ من وضعه، وإما أن تَسْلُبَ نعمةً بقاؤها ألذُّ وأطيبُ من قضاء الشهوة.

وإما أن تُطَرِّق لوضيعٍ إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همّاً وغمّاً وحزناً وخوفاً لا يُقارِبُ لذةَ الشهوة، وإما أن تُنسي علماً ذِكرُه ألذُّ من نيل الشهوة، وإما أن تُشمت عدوّاً وتُحزن وليّاً، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تُحدث عيباً يبقى صفةً لا تزول، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق.

فسبحان الله رب العالمين، لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامةُ المروءة، وصونُ العرض، وحفظُ الجاه، وصيانةُ المال الذي جعله الله قواماً لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبةُ الخلق، وجوازُ القول بينهم، وصلاحُ المعاش، وراحةُ البدن، وقوةُ القلب، وطيبُ النفس، ونعيمُ القلب، وانشراحُ الصدر، والأمنُ من مخاوف الفُسّاق والفُجّار، وقلةُ الهمّ والغمّ والحزن، وعزُّ النفس عن احتمال الذلّ، وصونُ نُور القلب أن تُطفئه ظلمةُ المعصية. =

· · · · · · ·

= وحصولُ المَخْرَجِ لمتَّقي الذنوبِ مما ضاق على الفُسّاقِ والفُجّار، وتيسيرُ الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسيرُ ما عَسُرَ على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيلُ الطاعات عليه، وتيسيرُ العلم، والثناءُ الحسنُ في الناس، وكثرةُ الدعاء له، والحلاوةُ التي يكتسبها وجهُه، والمهابةُ التي تُلقى له في قلوب الناس، وانتصارُهم وحميَّتُهم له إذا أُوذِي وظُلِم، وذَبُّهم عن عِرْضِه إذا اغتابه مغتاب.

وسُرعةُ إجابة دُعائه، وزَوالُ الوحشة التي بينه وبين الله، وقُرْبُ الملائكة منه، وبُعدُ شياطين الإنس والجنّ منه، وتنافُسُ الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتُهم لمودَّته وصُحبته، وعدمُ خوفه من الموت بل يفرحُ به لقدومه على ربِّه ولقائه له ومصيره إليه، وصِغَرُ الدنيا في قلبه، وكِبَرُ الآخرة عنده، وحرصُهُ على المُلك الكبير والفوزِ العظيم فيها.

وذَوْقُ حلاوة الطاعة، ووجدُ حلاوة الإيمان، ودُعاءُ حملة العرش ومن حوله من الملائكة، وفرحُ الكاتبين به، ودُعاؤهم له كلَّ وقت، والزيادةُ في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصولُ محبّة الله له، وإقبالُهُ عليه، وفرحُه بتوبته. لكفى باعثاً له على ترك الذنوب والمعاصي. وهكذا يجازيه الله بفرحٍ وسُرورٍ لا نسبة له إلى فرحه وسُروره بالمعصية بوجهٍ من الوجوه.

فهذه بعضُ آثارِ ترك المعاصي في الدنيا، فإذا مات تلقَّتْهُ الملائكةُ بالبُشرى من ربِّه بالجنة، وبأنه لا خوفٌ عليه ولا حزن، وينتقلُ من سجن الدنيا وضيقها إلى روضةٍ من رياض الجنة يَنْعَمُ فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كان الناسُ في الحرِّ والعرق وهو في ظلِّ العرش، فإذا انصرفوا من بين يدي الله أخذ الله به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» انتهى كلام ابن القيم في كتابه «الفوائد» في باب آثار ترك الذنوب.

وقد عدَّد رحمه الله تعالى في كتابه النافع العُجاب «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» آثار فعل الذنوب والمعاصي على فاعليها، واستوفاها أتم استيفاء بالشرح والبيان والتدليل والتوجيه، في أكثر من مئة صفحة من ص ٥٢ ـ ١٦٦ وأنا أنقل لك جملةً من عناوين آثارها، قال رحمه الله تعالى: «وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المُضرَّة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله

آثارُ فعل الذنوب وفيها البلايا والرزايا

. . . .

= منها: حِرمانُ العلم والرزق، وحصولُ الوحشةِ بين العاصي وبين الله، وبينه وبين الخلق، وتعسيرُ أموره، وظلمةُ القلب والوجه والقبر، ووَهْنُ القلب والبدن، وحِرمانُ الطاعة، ومَحْقُ العمر، وأنها تزرَعُ أمثالها، ويُولِّدُ بعضُها بعضاً، وتُضعِفُ إرادة القلب وإنابته إلى الله، ويزول بها عن القلب استقباحُ الذنوب!

وهي سببٌ لهوانِ العبد على الله، وتُلحِقُ ضرره غيرَه من الآدميين والحيوانات، وتُورِثُ الذل، وتُفسِدُ العقل، ويُطبَعُ على قلب صاحبها، وتُدخِلُه تحت لعنة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتَحرِمُه الدخول في أدعيته صلّى الله عليه وسلّم، وأدعية الملائكة لمن امتثل أمر الله واتّبع كتاب الله وسنّةَ رسوله.

وهي سبب لعقوبات البرزخ المتنوّعة، وتُحدِثُ في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء والزروع والثمار والمساكن، وتُذهِب الحياء والغيرةَ وتعظيم الرب، وتستدعي نسيان الله للعبد، وهناك الهلاك! وتُخرِجُ العبدَ من دائرة الإحسان، وتَحرِمُه ثواب المحسنين، وتُزيل النِّعم، وتُحِل النِّقم، وتُوجِب خوف صاحبها ورُعبه، ويصير القلب مريضاً أو ميتاً بعد أن كان حياً صحيحاً، وتُعمي البصيرة!

ولا يزال العاصي في أسْر الشيطان، وأسْرِ النفس الأمّارة بالسوء وسجْنِ الشهوات، وتُسقِطُ منه الجاه والمنزلة، وتسلُبه أسماء المدح، وتكسبه أسماء الذم، وتمحق بركة العلم والعمل والرزق والعمر وكلِّ شيء! وتُخوِّنُ العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، وتُباعِدُ عن العبد وليَّهُ من الملائكة، وتُقرِّبُ إليه أعداءه الشياطين، وتُؤثِّرُ في القلوب الآثار القبيحة من الرَّيْن والطَّبْع والخَتْم والنفاق وسوء الأخلاق، وقبول الشكوك والشُّبَه وغيرِها من الأمراض القاتلة.

وبالجملة: جميعُ شرورِ الدنيا والآخرة التي على القلوب، والتي على الأبدان، العامَّةِ والخاصَّةِ، أسبابُها الذنوب والمعاصي!». انتهى.

وقد أجمل هذه المعانيَ العظيمة في أثرِ فعلِ الحسنة، وفي أثرِ فعلِ السيئة: التابعيُّ الجليلُ (سليمانُ بن طَرْخان التَّيْميُّ البصري)، الحافظُ الإمام، شيخُ الإسلام، عابدُ أهل البصرة وعالمُها، المتوفى سنة ١٤٣ رحمه الله تعالى، بقوله: «الحسنةُ نُورٌ في القلب وقُوَّةٌ في العمل، والسيئةُ ظلمةٌ في القلب وضعفٌ في العمل»، كما في ترجمته العظيمة في «حلية الأولياء» ٣: ٣٠ وأنصحك بقراءة ترجمته فيها، وفي «تذكرة الحفاظ» للذهبي ١: ١٥٠ فهي مما يشحذُ العزائم للخير والطاعة لله تعالى. =

واعْلَمْ أنه كما لا يُغْني ضَوْءُ النهارِ: الأعمى، كذلك لا يَستضيءُ بنور العلم إلاَّ أَهْلُ التُّقى. وكما أَنَّ المَيِّتَ لا ينفعه الدَّواء، فكَذلكَ

من آثار الذنوب = إمساك المطر، وبيتا شعرٍ في ذلك:

وقد قيل في هذا القبيل:

يَمُرُّ السَّحابُ على بلدةٍ ... بماءٍ مَعينٍ من المُعْصِراتْ
يُريدُ النزولَ فلا يستطيـــعُ لما حَلَّ بها من المنكراتْ!

ومعذرةً من هذه الإطالة، فإنها في السعي للنجاة من أكبر داء (الذنوب) ونحن الضعفاء نُذنبُ كثيراً، ونعصي كثيراً، فنحتاج إلى أن نُشحن بالموعظة شحناً، لعلّنا نكفُّ عن الذنوب، ونتوبُ إلى علاّم الغيوب.

تحذير الإمام ابن الجوزي من الذنوب:

وهذه كلمة نافعة للإمام ابن الجوزي قالها في كتابه «صيد الخاطر» ١ : ١٨٥ و ٢ : ٢٧٢ من أطيب الكلمات وأقواها في الدعوة إلى ترك الذنوب، قال رحمه الله تعالى:

«الحذرَ الحذرَ من المعاصي، فإنها سيئة العواقب، والحذرَ الحذرَ من الذنوب خصوصاً ذنوب الخلوات، فإن المبارزة لله تعالى تُسقطُ العبد من عينه سبحانه

ولا ينالُ لذةَ المعاصي إلا دائمُ الغفلة، فأمّا المؤمنُ اليقظان فإنه لا يلتذُّ بها، لأنه عند التذاذه يقفُ بإزائه علمُه بتحريمها، وحذرُه من عقوبتها، فإن قويتْ معرفته رأى بعينِ علمه قُرْبَ الناهي ــ وهو الله ــ فيتنغَّصُ عيشُه في حال التذاذه، فإنْ غلبهُ سُكْرُ الهوى كان القلبُ مُتنغِّصاً بهذه المراقبة، وإن كان الطَّبْعُ في شهوته فما هي إلاّ لحظة، ثم حزنٌ دائم، وندمٌ ملازم، وبُكاءٌ متواصل، وأسفٌ على ما كان، مع طول الزمان، حتى إنه لو تيقَّنَ العفوَ وقفَ بإزائه حَذرُ العِتاب.

فأفٍّ للذنوب! ما أقبح آثارها؟ وأسوأ أخبارها؟ ولا كانت شهوة! لا تُنال إلاّ بمقدار قُوَّة الغفلة!». انتهى بتصرف يسير.

الأستاذ السباعي يقول: المذنبُ المصرّ حيوان!

ورحم الله أخانا الأستاذ المجاهد الداعية الكبير الشيخ مصطفى السباعي إذ يقول في كتابه «هكذا علَّمتني الحياة» ص ٣٢ «إذا هَمَّتْ نفسُك بالمعصية فذكِّرها بالله، فإذا لم ترجع فذكِّرها بأخلاق الرجال، فإذا لم ترجع فذكِّرها بالفضيحة إذا علم بها الناس، فإذا لم ترجع فاعلم أنك تلك الساعة انقلبْتَ إلى حيوان!» انتهى فيا مُقلِّبَ القلوبِ والأبصار ثبِّتْ قلوبنا على دينك.

لا يُفِيدُ الأَدبُ في أَهْلِ الدَّعوى. وكما لا يُنْبِتُ الوَابِلُ على الصَّفا[١]، كذلكَ لا تُثْمِرُ الحِكْمَةُ بِقَلبِ مُحِبِّ الدُّنيا[٢].

وَمَنْ أَلِفَ هَواهُ قَلَّ أَدَبُهُ، وَمَنْ خَالَفَ دَلالَةَ عِلْمِهِ كَثُرَ جَهْلُهُ، وَمَنْ لَمْ ينفَعْهُ دَوَاؤُهُ كَيفَ يُدَاوِي غَيرَهُ؟!

واعْلَمْ أَنَّ أَرْوَحَ الناسِ أبداناً، وأقلَّهم همّاً: أَهْلُ الزُّهدِ في الدنيا[٣].

---

(١) الوابل: المطر الشديد، والصفا جمع صفاة، وهي الحجرُ الصَّلْدُ الضَّخم الذي لا يُنْبِت.

(٢) قال مالك بن دينار للحسن البصري رضي الله عنه: ما عقوبة العالم إذا أحبَّ الدنيا؟ قال: موتُ القلب، فإذا أحبَّ الدنيا طلبها بعمل الآخرة، فعند ذلك ترحلُ عنه بركاتُ العلم، ويبقى عليه رَسْمُه. من «البداية والنهاية» لابن كثير ٩: ٢٦٨.

ذكرُ من هو أطيبُ عيشاً من الملوك؟

(٣) أي أكثرُ الناس راحةً لأبدانهم: أهل الزهد... قال رجل لمحمد بن واسع الأزدي البصري: أوصني، قال: أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة، قال: كيف هذا؟ قال: ازهد في الدنيا. من «تاريخ الإسلام» للذهبي ٥: ١٥٩.

نعم، وأهلُ الزهد في الدنيا أنعمُ بالاً من الملوك، وأطيبُ منهم عيشاً، جاء في «البداية» للحافظ ابن كثير ١٠: ٣٥١، في ترجمة الخليفة العباسي المتوكل على الله (جعفر بن المعتصم بن الرشيد)، المتوفى سنة ٢٤٧ رحمه الله تعالى:

«قال الفتح بن خاقان ـ وزير المتوكل ـ: دخلت يوماً على المتوكل، فإذا هو مُطْرِقٌ مُفكِّر، فقلت: يا أمير المؤمنين ما لك مفكِّر؟ فوالله ما على الأرض أطيبُ منك عيشاً، ولا أنعمُ منك بالاً.

قال: بلى أطيبُ مني عيشاً رجلٌ له دارٌ واسعة، وزوجةٌ صالحة، ومعيشةٌ حاضرة، لا يعرفُنا فنؤذِيَه، ولا يحتاجُ إلينا فنزدريَه». انتهى.

حكاية الأمير المحسود وهو مهدَّد بالقتل دائماً.

قال عبد الفتاح: ولقد صَدَق رحمه الله تعالى، فقد قالوا قديماً ـ نظراً إلى ما أشار إليه المتوكل ـ: السُّلطانُ من لا يعرفُه السُّلطان. وسمعتُ من بعض العلماء في شمال باكستان، أن رجلاً من العامة زار أحد الأمراء في تلك البلاد، فسأله الأمير =

وأَتْعَبَ الناسِ قلوباً وأكثَرَهُمْ شُغلاً: أَهْلُ الاهتمامِ بالدنيا. وأعْوَنُ الأَخْلاقِ عَلَى الزُّهد قِصَرُ الأَمَلِ(١)، وأقْرَبُ حالات أهلِ المعرفة: ذِكْرُ القيامِ للَّهِ عزَّ وجلَّ. قال الله عَزَّ وَجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عليكم رقيبا﴾(٢).

واعْلَمْ أنه لا طريقَ أقربُ مِنَ الصِّدق، ولا دَليلَ أَنْجحُ من

= عن حاله، فشكى له الرجل من هُموم وغُموم كثيرة تُحيط به، وقال للأمير: هنيئاً لك قد طاب عيشك، وهنؤ مضجعك ومشربك ومأكلك، وصفت حياتك من المكدِّرات والمنغِّصات، فأنت أمير، كلُّ شيء يُحضرُ إلى خدمتك. فسكت الأمير ولم يجبه بشيء.

ثم دعا الأميرُ الرجل إلى بيته لتناول الطعام، وقد جعل فوق رأس الرجل في مجلسه سيفاً مسلولاً مربوطاً بخيط ضعيف، يحتمل أن ينقطع بين لحظة وأخرى، فلما نظر الرجل إلى السيف مُصْلتاً فوق رأسه، يمكن أن يسقط عليه بين فينةٍ وأخرى! انقبضت نفسُه عن الطعام خوفاً من سقوط السيف عليه!.

فقال له الأمير: ينبغي أن تأكل من كل ألوان الأطعمة، فإنها طيبة لذيذة، فقال له الرجل: إنها لكذلك، ولكن خوفي من سقوط السيف عليّ حرمني لذة الطعام والإقبال عليه!

فقال له الأمير: هكذا حياتي التي حسدتني عليها، وتمنَّيتَها لنفسك جاهلاً ما هي عليه! تشبه احتمال وقوع هذا السيف على رأسك في كل لحظة، فإني مهدَّد في كل ساعة من عدوِّي أو قريبي الطامع في إمارتي، بالقتل والاغتيال، أو بالسم في الطعام، أو بطعنة في وقت النوم، أو بالانقلاب والخروج عليّ!

فأنا دائماً في قلق وأرق، وخوف وذُعر، واحتياطٍ وتحفظ في كل ساعات حياتي، فهنيئاً لك أنت، تنامُ مطمئناً، وتمشي مطمئناً، وتأكل مطمئناً، وتكون في الحضر وفي السفر مطمئناً، فأنت المغبوط على حياتك لا مثلي، فأذعن له الرجل، وحمد الله تعالى على ما أقامه فيه وأولاه.

(١) وجاء في «نهج البلاغة» ٤: ١٩٩ منسوباً إلى سيدنا علي رضي الله عنه: «الزهدُ كلُّه بين كلمتين من القرآن: قال الله سبحانه: ﴿لكيلا تأسَوْا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ ومن لم يأس ــ أي يحزن ــ على الماضي، ولم يفرح بالآتي فقد أخَذَ الزهدَ بطرفيه».

(٢) من سورة النساء: الآية ١.

العلم، ولا زَادَ أَبْلَغُ مِنَ التَّقوى(١).

وَمَا رأيتُ أنفى لِلْوسواس مِنْ تَرْكِ الفُضُول، وَلا أَنْوَرَ لِلْقَلْبِ مِنْ سَلاَمَةِ الصَّدْرِ(٢).

التقوى أشرف خصلة

(١) نعم، كيف وقد قال تعالى: ﴿وتزوَّدُوا فإنَّ خير الزاد التقوى واتقونِ يا أُولي الألباب﴾ وقد أخبر سبحانه أنَّ أمره بالتقوى قديم مستمر في كل شريعة فقال سبحانه: ﴿ولقد وصَّينا الذين أُوتُوا الكتاب من قبلكم وإيَّاكم أن اتقوا الله﴾.

قال العلامة الفيروزابادي في «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» ٢: ١١٦ عقب هذه الآية: «يُفهمُ منها أنه لو كانت في العالم خصْلَةٌ هي أصلح للعبد، وأجمع للخير، وأعظم للأجر، وأجلّ في العبودية، وأعظم في القَدْر، وأولى في الحال، وأنجح في المآل من هذه الخصْلة لكان الله سبحانه أمر بها عباده، وأوصى خَوَاصَّه بذلك، لكمالِ حكمته ورحمته.

فلمّا أوصى بهذه الخصْلة الواحدة جميع الأوَّلين والآخرين من عباده واقتصر عليها، علمنا أنها الغاية التي لا مُتجاوز عنها، ولا مُقتصر دُونها، وأنه عزَّ وجلّ قد جمع كلَّ محض نُصْحٍ ودلالةٍ وإرشادٍ وسُنَّةٍ وتأديب وتعليمٍ وتهذيب في هذه الوصيّة الواحدة. وقولُه تعالى: ﴿إنما يتقبَّلُ الله من المتقين﴾ يُشعِرُ بأنَّ الأمر كلّه راجع إلى التقوى».

سلامةُ صدر المؤمن مدعاة لدخول الجنة

(٢) وسلامةُ القلب من الحقد والحسد والغش وسائر الأمراض الباطنة: مدعاة لدخول الجنة، روى الإمام أحمد في «مسنده» ٣: ١٦٦ بإسناد على شرط البخاري ومسلم: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

كُنَّا جُلوساً مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: يطلُعُ عليكم الآن رجُلٌ من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار ـ هو سعد بن أبي وقاص ـ، تَنْطُفُ لحيتُه ـ أي تقطر ـ من وضُوئه، قد علّق نعليه بيده الشِّمال.

فلما كان الغدُ قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرَّة الأولى، فلما كان اليومُ الثالث، قال النبي صلّى الله عليه وسلّم مثل مقالته أيضاً، فطلَعَ ذلك الرجل على مِثْلِ حالِهِ الأولى.

فلما قام النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، تَبِعَه عبدُ الله بنُ عمْرو بن العاص، فقال: إنِّي لاحَيْتُ أبي ـ أي خاصَمْتُ وهاجَرْتُ ـ فأقْسَمْتُ أن لا أدخُل عليه =

ووجدتُ كَرامةَ المُؤمِنِ تقواهُ[1]، وحِلْمَهُ صَبْرَهُ، وعَقْلَهُ تجمُّلَهُ، ومَوَدَّتَه تجاوُزَهُ وعَفْوَهُ[2]، وشرفَهُ تواضُعَهُ ورِفْقَهُ.

واعْلَمْ أنَّ مَحبَّةَ الغِنَى ـ مع اخْتيارِ الله لِعبدِه الفقرَ ـ تَسخُّطٌ، ومحبَّةَ الفقرِ ـ مع اخْتيارِ الله لعبدِه الغِنَى ـ جَوْرٌ، وكلُّ ذلك هربٌ من الشُّكرِ لِقلَّةِ المعرفة، وتَضْييعٌ للأوقاتِ مِنْ قِصَرِ العِلْمِ[3].

وذلك أنَّ إيمانَ الغنيِّ لا يُصْلِحُهُ الفقرُ، وإيمانَ الفقيرِ لا يُصْلِحُهُ

ـ ثلاثاً، فإن رأيتَ أن تُؤْوِيَني إليك حتى تَمضيَ فعلتَ، قال: نعم.

قال أنس: فكان عبد الله يُحدِّثُ أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يرهُ يقومُ من الليل شيئاً، غيرَ أنه إذا تعارَّ ـ أي استيقظ من نومه ـ وتقلَّب على فراشه، ذكر الله عزَّ وجلَّ وكبَّر، حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غيرَ أني لم أسمعْه يقولُ إلاَّ خيراً.

فلما مضتْ الثلاثُ ليالي، وكدْتُ أن أحتقر عملَه، قلتُ: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هجر، ولكنْ سمعتُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول لك ـ أي فيك ـ ثلاث مرَّاتٍ: يطْلُع عليكم الآن رجُلٌ من أهل الجنَّة، فطَلَعتَ أنت الثلاث المرَّات.

فأردتُ أن آوي إليك، لأنظُرَ ما عملُك؟ فأقتدي بك، فلم أرك تعملُ كثيرَ عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم؟ قال: ما هُو إلاَّ ما رأيت. فلمَّا ولَّيتُ دعاني، فقال: ما هُو إلاَّ ما رأيت، غير أني لا أجدُ في نفسي لأحدٍ من المسلمين غشَّاً، ولا أحسُدُ أحداً على خيرٍ أعطاه الله إيَّاه. فقال عبدُ الله: هذه هي التي بَلَغَتْ بك، وهي التي لا نُطِيق.

(١) هكذا في عدة نسخ، وجاء في نسخة أ، ب، ج: (كَرَمَ).

(٢) قال العالم العابد والمحدِّث الفقيهُ التابعي الجليل محمد بن واسع البصري: «إنَّ ذليل الدنيا خير من ذليل الآخرة». من «تاريخ الإسلام» للذهبي ٥:١٦١.

ذليلُ الدنيا خير من ذليل الآخرة:

(٣) وقع في الأصل: (وتضييعُ الأوقات من قصر العلم) وهو تحريف عما أثبته.

الغِنَى، كما جاء في الخبر أنَّ الله تعالى يَقُول: «إنَّ منْ عبادي مَنْ لا يُصْلِحُ إيمانَهُ إلَّا الفقرُ، ولو أغنيتُهُ لأفسدهُ ذلكَ[1]، وإنَّ مِنْ عِبادي مَنْ لا يُصْلِحُ إيمانَهُ إلَّا الغِنى، ولوْ أفقرتُهُ لأفسدهُ ذلكَ»[2]

من العصمة أن لا تجد

(١) وهذا قيل في الحِكَم: من العصمة أن لا تجد، أي: أنَّ الفقر في بعض الناس أو بعض الأحيان، يكون سبباً للتحفظ من الوقوع في المخالفة والمعصية، على النَّمط الذي تظرَّف فيه الشاعر ابنُ هَبَّارِيَّة (محمد بن محمد العباسي) البغدادي المتوفى سنة ٥٠٩، وكان يَشرَبُها! بقوله:

يقول أبو سعيد إذ رآني ... عفيفاً منذ عامٍ ما شَرِبتُ
على يَدِ أيِّ شيخٍ تُبتَ قل لي؟ ... فقلتُ: على يَدِ الإفلاس تُبتُ

(٢) وقال تعالى: ﴿إنَّ ربَّك يبسُطُ الرِّزْقَ لمن يشاءُ ويقدِرُ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ وفي الآية الكريمة إيماءٌ إلى أنَّ بسطَ الرزق وتضييقه كلٌّ واحدٍ بحسب بعضِ عباده سبحانه دون بعض.

فالغنى فتنةٌ، وهي البطر، والطغيان، وتحصيلُ المال من الحرام، وصرفُه في العصيان، والتفاخرُ بالمال والجاه والتكبر على الفقراء، والبخلُ بأداء حقوق الله تعالى فيه، إلى غير ذلك من المساوىء.

والفقر فتنةٌ، وهي الحسدُ للأغنياء، والطمعُ في أموالهم، والتذلُّل لهم بما يُدنِّس العِرْض ويثلِمُ الدِّين، وعدمُ الرضا بما قسم الله له، وغيرُ ذلك مما لا تُحمَدُ عاقبتُه. وناهيك بالفقر فتنةً ما يدفع إليه في بعض الناس، من الرشوة والسرقة ونحوهما.

ويمكن أن يقال: إن الغنى والفقر بذاتهما محمودان، وإن كان الجمهور على أن الفقر أسلم، فمن شرط الفقير أن يكون صابراً، ومن شرط الغني أن يكون شاكراً، فإذا لم يكونا كذلك، يكون كلٌّ واحدٍ من الفقر والغنى فتنةً لهما.

ومُحصَّلُ الكلام: أنَّ كل ما يُقرِّبُك إلى الله تعالى، فهو مُبارَكٌ عليك، وكلُّ ما يُبعدُك عن الله تعالى، فهو شُؤمٌ عليك، سواءٌ يكونُ فقراً أو يكونُ غنى. أفاده العلامة علي القاري رحمه الله تعالى في «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» ٣: ١٣٦.

ثم إن الحديث الذي أورده المؤلف هو جزء من حديث قدسي ضعيف، رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تبارك وتعالى قال: «من أهان لي

وكذلِكَ في الصِّحَّة والسَّقَمِ (١).

فَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ لَمْ يَتَّهِمْهُ (٢)، وَمَنْ فَهِمَ عَنِ اللَّهِ رضي بِقضائِه. ولو

وليّاً فقد بارزني بالمحاربة ...». رواه أبو يعلى والبزّار والطبراني وابن أبي الدنيا في «كتاب الأولياء» ص ١٠٠ من «مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا»، والحكيمُ الترمذي وابنُ مردويه وأبو نعيم والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص ١٢١ وابنُ عساكر، كما في «فتح الباري» للحافظ ابن حجر ١١: ٢٩٣ و«الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية» للعلامة محمد المدني ص ٣٥ ـ ٣٦.

قال الحافظ ابن حجر: «في سنده ضعف». وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» ص ٣١٤: «في سنده: الحَسَنُ بن يحيى الخُشَني عن صدقة بن عبد الله الدمشقي، وهما ضعيفان، عن هشام الكناني عن أنس. وهشام لا يُعرف. وسُئل ابنُ معين عن هشامٍ هذا من هو؟ فقال: لا أحد. يعني: لا يُعتبرُ به». انتهى.

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ١١: ٣٤٢: «المراد بوليّ الله: العالِم بالله، المواظبُ على طاعته، المخلصُ في عبادته».

(١) يعني المؤلف رحمه الله تعالى، أنه قد جاء في الحديث السابق نفسه أيضاً أن الله قد يُصِحُّ بعض العباد لحكمةٍ منه، وهي صلاحُهم بالصحة، وقد يُسقِمُ بعض العباد لحكمةٍ منه، وهي صلاحُهم بالسقم. ولفظُ الحديث الذي يشير إليه «وإن من عبادي من لا يُصلحُ إيمانه إلّا السقم، ولو أصححتُه لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يُصلحُ إيمانه إلّا الصحة، ولو أسقمتُه لأفسده ذلك، إني أُدبِّر عبادي بعلمي ما في قلوبهم، إني عليم خبير». انتهى

وقد علمتَ أنه حديث ضعيف.

(٢) كيف يتَّهمه وقد أخبر سبحانه عن نفسه بقوله: ﴿وأنَّ الله قد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً﴾.

والإحاطةُ بالشيء عِلماً هي أن يَعلم وجودَه، وجنسَه، وكيفيتَه، وقَدْرَه، وغرضَه المقصودَ به، وبإيجاده، وما يكون هو منه، وحاجتَه، وما يُصلحُه، وما يُفسده، وما ينتهي إليه. وليس ذلك إلّا لله تعالى وحدَه. فمن دَرَى هذا في جانب الله تعالى حقَّ الدِّراية لم يتَّهمه في تصرُّفاته سبحانه ﴿إنه هو العليمُ الحكيم﴾ ﴿ألا يَعلمُ من خَلَق وهو اللطيفُ الخبير﴾.

لَمْ يكُنْ لأهلِ العلْمِ إلاَّ هذهِ الآيَةُ لَكَفَتْهم: ﴿وربُّك يخْلُقُ ما يَشاءُ ويَخْتارُ، ما كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾(١).

واحْذرْ أخْلاقَ الجاهِلِين، ومُجَالسةَ المُذنِبين(٢)، ودَعَاوى المُعْجَبِينَ(٣)، ورجَاءَ المُغْتَرِّينَ، ويَأْسَ القَانِطِينَ.

وكُنْ بالحقِّ عامِلاً، وباللَّه واثِقاً، وبالمعروفِ آمِراً، وعنِ المُنكرِ ناهياً(٤). فإنَّ منْ صَدقَ اللَّهَ نصحهُ(٥)، ومنْ تزيَّنَ لغيرِه فضَحهُ، ومنْ توكَّلَ عليه كفاهُ، ومنْ وثِقَ بغيرِه مقتهُ، ومنْ خافهُ أمَّنهُ، ومنْ شكَرهُ

---

(١) من سورة القَصَص: الآية ٦٨.

(٢) وذلك لقسوة قلوبهم وطمسها بارتكاب الذنوب. قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «جالسوا التوابين فإنهم أرقُّ أفئدة». من «روضة العقلاء» لابن حبان ص ١٨. ورواه ابن الجوزي في «كتاب القُصّاص والمذكِّرين» ص ٦٦ من كلام التابعيّ الجليل (عون بن عبد الله) قال: «جالسوا التوابين، فإنهم أرقُّ الناس قلوباً».

(٣) جاء في النسخ الأربع: (ودواعي المعجبين). وهو تحريف.

(٤) روى البخاري في «صحيحه» ٧: ٥٢ ـ ٥٣ في كتاب المناقب، في (باب قصة البَيْعة والاتفاق على عثمان): عن عَمْرو بن ميمون أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمّا طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، وعرفوا أنه ميت، قال: «فدخلنا عليه، وجاء الناس يُثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببُشرى الله لك...

فلما أدبر الشابُّ إذا إزارُه يمسُّ الأرض، قال عمر: «رُدُّوا عليَّ الغلام، قال: يا ابن أخي ارفعْ ثوبَك، فإنه أنقى لثوبك، وأتقى لربك». انتهى.

فانظر يا رعاك الله إلى عمر رضي الله عنه، وهو في النَّزْع يجود بنفسه، لم يمنعه ما كان فيه من غمرات الموت ولا الآلام أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وينصح ذلك الشابَّ بالأنقى والأتقى. رضي الله عن عمر، ورزقنا الاقتداء بسيرته.

(٥) أي هداه الله وأعانه.

زَادَهُ، وَمَنْ أَطَاعَهُ أَكْرَمَهُ، وَمَنْ آثَرَهُ أَحَبَّهُ، ومن أحبّه مولاهُ فقد فاز.

واحْذرْ أنْ تدينَ للّه بالعقل(١)، وتَعْمل بالهوى، وتتْرُكَ الحقَّ، وتَبُوءَ بالباطلِ، وتَتَمَنَّى المغفرةَ وأَنْتَ ناسٍ للتوبة.

واعْلمْ أنَّهُ لا يُرضى منَ العلْمِ والعَملِ إلَّا ما ثَبَتَ باليقينِ أصلُه، وعلا بالصدق فَرْعُهُ، وأثمر بالورع نباتُهُ، وقام بالإشفاق بُرهانُهُ، وحُجب بالخشية أستارُهُ، فلا ترْضَ منْ نفسك بالتَّواني، فإنَّهُ لا عُذْر لأَحَدٍ في التفريطِ، ولا لأَحَدٍ عَنِ اللّهِ غِنىً.

واعْلمْ أنَّ منْ سعادة المرْءِ حُسْنَ النية فيما عند اللّهِ تعالى(٢)، والتوفيق لمحابّه. ومنْ أراد اللّهُ به خيراً وهب لهُ العقلَ، وحبَّب إليه العِلمَ(٣)، ....

---

(١) الظاهر أن معناه: أن تقوم بطاعته تعالى وعبادته على سبيل المحاسبة والمقايسة، أو بمعنى: احذر أن يكون إيمانك بالله تعالى وتديُّنك له (عقلانياً) لا تتعدى إلا إلى تنفيذ ما قبله عقلك من أوامره ونواهيه، فالعقل تبعٌ للشرع الصحيح ـ لا عكسُه ـ في كل ما أمر أو نهى عنه، عقلته أو لم تعقله، في حين أن ما صح عن الشرع لا يُخالف العقل السليم الحصيف، ولكن قد يدقّ عنه.

(٢) سبق تعليقاً في ص ٧٦ ـ ٧٧ ما يرتبط بهذا المعنى فانظره.

تفضيل نافلة العلم على نافلة العبادة عند الأئمة الأربعة:

(٣) واعلم أن الاشتغال بالنافلة من العلم أفضلُ من الاشتغال بالنافلة من العبادة، وعلى ذلك الأئمة الأربعة وغيرهم من أساطين الإسلام. وروى الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ» ١: ٤١ «عن ابن عباس قال: مذاكرةُ العلم ساعةً خيرٌ من إحياء ليلة». وروى الحافظ ابن عبد البر في «الانتقاء» ص ٨٤ بسنده إلى الربيع بن سليمان المرادي تلميذ الإمام الشافعي قال: «سمعتُ الشافعي يقول: طلبُ العلم أفضلُ من الصلاة النافلة».

وقال الإمام الكشميري في «فيض الباري على صحيح البخاري» ١: ١٦٢ في شرح (كتاب العلم): «لا تُنكَرُ فضلُ العلم، فإن مالكاً وأبا حنيفة رحمهما الله تعالى ذهبا إلى أن الاشتغال بالعلم خيرٌ من الاشتغال بالنوافل، وعن أحمد روايتان.

. . . .

= إحداهما في فضل العلم، والأخرى في فضل الجهاد، كما ذكره ابن تيمية رحمه الله تعالى في «منهاج السنة». انتهى. وتقدم نقلُ مذاهب الأئمة الأربعة في هذا الموضوع تعليقاً في أول تقدمة هذا الكتاب ص ٢٠.

الإمام أحمد يترك نوافله لمذاكرة أبي زرعة

وجاء في «طبقات الحنابلة» للقاضي ابن أبي يعلى ١: ٢٩٩ في ترجمة الإمام أبي زُرْعة الرازي أحدِ أئمة الحديث، ومن أقران الإمام أحمد، وفي «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي ص ٢٨٩: «قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: لما قدم أبو زرعة ــ بغداد ــ نزل عند أبي، فكان كثير المذاكرة له، فسمعتُ أبي يوماً يقول: ما صلَّيتُ اليوم غير الفرض، استأثرتُ بمذاكرة أبي زُرْعة على نوافلي».

وقد ساق الحافظ ابن عبد البر بيان هذا المعنى في «جامع بيان العلم وفضله» ١: ٢١ ــ ٢٧، في (باب تفضيل العلم على العبادة) فذكر فيه ما جاء في السنة المطهرة وكلام السلف، فأطال وأطاب رحمه الله تعالى.

الإمام ابن وهب يترك نافلة العبادة لنافلة التعليم

ومن لطيف ما وقع لبعض الأئمة أنه انصرف عن نافلة التعليم إلى نافلة العبادة، فوقعتْ لأحد محبِّيه رؤيا منامية دعت ذلك الإمام أن يرجع عن الانقطاع للتعبد إلى نشر العلم وإذاعته.

جاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض، ٣: ٢٣٤ ــ ٢٣٥ و ٢٤٠ و ٣٦١، في ترجمة الإمام المحدِّث الفقيه العابد الزاهد (عبد الله بن وهب القرشي المصري) صاحب الإمام مالكٍ والليث والثوريِّ وغيرهم، المتوفى سنة ١٩٧ رحمه الله تعالى:

جاء فيه أنَّ سُحنون قال: «كان ابنُ وهب قد قسم دهره أثلاثاً، ثُلُث في الرباط، وثُلُث يعلِّم الناس بمصر، وثُلُث بالحج، وذكر أنه حجَّ ستاً وثلاثين حجة.

قال ابن أخيه: كنتُ معه بالإسكندرية مُرابطاً، فاجتمع الناسُ عليه يسألونه نشْرَ العلم، فقال لي: هذا بلدُ عبادة، وقلما أمهِّدُ لنفسي فيه مع شُغل الناس، فترك الجلوس لهم في الأوقات التي كان يجلس، وأقبل على العبادة والحراسة.

فبعد يومين أتاه إنسان فأخبره أنه رأى نفسه في مسجد عظيم نحو المسجد الحرام، والنبي صلَّى الله عليه وسلَّم فيه، وأبو بكر عن يمينه، وعمر عن شماله، وأنت بين يديه، وفي المسجد قناديل تزهرُ أحسن شيء وأشدَّها ضياءً، إذ طفئت منها قنديلٌ فانطفأ، فقال لك رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: قم يا عبد الله أوقده فأوقدته، ثم آخرُ كذلك، ثم أقمت أياماً فرأيت القناديل كلَّها همَّتْ أن تطفأ، فقال =

وحباهُ بالإشفاقِ(١)، واستعْمَلهُ بالرِّفقِ، وأغْنَاهُ بالقَناعةِ، وبَصَّرهُ عَيْبَهُ.

أبو بكر: يا رسول الله أترى هذه القناديل؟ فقال صلّى الله عليه وسلّم: هذا عملُ عبد الله، يريد يُطفئها!

فبكى ابنُ وهب، فقال له الرجل: جئتُ لأبشِّرَك، ولو علمتُ أنه يَغُمُّك لم آتك. فقال: خير، هذه رؤيا وُعظتُ بها، ظننتُ أن العبادة أفضلُ من نشر العلم. فترَك كثيراً من عَمَلِهِ للعلم، وحبَسَ نفْسَه لهم يقرؤون عليه ويسألونه.

قال ابنُ وهب: كنتُ بين يدي مالك أكتب، فأقيمت الصلاة ــ وفي لفظ آخر: فأذّن المؤذّن ــ، وبين يديه كتبٌ منشورة، فبادرتُ إلى جمعها، فقال لي مالك: على رِسْلك، فليس ما تقوم إليه بأفضل مما أنت فيه إذا صحّت فيه النيّة.

وقال الإمام يحيى الليثي عالمُ الأندلس وتلميذ الإمام مالك: من جاءه الموت وهو يطلب العلم، لم يكن بينه وبين الأنبياء في الجنة إلّا درجة».

دعاء محمد بن واسع البصري لمّا قال له أحدهم: أحبُّك في الله:

(١) أي منحه وأعطاه الإشفاق، وهو الخوف من الله تعالى. وقد كانت صفةُ الإشفاق من الله تعالى حلية لسلف الصالح رضوان الله عليهم. «قال رجل لمحمد بن واسع البصري ــ التابعي الجليل تلميذ الحسن البصري، وكان الحسن البصري يُسمِّيه: زين القُرّاء أي العلماء، وكان أحد العُبّاد المحدِّثين، والغُزاة المرابطين، والزُّهّاد المنجرِدين للعبادة ــ: إني أحبك في الله تعالى، فقال له محمد بن واسع: أحبّك الله الذي أحببتني له، اللهم إني أعوذ بك أن أُحَبَّ فيك وأنت لي مُبْغِض». من «الحلية» لأبي نعيم ٢: ٣٤٩.

بعض مناقبه

ولتعرف شيئاً عن هذا المشفق (محمد بن واسع)، أنقلُ لك كلمات يسيرة من سيرته إلى جانب ما تقدم من كلمته تعليقاً في ص ٢١٧ و ٢٢٣ و ٢٢٦، وما يأتي في ص ٢٤١، قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» ٥: ١٥٩ ــ ١٦١، وابن الجوزي في «المصباح المضيء» ١: ١٨٤.

«قال جعفر بن سليمان: كنت إذا وجدتُ في قلبي قسوةً، غدوتُ فنظرتُ إلى وجه محمد بن واسع، كان كأنه ثَكْلَى!.

قال الأصمعي: لمّا صَافَّ قتيبةُ بن مُسْلم التُّرك(١)، وهالَهُ أمرُهم، سأل عن

. . . .

(١) هو قتيبة بن مسلم الباهلي البصري، الأميرُ الفاتح، من مفاخر العرب، وَلي الريَّ في أيام عبد الملك بن مروان، وخراسان في أيام ابنه الوليد، ووثب لغزو ما وراء النهر،

واعْلَمْ ـ رحمك الله ـ أنَّ الصدق والإخلاص: أصلُ كلِّ حَالٍ، فعن الصّدقِ يَتشعَّبُ الصَّبرُ والقَناعَةُ والزُهدُ والرضا والأُنْسُ. وعن الإخلاص يَتشعَّبُ اليقينُ والخوفُ والمحبَّةُ والإجلالُ والحياءُ والتعظيمُ.

ولكلِّ مؤمنٍ في هَذِهِ المقاماتِ مَوْطِنٌ يعرفه ويُعْرفُ به حَالُهُ. فيقالُ له: خائِفٌ، وفيهِ الرجاء، و: راجٍ، وفيهِ الخوف، و: صَابرٌ، وفيهِ الرِّضا، و: مُحبٌّ، وفيهِ الحَياءُ. وقُوَّةُ كلِّ حالٍ وضعفُهُ: بِحَسبِ إيمانِ العبدِ ومعرفتِهِ.

ولكلِّ أصلٍ منْ هذهِ الأحوال ثلاثُ علاماتٍ يُعرفُ بها الحالُ:

تضعضعةٌ بإصبعه عند قتال الترك أحبُّ من مئة ألف سيفٍ شهير ورُمح طرير عند القائد قتيبة بن مسلم

ـ محمد بن واسع؟ فقيل: هو ذاك في أقصى الميمنة جانحٌ ـ أي مائل ـ على سِيَة قوسه ـ أي ما انحنى من طرفيها ـ يُبصبِصُ وفي رواية يُنَضْنِضُ ـ أي يُحرِّكُ ـ بإصبعه نحوَ السماء، قال: تلك الإصبعُ الفَارِدَةُ ـ أي المُفْرَدةُ ـ أحبُّ إليَّ من مئة ألف سيفٍ شهيرٍ ـ أي مشهور مسلول ـ وسِنانٍ طرير السِّنان نصلُ الرُّمح. وطرير: مُحدَّدٌ مسنون(١).

ولما توفي رحمه الله تعالى سنة ١٢٣ قال سليمان بن بلال التيمي أحدُ العلماء المحدِّثين الكبار: «ما أحدٌ أحبُّ إليَّ أن ألقى الله تعالى بمثل صحيفته إلاَّ محمد بن واسع».

جَسَدٌ لُفِّفَ في أكفانِهِ رحمةُ الله على ذاك الجَسَد

ـ فتوغل في تلك البلاد، وافتتح كثيراً من المدائن كخُوارزم وسجستان وسمرقند وغزا أطراف الصين وضرب عليه الجزية، وأذعنت بلادُ ما وراء النهر كلُّها، واشتهرت فتوحاته، فاستمرت ولايته ثلاث عشرة سنة، وتوفي سنة ٩٦ رحمه الله تعالى، من «الأعلام» للزركلي ٥: ١٨٩.

(١) قولُه (وسِنانٍ طَرير)، وقع محرفاً إلى (وشَابٌّ طرير) في «تاريخ الإسلام» للذهبي ٥: ١٦٠ و«سير أعلام النبلاء» له أيضاً ٦: ١٢١، وقوله: (جانحٌ على قوسه) وقع محرفاً إلى (جامحٌ على قوسه) في «السير» أيضاً. والتحريفُ الأول سرى عنيَّ في الطبعات السابقة. والتصويبُ من كتاب «المصباح المضيء» لابن الجوزي ١: ١٨٤.

فالصِّدْقُ في ثلاثة أشياءَ لا تَتِمُّ إلاَّ بهِ: صِدقُ القلبِ بالإيمانِ تحقيقاً، وصِدقُ النيَّةِ في الأعْمَالِ، وصِدقُ اللفظِ في الكلامِ.

والصَّبرُ في ثلاثة أشياءَ لا تَتِمُّ إلاَّ به: الصَّبرُ عنْ محارمِ الله، والصَّبرُ على اتِّباعِ أمْرِ الله، والصَّبْرُ عِنْدَ المَصَائِبِ احتِسَاباً للهِ.

والقناعةُ في ثلاثة أشياءَ: قِلَّةُ الغِنَى بعدَ وجودِهِ، وصيانةُ الفقرِ عندَ العَدَمِ وقِلَّةِ الأسبابِ[1]، والسُّكُونُ إلى أوْقاتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ مع حُلُولِ الفاقَةِ.

وللقناعةِ أوَّلٌ وآخِرٌ، فأوَّلُها: تَرْكُ الفُضُولِ مع وُجودِ الاتِّساعِ، وآخِرُها وُجُودُ الغِنَى مع القِلَّةِ وفقْدِ الأسبَابِ، ومنْ هاهُنا قال بعضُهُمْ: القناعةُ أعْلَى منَ الرِّضا. وإنَّما أرادَ قناعةَ التَّمامِ، لأنَّ الرَّاضي لا يتعبَّرُ في المنعِ والعطاءِ، والقانعُ غنيٌّ بربِّه، لا يبتغي الزِّيادةَ معهُ منْ حظِّ هواهُ، اللهمَّ إلاَّ إنْ كانتْ منهُ إليه.

والزُّهْدُ في ثلاثة أشياء ــ لا يُسمَّى الزاهدُ زاهداً إلاَّ بها ــ. خلْعُ الأيدي مِن الأمْلاكِ، ونزاهةُ النَّفْسِ عن الحَلالِ، والسَّهْوُ عن الدُّنْيا بكثْرةِ الأوْقاتِ[2].

ويكون الرَّجُلُ مُتزهِّداً بثلاثةِ أمر: حَمِيَّةُ النَّفْسِ عند ترامي الإراداتِ، والهربُ مِنْ مواطِنِ الغِنَى، وأخْذُ المَعْلُومِ عند الحاجة إليه.

والأُنْسُ في ثلاثةِ أشياء: أُنْسٌ بالعِلمِ والذكرِ في الخلوة، وأُنْسٌ

---

(١) أي إبداءُ الغِنَى والرضا عند الفِقْدانِ وقِلَّةِ الرزق.

(٢) وقال الإمام عبد الله بن المبارك في تعريف الزاهد «هو الذي إن أصاب الدنيا لم يفرح، وإن فاتته لم يحزن». من ترجمته في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض ٣: ٤٠.

باليقينِ والمعرفةِ مع الخلوةِ، وأُنْسٌ باللَّهِ عَزَّ وجلَّ في كلِّ حالٍ[١].

والرِّضا في ثلاثة أشياء: قبولُ أحكام الله عَزَّ وجلَّ، والتسليمُ لأمرِه، وتَرْكُ الاختيارِ عليه في قضائِه.

والرِّضَا نِظَامُ المحبَّة، ونَفْسُ التوكُّل، ورُوحُ اليقين. وقَد ذُكِرَ عنْ أيوب السَّخْتيانيِّ والفُضَيْل بن عياض رحمةُ اللَّه عليهما أنَّهما كانا يَقُولان: الرِّضَا: التوكل.

فَهذِهِ شُعَبُ الصِّدْقِ المأْخُوذَةُ بأوصافِ العلم. وكان سُفْيانُ الثوري رحمهُ اللَّهُ يقول: إذا كمل صِدْقُ الصِّدقِ لمْ يَمْلِكْ ما في يديْه[٢].

---

(١) وسبق تعليقاً ص ١٥٧ كلماتٌ من سيرة الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى تتصل بهذا المعنى، فعُدْ إليها.

خُلُقُ الفقيه البُهلول وكرمُهُ مع السجّان

(٢) جاء في ترجمة الإمام (البُهلول بن راشد القيرواني المالكي) أحد صُدور العلماء والزهاد، أنه علم أن محمد بن مقاتل العكّي أمير إفريقية في زمنه، يُلاطِفُ - أي يُهادي - الطاغية ملك الإسبانيول، فطلب الطاغية من الأمير أن يُرسل إليه حديداً ونحاساً وسلاحاً، فعزم على ذلك، فعارضه البُهلول بن راشد، ووعظه وألحّ عليه في أن يمتنع من إجابته، إذ لا يجوز له ذلك، فإن فيه إمداداً للكفار على المسلمين.

فبعث إليه العكّيُّ ليأخذه وأمر بحضوره إليه، فتحاشد الناسُ مع البهلول، فزاد ذلك العكّيَّ حنقاً عليه، وخرج إليهم الأجناد ففضُّوهم، وأمر بتجريده من الثياب وضرْبه بالسياط، ورمى عليه جماعةٌ أنفسهم وقايةً له من الضرب، فضُربوا، وضُرب هو نحو العشرين سوطاً، وحبسه العكّيُّ ثم أطلقه، فبقي أثرُ السياط في جسمه، وتعفّن - أي فسد - أثرُ السياط، فكان ذلك سببَ موته، ومات رحمه الله تعالى سنة ١٨٣.

ولمّا ضُرب وحبسه العكّيُّ أتاه السجّان ليعالج ضربه، فوهب له ديناراً، وأعطى لمن معه دراهم، وقال: استنفقوها، ففعل ذلك ثلاثة أيام، كلما دخل عليه أعطاه ديناراً، فخاف أصحابُه عليه أن يستنفد ما عنده قبل خروجه من العلّة، فقالوا للسجان: إنه قد بَرِئَ فلا تُعاوده، فلم يعاوده.

وأما شُعَبُ الإخلاصِ فلا يُسَمَّى المُخْلِصُ مُخْلِصاً حَتَّى يُفْرِدَ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ مِنَ الأَشْباهِ والأَنْدادِ، والصاحبةِ والأولادِ(١).

= على استيطائه البهلول، سأل عنه أصحابه وقال لهم: ما أراكم إلاّ وقد عملتم عملاً، كأنه اتّهمهم أنهم صرفوه عنه، فقالوا له: يا أبا عمْرو، في كل يوم دينار؟! فقال لهم: وما في ذلك؟ فقال له حفصُ بن عُمارة من أصحابه ــ مُدافعاً عن تصرُّفه هذا ــ: سمعتُ سفيان الثوري يقول: إذا كمل صدقُ الصادق، لم يملك ما في يديه، فخرَّ البُهلول على يده يُقبِّلها، وجعل يقول له: سألتك بالله، أنت سمعتها منه؟ فحلف له بالله أنه سمعها من سفيان الثوري يقولها، وكأن البهلول قدّسها ــ أي عظَّم كلمة سفيان الثوري وأعجبتْه للغاية، فبدا قبَّل يد صاحبه وتلميذه حفص بن عُمارة، رحمهما الله تعالى. انتهى.

وهكذا المالُ ــ العزيزُ الغالي عند أهل الدنيا ــ يرخُصُ عند الصادقين أهل الله، فيرون خروجه من أيديهم أطيب على قلوبهم من بقائه لديهم، لتفتُّح بصيرتهم بالصدق مع الله تعالى في جميع أحوالهم، نفعنا الله بحبّهم ومقامهم وأخبارهم وحُبِّهم.

والخبر المذكور مجموع من «ترتيب المدارك» للقاضي عياض ٣: ٩٨ ــ ١٠١، والتعليق على «طبقات علماء إفريقية وتونس» لأبي العرب القيرواني ص ١٤٠، و «الأعلام» للزركلي ٢: ٥٥.

خمس وقائع تشهد فيها الإخلاص العجيب:

(١) إليك هذه الوقائع الخمس تشهدُ فيها حقيقة الإخلاص، وتزدادُ بها خبراً وفهماً لإفراد الله تعالى بالعمل والعبادة:

عامر بن عبد قيس وحُقّ الجوهر

١ ــ قال الإمام ابنُ جرير الطبري في تاريخه «تاريخ الأمم والملوك» ٤: ١٧٦، في حوادث سنة ١٦ من الهجرة: «لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض ــ جمْعُ قبض وهي الغنائم ــ أقبل رجلٌ بحُقّ معه ــ وعاءٌ كبير مملوء من الجوهر والتُّحف ــ فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال والذين معه: ما رأينا مثل هذا قط! ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه، فقالوا: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: أما والله لولا اللّهُ ما أتيتكم به، فعرفوا أنّ للرجل شأناً، فقالوا: من أنت؟ فقال: لا واللّه لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليُقرِّظوني، ولكني أحمَدُ الله وأرضى بثوابه.

فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه؟ فإذا هو عامرُ بن عَبْد =

قيس» القيسي الحضرمي أحدُ عُبّاد التابعين الزُّهّاد، وهو أوّلُ من عُرِف منهم بالنُّسُك بالبصرة رضي الله عنه.

صاحب النقب ودعاء مسلمة أن يكون معه في الآخرة

٢ ــ وقال ابنُ قتيبة في كتابه «عيون الأخبار» ١: ١٢٢: «حاصر مَسْلَمةُ بن عبد الملك حِصْنًا(١)، وكان في ذلك الحِصْنِ نَقْب ــ أي ثقب في الحائط ــ فندب الناس إلى دخوله، فما دخله أحدٌ، فجاء رجلٌ من عُرْضِ الجيش ــ أي من عامّته غيرُ معروف ــ فدخله ففتح الله عليهم الحِصْن، فنادى مَسْلَمةُ: أين صاحبُ النَّقْب؟ فما جاءه أحد، فنادى: إني قد أمرْتُ الآذن بإدخاله ساعةَ يأتي، فعزمْتُ عليه إلاّ جاء.

سَعَى بعدَهم قومٌ لكي يُدركوهُمُ فلم يفعلوا ولم يُلاموا ولم يَألوا

فجاء رجل إلى الآذن فقال: استأذِنْ لي على الأمير، فقال له: أنت صاحبُ النَّقْب؟ قال: أنا أخبركم عنه، فأتى الآذنُ إلى مَسْلَمة فأخبره عنه، فأذن له، فقال الرجل لمَسْلَمة: إنّ صاحب النَّقْب يأخذ عليكم ثلاثًا: ألا تُسوِّدوا اسمهُ ــ أي ألا تكتبوه ــ في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو؟ ــ أي من أي قبيلةٍ هو ــ قال مَسْلَمةُ: فذاك له. قال الرجل: أنا هو.

فكان مَسْلَمةُ بعد هذه الحادثة لا يُصلّي صلاةً إلاّ قال: اللّهمّ اجعلني مع صاحبِ النَّقْب».

ابن عون البصري وقتله الرومي مُخفيًا نفسه

٣ ــ وجاء في ترجمة (عبد الله بن عون البصري) الإمام القدوة الفقيه المحدث الحافظ، عالِم البصرة، العابد الزاهد المجاهد، أحد نجوم البصرة في الحفظ والفقه والعبادة والفضل، المولود سنة ٦٦، والمتوفى سنة ١٥١ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال مَعَضِّلُ بن لاحق: كنا بأرض الروم، فخرج روميٌّ يدعو إلى المبارزة، فخرج إليه رجل فقتله ثم دخل في الناس ــ يريدُ إخفاءَ نفسه حتى لا يعرف ــ، فجعلتُ ألوذُ به لأعرفهُ وعليه المِغْفر، فوضع المِغفر يمسحُ وجههُ، فإذا هو ابن عون».

(١) هو مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكَم الأموي، التابعيُّ من تابعي أهل الشام، الأمير القائد، أحد أبطال عصره، له فتوحات مشهورة، غزا القسطنطينية في سنة ٩٦، وبَنَى بها (مسجدَ مَسلمة)، وغزا التركَ والسِّندَ سنة ١٠٩، ومات بالشام سنة ١٢٠، قال الذهبي: كان أولى بالخلافة من سائر إخوته. من «الأعلام» للزركلي ٨: ١٢٢.

. . . .

من «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي ٦:٣٦٨.

يعقوب بن جعفر ورميُه بالنشاب الروميَّ سابَّ النبي:

٤ ـ «وحكى الصُّولي قال: حدثنا العلاء، قال: حدَّثني يعقوب بن جعفر بن سليمان قال: غزوتُ مع المعتصم عمُّوريّة(١)، فاحتاج الناسُ إلى الماء، فمدَّ لهم المعتصمُ حياضاً من أَدَم ـ أي جلود ـ عشرةَ أميال، وساق منها الماءَ إلى سُوْر عمُّورية. ويقال: كان في جيشه خمسون ألف أبلق وخمسون ألف أدهم.

وكان رجل من الروم يقوم كلَّ يوم على السُّوْر، ويشتمُ النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم بالعربيّة باسمه ونسبه! فاشتدَّ ذلك على المسلمين، ولم يكن يصل إليه النُّشّاب، قال يعقوب: وكنتُ أرمي رمياً جيداً، فاعتمدتُه بنُشّابة فأصبتُ نَحْرَه، فهوَى وكبَّر المسلمون، وسُرَّ المعتصم وقال: عليَّ بالذي رماه، فأُدخلتُ عليه فقال: من أنت؟ فانتسبتُ، فقال: الحمد لله الذي جعل ثواب هذا السهم لرجل من أهلي ـ يعني من بني العباس.

ثم قال: بِعْني هذا الثوابَ، فقلت: يا أمير المؤمنين ليس الثوابُ مما يباع، فقال: إني أُرَغِّبك، فأعطاني مئة ألف درهم، فقلت: ما أبيع ثوابي، فبلَّغها إلى خمس مئة ألف درهم، فقلت: لا أبيعُ ثوابي بالدنيا وما فيها، ولكن قد جعلتُ لك ـ أي وهبتُ لك ـ نصفَ ثوابه ـ أي ثواب هذا السهم ـ واللهُ يشهدُ عليَّ بذلك، قال: جزاك الله خيراً، قد رضيتُ.

قوة جسم المعتصم وصفته

(١) هو المعتصم بالله، أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور، الخليفة العباسي، من أعاظم خلفاء الدولة العباسية. بويع بالخلافة سنة ٢١٨ يوم وفاة أخيه المأمون، وبعهد منه. وكان المعتصم قويَّ الساعد، يكسرُ زندَ الرجل بين إصبعيه، ولا تعملُ في جسمه الأسنان، وهو فاتح عمُّورية من بلاد الروم الشرقية، وكان لين العريكة، رضيَّ الخلق، متسع مَنْكِبه جداً، وكان أبيض أصهب حسن الجسم مربوعاً طويل اللحية، ولد سنة ١٧٩، ومات سنة ٢٢٧. من «الأعلام» للزركلي ٧:٣٥١.

فتحُ عمورية وسببُه:

وعمُّوريَّةُ مدينةٌ من بلاد الروم ـ في تركيا الآن ـ عظيمةٌ كبيرةٌ جداً، ذاتُ سُوْرٍ منيعٍ وأبراجٍ عالية كبارٍ كثيرة، أمنعُ بلاد الروم تحصيناً ومُقاتلةً وسلاحاً وقوة.

وسببُ غزو الخليفة العباسي المعتصم لها ما حكاه المؤرخ ابن الأثير في «الكامل» ٥:٢٤٧، أنَّ المعتصم بلَغه أن امرأةً هاشميةً صاحَتْ وهي أسيرة في أيدي الروم:

. . . .

ثم قال: فأين تعلّمت الرمي؟ قلت: بالبصرة في داري، فقال: بِعْنيها، فقلت: وهي وقفٌ على من يتعلّم الرمي. فوصلني بمئة ألف درهم»(١)

فلله درُّ ذلك الملك الذي يجهد كلَّ جهده لشراء ثواب هذا السهم، ولله درُّ ذلك الرامي الذي لا يبيع ثوابَ سهمِه بالدنيا وما فيها.

أقِلُّوا عليهم ـ لا أبا لأبيكُمُ ـ من اللَّوم أو سُدُّوا المكان الذي سدُّوا

أبو عمرو بن نُجيد وتقديمُه المال ليلاً:

٥ ـ وجاء في «طبقات الشافعية الكبرى» لتاج الدين السبكي ٣: ٢٢٣، في ترجمة العلم العابد الزاهد المحدِّث شيخ الصوفية في زمنه أبي عمرو بن نُجَيد (إسماعيل بن نُجَيد السُّلَمي النيسابوري): «قال فيه الحاكم ـ تلميذُه ـ: هو الشيخ العابد الزاهد، شيخ عصره في التصوف والعبادة والمعاملة، وأسندُ من بقي بخراسان في الرواية، ورث عن آبائه أموالاً جزيلة، فأنفقها على العلماء ومشايخ الزهد. وصحب من أئمة الحقائق: الشيخَ الجُنَيد، وأبا عثمان الحِيري، وغيرَهما.

وذكر الحاكم أنه سمع أبا سعيد بن أبي بكر بن أبي عثمان يذكر، أن جدَّه أبا عثمان ـ الحيري ـ، طلب شيئاً لبعض الثغور ـ جمع ثغر، ويقال له الرِّباط أيضاً، وهو المبنى الذي يكون عند باب البلد، يُقيم فيه المرابطون، العُبَّادُ والزهادُ

ومعتصماه! فأجابها وهو جالس على سريره: لبَّيكِ لبَّيكِ، ونهض من ساعته وصاح في قصره: النفيرَ النفيرَ، وركب فرسه وخرج من قصره، وأوصى وصية الموت، وجمع العساكر، وجلس في دار العامّة ريثما تتمُّ تعبئةُ الجيوش للقتال.

وسأل: أيُّ بلاد الروم أمنَعُ؟ فقالوا: عَمُّوريَّة، لم يعرض لها أحدٌ منذ كان الإسلام، وهي عندهم أشرف من القُسْطَنطينية، فغزاها بنفسه وجيوشه سنة ٢٢٣، وفتحها بعد حصار طويلٍ دام ٥٥ يوماً وقتالٍ شديد، رحمة الله تعالى عليه وعليهم، فهم كما قال الحُطيئة:

أولئك قومٌ إن بَنَوْا أحسنوا البُنَى   وإن عاهدوا أَوْفَوْا وإن عَقَدُوا شَدُّوا

(١) انتهى نقلاً من «رسالة في الصيد والرماية والخيل» مخطوطة في مكتبة الحرم المكي بمكة المكرمة، برقم ٣٤ في فهرس الأدب، لإبراهيم بن ولي الحنفي السهمي بحرة والمفتي بها، فرغ من تأليفها سنة ٩٥٩ رحمه الله تعالى.

ثمّ إرادتُه اللهَ بإقامة التوحيدِ، وجَمْعُ الهَمّ له وبه في الفرْض والنَّفْل.

وصِحّةُ اليقين في ثلاثة أشياء: سكونُ القلب إلى الثقة بالله، والانقيادُ لأمر الله، والإشفاقُ والوَجَلُ منْ سابقِ العلْمِ.

ولليقين أوّلٌ وآخرٌ. فأوّلُه: الطُّمأنينةُ، وآخرُه: إفرادُ الله بالكفاية. لقولِه جلَّ وعزّ: ﴿أليْس اللَّهُ بكافٍ عبْدَهُ﴾[1]، وقوله تعالى ﴿يا أيُّها النبيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ومَنْ اتَّبعك من المُؤمنين﴾[2]، والحَسْبُ هُو: الكافي، والمُكْتفي هُو: العبْدُ الرّاضي عما قضى اللَّهُ تعالى.

= والعلماءُ المجاهدون المتصدُّون لصدِّ العدوِّ إذا داهم البلد ـ فتأخّر عنه ـ الإمداد بالمال ـ ، فضاق صدرُه، وبكى على رؤوس الناس!

فأتاه أبو عمرو بن نُجيد بعد العتمة بكيس فيه ألفا درهم، ففرح به أبو عثمان، ودعا له، ولمّا جلس ـ صباح تلك الليلة ـ في مجلسه، قال: يا أيها الناس، لقد رجوتُ لأبي عمرو ـ الأجر والثواب الجزيل ـ ، فإنه ناب عن الجماعة في ذلك الأمر، وحَمَل كذا وكذا، فجزاه الله عني خيراً.

فقام أبو عمرو على رؤوس الأشهاد، وقال: إنما حملتُ ذلك من مال أمي، وهي غيرُ راضية، فينبغي أن تردّه عليّ، لأردّه عليها. فأمر أبو عثمان بذلك الكيس فأُخرج إليه، وتفرّق الناس.

فلمّا جنَّ الليل، جاء أبو عمرو إلى أبي عثمان في مثل ذلك الوقت، وقال: يُمكِنُ أن تجعل هذا في مثل ذلك الوجه، من حيث لا يعلم به غيرُنا، فبكى أبو عثمان! وكان بعد ذلك يقول: أنا أخشى من هِمّة أبي عمرو. وتوفي أبو عمرو سنة ٣٦٥ بنيسابور، وهو ابنُ ٩٣ سنة رحمه الله تعالى».

قال عبد الفتاح: لعله فعل ذلك، ليكون من السبعة الذين يُظلُّهم الله في ظلّه يوم لا ظِلَّ إلّا ظلُّه، الذين منهم: «رجلٌ تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تُنفقُ يمينُه».

(١) من سورة الزُّمَر، الآية ٣٦.

(٢) من سورة الأنفال، الآية ٦٤.

وإنَّما قلنا: آخِرُ اليقينِ مِنْ وجودِ أوصافِ العبدِ في مقامِ الإيمانِ لا في آخرِ اليقينِ مِنَ العِلْمِ[١]، ولَنْ يَبْلُغَ ذلكَ أحدٌ مِنْ خلْقِ الله، كَمَا قَالَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «لَنْ يبلُغَ أحدٌ مِنَ اللهِ كُنْهاً».
قَالوا: يا رسول الله إنَّا بلَغنا أنَّ عِيسَى ابنَ مَرْيَم عَليهِ السَّلَام كان يمشي عَلى الماء؟ قَال: «لو ازداد يَقيناً وخَوفاً لَمشَى في الهواءِ»[٢].

ولا يكونُ الخوفُ إلَّا بعد اليقينِ، وهلْ رأيتَ خائفاً لِمَا لَمْ يَسْتَيقِنْهُ؟.

والخوفُ في ثلاثة أشياء: خَوْفُ الإيمانِ، وعلامتُهُ بَذْلُ الجهدِ في مُفارَقَةِ المعاصي والذنوب[٣]، وهو خَوفُ المُريدين.

---

(١) هكذا جاءت العبارة في غير نسخة ج، وهي في نسخة ج كالتالي:
(وإنما ذكرت نهاية اليقين لأنها من وجوه أوصاف العبد في مقامه لا أنها آخره، وبالنظر إلى العلم فلن يبلغ...). وما يزال في العبارتين غموض.

(٢) هذا حديث موضوع، وإسناده إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم باطل. وقد وقع ذكره كذلك في «الإحياء» ١٢ : ٩٤! وقال الحافظ العراقي في «تخريجه»: «المعروفُ أنه من قول بكر بن عبد الله المزني، رواه ابنُ أبي الدنيا في كتاب «اليقين» قال: فقد الحواريُّون نبيَّهم، فقيل لهم: توجَّه نحو البحر، فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلى البحر، إذا هو قد أقبل يمشي على الماء، فذكر حديثاً فيه أنَّ عيسى قال: لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعرةٍ مشى على الماء». انتهى
ورواه الإمام أحمد في «كتاب الزهد» ص ٥٦ ـ ٥٧ قال: «حدثنا بَهْز، حدثنا أبو هلال، حدثنا بكر بن عبد الله قال: فقَدَ الحواريون نبيهم عليه السلام، فخرجوا يطلبونه فوجدوه يمشي على الماء، فقال بعضهم: يا نبيَّ الله أمشي إليك؟ قال: نعم. قال: فوضع رجله ثم ذهب يضع الأخرى فانغمس! فقال: هاتِ يدك يا قصير الإيمان، لو أن لابن آدم مثقال حبة أو ذرة من اليقين إذاً لمشى على الماء». انتهى
قلتُ: وهذا من الأخبار الإسرائيلية التي لم نؤمر بتصديقها ولا بتكذيبها وتجوزُ حكايتُها للعبرةِ والموعظة بها.

(٣) أي مفارقة الذنوب الحسية والمعنوية، قال التابعي الجليل محمد بن واسع =

وخَوْفُ السَّلْب، وعَلامَتُهُ الخشيةُ والإشفاقُ والوَرَعُ، وهو خوْفُ العلماء بالله عزَّ وجلَّ.

وخوْفُ الفَوْت، وعَلامتُهُ بَذْلُ الجهدِ في طَلَب مَرْضاة اللَّه بوجود الهَيْبَة والإجلالِ للَّهِ عزَّ وجلَّ، وهو خوْفُ الصِّدِّيقين.

ومقامٌ رابعٌ في الخوْف خصَّ اللَّهُ به الملائكةَ والأنبياء عليهم السلام، وهو خوْفُ الإعْظام، مع أنَّهمْ آمِنُونَ في أنفسهمْ بأمان اللَّهِ لَهُمْ، فخوْفُهمْ تَعَبُّدُهُمْ للَّهِ إجلالاً وإعْظاماً.

والمحبَّةُ في ثلاثةِ أشياء ــ لا يُسَمَّى المُحبُّ مُحبّاً للَّه عزّ وجلَّ إلاّ بها ــ محبَّةُ المؤمنين في اللَّه عزَّ وجلَّ[1]، وعلامَةُ ذلكَ كَفُّ الأذى عنْهُمْ، وجلْبُ المنْفعةِ إليهمْ على سبيل الشريعة المحمدية.

وَمحبَّةُ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم للَّه عزَّ وجلَّ[2]، وعلامةُ ذلك اتِّباعُ سُنَّتِه[3]،

= المصري: «لو كان للذنوب ريح ما قدرتم أن تدنوا مني، من نتن ريحي!» من «الحلية» لأبي نعيم ٢: ٣٤٩. وتقدم تعليقُ شرحِ نتن الذنوب في ص ٢١٩ فعد إليه.

(١) ومن أحسن ما تُفسَّرُ به المحبَّةُ في الله عزَّ وجلَّ قولُ التابعي الجليل مسروق بن الأجدع رحمه الله تعالى، وقد قال له رجل: إني لأُحبُّك في الله، قال مسروق: إنك أحببت الله تعالى، فأحببتَ من أحبَّ الله تعالى. من كتاب «العلل ومعرفة الرجال» للإمام أحمد ١: ٧٣.

(٢) أي أن تُحِبَّ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم لأمر الله بمحبَّته.

(٣) الاتِّباع والاقتداء والتأسِّي برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، يكون في الفعل، وفي الترك، وفي القول. فالتأسِّي به في الفعل، هو أن تفعل كما فعل، لأجل أنه صلَّى الله عليه وسلَّم فعلهُ. والتأسِّي به في الترك، هو أن تترك ما تركهُ صلَّى الله عليه وسلَّم، لأجل أنه تركهُ. والتأسِّي به في القول، هو امتثالُ قوله صلَّى الله عليه وسلَّم على الوجه الذي اقتضاه ــ ومنه الخبرُ الآتي عن سيدنا عثمان رضي الله عنه ــ =

. . . .

= وإن لم تفعل، أو تترك، لأجل أنه فعل، أو ترك، فهو موافقةٌ لا متابعة، لأن الموافقة: المشاركة في الأمر وإن لم يكن من أجله. والموافقةُ أعمُّ من التأسّي، لأن الموافقة قد تكون من غير تأسٍّ. أفاده العلامة الفقيه الأصولي أبو البقاء الفتوحي الحنبلي، في كتابه الأصولي «الكوكب المنير شرح مختصر التحرير» ٢: ١٩٦(١).

والاتّباع للسنة له صُوَر كثيرة، ومنها: أن تبذُلَ من نفسك أو من مالك، لتحوز اتّباع سُنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولو تحمّلت فيما تبذُلُه من نفسك تعباً ونصباً، أو تحمّلت فيما تبذله من ذات يدك مالاً كثيراً وثمناً، فأنت غانمٌ بتحصيل السنة أضعافَ ما تبذله في سبيلها ولا ريب.

وإليك هذا الخبر لتشهد صُورةً من صُور البذل التي لعلها لا تخطر بالبال، من أجل تحصيل سنة مندوبة دعا إليها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

جاء في «المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية» للحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى ١: ٣٧٦ «قال عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حُسين: إنّ عثمان بن عفان رضي الله عنه ابتاع حائطاً ـ أي اشترى بستاناً ـ من رجل، فساومه حتى قام على الثمن، ـ أي حتى تمّ الاتفاق على الثمن ـ، ثم قال عثمان للبائع: أعطني يدك، وكانوا لا يستوجبون إلا بصفقة ـ أي لا يُثبتون البيع إلا بصفق يد البائع على يد المشتري ـ.

فلما رأى البائعُ ـ يدَ عثمان رضي الله عنه ـ، قال: والله لا أبيعُه حتى تزيدني عشرة آلاف درهم، فالتفت عثمان إلى عبد الرحمن بن عوف فقال: سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: إن الله يُدخلُ الجنة رجلاً كان سَمْحاً بائعاً، ومبتاعاً، وقاضياً، ومقتضياً. =

. . . .

(١) والتقليدُ من العامي للمجتهد بعدُ اتّباعٌ فيما يقلده فيه، فإن المكلَّف إما مجتهد فمتّبعٌ ما قام عنده بحجة شرعية، وإما مقلِّد فقولُ مجتهد حجةٌ في حقه، فإن الله تعالى أوجب العمل عليه به ـ أي بقول مجتهد ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ ـ كما أُوجب على المجتهد ـ العمل ـ بالاجتهاد. وقد سمّى الإمامُ الشافعي رضي الله عنه اتباع الرسول صلّى الله عليه وسلّم تقليداً. انتهى ملخصاً من «التقرير والتحبير في أُصول الفقه» للعلامة ابن أمير حاج ٣: ٣٤٠.

قالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[1].

وَمَحَبَّةُ الله عَزَّ وجَلَّ فِي إِيثَارِ الطاعةِ عَلَى المَعْصِيَةِ، ويُقَالُ: ذِكْرُ النِّعْمَةِ يُورِثُ المَحبَّةَ[2].

= ـ ثم قال عثمان للرجل البائع ـ «دُونك ـ أي خُذْ ـ هذه العشرة الآف، لأستوجب هذه الكلمة التي سمعتُها من النبي صلّى الله عليه وسلّم». رضي الله عن عثمان ومن تبِعَه إلى يوم الدين.

(١) من سورة آل عمران، الآية ٣١.

(٢) قال العلامة المبرور نادي رحمه الله تعالى في «مصادر ذوي التمييز» ٢: ٤٢١ ـ ٤٢٢: «والأسبابُ الجالبة لمحبّة الله تعالى عشرة:

الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى عشرة

الأول: قراءةُ القرآن بالتدبُّر والتفهُّم لمعانيه والتفطُّن لمراد الله منه.

الثاني: التقرُّبُ إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض، فبها تُوصِلُ إلى درجة المحبوبيّة بعد المحبّة.

الثالث: دوامُ ذكره سبحانه على كل حالٍ باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبُ المحبّ من المحبّة على قدرِ نصيبه من هذا الذِكر.

الرابع: إيثارُ مَحابِّه سبحانه على مَحابِّك عند غَلَباتِ الهوى.

الخامس: مطالعةُ القلب لأسمائه سبحانه وصفاته، ومشاهدتُها، وتقلُّبُه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبّهُ لا محالة.

السادس: مشاهدةُ برِّه وإحسانِه ونِعَمِه الظاهرة والباطنة.

السابع: وهو من أعجبِها: انكسارُ القلب بكليّتِه بين يديه.

الثامن: الخلوةُ به سبحانه وقتَ النُّزول الإلٓهي ـ أي وقتَ التجلّي الإلهي وهو في الأسحار قبل الفجر ـ لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدّب بين يديه، ثم خَتْمِ ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسةُ المحبّين الصادقين والتقاطُ أطايب ثمرات كلامهم، وأن لا يتكلّم ـ أي المحبُّ ـ إلّا إذا ترجّحت مصلحةُ الكلام، وعلم أنّ فيه مزيداً لحاله.

العاشر: مُباعَدَةُ كلِّ سبب يحول بين القلب وبين الله عزّ وجلّ. فمن هذه الأسباب وصَلَ المحبّون إلى مَنازل المحبّة».

وللمحبّة أوّلٌ ووسطٌ وآخرٌ، فأوّلها: محبّةٌ للّهِ بالأيادي والمِنن[1]، قال ابنُ مسْعُود رضي الله عنهُ: جُبلت القلوبُ على حُبِّ من أحْسن إليها. ومن أحسنُ من الله عهداً ورحمةً ورأفةً وتجاوزاً إلّا اللّهَ الحليم الكريم.

ووسطها: الامتثالُ لأوامره، واجتنابُ نواهيه، بحيث لا يفْقدُكَ فيما أمرك به، ولا يجدك فيما نهاك عنه، فإذا وقعت المخالفة ذهب الاعتراف بها والانقلابُ عنها في الحين.

وأعْلاها: المحبّةُ لوجُوب حقِّ اللّهِ عزّ وجلّ، قال عليُّ بنُ الفُضَيل رحمةُ اللّه عليه: إنّما يُحبُّ اللّهَ عزّ وجلّ لأنه هُو الله.

وقال رجُلٌ لطاووس: أوصني. قال: أُوصيك أنْ تُحبَّ اللّهَ حُبّاً حتّى لا يكون شيءٌ أحبَّ إليك منْهُ، وخفْهُ خوفاً حتّى لا يكون شيءٌ أخْوفَ إليك منْهُ، وارْجُ اللّهَ رجاءً يَحُولُ بينك وبين ذلك الخوف، وارْضَ للناس ما ترْضى لنفْسك، ثُمّ فقدْ جمعْتُ لك علم التوراةِ والإنْجيلِ والزَّبُورِ والفُرْقانِ.

ثم اعلم أنّ الإجلال والتعظيم من الحياءِ بمنزلةِ الرأْسِ من الجسد، فلا غنى لأحدهما عنْ صاحِبِه، فإذا استحْيا العبْدُ مِن ربّهِ عزّ وجلّ عظّمهُ وأجلّهُ. وأصلُ الحَياء المراقبةُ للّهِ عزّ وجلّ[2].

---

(١) الأيادي: النِّعَم.

نموذجان من تعظيم الله عز وجل:

(٢) قال سفيان الثوري: كانوا يقولون: ما رفع قيسُ بن مُسْلم رأسَه إلى السماء منذ كذا وكذا، تعظيماً لله عزّ وجلّ. رواه الإمام أحمد في «العلل ومعرفة الرجال» ١/٣٤٠. وفيه أيضاً ١/٢١٤ أنّ التابعي الجليل (سعيد بن المسيّب) قال: «ما أذّن المؤذّنُ منذ ثلاثين سنة إلّا وأنا في المسجد». انتهى.

قلتُ: هذا في غاية المراقبة، إذ من الحق على المملوك أن يكون بين يديْ مالكه قبل أن يدعوه، لا أن يدعوه فيحضر.

والمُرَاقَبَةُ في ثلاثةِ أشياء: مُرَاقَبَةُ الله في طَاعتِهِ بالعملِ، ومُرَاقَبَةُ اللَّهِ في مَعْصِيتِه بالتَّركِ، ومُراقبَةُ الله في الهَمّ والخواطِر[1]، لِقوْلِ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم. «اعبُدِ الله كأنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لمْ تكُنْ تَراهُ فإنهُ يَرَاكَ»[2].

ومُراقَبةُ العَبْدِ للَّه عزّ وجلَّ أشدُّ تعباً على البدن منْ مُكاندةِ قِيامِ الليل، وصِيامِ النهار، وإنفاقِ المَالِ في سَبِيلِ اللَّهِ.

وقدْ ذُكِرَ عنْ علي بن أبي طَالب رضي اللَّهُ عَنْهُ أنهُ كَانَ يقُولُ: إنَّ للَّه في أرْضِهِ آنِيَةً، وإنَّ منْ آنِيته فيها القُلُوب[3]، فلا يقْبلُ منْها إلاَّ

الصلاةُ تُنتظَر ولا تَنتظر = ومن أجمل ما يذكر في هذا المقام، ما وقع من إمام من أئمة المساجد في مصر، مع قاضي مصر (علي بن الحسين بن حرب) البغدادي المحدِّث الفقيه الشافعي، ويقال له: ابن حَرْبُويْه، والمكْنِيّ أبا عُبَيْد، المولود سنة ٢١٢، والمتوفى سنة ٣١٩ ببغداد رحمه الله تعالى.

جاء في الصميمة الملحقة بآخر «الولاة والقضاة لمصر» للكندي ص ٥٢٦، عن «رفع الإصر عن قضاة مصر» للحافظ ابن حجر في ترجمته:

«قال ابن زُولاَق: وسكَنَ ابو عُبَيد أوَّل ما دخَلَ مصر: دارَ إسماعيل بن إسحاق، عند مسجد ابن عمْرُوس، ثم انتقل عنها إلى دار المدائني، وكان إذا سمع الأذان خرج إلى الصلاة، فربما وجد الإمام صلَّى أو سبقه بشيء من الصلاة، فكان يرسل إليه: أن ينتظره، فلما تكرَّر منه ذلك، قال له الإمام: الصَّلاةُ تُنْتظر ولا تَنْتظر، فبحث القاضي عنه فأثْنَوْا عليه خيراً، فقرَّبه وأدناه وصيَّره من شُهُوده» انتهى. وما أصدَقَها من كلمةٍ هادِيَة، رحمةُ الله على ذاك الإمام.

(١) وتقدم تعليقاً ص ٧٨ ـ ٧٩ كلامٌ نفيس للغاية في الخواطر للشيخ ابن القيم، فعُد إليه.

(٢) سبق تخريجه تعليقاً في ص ١٥٩.

(٣) قال الإمام ابن القيم: «فهي أوانٍ مملوءة من الخير، وأوانٍ مملوءة من الشر، كما قال بعضُ السلف: قلوبُ الأبرار تغلي بالبرّ، وقلوبُ الفجّار تغلي بالفجور» انتهى من كتابه «مفتاح دار السعادة» ص ١٣٥ عند شرحه الوجه ١٢٩ من مزايا العلم.

مَا صفَا وَصَلُبَ وَرَقَّ[1].

ومعْنى ذلكَ: أنْ صفاءَ القَلْبِ للَّه عزَّ وجلَّ باتِّباعِ أمْرِه ونهْيِه، ومُشاهَدَة الصِّدْقِ والإشْفاقِ. وصفاءُهُ لرسُولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بقبولِ ما أتى به قولاً وعمَلاً ونِيَّةً. وصفاءُهُ للْمُؤمنينَ بكفِّ الأذى وإيصَالِ النفعِ.

وأمّا قولُهُ: «وصلُب» فمعْناهُ: قوي في إقامة الحدود للَّه تعالى، والأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهيِ عَنِ المُنْكرِ.

وقوْلُه: «ورقَّ» فالرِّقَّةُ على وجْهين: رقَّةٌ بالبكاء، ورقَّةٌ بالرَّأْفةِ[2].

وباللَّهِ التوفِيق، وهو حَسْبُنَا ونِعْمَ الوَكِيلُ[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «كتاب الزهد» ص ٣٨٤ من كلام التابعي الجليل خالد بن معدان بنحو هذا اللفظ. وجاء نحوُه من حديث أبي عنبة الخولاني مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنّ لله آنيةً من أهل الأرض، وآنيةُ ربكم قلوبُ عباده الصالحين، وأحبُّها إليه ألينُها وأرقُّها». رواه الطبراني. قال الهيثمي: إسناده حسن، وقال شيخُهُ العراقي: فيه بقيَّةُ بن الوليد، وهو مدلِّس لكنه صرَّح بالتحديث فيه. انتهى من «فيض القدير» للمناوي ٢: ٤٩٦. وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» ٢: ١٧٥: إسناده جيد.

(٢) أي لينُ القلب وشدة العطف والرحمة، والرأفة أرقُّ الرحمة. ورقّةٌ بالبكاء يَنشأ عنها خوفُ الله تعالى وتذكُّرُ عظمته وسلطانه.

بكاءُ يزيد بن مَرْثَد من خوف الله.

وقد كان يزيد بن مرْثَد أحدُ التابعين كثيرَ البكاء، فقال له تلميذه عبد الرحمن بن يزيد بن جابر: «ما لي أرى عينك لا تجِفُّ؟ فقال: وما مسألتُك عنه؟ قال: فقلت له: عسى الله أن ينفعني به، فقال: يا ابن أخي، إنّ الله عز وجل توعَّدني إنْ أنا عصيتُه أن يسجنني في النار، والله لو لم يتوعَّدني إلا أن يسجنني في الحمّام، لكنتُ حَرِياً أنْ لا تجِفَّ لي عين» رَضيَ الله عنه، وأقرَّ عينَهُ برضوانِهِ العظيم.

(٣) جاء في خاتمة الأصلين: «تمّت رسالة المسترشدين بحمد الله وعونه وحسن توفيقه». وجاء بعد هذا صلاة على النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعلى

. . . .

= آله وأصحابه بعبارات متعددة، وهي لا شك من عمل النساخ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

يقول الفقير إليه تعالى عبد الفتاح بن محمد أبو غدة ـ تاب الله عليه، وغفر له ولوالديه ـ: فرغتُ من خدمة هذا الكتاب والتعليق عليه للمرة الأولى في ١ جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ بمدينة حلب، ثم ألحقتُ به زيادات كثيرة في التعليق، لاحظتُ فيها ما يحتاج إليه شبابُنا وشيبُنا اليوم، من توجيه وتغذية للروح والسلوك في هذا المجتمع الفاسد، سواءٌ في دار الإسلام أو في دار الكفر والغُربة التي يُضطرون للسفر إليها، وقانا الله وإياهم كلَّ سوء ووفّقنا إلى الخير والرشاد.

ومن الله تعالى أبتغي كريم الأجر، ومن المنتفعين به أرجو الدعاء، وحُسن الذكر، وما توفيقي إلّا بالله، عليه توكلتُ وإليه أُنيب.

وفرغتُ من التعليق عليه للمرة الثانية صباح يوم الاثنين ٥ من جمادى الأولى سنة ١٣٩١ في مدينة بيروت، والحمد لله ربّ العالمين.

وفرغتُ من التعليق عليه للمرة الثالثة، في هذه الطبعة الثامنة ـ وقد زادت زيادات نافعةً جداً ـ يوم الخميس ١٢ من صفر سنة ١٤١٢ بمدينة الرياض، راجياً من الله تعالى الرضا والقبول، وزيادة النفع به، وملتمساً دعواتِ المستفيدين والمنتفعين وترحماتهم، والله يجزي المحسنين، والحمد لله رب العالمين.

(تتمات لتعليقات)

رأيتُ في بعض تعليقاتي على مواضع من هذه الرسالة «رسالة المسترشدين»، أنها جاءت بحثاً علمياً صرفاً، وقد تكون طويلة جداً، فتُبعِدُ القارىءَ عن الموضوع، فاستحسنتُ أن أُورِدَ تلك التعليقات في آخر الرسالة، مشيراً إلى موضعها فيها بذكر صفحتها والسطرِ فيه، حتى إذا رأى القارىءُ لها هناك الإحالةَ إليها هنا، أو رأى التتمةَ هنا والإحالةَ معها إلى موضعها هناك تمكّن في الحالين من الوقوف عليهما والربطِ بينهما في الموضعين.

٦٩ س ٣ جاء هنا في كلام الإمام المحاسبي لفظُ (القديم) في وصف الله تعالى، ولفظُ (القديم) ليس من الأسماء الحسنى لله تعالى، وإنما هو من تعبير العلماء المتكلّمين لاصطلاح العلم، وتقريب المعنى لاسم (الأول)، فإنّ القديم في لغة العرب: المتقدِّم على غيره، فيقولون: هذا قديم، للعتيق، وهذا حديث للجديد، ولم يستعملوا (القديم) إلاّ في المتقدِّم على غيره، لا فيما لم يسبقه عدمٌ، قال تعالى: ﴿حتى عاد كالعُرْجون القديم﴾ والعُرْجون القديم هو الذي يبقى إلى حين وجود العُرْجون الثاني، فإذا وُجد الجديد قيل للأول: قديم. ويُعبَّر به العلماء كثيراً للإفهام.

وقد أنكر جماعةٌ من العلماء إطلاقَ (القديم) على الله تعالى، لأنه ليس من الأسماء الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، والذي ورد في الكتاب والسنة هو لفظُ (الأول)، ففي أول سورة الحديد قوله تعالى: ﴿هو الأوّلُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكل شيءٍ عليم﴾.

وفي «صحيح مسلم» بشرح النووي ١٧: ٣٦، في (باب الدعاء عند النوم)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قول النبي صلّى الله عليه وسلّم: «اللهم أنت الأوّلُ فليس قبلك شيء، وأنت الآخِرُ فليس بعدك شيء، وأنت الظاهرُ فليس فوقك شيء، وأنت الباطنُ فليس دونك شيء، اقضِ عنا الدَّيْن وأغنِنا من الفقر». انتهى ملخصاً من «شرح الطحاوية» ص ٥١ ــ ٥٢، بتحقيق شيخنا أحمد شاكر، مع زيادة يسيرة. ذكرتُ هذا لمعرفة أن (القديم) ليس من أسماء الله تعالى.

٦٩ س ٤ جاء هنا قولُ المؤلِّف المحاسبي: (... حَمْداً يُوافي نِعَمَهُ ويَبلُغُ

مَدى نِعَمِهِ) أي يفي بالنِّعم ويقومُ بحقوقها، ويقومُ أيضاً بشكرِ ما زاده من النِّعم والإحسان. وهذه الصيغةُ للحمْدِ بهذا اللفظ وبهذا المعنى لم ترد في السُّنَّة الثابتة المطهرة، بل هي مخالفة لما ثبت فيها، فلا ينبغي قولُها، كما سيتبيَّن ذلك مما يأتي.

وأصلُ هذا الدعاء والثناء منقولٌ عن أبي نصر التمّار، عن محمد بن النَّضْر الحارثيّ، قال: قال آدمُ: يا ربِّ شغلْتني بكسْب يدي، فعلِّمني شيئاً فيه مجامعُ الحمد والتسبيح، فأوحى الله إليه: يا آدمُ إذا أصبحت فقل ثلاثاً، وإذا أمسيت فقل ثلاثاً: الحمدُ لله ربِّ العالمين، حمْداً يُوافي نعمَهُ ويُكافئُ مزيده، فذلك مجامعُ الحمد والتسبيح. نقله النووي في كتابه «الأذكار» ص ٩٦، في آخر (كتاب حمْد الله تعالى)، ولم يَعْزُه إلى مصدر.

وهو أثرٌ مقطوعٌ بإسنادٍ مُعْضَل، ضعيفٌ جداً، فإنّ راويَهُ (محمد بن النَّضْر)، من أتباع التابعين، فبينه وبين سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ـ الذي من طريقه يُعرَف مثلُ هذا ويُنقَلُ ـ مراحلُ شاسعة!

ومحمد بن النَّضْر هذا تَرجَم له أبو نُعَيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» ٨: ٢١٧ ـ ٢٢٤، وقال: كان من العُبّاد أهل السكون، ولم يكن الحديثُ من شأنه، وإنما كانوا يكتبون عنه من كلامه. انتهى. وقال ابن الصلاح فيه أيضاً: لم يكن صاحبَ حديث، ولم يجئ عنه شيءٌ مُسند. انتهى مستفاداً من «الفتوحات الربانية على الأذكار النووية» ٣: ٢٩٧.

وقد ذكر له أبو نعيم في ترجمته جملة من الأخبار الإسرائيليات، فالله أعلم من أين تلقّى هذا الخبرَ عن آدم عليه السلام؟!! والظاهرُ أنه وَقَع إليه من الإسرائيليات!!

هذا من حيث إسنادُه وثبوتُ نقله، أما من حيث معناه فهو غيرُ صحيح، لأنه مناقضٌ لحقيقة الواقع، إذ ليس هناك أحدٌ من البشر يكون حمْدُه لله تعالى بالغاً مدى نعم الله عليه، ولا مُكافئاً مزيدَ فضل الله إليه. وقد قال سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ـ وهو أعلمُ الخلق بالله تعالى وأشكرُهم له سبحانه ـ في دعائه: (لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك) رواه مسلم في «صحيحه» ٤: ٢٠٣ من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال العلامة علي القاري في «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» ١: ٥١٤، عند قوله صلّى الله عليه وسلّم: (لا أُحصي ثناءً عليك): «أي لا أُطيقُ أن أعُدّ

واحصرُ فرداً من أفراد الثناء الواجب لك عليَّ في كل لحظةٍ وذرَّةٍ، ـ وإن اجتهدتُ في الثناء عليك ـ ، إذ لا تخلو لمحةٌ قطُّ من وصولِ إحسانٍ منك إليّ، وكلُّ ذرةٍ من تلك الذرَّات، لو أردتُ أن أُحصي ما في طيِّها من النِّعم لعجزتُ، لكثرتها جداً، قال الله تعالى: ﴿وإن تعُدُّوا نعمة الله لا تُحْصُوها﴾ فأنا العاجزُ عن القيام بشكرك». انتهى كلامُ علي القاري.

وبهذا يتبدَّى أنَّ الحمْدَ بلفظ (الحمدُ لله حَمْداً يوافي نعمه ويُكافِئُ مزيده) غيرُ مشروع، لانتفاء صحته وثبوته، ولخلل معناه ولمنافاته لصحيح السُّنَّة المطهرة، من حيث المعنى، فلا يَسوغُ أن يقال. والله تعالى أعلم.

ثم بعد كتابة ما تقدم رأيتُ الإمام ابن القيم، قال في كتابه «عُدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين» ص ١١٧: «وقد قال بعض الفقهاء: إنَّ من حلف أن يَحمد الله بأفضل الحمد، كان بِرُّ يمينه أن يقول: الحمدُ لله حَمْداً يُوافي نعمه ويُكافِئُ مزيده.

فهذا ليس بحديث عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ولا عن أحد من الصحابة، وإنما هو إسرائيلي عن آدم، ولا يمكنُ حَمْدُ العبد وشكرُهُ أن يُوافي نعمةً من نعم الله، فضلاً عن مُوافاته جميع نعمه، ولا يكون فعلُ العبد وحمدُه مُكافِئاً للمزيد». انتهى. ثم ذكر ابنُ القيم توجيهاً لهذا الخبر الإسرائيلي، لا يتفق مع سابق كلامه هذا الذي نقلتُه، فلذا تركته.

وقال العلامة السفَّاريني في «غذاء الألباب» ١:١٨: «وقد رُفِع للإمام ابن القيم سؤالٌ عن هذا اللفظ من الحمد وأنه أفضلُ صيغ الحمد، فأنكر ابنُ القيم ثبوتَه حديثاً بوجهٍ من الوجوه، وقال: إنما يُروى عن أبي نصر التمار عن سيدنا آدم عليه السلام، ولا يُدرَى كم بين آدم وأبي نصر إلاَّ اللهُ تعالى. ولو رواه أبو نصر التمار عن سيِّد ولد آدم صلَّى الله عليه وسلَّم، فكيف بروايتِهِ له عن آدم؟».

وقال الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» ٤:١٧١ من كتاب الأيمان: «وقال النووي في «الروضة»: ما هذه مسألة ليس لها دليل معتمد. وهذا خبرٌ مُعْضَل». انتهى كلامُ الحافظ ابن حجر. وقد تمحَّل في تفسير المراد بهذه الصيغة ا في مقدمة كتابه «الإفصاح بتكميل النُّكت على ابن الصلاح» في علوم الحديث ١: ٢٢٣ ـ ٢٢٤، وأقرَّ الشافعية عليها فقال: «وقد قال الأصحاب: إنَّ أجلَّ المحامد أن يقول المرءُ: الحمدُ لله حمداً يوافي نعمه ويكافئُ مزيده». انتهى.

وقال الحافظ ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» ١: ٤١: «والربُّ تعالى: يمتنعُ أن يكون المخلوقُ مُكافِياً له أو متفضلاً عليه، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول إذا رُفِعَتْ مائدتُه: الحمدُ لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، غيرَ مكفيٍّ ولا مكفورٍ ولا مُودَّعٍ ولا مستغنىً عنه ربَّنا. رواه البخاري ٩: ٥٨٠ من حديث أبي أمامة». انتهى.

وجاء في «الفتاوى الكبرى» للشيخ ابن تيمية أيضاً ١: ٢١٣، أنه سُئل رحمه الله تعالى عن مقالة: (الحمدُ لله مُجزِيْ مكافئاً) ــ وهي صيغة تُشبه الصيغة المتكلَّم فيها هنا ــ، هل تصحُّ هذه المقالةُ مُوهِمةً؟ وما وجهُ إعرابه ونصبه؟ وهل هي حال؟ وإذا كانت حالاً، فحالُ ماذا؟

فأجاب رحمه الله تعالى بقوله: «هذا الحمدُ لا يُعرفُ مأثوراً عمن يُحتجُّ بقوله حتى يُطلب توجيهُه، لكن يُمكنُ أن يعني به المتكلِّمُ معنىً صحيحاً، بأن يكون نصْبُها على الحال من اسم الله، والعاملُ في الحال العاملُ في صاحبها، وهو ما في الظرف من معنى الفعل، والتقديرُ: الحمدُ مستقرٌّ أو استقرَّ لله، في حال كونه مُجزِياً مُكافِئاً». انتهى.

قال عبد الفتاح: والحمدُ بصيغة (الحمدُ مُجزِياً مُكافِئاً)، لا صلة له بالصيغة المتكلَّم فيها هنا، وإنما ذكرته لشَبَهِه به، وليُعرَفَ أنه غيرُ مأثور أيضاً.

فلا يَغُرَّنَّك وقوعُ صيغة الحمد بلفظ (الحمدُ لله حمداً يُوافي نعمه ويُكافئ مزيده)، في كلام بعض أكابر العلماء وغيرهم، بعدما علمتَ عدمَ ثبوته، وخللَ معناه، فوجودُه في كلام بعض العلماء دليلٌ على أن العصمة خاصةٌ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد وقعت الصيغة المذكورة في أول فاتحة «مقدمة الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم ص ١، وفي فاتحة كتاب «إيضاح الإشكال في الرواة» ــ مخطوط ــ للحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي المصري المتوفى سنة ٤٠٩، وفي فاتحة كتاب «عقد الدُّرر في أخبار المنتظر» للشيخ يوسف بن يحيى المقدسي الشافعي، من علماء القرن السابع، وفي فاتحة كتاب «إقامة الدليل على إبطال التحليل» للحافظ الإمام ابن تيمية نفسِه، في الطبعة المستقلة وضِمنَ كتابه «الفتاوى الكبرى» ٣: ٩٨.
ووقوعُه في كلام هؤلاء والكبراء من أمثالهم لا يجعلُه مشروعاً بعدما علمتَ، والله تعالى أعلم.

١١٢ بآخر سطرٍ من هذه الصفحة إحالةٌ إلى هنا لبيان مشروعية الذكر جهراً وجماعة، فهذا بيانُها:

مشروعية الذكر جهراً منفرداً وجماعة

ذهب بعضُ العلماء إلى منع الجهر بالذكر منفرداً أو جماعة، ولكن الحق جوازه كما حققه الإمام المحقق عبد الحي اللكنوي في كتاب خاص سماه: «سباحة الفكر في الجهر بالذكر»، وقد استوفى فيه أدلة المانعين والجواب عنها، ثم أورد للمجيزين الأدلة الناطقة على جوازه، فبلغت ٤٨ دليلاً، بل بعضها شاهد باستحبابه، كما أشار إليه هناك. واستوفى أيضاً بيان المواطن التي يُطلب الجهر فيها، أو يُكره، وشروطه وآدابه وما إلى ذلك، على وجه لا تراه عند غيره.

والكتاب مطبوع بالهند أكثر من مرة، في ضمن مجموع كلِّه للكنوي، عُرف باسم «مجموع الرسائل الست». وقد اعتنيتُ بخدمته وطبعه في بيروت محققاً سنة ١٤٠٨ فانظره إذا شئت. وللحافظ السيوطي رحمه الله تعالى رسالة جيدة «نتيجة الفكر في الجهر بالذكر»، ذهب فيها إلى الجواز أيضاً. وهي مطبوعة ضمن كتابه «الحاوي للفتاوي»، وعلى حدة أيضاً.

ثم رأيت إيراد طرف هنا من أدلة المجيزين للذكر جهراً، وجماعة، التي ساقها الإمام اللكنوي في كتابه «سباحة الفكر»، ليقف عليه من لا يتيسرُ له الوقوف على ذلك الكتاب، وما تراه بين معترضتين هكذا ــ . ــ فهو زيادة مني لإتمام الفائدة

قال رحمه الله تعالى في الصفحة ٦٣ ــ ٦٦ ما يلي.

ومنهم ــ أي من مجوِّزيه ــ الشيخ عبد الحق الدَّهْلوي، حيث أورد في رسالته المسمّاة «بتوصيل المُريد إلى المُراد، ببيان أحكام الأحزاب والأوراد» كلاماً طويلاً بالفارسية في جوازه، وأنا أذكرُهُ مُعرَّباً فنقول:

الجهرُ والإعلانُ بالذكر والتلاوة، والاجتماعُ للذكر في المجالس والمساجد جائزٌ ومشروع، لحديث «من ذكرني في ملإ ذكرتُهُ في ملإ خيرٍ منه». وقولُهُ تعالى ﴿كذكركُمْ آباءكم أوْ أشدَّ ذكْراً﴾ أيضاً يمكن دليلاً له، وفي «صحيح البخاري» عن ابن عباس أنه قال «كُنّا لا نعْرفُ انصراف الناس من الصلاة في عهد رسول الله إلّا بالذِكر جهراً».

وفي «الصحيح» أنهم كانوا يجهرون بلا إله إلّا الله وحدهُ لا شريك له، له المُلْكُ، وله الحمدُ، وهو على كل شيء قدير» وجاء في بعض الروايات تخصيصُهُ بالفجر والمغرب.

ــ ولفظُ مسلم في صحيحه: كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة: اكْتُبْ لي بشيءٍ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فكتب إليه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا قضى الصلاة: لا إله إلّا الله وحْدَهُ. ــ

وسياقُ قوله عليه الصلاة والسلام: «يا أيُّها الناس، ارْبَعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تَدْعُون أصَمَّ ولا غائبًا» يدلُّ على أنَّ المنع لم يكن لعدم شرعية الجهر، بل لطلب التأني والتيسير ـ أي الاعتدال في رفع الصوت ـ.

وقد ثبت جَهْرُهُ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم بالأذكار والأدعيةِ في كثير من المواضع، وعَمِل به السلفُ، وفي «صحيح البخاري» ـ ٦: ٤٥ في كتاب الجهاد (باب الصبر عند القتال) وهو بمعناه، من حديث أنس ـ «لما كانت الصحابةُ مشتغلين بحفر الخندق مَخْمُوصِيْنَ بهم الجُوْعُ[1]، رأى رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم حالهم، وكان يقول: اللَّهمَّ لا عيش إلَّا عيشُ الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة، وكانوا يقولون في جوابه:

نحن الـذين بـايعـوا محمـدا   على الجهـاد ما بقينـا أبـدا

وبالجملة: لا كلام في وقوع الجهر في المحالِّ المخصوصة، والمواضعِ المعيَّنة، إنما الكلامُ في أنَّ ثبوت حكمٍ في قضيةٍ هل يُمكنُ دليلًا على ثبوته عمومًا، أوْ لا؟ فيجوزُ للمخالف أن يقول: لعل في تلك المواضع تكون فائدةٌ مخصوصةٌ لا توجدُ في غيرها، أو يقول: لعل الجمع بين الذِّكْر والدعاء جهرًا جائز، ولا يجوزُ الجهرُ بالذكر أو الدعاء انفرادًا، فوجب ذكرُ الدلائل التي تدُلُّ على عموم الجواز.

فأما الاجتماعُ للذكر بانفرادٍ فهو ثابتٌ من حديثٍ مُتَّفقٍ عليه، من رواية أبي هريرة مرفوعًا: «إنَّ لله ملائكةً يطوفون في الطرق، يلتمسُون أهل الذكر» الحديث، وفي رواية أخرى: «وما جلس قومٌ مسلمون مجلسًا يذكرون الله فيه إلَّا حفَّتْ بهم الملائكة، ونزلتْ عليهم السكينةُ، وغشيَتْهم الرحمة» ـ رواها مسلم في «صحيحه» ١٧: ٢١. ولفظ (مسلمون) هنا مقحم على الحديث، ولعله زاده الدهلوي في الترجمة إلى الفارسية، فتابعه المؤلف في ترجمته إلى العربية ـ.

وتأويلُ الذكر بمذاكرة العلم وآلاء الله تعالى بعيدٌ، ولا يجوزُ حملُ اللفظ على خلافِ المتبادِرِ إلى الذهن من غير ضرورة.

ولا يقال: لا يلزمُ من اجتماع قومٍ للذكر جهرُهم بالذكر، لجواز أن يكون ذكرُ كلٍّ منهم سرًا على حدة، لأنا نقول: إذا كان الذكر سرًا، فلا يظهرُ للاجتماع فائدةٌ مُعْتَدٌّ بها.

وأما جوازُ الاجتماع للدعاءِ فهو ثابتٌ من حديث رواه الحاكم وقال: على

---

(١) قوله: (مخموصين ...) تعبيرٌ غير فصيحٍ ولا صحيحٍ، والصواب عربيةً (خماصًا) جمع (خميص)، وهو من دَخَلَ بطنُهُ في جوفه من الجوع.

شرط مسلم مرفوعاً. «لا يجتمعُ ملأ، فيدعو بعضُهم، ويؤمّنُ بعضُهم إلاّ استجاب اللهُ دُعاءهم». ــ ساقه الحاكم في «المستدرك» ٣: ٣٤٧ وسكت عنه، وسنده حسن ــ.

وأما الاجتماعُ للتلاوة فهو ثابت من حديث «ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله، يقرؤون القرآن، ويتدارسُونه، إلاّ حفّتْ بهم الملائكة»، صَحّحه النووي وغيرُه، ــ هو في «صحيح مسلم» ١٧: ٢١ في كتاب الذكر والدعاء (باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر) فقولُ الشيخ عبد الحق الدهلوي «صحّحه النووي وغيره» فيه تساهل ــ.

ومن ها هنا أخذوا جواز قراءة الأحزاب والأوراد في المساجد والمجالس.

وذهب مالك وأصحابه إلى كراهة جميع هذه الأمور لعدم عمل السلف بها، ولسدِّ الذرائع، وقطع موادِّ البدْعة، لئلا تدخلَ الزيادةُ في الدين، والخروجُ عن الحق المبين، وقد وقع في زماننا هذا ما خافه واتقاه. انتهى كلامُهُ بتعريبه.

وقال الشيخ الدَّهْلوي أيضاً في «شرح المشكاة» في شرح حديث أُبيِّ بن كعب «كان رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم إذا سلّم من الوتر قال: سبحان الملك القُدُّوس، ثلاث مرات، ويرفعُ صوته بالثالثة». الذي رواه أبو داود والنسائي وابن أبي شيبة وأحمد والدارقطني وغيرُهم: في هذا الحديث دليلٌ على شرعية الجهر بالذكر، وهو ثابت في الشرع بلا شبهة، لكنّ الخفيَّ منه أفضل. انتهى. وهو الثالث والأربعون من أدلة جواز الجهر رواه أبو داود ٢: ١٣٧ في كتاب الصلاة (باب في الدعاء بعد الوتر)، ولفظه (كان رسول الله إذا سلّم في الوتر قال: سبحان المَلِكِ القُدُّوس)، والنسائي ٣: ٢٣٥ في كتاب قيام الليل (باب كيف الوتر بثلاث) و ٢٤٩ (باب التسبيح بعد الفراغ من الوتر)، والإمام أحمد في «المسند» ٥: ١٢٣ ــ.

وفي «المرقاة» لعلي القاري رحمه الله تعالى ٢: ١٥٨، عند شرح هذا الحديث ناقلاً عن المُظْهِر ــ أي الشارح ــ: هذا يدُلُّ على جواز الذكر برفع الصوت، بل من السنّة الاستحباب، إذا اجتُنِبَ الرياء إظهاراً للدين، وتعليماً للسامعين، وإيقاظاً لهم من الغفْلة، وإيصالاً لبركة الذكر إلى مقدار ما يَبلُغ الصوتُ إليه من الحيوان والشجر والمدر، وطلباً لاقتداء الغيْر بالخير، وليَشْهد له كلُّ رطْبٍ ويابس. وبعض المشايخ يختارون إخفاء الذكر، لأنه أبعدُ من الرياء، وهذا متعلِّقٌ بالنية». انتهى كلام اللكنوي.

فتوى بجواز صلاة النفل بجماعة
عند السادة الشافعية وعند السادة الحنابلة

سئلتُ عن جواز صلاة النفل بجماعة، فأجبتُ أنها جائزة عند السادة الشافعية والسادة الحنابلة، وعند غيرهم فيها تفصيل، وإليك ذكر المذاهب فيها:

عند السادة الحنفية تُكرَهُ الجماعة في النفل المطلق، وهو الذي لا وَقْتَ له معيَّناً ولا ارتباطَ له بالصلوات المكتوبة، وتكره أيضاً في الرواتب التابعة للفرائض وفي صلاة الضحى والأوَّابين وقيام الليل ، وهذه الكراهة إذا كانت الجماعة على سبيل التداعي وطلب التجمع لها، فإن لم تكن على سبيل التداعي فتجوز إذا لم يزد عَدَدُ الجماعة على أربعة، أمّا مثلُ صلاة العيدين والتراويح والاستسقاء والكسوف فتُسَنُّ فيها الجماعة.

وعند السادة المالكية تجوزُ الجماعةُ في النفل المطلق، إذا كانت قليلةً، وكانت في منزلٍ أو نحوه من الأمكنة التي لا يتردَّدُ عليها الناس. كما في كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» ١ / ٤٠٨، في (حكم الإمامة في صلاة الجمعة والجنازة والنوافل).

وعند السادة الشافعية تجوزُ الجماعةُ في النفل المطلق ليلاً أو نهاراً دون قيد، قال الإمام النووي رحمه الله تعالى، في «الروضة» ١ / ٣٤٠ «وأمّا النوافلُ فقد سبق في (صلاة التطوع) ص ٣٣٢، ما يُشرعُ فيه ـ أي ما تُسنُّ فيه الجماعة ـ وهي العيدان والكسوف والاستسقاء والتراويح ـ وما لا يُشرعُ ـ ومنه صلاةُ الضحى وركعتا الاستخارة والحاجة وركعتان عقب الوضوء ـ ، ومعنى قولهم (لا يُشرع): لا تُستحبُّ، فلو صُلِّي هذا النوع جماعةً جاز، ولا يقالُ مكروه. فقد تظاهرتْ الأحاديثُ الصحيحةُ على ذلك». انتهى.

وجاء في كتاب «المغني» للإمام ابن قدامة الحنبلي رحمه الله تعالى، في كتاب الصلاة ٢ / ١٤٢ في أواخر (باب الساعات التي نُهي عن الصلاة فيها) ما يلي:

فصل (يجوز التطوع جماعةً وفُرادى ـ ليلاً أو نهاراً ـ ، لأن النبي صلّى الله

عليه وسلَّم فعل الأمرين كليهما وكان أكثرُ تطوعه منفرداً، وصلَّى بحُذَيفة مرة، وبابن عباس مرة، وبأنس وأمه واليتيم مرة، وأمَّ أصحابه في بيت عِتْبان بن مالك مرة، وأمَّهم في ليالي رمضان ثلاثاً، وهذه الأخبار كلها صحاح جياد) انتهى فهو جائز في مذهب السادة الحنابلة والشافعية دون قيد، وعند السادة الحنفية والمالكية بقيد، وإذا جاز التنفل بجماعة عند إمام من أئمة المذاهب المتبوعين، فيجوز للمسلم فعلُه دون حرج. والله ولي التوفيق.

المحتوى[1]

(١) حرف (ت) يشير إلى أن ما قبله وارد في التعليق.

١ ـ الآيات القرآنية

٢ ـ الأحاديث

مرتبة على وَفْق ذكرها في الكتاب

٣ ـ الآثار عن الصحابة والتابعين
وكلماتٌ جامعةٌ للشيوخ
وكلُّ كلمةٍ منها تقعُ في النفس موقع رسالةٍ في موضوعها

الحُزْنُ في الدنيا تلقيحُ العمل الصالح. . . الحسن البصري. ١٩٣ت
العمل تَبَعٌ للعلم، كما أنَّ الأعضاءَ تبعٌ للبصر. . أبو حنيفة. ١٩٩ت
إن الرجل ليَخرُجُ من بيته ومعه دِينُه. . . ابن مسعود. ٢٠١ت
ما مددتُ رِجلي نحوَ دار أستاذي حمَّادٍ إجلالاً له. . . أبو حنيفة. ٢٠٣ت
إني لأدعو لأبي حنيفة قبل أبويَّ. . . الإمام أبو يوسف. ٢٠٣ت
كان الشافعيُّ كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس. . الإمام أحمد. ٢٠٣ت
الحُرُّ من راعَى وِدادَ لحظة، أو انتمى لمن أفاده لفظة. الشافعي. ٢٠٤ت
إني لا يَحِلُّ لي أن أُضيعَ ساعةً من عُمُري. أبو الوفاء ابن عقيل. ٢٠٥ت
سئل الإمام أحمد بن حنبل بم تلين القلوب؟ قال بأكل الحلال. ٢١٦ت
من أحبَّ أن يُكاشَف بآياتِ الصِّديقين فلا يأكل إلاَّ الحلال. سهل التُّسْتَري. ٢١٦ت
اتقوا الله فينا ولا تطعمونا الكسب الحرام. . . بعض نساء السلف. ٢١٦ت
اتق الله واطلب ما قُدِّر لك من حلال. . . ابن سيرين. ٢١٦ت
القرآن بُستان العارفين، فأينما حلُّوا منه حلُّوا في نُزْهَة. محمد بن واسع البصري. ٢١٧ت
إني لأحسبُ أنَّ الرجل يَنسَى العلمَ قد عَلِمَه بالذنبِ يَعْمَلُه. ابن مسعود. ٢١٨ت
إنَّ للحسنةِ نوراً في القلب، وزَيْناً في الوجه. . . ابن عباس. ٢١٨ت
الذُّنوبُ جراحات، ورُبَّ جُرْحٍ وَقَع في مقْتَل. . . ابن القيم. ٢١٩ت
الحسنةُ نُورٌ في القلب وقُوَّةٌ في العمل . سليمان بن طَرْخان ٢٢١ت
إذا هَمَّتْ نفسُك بالمعصية فذكِّرها بالله. . . مصطفى السباعي. ٢٢٢ت
عقوبة العالم إذا أحبَّ الدنيا موتُ القلب. . . الحسن البصري. ٢٢٣ت
أوصيك أن تكون مَلِكاً في الدنيا والآخرة، قال كيف هذا؟. . . محمد بن واسع. ٢٢٣ت
السلطان من لا يعرفه السلطان. قول بعض الفقهاء. ٢٢٣ت
الزهد بين كلمتين من القرآن. . . علي. ٢٢٤ت
إنَّ ذليل الدنيا خير من ذليل الآخرة. محمد بن واسع البصري. ٢٢٦ت
جالسوا التوابين فإنهم أرَقُّ أفئدة. عمر. ٢٢٩ت
يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أنقَى لثوبك وأتقى لربك. عمر. ٢٢٩ت
مذاكرةُ العلم ساعةً خيرٌ من إحياء ليلة. ابن عباس. ٢٣٠ت
طلبُ العلم أفضل من الصلاة النافلة. الشافعي. ٢٣٠ت

٤ ـ الأشعار

الأبيات مذكورة هنا على وَفْق ما وردت في صفحات الكتاب واكتفيتُ بذكر البيت الأول عن ذكر باقي الأبيات التي تليه، والأبيات كلُّها واردة في التعليقات

٥ ـ الأعـلام

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

— ش —

— ن —

— هـ —

٦ ــ أهمُّ المصادر والمراجع

١ ــ الإبهاج في شرح المنهاج للسبكي تقي الدين. طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠١
٢ ــ الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية لمحمد المدني. حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٨.
٣ ــ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي. الطبعة الثانية: ١٣٥٤.
٤ ــ الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة للكنوي. حلب ١٣٨٤ والقاهرة ١٤٠٤.
٥ ــ الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم دار الآفاق بيروت ١٤٠٠.
٦ ــ الإحياء للغزالي لجنة نشر الثقافة الإسلامية ١٣٥٦، وطبعة دار المعرفة في بيروت دون تاريخ.
٧ ــ أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السَّفَر للسِّلَفي بيروت ١٩٦٣
٨ ــ آداب المتعلمين لنصير الدين الطوسي ضمن مجموعة رسائل. دار الفتوح دون تاريخ
٩ ــ الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلي. مطبعة المنار ١٣٤٨.
١٠ ــ أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني طبعة ليدن ١٩٥٢، وعنها طبعة بيروت ١٤٠١
١١ ــ أدب الدنيا والدين للماوردي مصطفى البابي الحلبي ١٣٣٩.
١٢ ــ الأدب الكبير لابن المقفع. طبع جمعية العروة الوثقى بتحقيق أحمد زكي باشا ١٣٣٠.
١٣ ــ الأدب المفرد للبخاري. السلفية الطبعة الثانية ١٣٧٩.
١٤ ــ الأذكار للنووي. دار الملاح للطباعة والنشر بدمشق ١٣٩١.
١٥ ــ الأربعون النووية للنووي. مع «الفتح المبين» الآتي ذكره برقم ١٥٨.
١٦ ــ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاّني. البولاقية الخامسة ١٢٩٣
١٧ ــ إرشاد الفحول للشوكاني. السعادة ١٣٢٧.
١٨ ــ الإشارات إلى معرفة الزيارات للهَرَوي. المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥٣.
١٩ ــ أزهار الرياض في أخبار عياض للمَقَّري الأندلسي. طبع المغرب ١٣٩٨.
٢٠ ــ الأسماء والصفات للبيهقي بتعليق الأستاذ الكوثري. السعادة ١٣٥٨.
٢١ ــ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر. السعادة ١٣٢٣.

٢٢ ــ أصول الدين لعبد القاهر التميمي. الآستانة ١٣٤٦.
٢٣ ــ الاعتصام للشاطبي المطبعة التجارية الكبرى دون تاريخ.
٢٤ ــ الأعلام لخير الدين الزركلي الطبعة الثالثة بيروت ١٣٨٩. وما بعدها.
٢٥ ــ أعلام النساء لعمر رضا كحالة. الهاشمية بدمشق ١٣٧٩ الطبعة الثالثة بيروت ١٣٨٩.
٢٦ ــ إعلام الموقعين لابن القيم. السعادة ١٣٧٤.
٢٧ ــ الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ أهلَ التوريخ للسخاوي الترقي بدمشق ١٣٤٩.
٢٨ ــ إغاثة اللهفان لابن القيم مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٧.
٢٩ ــ إفادة النصيح في التعريف لابن رُشَيد. الدار التونسية دون تاريخ.
٣٠ ــ إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة للكنوي، حلب ١٣٨٦.
٣١ ــ إقامة الدليل على إبطال التحليل لابن تيمية. مطبعة كردستان بالقاهرة ١٣٢٩.
٣٢ ــ الإلماع للقاضي عياض. دار التراث ١٣٨٩.
٣٣ ــ الإمام الذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف أحمد بن عرفان الشهيد لأبي الحسن النَّدْوي، ندوة العلماء، لكنو ١٣٩٨.
٣٤ ــ أنباء نجباء الأبناء لابن ظَفَر المغربي. مطبعة التقدم دون تاريخ.
٣٥ ــ الانتصار في مسائل الكبار لمحفوظ بن أحمد الكلْوذاني مخطوط
٣٦ ــ الانتقاء لابن عبد البر. طبعة حسام الدين القدسي المعاهد ١٣٥٠.
٣٧ ــ الأنساب للسمعاني. دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدَّكَن بالهند ١٣٨٢
٣٨ ــ إيضاح الإشكال للأزدي مخطوط.
٣٩ ــ البخلاء للجاحظ. دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣.
٤٠ ــ البداية والنهاية لابن كثير. السعادة ١٣٥١.
٤١ ــ بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي شركة الإعلانات الشرقية ١٩٦٤م.
٤٢ ــ بهجة النفوس لابن أبي جَمْرة الأندلسي. الخيرية ١٣٤٨.
٤٣ ــ تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي. الخيرية ١٣٠٦.
٤٤ ــ تاريخ الإسلام للذهبي. السعادة ١٣٦٧.
٤٥ ــ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي. السعادة ١٣٤٩.
٤٦ ــ تاريخ مدينة صنعاء اليمن لأحمد بن عبد الله الصنعاني. الطبعة الأولى ١٩٧٤.
٤٧ ــ تبيين كذب المفتري لابن عساكر. مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧.

٤٨ ـ تخريج الإحياء للعراقي المطبوع مع الإحياء المتقدم ذكره برقم ٦.

٤٩ ـ تدريب الراوي للسيوطي. طبعة المكتبة العلمية ١٣٧٩.

٥٠ ـ التدمرية لابن تيمية. طبع كلية الشريعة من جامعة الإمام بالرياض ١٩٨٦

٥١ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي. الطبعة الثالثة حيدرآباد الدكن ١٣٧٥.

٥٢ ـ تذهيب التهذيب للذهبي. مخطوط.

٥٣ ـ ترتيب ثقات العجلي للتقي السبكي والحافظ الهيثمي. مكتبة الدار بالمدينة ١٤٠٥.

٥٤ ـ ترتيب المدارك للقاضي عِيَاض. الرباط بالمغرب ١٣٨٤.

٥٥ ـ ترجمة الزهري من تاريخ ابن عساكر. مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى ١٤٠٢.

٥٦ ـ الترغيب والترهيب للمنذري. مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٢، والسعادة ١٣٧٩.

٥٧ ـ التعريف بالقاضي عياض لابنه محمد. طبعته وزارة الأوقاف بالمغرب دون تاريخ.

٥٨ ـ تفسير ابن أبي حاتم. مطبعة هَجَر بالقاهرة ١٤٠٨.

٥٩ ـ تفسير ابن كثير. مصطفى محمد ١٣٥٦.

٦٠ ـ تفسير المنار لرشيد رضا. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢.

٦١ ـ تفسير النَّسَفي. المكتبة الأموية بدون تاريخ.

٦٢ ـ تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين للراغب الأصفهاني. بيروت ١٣١٩.

٦٣ ـ تقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي. حيدرآباد الدكن ١٣٧١.

٦٤ ـ تقريب التهذيب لابن حجر. دار الكتاب ١٣٨٠.

٦٥ ـ التقرير والتحبير لابن أمير حاج. المطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٦

٦٦ ـ تلبيس إبليس لابن الجوزي. المنيرية ١٣٤٧.

٦٧ ـ التلخيصُ الحبير لابن حجر. المطبع الأنصاري بالهند ١٣٠٧، وشركة الطباعة الفنية المتحدة ١٣٨٤.

٦٨ ـ تلخيص مستدرك الحاكم للذهبي. مع المستدرك الآتي ذكره برقم ٢٠١.

٦٩ ـ التمهيد لابن عبد البر. الرباط ١٣٨٧.

٧٠ ـ تهذيب الأسماء واللغات للنووي. الطبعة المنيرية دون تاريخ.

٧١ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر. حيدرآباد الدكن ١٣٢٥.

٧٢ ـ تهذيب الفروق لمحمد علي المالكي (مع الفروق). دار إحياء الكتب العربية ١٣٤٦.

٧٣ ـ التيسير بشرح الجامع الصغير للمُناوي. بولاق ١٢٨٦.

٧٤ ـ جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر. المنيرية ١٣٤٦.

٧٥ ـ جامع البيان عن تأويل القرآن تفسير الطبري. مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٨

٧٦ ـ جامع الترمذي تحقيق أحمد شاكر وغيره. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. الطبعة الثانية ١٣٩٨.

٧٧ ـ الجامع الصغير للسيوطي. مع «فيض القدير» الآتي ذكره برقم ١٦٨.

٧٨ ـ جامع العلوم والحكم لابن رجب. مصطفى البابي الحلبي ١٣٦٩.

٧٩ ـ الجامع لابن أبي زيد القيرواني. مؤسسة الرسالة ١٤٠٢.

٨٠ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. دار الكتب المصرية ١٣٥٤.

٨١ ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحُميدي. مكتب نشر الثقافة الإسلامية ١٣٧٢.

٨٢ ـ جنى الجنتين في تمييز نوعَيْ المثنيين للمُحبّي. مطبعة الترقي بدمشق ١٣٤٨.

٨٣ ـ الجواب الكافي لابن القيم. أمين عبد الرحمن ١٣٤٦.

٨٤ ـ الجواهر والدرر في ترجمة الحافظ ابن حجر للسخاوي. لجنة إحياء التراث القاهرة ١٤٠٦.

٨٥ ـ الجواهر المضية للحافظ القرشي. حيدرآباد ١٣٣٢، ومطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٩٨.

٨٦ ـ الحاوي للفتاوي للسيوطي. السعادة ١٣٧٨.

٨٧ ـ الحث على التجارة والصناعة والعمل للخلال. مطبعة الترقي بدمشق ١٣٤٨.

٨٨ ـ حلية الأولياء لأبي نعيم. السعادة ١٣٥١، ودار الكتاب العربي ١٤٠٠.

٨٩ ـ الحيوان للجاحظ. مطبعة مصطفى البابي الحلبي الطبعة الثانية ١٣٨٥.

٩٠ ـ خريدة القصر للعماد الأصفهاني. مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٣٨٤.

٩١ ـ الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان لابن حجر الهَيْتَمي. الخيرية ١٣٠٤

٩٢ ـ الدر المختار لعلاء الدين للحَصْكَفي. بولاق ١٢٧٢.

٩٣ ـ ديوان الأسرار والرموز للشاعر محمد إقبال. دار المعارف ١٩٥٦م.

٩٤ ـ ديوان نابغة بني شيبان. دار الكتب المصرية ١٣٥١.

٩٥ ـ ذيل الروضتين لأبي شامة المقدسي. مطبعة الأنوار ١٣٤٧.

٩٦ ـ ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي. السنّة المحمدية ١٣٧٢.

٩٧ ـ رد المحتار لابن عابدين. بولاق ١٢٧٢.

٩٨ ـ رسالة الحلال والحرام للشيخ ابن تيمية بتحقيق عبد الفتاح أبو غدة. بيروت ١٤١٥.
٩٩ ـ رسالة في السماع والرقص لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى دار إحياء التراث العربي ببيروت الطبعة الثانية ١٣٩٢.
١٠٠ ـ الرسالة في الصيد والرماية والخيل لإبراهيم الحنفي. مخطوط.
١٠١ ـ الرسالة القشيرية للقشيري. بولاق ١٢٨٤.
١٠٢ ـ الرسائل الصغرى لابن عَبَّاد النفزي المطبعة الكاثولوكية ببيروت ١٩٥٧م
١٠٣ ـ الرعاية للمحاسبي مطابع دار الكتاب العربي بدون تاريخ.
١٠٤ ـ رفع الإصر عن ولاة مصر لابن حجر. المطبعة الأميرية ١٩٥٧.
١٠٥ ـ الرفع والتكميل في الجرح والتعديل للكنوي. الطبعة الثانية دار لبنان ببيروت ١٣٨٩ والثالثة ١٤٠٧.
١٠٦ ـ رُوح القدس في محاسبة النفس لابن العربي. مكتبة الدروبي بدمشق دون تاريخ.
١٠٧ ـ الروح لابن القيم. حيدرآباد الدكن بالهند ١٣٥٧.
١٠٨ ـ روضة العقلاء لابن حبان. الخانجي ١٣٢٨.
١٠٩ ـ الروضة للنووي. المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٥.
١١٠ ـ زاد المعاد لابن القيم. السنّة المحمدية ١٣٧٠.
١١١ ـ الزهد لعبد الله بن المبارك. مجلس إحياء المعارف بمالكيون بالهند ١٣٨٥.
١١٢ ـ الزهد للإمام أحمد. أم القرى بمكة المكرمة ١٣٥٧.
١١٣ ـ الزهد للبيهقي. مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٤٠٨.
١١٤ ـ سباحة الفِكْر في الجهر بالذكر للكنوي. بيروت ١٤٠٨.
١١٥ ـ سِرُّ الرُّوح للبِقَاعي. السعادة ١٣٢٦.
١١٦ ـ السنّة للالِكَائي تحقيق أحمد سعد حمدان. دار طيبة ١٤٠٢.
١١٧ ـ سنن ابن ماجَةْ بخدمة محمد فؤاد عبد الباقي. مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٧٢.
١١٨ ـ سنن أبي داود. الطبعة الثانية بتحقيق محيي الدين عبد الحميد ١٣٦٩.
١١٩ ـ سنن الدارمي. الطباعة الفنية ١٣٨٦.
١٢٠ ـ السنن الكبرى للبيهقي. الطبعة الأولى بحيدرآباد الدكن ١٣٤٤.
١٢١ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي. مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠١.
١٢٢ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي. مكتبة القدسي ١٣٥٠.

١٢٣ ــ شرح الإحياء (إتحاف السادة المتقين) لزبيدي الميمنية ١٣١١.
١٢٤ ــ شرح الأربعين النووية للإمام النووي. شركة الشمرلي بالقاهرة دون تاريخ
١٢٥ ــ شرح الأربعين النووية للتفتازاني. طبع تركيا ١٣٢٣، وطبع تونس ١٢٩٥.
١٢٦ ــ شرح الباجوري على السوسية بحاشية الأبيابي الاستقامة ١٣٥٢
١٢٧ ــ شرح حديث العلم لابن رجب الحنبلي السلفية بمكة المكرمة ١٣٤٧
١٢٨ ــ شرح الحِكَم لابن عَبّاد النِّفْزي. الميمنية ١٣٩٤.
١٢٩ ــ شرح صحيح مسلم للنووي. المطبعة المصرية ١٣٤٧.
١٣٠ ــ شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي تحقيق أحمد شاكر. دار المعارف ١٣٧٣.
١٣١ ــ شرح الكوكب المنير للفُتُوحي الحنبلي السنّة المحمدية ١٣٧٢ ودار الفكر بدمشق ١٤٠٠
١٣٢ ــ صحيح البخاري مع «فتح الباري»، بولاق ١٣٠٠ والسلفية ١٣٨٠ الآتي ذكره برقم ١٥٦.
١٣٣ ــ صحيح مسلم المطبوع معه شرح النووي المصرية ١٣٤٧. مرّ ذكره برقم ١٢٩
١٣٤ ــ صفحات من صبر العلماء لعبد الفتاح أبو غدة. الطبعة الثالثة ١٤١٣ والرابعة ١٤١٤
١٣٥ ــ صفوة الصفوة لابن الجوزي. مطبعة الأصيل بحلب ١٣٨٩.
١٣٦ ــ الصمت لابن أبي الدنيا تحقيق نجم خلف. دار الغرب الإسلامي بيروت ١٤٠٦
١٣٧ ــ صيد الخاطر لابن الجوزي. مطابع دار الفكر بدمشق ١٣٨٠ ودار الكتب الحديثة بالقاهرة دون تاريخ.
١٣٨ ــ طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى الحنبلي مطبعة السنّة المحمدية دون تاريخ.
١٣٩ ــ طبقات الحنفية لعلي القاري. حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٣٢.
١٤٠ ــ طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي. الحسينية ١٣٢٤، والبابي الحلبي المحققة ١٣٨٢.
١٤١ ــ طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب القيرواني. الدار التونسية ١٩٦٨م.
١٤٢ ــ الطبقات الكبرى لابن سعد. دار صادر ودار بيروت ١٣٧٦.
١٤٣ ــ طبقات المفسرين للداودي. مطبعة الاستقلال الكبرى الطبعة الأولى المحققة ١٣٩٢.
١٤٤ ــ ظَفَر الأماني في شرح مختصر السيد الشريف الجرجاني للكنوي بعناية عبد الفتاح أبو غدة. الطبعة الأولى بيروت ١٤١٥.
١٤٥ ــ عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي لأبي بكر بن العربي. المطبعة المصرية ١٣٥٠.

١٤٦ ـ العِبَر في خبر من غَبَر للذهبي. الكويت ١٣٨٠ ـ ١٣٨٦.
١٤٧ ـ العفو والاعتذار للعبدي. طبع جامعة الإمام محمد بن سعود ١٤٠١.
١٤٨ ـ العقل وفضله لابن أبي الدنيا. طبعة عزت العطار ١٣٦٥.
١٤٩ ـ عقود اللآل في أسانيد الرجال للعيدروس الحبشي. مطبعة لجنة البيان العربي ١٣٨٠.
١٥٠ ـ العِلَل ومعرفة الرجال للإمام أحمد. جمعة أنقرة في تركيا ١٣٨٢.
١٥١ ـ العلم لأبي خيثمة النسائي ضمن أربع رسائل. المطبعة العمومية بدمشق ١٣٨٥.
١٥٢ ـ العين للخليل بن أحمد الفراهيدي. دار الرشيد ببغداد. الطبعة الأولى ١٤٠٠
١٥٣ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة. دار الكتب المصرية ١٣٤٣.
١٥٤ ـ غذاء الألباب للسَّفّاريني. دار الاتحاد العربي للطباعة بدون تاريخ
١٥٥ ـ الفتاوى الكبرى لابن تيمية بتقديم لشيخ حسنين مخلوف. مطبعة العاصمة ١٣٨٥.
١٥٦ ـ فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر. بولاق ١٣٠٠ والسلفية ١٣٨٠
١٥٧ ـ فتح القدير لابن الهُمَام. بولاق ١٣١٥.
١٥٨ ـ الفتح المبين بشرح الأربعين لابن حجر المكي الهيتمي. الميمنية ١٣١٧.
١٥٩ ـ الفتوى الحموية لابن تيمية. ضمن مجموع دار المعارف بالقاهرة ١٣٧٣
١٦٠ ـ الفروع لابن مفلح الحنبلي. دار مصر للطباعة ١٣٧٩.
١٦١ ـ الفروق للقرافي. دار إحياء الكتب العربية ١٣٤٦.
١٦٢ ـ الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل لابن حزم. الأدبية ١٣١٧.
١٦٣ ـ الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري. إدارة إحياء التراث الإسلامي بقطر. دون تاريخ.
١٦٤ ـ الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي. مطابع القصيم بالرياض ١٣٨٩.
١٦٥ ـ الفنون لأبي الوفاء بن عقيل الحنبلي. المكتبة الشرقية ببيروت ١٩٨٦م.
١٦٦ ـ الفوائد لابن القيم. المنيرية ١٣٤٤.
١٦٧ ـ فيض الباري على صحيح البخاري للكشميري. مطبعة حجازي ١٣٥٧.
١٦٨ ـ فيض القدير بشرح الجامع الصغير للمُناوي. مصطفى محمد ١٣٥٦.
١٦٩ ـ قاعدة في الجرح والتعديل للتاج السبكي. دار لبنان في بيروت ١٣٨٨.
١٧٠ ـ القاموس المحيط للفيروزآبادي. الحسينية ١٣٣٠.
١٧١ ـ القُصَّاص والمذكِّرون لابن الجوزي. دار المشرق ببيروت ١٩٧١.

١٧٢ ـ القضاء في الإسلام محاضرة لعارف الكَدِي. الترقي بدمشق ١٣٤٠.
١٧٣ ـ قواعد في علوم الحديث للتهانوي. دار القلم ببيروت ١٣٩٢ والرياض ١٤٠٤.
١٧٤ ـ قوت القلوب لأبي طالب المكي. دار صادر. بدون تاريخ.
١٧٥ ـ قيمة الزمن عند العلماء لعبد الفتاح أبو غدة. الطبعة الخامسة بيروت ١٤١٠.
١٧٦ ـ الكامل لابن عدي. دار الفكر بدمشق ١٤٠٤.
١٧٧ ـ الكامل لابن الأثير. مطبعة صادر بيروت ١٣٨٥.
١٧٨ ـ الكشاف للزمخشري. مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٩٢.
١٧٩ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعَجْلُوني. مكتبة القدسي ١٣٥١.
١٨٠ ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي القيرواني. مؤسسة الرسالة ببيروت ١٤٠١.
١٨١ ـ كشف الغُمَّة عن جميع الأمة للشعراني. الكستلية ١٢٨١.
١٨٢ ـ الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد ١٣٥٧.
١٨٣ ـ كليلة ودمنة لابن المقفع. مطبعة الخازندار ١٩٣٤م.
١٨٤ ـ كنز العُمَّال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي. حيدرآباد الدكن ١٣١٢
١٨٥ ـ الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمُنَاوي ١٣٥٧.
١٨٦ ـ لسان العرب لابن منظور. بولاق ١٣٠٠ وطبعة صادر ببيروت دون تاريخ.
١٨٧ ـ اللُّقَط في حكايات الصالحين لابن الجوزي. مخطوط.
١٨٨ ـ المتشابه في القرآن لابن الجوزي دار الأنصار بالقاهرة. الطبعة الأولى ١٣٩٩.
١٨٩ ـ متن الزبد لأحمد بن رسلان الشافعي. ضمن «مجموعة المتون».
١٩٠ ـ مجمع الأمثال للميداني. المطبعة الخيرية ١٣١٠، ومطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٢٨.
١٩١ ـ مَجْمَع بحار الأنوار لطاهر الفَتَّنِي. حيدرآباد الدكن ١٣٨٧.
١٩٢ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين الهيثمي. مكتبة القدسي ١٣٥٢.
١٩٣ ـ مجموع الرسائل الست للكنوي. مطبع ديدبه أحمدي في لكنو بالهند ١٣٠٣.
١٩٤ ـ مجموع الفتاوى لابن تيمية. مطابع الرياض في الرياض ١٣٨١.
١٩٥ ـ مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا...
١٩٦ ـ مدارج السالكين لابن القيم. مطبعة السنَّة المحمدية ١٣٧٥.

١٩٧ ــ مراقي الفلاح للشرنبلالي. بولاق ١٢٦٩.

١٩٨ ــ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي القاري. الميمنية ١٣٠٩.

١٩٩ ــ مسائل الإمام أحمد لأبي داود. دار المعرفة بيروت.

٢٠٠ ــ مسألة حلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين لعبد الفتاح أبو غدة. دار القلم بيروت ١٣٩١.

٢٠١ ــ المستدرك للحاكم. حيدرآباد الدكن بالهند ١٣٣٤.

٢٠٢ ــ مسند أبي يعلى. دار المأمون للتراث بدمشق ١٤٠٤.

٢٠٣ ــ مسند الإمام أحمد بن حنبل. الميمنية ١٣١٣.

٢٠٤ ــ مسند عبد بن حُمَيد. عالم الكتب بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨.

٢٠٥ ــ مسند الدارمي. المطبع النظامي في كانفور بالهند ١٢٩٣.

٢٠٦ ــ مسند الفردوس للديلمي. دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧.

٢٠٧ ــ مُسَوَّدة آل تيمية في أصول الفقه لآل تيمية. مطبعة المدني ١٣٨٤.

٢٠٨ ــ المصباح المضيء في خلافة المستضيء لابن الجوزي. مطبعة الأوقاف ببغداد ١٣٩٦

٢٠٩ ــ المصباح المنير للفيومي. الأميرية ١٣٢٨.

٢١٠ ــ المصنف لعبد الرزاق. المجلس العلمي بجنوب أفريقيا الطبعة الأولى ١٣٩٠

٢١١ ــ المطالب العالية لابن حجر. العصرية في الكويت. ١٣٩٠.

٢١٢ ــ مطالع البدور في منازل السرور للغُزُولي الدمشقي. مطبعة الوطن ١٣٠٠

٢١٣ ــ معالم الإيمان لأبي زيد الدباغ (وابن ناجي) ١٣٨٨.

٢١٤ ــ معجم الأدباء لياقوت الحموي. دار المأمون ١٣٥٥.

٢١٥ ــ معجم السَّفَر للسِّلَفِي. نشر وزارة الثقافة والفنون العراقية ببغداد ١٣٩٨

٢١٦ ــ معرفة أنواع علم الحديث لابن الصلاح. العلمية بحلب ١٣٥٠، وطبعة المكتبي بحلب ١٣٨٦.

٢١٧ ــ المعيار المعرب للونشريشي. دار الغرب الإسلامي بيروت. بدون تاريخ.

٢١٨ ــ المُغْرِب للمُطَرِّزي. مكتبة أسامة بن زيد بحلب ١٣٩٩.

٢١٩ ــ المغني لابن قدامة. دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٣.

٢٢٠ ــ مفتاح السعادة لابن القيم. مكتبة الأزهر. الطبعة الثانية ١٣٥٨.

٢٢١ ــ مقدمة ابن خلدون بولاق ١٢٧٤.

٢٢٢ ـ مقدمة في عقيدة الإمام أحمد لأبي محمد التميمي بآخر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى. مطبعة السنَّة المحمدية دون تاريخ.

٢٢٣ ـ من أدب الإسلام لعبد الفتاح أبو غدة. الطبعة الأولى ١٤١٣.

٢٢٤ ـ مناقب الإمام أبي حنيفة للموفق الخوارزمي. حيدرآباد الدكن ١٣٣٢، وبيروت ١٤٠١.

٢٢٥ ـ مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي. السعادة ١٣٤٩، والمحققة ١٣٩٩.

٢٢٦ ـ مناقب الإمام الشافعي للبيهقي. دار النصر للطباعة ١٣٩١.

٢٢٧ ـ المنتظم لابن الجوزي. حيدرآباد الدكن ١٣٥٧.

٢٢٨ ـ منهاج السنَّة لابن تيمية. بولاق ١٣٢١.

٢٢٩ ـ منهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد للعُلَيمي. مطبعة المدني ١٣٨٣

٢٣٠ ـ المُنْية والأمَل في شرح كتاب المِلَل والنِّحَل لأحمد بن يحيى بن المرتضى اليماني دار المعارف النظامية بحيدرآباد ١٣١٦، وعنه تصوير مكتبة صادر بيروت.

٢٣١ ـ الموافقات للشاطبي. دار المعرفة بيروت بدون تاريخ.

٢٣٢ ـ موطأ للإمام مالك. عيسى البابي الحلبي دون تاريخ.

٢٣٣ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي السعادة ١٣٢٥، وعيسى الحلبي ١٣٨٢.

٢٣٤ ـ نزهة المجالس لابن عبد البر الدار المصرية للتأليف والترجمة بدون تاريخ.

٢٣٥ ـ النكت على كتاب ابن الصلاح لابن حجر (مخطوط)، ثم طبع.

٢٣٦ ـ نوادر الأصول للحكيم الترمذي. إصطنبول ١٢٩٣.

٢٣٧ ـ النهاية لابن الأثير. العثمانية ١٣١١.

٢٣٨ ـ نهج البلاغة للشريف الرضي بإشراف عبد العزيز سيد الأهل. دار الشمالي للطباعة ببيروت ١٣٧٤.

٢٣٩ ـ هدي الساري في مقدمة فتح الباري لابن حجر. المنيرية ١٣٤٧.

٢٤٠ ـ هكذا علمتني الحياة لمصطفى السباعي. دمشق ١٣٨٢.

٢٤١ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم. المنيرية ١٣٤٧.

٢٤٢ ـ وحي القلم للرافعي. دار الكتاب العربي. بيروت دون تاريخ.

٢٤٣ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان. الميمنية ١٣١٠، ودار الثقافة بيروت ١٣٩٨.

٢٤٤ ـ الولاة والقضاة لمصر للكِنْدي طبعة مؤسسة قرطبة بالقاهرة تصويراً عن طبعته الأولى للمستشرق رفن كَست. دون تاريخ.

٧ ـ الموضوعات

صدر عن مكتب المطبوعات الإسلامية
المحققات والمؤلفات التالية للأستاذ عبد الفتاح أبو غدة
رحمه الله تعالى وتقبّل منه

١ ـ الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، للإمام اللكنوي، صدرت الطبعة التاسعة، ١٤٣٥

٢ ـ الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة، في علوم الحديث، للكنوي، الطبعة السادسة.

٣ ـ إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة، للإمام اللكنوي أيضاً، الطبعة الرابعة ١٤٣٥.

٤ ـ رسالة المسترشدين، في الأخلاق والتصوف السني، للإمام الحارث بن أسد المحاسبي، صدرت الطبعة الحادية عشرة مصححة ومنقحة ومدققة ببيروت ١٤٢٦.

٥ ـ التصريح بما تواتر في نزول المسيح، للإمام محمد أنور شاه الكشميري، الطبعة السادسة.

٦ ـ الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، للفقيه المالكي الإمام شهاب الدين أبي العباس القرافي، صدرت الطبعة الرابعة منقحة ومصححة.

٧ ـ فتح باب العناية بشرح كتاب النقاية، في الفقه الحنفي، للإمام علي القاري، الجزء الأول: كتاب الطهارة، صدرت الطبعة الثانية ببيروت ١٤٢٦.

٨ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف، للإمام ابن قيم الجوزية، صدرت الطبعة السادسة.

٩ ـ المصنوع في معرفة الحديث الموضوع، للإمام علي القاري أيضاً، الطبعة السادسة.

١٠ ـ فقه أهل العراق وحديثهم، للإمام المحقق محمد زاهد الكوثري، الطبعة الثانية، وقد صدرت الطبعة الثالثة مضافة إلى مقدمة نصب الراية، الطبعة المحققة.

١١ ـ مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل، بقلم الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، وهو بحث جديد في بابه يهم كل محدّث وناقد، وقد أُدرجت هذه الرسالة ضمن حاشية كتاب قواعد في علوم الحديث، وصدرت طبعتها المستقلة الثانية.

١٢ ـ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للحافظ الخزرجي، خيرُ كتب الرجال المختصرة، بتقدمة واسعة وترجمةٍ لمحشِّيه، للأستاذ أبو غدّة، الطبعة الخامسة.

١٣ ـ صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، للأستاذ أبو غدّة، أول وأجمل كتاب في موضوعه، نفدت الطبعة التاسعة وصدرت الطبعة العاشرة

١٤ ـ قواعد في علوم الحديث، للعلّامة ظفر أحمد العثماني التهانوي، الطبعة العاشرة.

١٥ ـ كلمات في كشف أباطيل وافتراءات، بقلم الأستاذ أبو غدّة أيضاً، الطبعة الثانية، وهي ردٌّ على أباطيل وافتراءات ناصر الألباني وصاحبه سابقاً زهير الشاويش ومؤازِرِيهما.

١٦ ـ قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين، لتاج الدّين السبكي، الطبعة السابعة.

١٧ ـ المتكلمون في الرجال، للحافظ المؤرخ محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الطبعة السابعة.

١٨ ـ ذكرُ من يُعتمدُ قوله في الجرح والتعديل، للحافظ المؤرخ الإمام الذهبي، الطبعة السابعة.

١٩ ـ العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج، للأستاذ أبو غدّة، أوّل مؤلّف في موضوعه، صدرت الطبعة السابعة في بيروت ١٤٣٥.

٢٠ ـ قيمة الزمن عند العلماء، بقلم الأستاذ أبو غدّة، الطبعة الخامسة عشرة ١٤٣٣

٢١ ـ قصيدة «عنوانُ الحِكَم»، لأبي الفتح البُستي، بتعليق الأستاذ أبو غدّة، الطبعة الخامسة.

٢٢ ـ الموقظة في علم مصطلح الحديث، للحافظ الذهبي، صدرت الطبعة الثامنة منقّحة

٢٣ ـ لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث، بقلم الأستاذ عبد الفتّاح أبو غدّة، صدرت الطبعة الرابعة موشّاة ومحشاة ومزيدة جدًّا عن الطبعة الثالثة

٢٤ ـ تراجمُ ستّةٍ من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر، بقلم الأستاذ أبو غدّة.

٢٥ ـ الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، للحافظ ابن عبد البر، يصدر لأول مرة في طبعة محققة مقابلاً على ثلاث نسخ خطية، صدرت الطبعة الثانية.

٢٦ ـ سنن النسائي، اعتنى به ورقّمه ووضع فهارسه الأستاذ أبو غدّة، الطبعة الرابعة

٢٧ ـ الترقيم وعلاماته في اللغة العربية، لأحمد زكي باشا، الطبعة الثانية مزيدة من التعليق ١٤١٥.

٢٨ ـ سباحة الفِكْر في الجهر بالذكر، للإمام اللكنوي، اعتنى به الأستاذ أبو غدّة، الطبعة الثالثة.

٢٩ ـ قفو الأثر في صفو علوم الأثر، لابن الحنبلي الحنفي الحلبي، اعتنى به الأستاذ أبو غدّة. **ومعه:**

٣٠ ـ بُلغة الأريب في مصطلح آثار الحبيب، للحافظ المرتضى الزبيدي، اعتنى به الأستاذ أبو غدّة.

٣١ ـ جواب الحافظ عبد العظيم المنذري عن أسئلة في الجرح والتعديل، اعتنى به الأستاذ أبو غدّة. **ومعه:**

٣٢ ـ أُمراء المؤمنين في الحديث، رسالة لطيفة فيها مباحث هامة، تأليف الأستاذ أبو غدّة، الطبعة الثانية.

٣٣ ـ تحفة الأخيار بإحياء سنة سيد الأبرار صلى الله عليه وسلم، للإمام اللكنوي **ومعها:**

٣٤ ـ نخبة الأنظار على تحفة الأخيار، للإمام محمد عبد الحي اللكنوي أيضاً

٣٥ ـ التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن، للإمام المحقق الشيخ طاهر الجزائري، صدرت الطبعة الخامسة.

٣٦ ـ توجيه النظر إلى أصول الأثر، للإمام طاهر الجزائري أيضاً، حققه الأستاذ أبو غدّة.

٣٧ ـ الإسناد من الدين، رسالة تُبيّن فضل الإسناد وأهميته والعلوم التي يبحث فيها، للأستاذ أبو غدّة. **ومعها:**

٣٨ ـ صفحة مشرقة من تاريخ سماع الحديث عند المحدثين، له أيضاً، الطبعة الثانية ١٤٣٥

٣٩ ـ السنة النبوية وبيان مدلولها الشرعي، والتعريف بحال سنن الدارقطني، للأستاذ أبو غدّة أيضاً.

٤٠ ـ تحقيقُ اسمَي الصحيحين واسمِ جامع الترمذي، للأستاذ عبد الفتاح أبو غدّة أيضاً.

٤١ ـ منهج السلف في السؤال عن العلم وفي تعلم ما يقع وما لم يقع، له أيضاً

٤٢ ـ من أدب الإسلام، رسالة توجيهية سلوكية تتصل بحياة المسلم أوثق اتصال، له أيضاً. صدرت الطبعة الأولى من القطع المعتاد، وصدرت الطبعة السابعة من القطع الصغير.

٤٣ ـ ظفر الأماني في شرح مختصر السيد الشريف الجُرجاني، للكنوي، من أوسع كتب المصطلح. ومعه:

٤٤ ـ أخطاء الدكتور تقيّ الدّين النَّدْوي في تحقيق كتاب ظَفَر الأماني للكنوي، للأستاذ أبو غدّة.

٤٥ ـ تصحيح الكتب وصُنْعُ الفهارس المُعْجمة وسبْقُ المسلمين الإفرنج فيه، للعلاّمة أحمد شاكر. بعناية الأستاذ أبو غدَّة. صدرت الطبعة الثالثة.

٤٦ ـ تحفة النُّسَّاك في فضل السواك، للعلاّمة الفقيه عبد الغني الغُنيمي الميداني الدمشقي.

٤٧ ـ كشف الالتباس عما أورده الإمام البخاري على بعض الناس، للعلاّمة الغُنيمي أيضاً.

٤٨ ـ رسالة ابن أبي زيد القيرواني في العقيدة الإسلامية التي يُنشّأ عليها الصغار، بعناية الأستاذ عبد الفتاح أبو غدّة. صدرت الطبعة الخامسة منقحة

٤٩ ـ التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز، للعلاّمة المحدث الفقيه محمد زاهد الكوثري.

٥٠ ـ كتاب الكسب، للإمام محمد بن الحسن الشيباني بشرح الإمام شمس الأئمة السَّرَخْسي. بعناية الأستاذ أبو غدَّة. صدرت الطبعة الثانية.

٥١ ـ الحث على التجارة والصناعة والعمل، للإمام أبي بكر أحمد بن محمد الخلاّل الحنبلي.

٥٢ ـ رسالة الحلال والحرام وبعض قواعدهما في المعاملات المالية، للشيخ ابن تيمية. الطبعة الثانية.

٥٣ ـ رسالة الألفة بين المسلمين، من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية. ومعها

٥٤ ـ رسالة الإمامة، للإمام ابن حزم، في جواز الاقتداء بالمخالف في الفروع. صدرت الطبعة الثانية مصححة ومنقحة.

٥٥ ـ رسالة الإمام أبي داود السجستاني لأهل مكة في وصف كتابه السنن. ومعها

٥٦ ـ رسالة الحافظ الإمام أبي بكر الحازمي في شروط كتب الأئمة الخمسة. ومعها:

٥٧ ـ رسالة الحافظ محمد بن طاهر المقدسي في شروط كتب الأئمة الستة.
وهذه الرسائل مطبوعة باسم: **ثلاث رسائل في علم مصطلح الحديث** الطبعة الثالثة ١٤٣٥.

٥٨ ـ الرسول المعلّم ﷺ وأساليبه في التعليم، للأستاذ أبو غدّة. صدرت الطبعة الثالثة مصححة ومنقحة.

٥٩ ـ نماذج من رسائل الأئمة السلف وأدبهم العلمي وأخبارهم في أدب الخلاف، له أيضاً. صدرت الطبعة الثانية مصححة ومنقحة.

٦٠ ـ مكانة الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في الحديث. كتابٌ نفيس لمعانيه فريدٌ في بابه. تأليف العلّامة المحدث الناقد الفقيه الشيخ محمد عبد الرشيد النعماني، صدرت الطبعة الخامسة.

٦١ ـ الإمام ابن ماجه وكتابه السنن أوّلُ كتاب جامع في موضوعه، للعلامة النعماني أيضاً.

٦٢ ـ التحفة المرغوبة في أفضلية الدعاء بعد المكتوبة، للعلّامة المحدّث الفقيه محمد هاشم التَّتَّوي السِّندي. صدرت الطبعة الثانية منقحة. **ومعها:**

٦٣ ـ المنح المطلوبة في استحباب رفع اليدين في الدعاء بعد الصلوات المكتوبة، للعلّامة المحدّث الفقيه أحمد بن محمد بن الصديق الغُماري الحسني المغربي صدرت الطبعة الثانية منقحة. **ومعها:**

٦٤ ـ سنة رفع اليدين في الدعاء بعد الصلوات المكتوبة، للعلّامة المحدّث الفقيه السيد محمد الأهدل اليمني. صدرت الطبعة الثانية منقحة.
وهذه الرسائل مطبوعة باسم: **ثلاث رسائل في استحباب الدعاء ورفع اليدين فيه بعد الصلوات المكتوبة.**

٦٥ ـ خطبة الحاجة ليست سنّة في مستهل الكتب والمؤلّفات كما يقول الشيخ الألباني، رسالة مبتكرة محرّرة بقلم الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة.

٦٦ ـ مقدمة التمهيد، لابن عبد البرّ. بعناية الشيخ أبو غدّة. **ومعها:**

٦٧ ـ رسالة في وصل البلاغات الأربعة في الموطأ، لابن الصلاح. **ومعها:**

٦٨ ـ ما لا يسع المحدّث جهله، للميّانشي. بعناية الشيخ أبو غدّة. **ومعها:**

٦٩ ـ التسوية بين حدثنا وأخبرنا، للطحاوي. بعناية الشيخ أبو غدّة. **ومعها:**

٧٠ ـ رسالة في جواز حذف قال في أثناء الإسناد، لابن بَنِّيس الفاسي.
وهذه الرسائل مطبوعة باسم: **خمس رسائل في علوم الحديث**. طبع ١٤٢٣

٧١ ـ لسان الميزان، للحافظ ابن حجر العسقلاني. طبعة محقَّقة ومفهرسة، بعناية الشيخ أبو غدَّة.

٧٢ ـ الأوائل السُّنْبُلية وذيلها، للعلَّامة المحدِّث محمد سعيد سنبل. بعناية الشيخ أبو غدَّة، الطبعة الثانية ١٤٣٥.

٧٣ ـ مبادىء علم الحديث؛ للعلَّامة المحدِّث الفقيه شبِّير أحمد العثماني، وهي «مقدِّمة» كتابه «فتح الملهم بشرح صحيح مسلم». صدرت الطبعة الرابعة وقد تميَّزت بالتحقيق والتعليق وحُسن الإخراج، بعناية الشيخ أبو غدة ١٤٣٢.

٧٤ ـ مختارات الشيخ عبد الفتاح أبو غدة الشعرية، وهو كتاب من نوادر أعمال الشيخ رحمه الله تعالى، قيَّدها في مطالعاته ومراجعاته الدائمة التي ما توقَّفت في عمره المديد المبارك، وهي مختارات ذات أهمية كبيرة وتقدِّم صورة أخرى للشيخ رحمه الله في ذوقه الأدبي. بعناية ولديه: الشيخ زاهد، والشيخ سلمان أبو غدة، ١٤٣٥.

تُطلَبُ كتب الأستاذ عبد الفتَّاح أبو غدَّة من المكتبات التالية:

السعودية ـ الرياض: مكتبة الإمام الشافعي، مكتبة العُبَيْكان، مكتبة الرشد، المكتبة التدمرية، دار أطلس، مكتبات المؤيد، مكتبة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، مكتبة الكوثر. مكة المكرمة: المكتبة الإمدادية، المكتبة المكية، المكتبة الفيصلية، مكتبة الأسدي. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، مكتبة الزمان. جُدَّة: دار الأندلس الخضراء، مكتبة المؤيد، مكتبة الشنقيطي. الطائف: مكتبة الصِّدِّيق. أَبْها: مكتبة الجَنُوب. الإحساء: مكتبة التعاون الثقافي، مكتبة المؤيد. الخبر: مكتبة المجتمع. الدمام: مكتبة المتنبي، دار ابن الجوزي. الثقبة: دار الهجرة. عنيزة: مكتبة الذهبي. بريدة: مكتبة أصداء المجتمع. الكويت ـ الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، مكتبة ابن كثير. الإمارات العربية المتحدة ـ دبي: دار القلم. أبو ظبي: مكتبة الجامعة. الأردن ـ عمان: دار النفائس، دار الرازي. مصر ـ القاهرة: دار السلام، دار الغنَّاء. المغرب ـ الرباط: دار الأمان. الدار البيضاء: دار العلم. العراق ـ بغداد: دار إحياء التراث العربي. لبنان ـ بيروت: دار البشائر الإسلامية. وغيرها من المكتبات.

* * *

رجاء لمن يحب الوفاء

أيها القارىء الكريم! المستفيد من هذا الكتاب العظيم!

هل لك أن تكتب لي عن مشاعرك وتأثرك بعد قراءة هذا الكتاب، وفي أثنائها، ومدى استفادتك منه!

فإن ذلك مما يثلج صدري، ويَشُدُّ من أَزْرِي، ويقوِّي عزيمتي!

* * *

كما أني أهيب بالأحباب الكرام وأهل العلم العظام بأن يتكرموا بأيِّ إفادة أو تصحيح أو توجيه أو نصيحة أو كلمة عن كتب سيدي العلامة الوالد الإمام، أو عنه رحمه الله وطيَّب ثراه وأعلا مقامه في عليين.

والله يحسِن إلى مَنْ أحسن إليَّ وإلى والدَيَّ وأحبابي، ويكرمه في نفسه ووالديه وأحبابه، والله يحب المُحْسِنِين.

محبكم وراجي دعوتكم
الفقير إليه تعالى
سلمان أبو غدة

عنوان المراسلة:
المملكة العربية السعودية ــ جدة ٢١٤١٨ ص. ب: ٣١٨٩٩

في كل سطر من [illegible] كلمة تقرأها، ومقدمات كانت لها أو خاتمة عجيبة بالعبرة، فلذلك نذير لك بالأخطار إلى ما صار إليه، فالمظاهر للعين البصيرة المفتوحة كثيرة، والمذكرات بالعبر لمن الآخرة واضحة، ولكن اليقظة إلى ذلك قليلة، والعمل بمقتضاها أقل، فلابد من الاستعداد قبل حلول الرمس، فالقضاء اليوم كالقضاء الأمس!

إذا رمقت عيناك ما قد كتبته ... وقد غيبتني بين تلك المقابر

فخذ عظة مما رأيت فإنه ... إلى منزلي حتمًا إليه أنت صائر

ورحم الله الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني إذ يقول:

خليليّ ولّى العمر منا ولم نتب ... وننوي فعال الصالحين ولكنا!

فحتى متى نبني قصورًا مشيدة ... وأعمارنا منا تهد وما تبنى!

وكتبه [illegible]

٢٠/ من رمضان المبارك ١٤٠١